رواية

@ketab_n
Follow Me
16.9.2015

حبيب عبد الرب سروري

تقرير الهدهد

دار الآداب

حبيب عبد الرّبّ سروري

تقرير الهدهد

رواية

دار الآداب - بيروت

Twitter: @ketab_n

تقرير الهدهد

Twitter: @ketab_n

تقرير الهدهد

حبيب عبد الرّبّ سروري/ روائي يمني

الطبعة الأولى عام 2012
ISBN 978-9953-89-223-8

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
rana.adab@hotmail.com
Website: www.adabmag.com

Twitter: @ketab_n

لِنبيل سليمان

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عيناه، مثل أشعّة رونتجن، تخترقان الملابسَ، شعرَ البشرة، الجلدَ، الأنسجةَ والعضلات، لِتصلا إلى قعرِ كلٍّ إشكاليّة...

ستيفان زفايج

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

اقترحتُ «للأعلى جدًّا» إرسالَ أبي العلاءِ للأرضِ، لِكتابةِ «تقرير الهدهد»، لِسببٍ يشرحُ نفسَه: اختزلَ أبو العلاء «هكذا تكلّمَ زرادشت»، قبل تسعة قرونٍ من نيتشه، بِبَيتين جذريّين، شديدَي الجوهريّة والنورانيّة، لا مراوغةَ فيهما أو غموض:

ولا تحسبْ مقالَ الرُّسلِ حقًّا ولكنْ قولُ زُورٍ سطَّروهُ

وكانَ الناسُ في عيشٍ رغيدٍ فجاؤوا بالمحالِ فكدَّروهُ

وكثَّفَ، بِنفسِ حدسِهِ العبقريّ الواحدِ الأحد، جوهرَ «أصل الأنواع»، قبل ثمانيةِ قرونٍ ونصف من داروين، بهذه الثلاثة الأبيات ذات البصيرةِ الثاقبة:

١) والذي حارتِ البريّةُ فيهِ حيوانٌ مستحدَثٌ من جمادِ

٢) أرى الحيَّ جنسًا ظلّ يشملُ عالمي بأنواعهِ، لا بوركَ النوعُ والجنسُ!

٣) جائزٌ أن يكونَ آدمُ هذا قبلَهُ آدمٌ على إثرِ آدمِ!

من المذكّرات الشخصيّة لأمينيائيل، مدير مكتب «الأعلى جدًّا».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الباب الأوّل

مقهى الكوكبة، السماء ٧٧،
٣١ كانون الأوّل ٢٠٠٨

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

أبو العلاء ٠٠٧

أمام أهمّ وأكبرِ متاحفِ السماءِ السابعةِ والسبعين يقع أشهرُ مقاهيها!... يُسمِّيهِ أهلُ تلك الديار: «مقهى الكوكبة»!...

السبب: ستّةٌ من أعظم مُبدعي وعباقرةِ كوكبِ الأرض يرتادونه كلّ يوم: داروين، آينشتاين، كارل ماركس، فرويد، بيكاسو، وأبو العلاء المعرّي!...

أخيرُهم هذا (الذي عاش قبلهم بأكثر من ٨٠٠ سنة) وُلِد لسوءِ الحظّ في أمّةٍ غافلة، لم تُدرِّس كتبَهُ في مدارسِها وجامعاتِها، لم تحتفلْ به، لم تُشيّد تماثيلَهُ في أبواب الجامعات، وفي أعلى الهضاب...

لم تلتفِت لِمشروعهِ لحظةً واحدةً على الأقلّ!...

ما أحمقها: لو صعدَتْ على كتفيهِ السامقتين لَرَأتْ أبعدَ وأفضل... لَشاهدَتْ ما وراء السياج، ما وراء الأفق!...

يرتادهُ آخرون أيضًا بين الحين والحين، بينهم أرسطو، نيوتن، جاليلو، نيتشه، ماري كوري، هوميروس، كونفيشيوس، شكسبير،

Twitter: @ketab_n

ديكارت، طاغور، مفكّرو عصر التنوير الفرنسيّون، عمر الخيّام، ڤيكتور هيجو، بيتهوفن، ابن رشد، المهاتما غاندي، فيثاغورس، أراجون، ابن المقفّع، أفلاطون، رامبو، أنديرا غاندي، سلفادور ألّيندي، سن تزو، باتريس لوممبا، أقليدس، سلڤادور دالي، بوشكين، كافكا، موزار، تشي جيفارا، ابن عربي، أرخميدس الإسكندراني، هيجل، كوبكرنيكس، آلان تورنج، هيراكليت، جودل، باخ، بابلو نيرودا، أروين شرودنجِر، ابن سينا، ستيفان زفايج، دانتي، كانت، روزا لوكسمبورج. . . وكثيرٌ من كبار عظماء الأرض الذين يعبرون الزمن باتّجاه الأبديّة!. . .

غير أنّ داروين (مكتشفَ أصل الأنواع)، آينشتاين (مكتشفَ طبيعة الزمن وعلاقة المادّة بالطاقة)، ماركس (مكتشفَ دور المال في حياة البشر، صاحب المادّيّة الديالكتيكيّة و«مهمّة الفلسفة تغيير العالم بدلاً من الاكتفاءِ بتفسيره»)، فرويد (مكتشف خبايا النفس)، بيكاسو (محرّرَ اللوحة من سجن الواقع)، وأبا العلاء (فيلسوفَ الشعراء وشاعر الفلاسفة)، هم أكثرُ من يحجُّ إلى المقهى بانتظام، كلّ عصر! لهم طاولةٌ خاصّةٌ محجوزةٌ بأسمائهم في بلكونتهِ على الدوام!. . .

«ستّة قتلة»، كما يُسمِّيهم سكّان السماء ٧٧: داروين (قاتل الميتافيزيقيا)، آينشتاين (قاتل الزمن المطلق)، ماركس (قاتل نوم الفلاسفة)، فرويد (الذي أطلق النار على القفل الذي يغلق اللاوعي)، أبو العلاء (مفجّر الديناميت في أرضِ اللاعقل والأكاذيب الكبرى)، بيكاسو (مدمّر سجن الواقع في الفنّ التشكيلي)!. . .

يا لَجلالِ مقهًى كهذا ترتادهُ أرهبُ عقولِ البشريّة من فجر التاريخ، زبدةُ الفكرِ والعِلمِ والفنّ، يتحدّثون في كلّ شيء ولا شيء، بتلقائيّةٍ وحيويّةٍ وتفاعلٍ جماعي، بلا عُقَد، بلا ترسيمات، لا يلتزمون لأحدٍ أو

Twitter: @ketab_n

لشيء بعد أن أداروا أظهُرَهم لِكثيبِ الحياة!...

ذات عصرٍ بهيّ، قبل وصولِ أبي العلاء لِيتناول مع بقيّة شُلّةِ الكوكبة كأسًا من أعتق الخمر الشعشعاني ذي الشذا العسجدي، الذي ينسابُ أنهارًا وجداول في كلّ شوارع وشعاب السماء ٧٧، كان أروين شرودنجِر (الذي عاش عاشقًا محمومًا، مهووسًا بالحمّالات) يحكي أسرار تفاصيل عطلة كريسميس عام ١٩٢٥ التي قضاها في فندق تيرول في النمسا، والتي لم يتوقّف بعض المؤرّخين حتى اليوم عن «الهمز واللمز» حول يوميّاتها!...

ما لا يجهلهُ أحدٌ تقريبًا: قضى مجنونُ الحمّالات في الفندقِ أيّامًا غراميّةً ملتهبةً جدًّا، خرجَ منها لِيكتبَ معادلةَ الموجات الشهيرة (إحدى أهمّ معادلات الفيزياء وأكثرِها جوهريّةً وتعقيدًا) بكلِّ تفاضلاتِها ومؤشّراتِها ومتغيّراتِ دالّاتها التي تكشف العلاقةَ بين الطابع المادّي والموجيّ، في ثنائيّتهما المزدوجة، لإلكترونات الذرّة!...

ما لا يعرفهُ إلّا روّاد «مقهى الكوكبة» فقط: تفاصيل يوميّات تلك العطلة التي أوحتْ له بتلك المعادلةِ الرهيبةِ العميقة، وكيف امتلأ قبلها جسدُهُ بالموجاتِ الناعمةِ العميقةِ الرهيبةِ أيضًا، التي استطاعت أن تجعلَ رأسَ سنة ١٩٢٥ عيدًا خالدًا أبديًّا للفيزياءِ الكونتيّة والعِلمِ الحديث، والعشقِ المحمومِ في الوقت نفسه!...

عيد الموجات!...

اختتم شرودنجِر فضفضتَهُ قبل أن يُطلَّ أبو العلاء على المقهى. وصلها الأخير لِيُلاحظَ أنّ الكوكبة ليست أكثر من شُلّةِ مراهقين جرَّتْهم حكاياتُ أروين شرودنجِر لبعض الانزياحات الذكوريّة الطائشة!...

ما إن وصلَ أبو العلاء، حتى رأى على تلفونه اسم أمينيائيل!...

Twitter: @ketab_n

فتح رسالة الإس إم إس التي فاجأتْهُ في الصميم:

«عزيزي أبا العلاء! نحتاجك في مهمَّةٍ عاجلة: السفرُ إلى الدار الفانية، للحياةِ فيها عمرًا جديدًا، ولِكتابة تقريرٍ عن أوضاعها الراهنة، لا سيَّما عمّا يدور في بلاد العرب التي لا يفهم أحدٌ هنا كيف وإلى أين تسير!...

سيكون اسمهُ التقني «تقرير الهدهد»...

ما رأيك؟

لك أفضل الشكر والأمنيات بالتوفيق والسعادة!

أمينيائيل»...

نظر أبو العلاء إلى تلفونه ليتأكّد أنّ تاريخ اليوم (٣١ ديسمبر، كانون الأوّل، ٢٠٠٨) ليس الفاتح من إبريل بتقويم الأرض!... ضحك ساخرًا!...

ثم دوَّتْ قهقهتُهُ وهو يستوعبُ أخيرًا أنّه لم يستلم أقلّ من طلبٍ بالسفر إلى كوكبٍ مات فيه قبل حوالى ألف سنة، يبعد عنه مليارات السنين الضوئيّة، لبدء حياةٍ جديدةٍ هناك!...

أثارتْ جلجلةُ نوبةِ ضحكهِ رفاقَه وهم في اصطخابِ فرفشتِهم التي ألهبتْها قصصُ شرودنجِر!... حاولوا تهدئة أبي العلاء بكلِّ الوسائل، عبثًا!... أقلقهم طولُ نوبتهِ غير الاعتيادي، وتطوُّرها المتصاعد...

لجؤوا للحلِّ القيصري: عضّ فرويد وآينشتاين الأذنَ اليسرى واليمنى لأبي العلاء، عطَف ماركس يدَ أبي العلاء اليُمْنى، شدَّ داروين لحيتَهُ، فيما تنحّى بيكاسو لِيرسمَ المنظر بمتعةٍ هائلة!...

هدأ أبو العلاء أخيرًا، سوّى شعرَه الطويل ورتّبَ لحيتَهُ المدعوكة،

Twitter: @ketab_n

استعادَ هدوءه شيئًا فشيئًا، تمتم: «مداعباتُ أهل السماء تختلف كثيرًا عن مداعبات أهل الأرض!»...

عندما سأله رفاقه في الكوكبة أن يشرحَ عِلّةَ قهقهته المفاجئة، ويُفسّرَ عبارتَهُ التي تسخرُ من مداعبات السماء ٧٧، قرأ لهم إس إم إس أمينيائيل!...

لم يشاركه سخريتَهُ من هذه المهمّة أحدٌ!... بدا على ملامحهم جميعًا تفهّمٌ شديدٌ لهذا المقترح الربّاني الحكيم، وإعجابٌ صامتٌ أيضًا!...

زاد استغرابُهُ وخيبتُهُ عندما عبّروا له عن نوعٍ من الغِيرة «الإيجابيّة»، (على حدّ تعبير فرويد)، لأنّهم يحترقون شوقًا لمعرفة أخبار «القرية» كما يُسمُّونَ كوكبَ الأرض الذي يقضون معظم وقتهم في لوكِ ذكرياتِهِ والتنظيرِ لمستقبلِه في كلّ المجالات، باستثناء ماركس الذي لا يفكّر إلّا بتغييره!...

ترتبطُ تلفونات السماء ٧٧ بالدماغ مباشرة عبر «بلوتوث ٧٧»: ثمّة في كلّ هاتف برنامجٌ يجيد تشفيرَ التيّارات الكهروكيميائيّة في عصبونات الدماغ، وقراءةَ الأفكار والعبارات التي تتكوّن فيها، ثم نقلَها كإس إم إسات إلى الهاتف مباشرة!... يكفي أن يصيغ المرءُ في دماغِهِ عبارةً ما، لِيجدها حالاً مكتوبةً في شاشةِ الهاتف!...

بعث أبو العلاء لأمينيائيل، عبر بلوتوث ٧٧: «هل تسخر منّي عزيزي أمينيائيل؟»...

ـ لماذا تقول ذلك، حبيبي؟، ردّ أمينيائيل بالإس إم إس حالاً!...

ـ أنت أكثر من يعرف أنّي جرجرتُ ثمانين عامًا في «وادي الدموع» أشتاقُ للموت، أنتظر «وصول عزرائيل» بباقةِ وردٍ كبيرة، فتحتُ له

Twitter: @ketab_n

ذراعي بِفارغِ اللهفةِ والصبر! حلمتُ منذ طفولتي في الحقيقة أن أغادرَ «الفانيةَ» دون رجعة، بأسرعِ ما يمكن!... كان الخلاص منها حلمي الأوّل!... ثم تطلب منّي اليوم، بكلِّ برودةٍ وجَدّ، أن أعود إليها لبدءِ حياةٍ جديدة!...

تنفَّس أبو العلاء عميقًا جدًّا، ثم أضاف:

ـ «ذا كلام؟، عزيزي الغالي أمينيائيل!»...

ردّ أمينيائيل سريعًا:

ـ أعرف ذلك، لكنّك لن تعود إليها ضريرًا هذه المرّة! ستكون سعيدًا برؤيةِ ضوئها الذي طالما افتقدته! ستشعر ببهجةٍ لا حدّ لها وأنت ترى الألوان والحياة والبشر!...

ـ لا أفهمك عزيزي أمينيائيل!... أنت أكثر من يعرف أنّي لم أخضع لأحد عندما كنتُ في أرض البوار! دفعتُ حينها ثمن حرّيّتي: انعزلتُ نصف قرن كي أعيش حرًّا في «سجني الثالث»!... لكني متُّ حرًّا أيضًا: لم أمدح سلطانًا أو أتقرّبَ لِحاكم، لم أنافق، ليس عليّ فيها دَينٌ لأحد!...

واليوم تطلب منّي أن أضع حرّيّتي في جيبي، أن أنفِّذَ أمرًا عسكريًّا أو تكليفًا حزبيًّا: كتابة تقرير استقصاء حقائق، أو شيء من هذا القبيل، عن شعوبٍ عربيّةٍ تغرقُ في وحلِ الجهلِ والظلمات، داخل كرةٍ أرضيّةٍ تهرول نحو المجهول!...

عفوًا عزيزي قائد جيش الملائكة: ابحثْ لكَ عن فدائيٍّ آخر! لستُ أبا العلاء ٠٠٧ الذي تحتاجه!...

ـ لعلّي لم أشرح نفسي كما ينبغي حبيبي أبا العلاء: لا نودُّ أن

Twitter: @ketab_n

تكتب تقريرًا حزبيًا، وليس في الأمر تكليفٌ عسكري!... هذه مهمّةٌ أدبيّةٌ بحتةٌ في الأساس! مغامرةٌ أدبيّة لا غير!...

ـ أدبيّة؟ أتسخرُ منّي؟... ردَّ أبو العلاء في إس إم إسٍ مارقٍ وصل أمينيائيل في لَمحة بصر!

ـ نعم، هي أشبه بكتابة «رسالة الغفران» التي سردتَ فيها رحلة ابن القارح إلى الجنّة والنار، وتحاورتَ خلالها عبرهُ مع كوكبةٍ من نجوم الأدب الجاهليّ والإسلامي (والتي حاكاها دانتي بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، واعٍ أو غير واع، عندما كتب «الكوميديا الإلٰهيّة» وهو يصفُ رحلتَهُ إلى الجنّة والجحيم مع الشاعر اللاتيني فيرجيل، الذي رأى خلالها شخصيّات ميثولوجيّة وتاريخيّة شهيرة)! لكنّها رحلةٌ عكسيّة هذه المرّة، من السماء إلى الأرض!...

ألا يناسبك هذا التميزُ الجديد؟...

ـ تريد أن تقول: «من دنيا الخلود إلى المقبرة»، من «عوالم الحرّيّة إلى المستنقع»، من «السناءِ الأبديّ» إلى «أمِّ دفر»؟...

لا، ثم لا!...

لا يناسبني ذلك، عزيزي أمينيائيل!...

تعرف أنّي إنسانٌ حرٌّ، يكتب ما يحبّ! لا تهمّني في الكتابة إلّا المواضيع التي أعشقها: التأمّلُ في الدهر، البحثُ عن أصل الحياة، تفكيكُ أكاذيب الأديان، الاحتفالُ بالعقل وحده لا شريك له، اقتراحُ نموذجٍ أخلاقيٍّ راقٍ للإنسان، نَقْشُ عرجنات الطبيعة الإنسانيّة...

لا تُهِمُّني قبل هذا وذاك إلّا الكلمات: أنا صيّادُ كلمات، نحّاتُ كلمات، بائعُ كلمات، مجنونُ قوافٍ وإيقاعاتٍ جديدة!...

Twitter: @ketab_n

كيف تطلب منّي مع ذلك تقريرًا تجسُّسيًّا عن أوضاع الأرض عامّة، وبلاد العرب خاصّة؟ . . .

ـ اكتبْ ما تحبّ، كيفما تحبّ! . . . تعرف أنّ «الأعلى جدًّا» ينبوعُ الحرّيّة والأنوار! . . . سنقرؤك بطريقتنا، هذا ليس من اختصاصك! . . . يكفي أن تبعثَ يوميّات حياتِك هناك، أن تسردَ آراءك في كلّ شيء ولا شيء، كما تخطر ببالك! وعلينا ما تبقّى! . . . لدينا في السماء السابعة والسبعين دواوينُ ومكاتبُ دراساتٍ وأبحاثٍ وتفسيرٍ متخصِّصةٌ ناجعة! . . .

اعلم عزيزي أبا العلاء: اقترحتُكَ لأنّك مهووسٌ دومًا بالبحث عن الجذر، تتّجِهُ مَطْرَقيًّا نحو العِلّةِ والباطن، نحو سبرِ الأغوار دون مواربة، تستخدمُ بذكاء، في كلّ ما تقول، العقلَ والتساؤلَ والشكَّ والتجريد! لهذا اقترحتُك! . . . يكفي أن تظلّ في حياتك الجديدة أبا العلاء الحرّ، كما أنت دومًا، أن تحيا وتكتب كيفما تريد! . . .

لم يرُدّ أبو العلاء مباشرةً، كعادتِه! شعرَ أمينيائيل أنّ كلماته تفعلُ فعلَها في وجدانِ أبي العلاء. أراد ساعي بريدِ «الأعلى جدًّا» أن «يضرب الحديدَ وهو ساخن»، واصلَ على الإيقاع نفسه:

ـ اعتبرْ عُمرَكَ الثاني هذا «لَحْقَةً» حرّةً على هامشِ الحياة: حياتُكَ الأولى كافيةٌ لعبورك الزمن. قبرُكَ في الأرضِ مفتوحٌ على الأبديّة! . . . التزمتَ في عُمرِكَ الأوّلِ بما لا يلزم، وربّما تقرّر أن لا تلتزم في الثاني بما يلزم، أنت الذي تهوى تجريب كلّ قوافي الشعر وإيقاعاته! . . .

ثم ألا تجد، عزيزي أبا العلاء، في هذه المهمّة بُعْدًا أدبيًّا نادرًا تتحقّقُ فيه رغبتُكَ (بطريقةٍ فنّيّةٍ لم تخطرْ ببالك) في أن يسمّيك الناس: «أبا النزول»، أنت الذي قلتَ:

Twitter: @ketab_n

دُعيتُ «أبا العلاءِ» وذاك مَينٌ   ولكنّ الصحيحَ «أبو النزول»!

أُفضِّلُكَ شخصيًّا في تواضع هذا البيت وخفّة روحِه على شطحاتِ أبيات ريعانِ شبابك التفخيميّة (مثل «وإنّي وإن كنتُ الأخيرَ زمانهُ / لآتٍ بما لا تستطيعُ الأوائلُ»، أو ذلك الذي «افترشتَ فيه الجوزاء بساطًا لك»). . .

قاطعَهُ أبو العلاء (الذي لا يُحبُّ أن يُتَّهمَ بالغرور) باعثًا له هذه العبارة التي قالها نيتشه، على لسانِ زرادشت، بعد تسعِة قرون من أبي العلاء:

«أمّا أنتَ يا زرادشت، فإذا ما كنتَ تريدُ أن ترى علّةَ الأشياءِ وباطنَها، فعليك أن تتسلّق مُرتَقيًا فوق نفسك، قُدُمًا، صعودًا، إلى أن تغدو نجومك ذاتها تحت منزلتِك!».

ـ آه، عفوًا، ربّما لم تكن شطحات، كما قلتُ! (كم تجيدون، معشر الشعراء، إخراج أنفسكم من المآزق!). . . لا يهمّ كلّ ذلك الآن!. . .

إليك الأهمّ عزيزي أبا العلاء: أمام أبي النزول عمرٌ جديدٌ يستطيع أن يحياه كما يهوى!. . .

حكى أبو العلاء لِشُلّةِ الكوكبة حوارَهُ مع أمينيائيل. ثم تنحّى قليلاً، ومكث يفكّر وحدَهُ بصمت!. . .

همس فرويد في أذن بيكاسو: «ما أدهى ساعي بريدِ الأعلى جدًّا وهو يستشهدُ بأبيات أبي العلاء أمامه! يحتفلُ بِخلوده، يُدغدِغُ نرجسيّتهُ وينتقدُهُ بودّ! يُغازِلُهُ بلقب «أبي النزول»، بمدلولِ حَرْفيٍّ جديدٍ فاجأ أبا العلاء!. . .».

Twitter: @ketab_n

همسَ داروين في أذنِ آينشتاين:

«كم يعرف قائدُ جيش الملائكة ومديرُ مكتبِ الأعلى جدًّا نقاطَ ضعف الطبيعة الإنسانيّة، وكم يَبرَعُ في فنِّ المفاوضة!...».

علّق كارل ماركس في آذان رفاقِهِ الأربعة (لم يصغِ أبو العلاء لأحاديثهم):

«ما أبرعَهُ في فنّ العلاقة الديالكتيكيّة بين الاستراتيجيّة والتكتيك!... كم يُجيدُ الوصول، خطوةً خطوة، إلى تحقيق هدفه بانتهازيّة وذكاء! لا يألو جهدًا لذلك في مداعبةِ مُحاورِه، في أن يشتريه بلُعْبَةِ الكلماتِ كما يهوى، في أن يستولي على وجدانه!...».

ثم دخل أبو العلاء في حوارٍ طويلٍ مع رفاقِ الكوكبة الذين شجّعوه على تنفيذِ هذه المهمّة الاستثنائيّة جدًّا، «المثيرة» كما قال آينشتاين، «الممتعة» كما قال بيكاسو، التي «تحتاج إلى استعدادٍ بسيكولوجيٍّ خاصّ» كما قال الدكتور فرويد بنظراتٍ تُجسِّمُ قلقَها عدساتُ نظّارتهِ الدائريّةِ السوداء...

ينتظرون جميعًا نتائجَها بفارغ الصبر، كما قالوا معًا!...

طلب كلٌّ واحدٍ منهم من أبي العلاء أن يعود له بإجاباتٍ على أسئلةٍ محدّدة، وبأشياءَ خاصّةٍ كثيرة!...

«احمل لي عند عودتك من هناك عيّنات من الأنواع البيولوجيّة الجديدة، وقائمةً من الفراشات التي كُنتُ أهوى جمعَها في فجر شبابي!»، طلبَ داروين...

«احمل لي آخر أبحاث توحيد النظريّة النسبيّة بالميكانيكا الكونتيّة، وَكُلّ سيدي رومات فيفالدي»، قال آينشتاين!...

Twitter: @ketab_n

طلب فرويد قائمةً طويلةً من الأشياء الصغيرة، لا سيّما أنواعًا من السيجار الذي يحبُّه، وتماثيلَ أركيولوجيّة قديمة كَتِلكَ التي كان يهوى تجميعها في الأرض!...

أمّا بابلو بيكاسو فقد طلب منه صورًا كثيرة لبعض مقاهيهِ المفضّلة، الشوارع التي عاش فيها في باريس، القصرَ الذي اختتم به حياتَه أسفل جبل سانت ڤيكتوار بفرنسا، وصورًا لِبعضِ اللوحات الانطباعيّة لِسيزان، عن جبل سانت ڤيكتوار، اقتناها هواةٌ روس في بداية القرن العشرين ولم يرها بيكاسو حتى اللحظة!...

ماركس، الذي يسمّي أبا العلاء: «الرفيق أحمد»، ويعتبر أنّ أفضل ما قاله هو:

تشابهتِ الخلائقُ والبرايا وإن مازتْهمُ صورٌ رَكِسْنَهْ

و«جَرْمٌ» في الحقيقةِ مثل «جَمْرٍ» ولكنَّ الحروفَ بِهِ عُكِسْنَهْ

غِنى زيدٍ يكونُ لِفقرِ عَمْرو وأحكامُ الحوادثِ لا يُقسْنَهْ

وهذا البيت أيضًا (الذي لو كان يعرفهُ في حياتِهِ الأرضيّةِ الأولى لاقترحَهُ شعارًا لمؤتمرِ الأمّميّةِ الأولى):

لو كان لي أو لغيري قيدُ أنملةٍ فوق التراب لكان الأمرُ مشتركا!

قال له: «ابعث لي من هناك أخبارًا تفصيليّةً عاجلةً عن تطوّرات أوضاعِ الرأسماليّة وأزماتها، عن استراتيجيّات وبرامج قوى الشغّيلة في مطلع الألفيّة الثالثة، عن تقارير المؤتمرات الأخيرة لكلّ الأحزاب الشيوعيّة والعمّاليّة والتقدّميّة في العالم!»...

ردّ أبو العلاء عليهم جميعًا: اللعنة! قلتُ لكم قبل قليل: «لن أذهب!... لن أذهب!»...

Twitter: @ketab_n

ثم أرسل لأمينائيل ردَّهُ النهائي:

«ردّي القاطع لمقترحكم، عزيزي أمينائيل: لا!

لاءٌ مربّعةٌ صريحةٌ لا تقبلُ التفاوض!...

أرجوكم قبولَ عُذري، وعدمَ إزعاجي مجدّدًا بمثلِ هذه الدعوة!...».

ليس أمينائيل من النوع الذي ينهزم بسهولة!...

يمتلك دومًا أوراقًا رابحةً خفيّة!...

Twitter: @ketab_n

الباب الثاني

أبو العلاء وهند يلعبان الشطرنجَ في جهنّم بِقِطَعٍ من جَمْر!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٢

هند وأبو العلاء في مباراةِ شطرنج

في حنايا إحدى تلميذاتهِ أودعَ الشاعرُ الضريرُ الذي قِيلَ إنّه قال:

هذا جناهُ أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد

جنينًا صغيرًا في غاية الحسنِ والعذوبة، اسمهُ: نُور، جدّتي الثانية والثلاثين (عطّرَ اللهُ ثراها، وأسكنَها قصرًا يُطِلُّ على أسنى حدائقِ جنّاتِه!)...

كانت هِنْدُ أذكى وأجملَ تلاميذ «فيلسوفِ الشعراء وشاعرِ الفلاسفة» أحمد بن عبد الله بن سليمان التنّوخي، المُكنّى بأبي العلاء المعرّي، وأكثرهم جدلاً وخلافًا معه. أكثرهم عشقًا له بالتأكيد، وأقربهم إلى قلبِ أمّه!...

قبل توجُّهِها لمجلسهِ الدراسي تبدأُ هِنْدُ دومًا بتقبيلِ يدِ أمِّ أبي العلاء ورُكبتِها، تودِّعُها بقُبلةٍ على جبينها قبل المغادرة. تأتي لزيارتِها بين الحين والحين، لمساعدتِها في الشؤون اليوميّة الصغيرة، لتبادلِ البوحِ معها، ولما تيسّرَ من الشجونِ والثرثرة...

Twitter: @ketab_n

كانت هِنْدُ تجيدُ انتقاءَ اللحظةِ المناسبة، وهي بصحبةِ أمِّ أبي العلاء، لِتتحدّى أستاذَها خوضَ مباراة شطرنج!...

اشتهر الشاعرُ الضرير بأنّه «لا ينهزم في الشطرنج من بصير»، و«لا يوجد ضريرٌ في عصر العبّاسيّين يلعبُ الشطرنج عداه»!... يترنَّحُ أمامه الجميعُ بسرعةٍ غير طبيعيّة، ينكسرون بسهولةٍ مقرفةٍ (تناسبُ مزاجَهُ تمامًا)!...

تحبُّ هِنْدُ طقوسَ معركتِها مع أبي العلاء على رقعة الشطرنج. تجدُ لذّةً عنيفةً وهي تراهُ يرصُّ قطعَ الشطرنج الافتراضي على طاولة دماغه، يراقب ذهنيًّا حركات وسكنات بيادق وضبّاط جيشَيْه فردًا فردًا!...

تعرف أنّه لا يستطيعُ تمثُّلَ هيئةِ قطعِ الشطرنج، مثلما لا يستطيعُ تمثُّلَ كلِّ الأشياءِ والألوان تقريبًا: أصابهُ مرضٌ في صباه، وهو في نهاية الثالثة من العمر، وأطاح بنظره. لم يبق في دماغِهِ من ذاكرةِ الأشياء إلّا اللونُ الأحمر: لونُ قميصِهِ الزعفرانيّ الذي كان يلبسه أثناء مرضه، قبل أن يغرق في بحر الظلمات!...

يستبدلُ كلَّ قطعةِ شطرنج في دماغه بِكَلمة، يستبدلُ كلَّ مربّعٍ على رقعة الشطرنج بِكَلمة! المباراةُ قصيدةٌ ديناميكيّةٌ مُربّعة، تتحرّكُ كلماتُها على أرضٍ من الكلمات، تتقاتلُ وتتساقطُ في ليل الكلمات!... ربّما لذلك يجدُ سهولةً خاصّة، تثيرُ إعجابَ معارفه، بِتذكُّرِ «نصّ» كلِّ نقلاتِ مبارياته مع هِنْدَ أو مع غيرها (بعد أيّامٍ من المباراة!) نقلةً نقلة، بيتًا بيتًا!...

الأشياءُ، كلُّ الأشياءِ، تتماهى في فضاءِ دماغِهِ مع الكلمات. لا توجدُ فيهِ إلّا ككلمات. كلماتٌ بعضُها فوق بعض، تتناثرُ، تضيءُ وتتغامزُ كنجوم!...

لا يختلفُ في ليلِ دِماغِهِ «الدُّجى» عن «الصبح»، «الشمسُ» عن

Twitter: @ketab_n

«السّها»، «الشهبُ» عن «الحصا»، إلّا اختلافَ أحرفها... ومع ذلك لا يفوتُهُ تضادُّ هذه الثنائيّات، هو الذي يقول:

فوا عجبًا كم يَدَّعي الفضلَ ناقصٌ وﻭا أسفًا كم يُظهِر النقصَ فاضلُ!
وقال السّها للشمسِ: «أنتِ ضئيلةٌ!» وقال الدُّجى للصبحِ: «لونكَ حائل!»
وطاولتِ الأرضُ السماءَ سفاهةً وجاوزتِ الشهبُ الحصى والجنادلُ
فيا موتُ زُرْ إنّ الحياةَ ذميمةٌ ويا نفسُ جِدّي إنّ دهرَكِ هازلُ!

فيما انقلبَتْ هذه الثنائيّات رأسًا على عقِب في أعينِ المُبصِرين الذين شوَّشهم أو أعماهم بريقُ الواقعِ والتماعاته، وغشّاهم سرابُه وأضاليلُ فخاخِه!...

لا شيء في الوجود يستحوذُ عليهِ مثل الكلمة! وأهمُّ كلمةٍ بالنسبة له كلمةُ: «كلمة»!... تليها كلمة: «كابوس»، التي تعني في قاموسهِ بكلِّ بساطة: «أمّ دفر» (أمّ النتانة)، أي: «الدنيا»، وادي الدموع!...

أمّا أجملُ كلمةٍ في ناظريه فهي قطعًا: «نور»!...

* * *

تُحدِّقُ هِنْدُ بتأمّلٍ عميق في لِحيتِهِ الكثّة الملساء، في قامتِهِ النحيفةِ السامقة، في شَعرِهِ الفضّي السلِسِ الطويلِ المنفوش (الذي لم يره، بسبب العمامة، أحدٌ عدا أمّه وهند، وكاتبَهُ بين الحين والحين)، في جبينِهِ المضيء، وفي جمالِ قسماتِهِ المفعَمَةِ بِسمُوٍّ وكياسةٍ وفطنةٍ ونُبلٍ يتناسبُ ومقامه!...

عيناهُ صامتتان تمامًا، يطمسهُما إلى الأبد حزنٌ رماديٌّ لا يتزحزح، وظلالُ مرضٍ غادرٍ سحيق!... يعلمُ الله كم تشتاقُ هِنْدُ دومًا لتقبيلهما!...

Twitter: @ketab_n

تعتقدُ أحيانًا أنّه يلزمُ أن تُقبِّلَهما دون توقّف، برقّةٍ شديدةٍ، سنةً كاملة، ليعودَ إليهما النظر، كما فعلَ قميصُ يوسف عندما رُمِيَ على عيني أبيهِ يعقوب «فارتدّ بصيرًا»!... (يشاركُها الاعتقادَ نفسه وإن تمنّى أن يلتصقَ قميصُ قبلاتها بِعينيهِ زمنًا أطولَ بكثير!)...

تُحدِّقُ به، تُحدِّقُ حدّ الذوبان! تجيد الإصغاء لِصمتِه. تلتقطُ، تقرأُ، تُفسِّرُ كلَّ نبراته. تشربُ كلّ عباراته، وتدوخُ عند أيّ مزحةٍ ساخرةٍ لطيفةٍ، أو تعليقٍ رقيقٍ يفوحُ منه...

تعشَقُهُ بالجملةِ والتفاصيل!...

يقول لها وهو ينظر باتّجاهها كما لو كان يراها:

ـ فضلاً دعي، لو سمحتِ، الفارسَ الأسود ينتقلُ من موضعهِ في ثالثِ أعمدةِ الخطّ الرابعِ ليقفَ خلف القلعةِ البيضاء، «خلفَها تمامًا»!...

تفلتُ منها أنّةُ ضحكةٍ بريئة، خجولةٍ وصغيرةٍ جدًّا، وهي تسمعه يقول «خلفها تمامًا»!...

تتساءل، وهو «ينظر» باتّجاهها: كيفَ يراها؟ كيف تروق له؟ أهي أيضًا بالنسبة له كلماتٌ لا غير، «قلعةٌ بيضاء» يُسقِطُ قلبَها ألف مرّةٍ كلّ يوم، لا يجدُ سعادتَه إلّا عندما تختفي في أحضانه. عندما تمسُّ أطرافُ أصابِعِهِ خصرَها الرشيق الذي يُفَجِّرُ كلَّ رغباته. عندما تُقبِّلُ شفتاهُ كلَّ تماوجات عمودِها الفقري، فقرةً فقرة. عندما تهيمُ في كلِّ قامتِها الهيفاء بِبطءٍ ونعومةٍ وتقديس. عندما يشربُ أنفاسَها، عندما يكون أمامها تمامًا، فوقها تمامًا، تحتها تمامًا، داخلها تمامًا، خلفها تمامًا؟...

تعرف هِنْدُ، مثل والدتِه، كم يحبُّ الجمال، وكم لن تطيب له في الحياة إلّا أحضان جميلة!... تُدركُ أنّه يعرفُ تمامًا أنّها جميلة

Twitter: @ketab_n

جدًّا!... لكن ماذا تعني كلمة «جميلة» لِضرير؟... ماذا تعني، بحقِّ السماء، هذه الكلمة؟... أيُحِبُّ أن تكون فتاتُهُ شديدةَ الجَمال، فاتنةً جدًّا، لمجرّدِ اشتهاءِ ما يشتهي الآخرون، دون أن يدرك ما تعني تلك الكلمة؟...

طالما رسمَتْ له أمُّهُ هِنْدَ بالألوان (تعرفُ حساسيَتهُ لأسماء الألوان، وفرطَ حزنِهِ لِعدم تذكُّرِ لونٍ آخر غير الأحمر):

ـ هِنْدُ قمريّةُ البشرة، سوداءُ الضفائر، حمراءُ الشفتين، عسليّةُ العينين، ذات أسنانٍ ناصعةِ البياض، منتظمةٍ جدًّا!...

ـ صِفي لي، أمّاهُ، لونَ العسل؟، يقاطعها...

يُهِمُّهُ لونُ العينين والأسنان كثيرًا! يفتقدُ رؤيةَ الألوان والنورِ (منبعِ الألوان) أكثر ما يفتقدُ في هذه الحياة!... طعنَتْهُ الحياةُ في الظهر عندما حرمتهُ من النور! يشعر أن لا أحد في الوجود يعرفُ مثله قيمة هذه الكلمة: «نور»!...

يشعرُ بنوعٍ من القهر عندما يراها تُلفَظُ بابتذال في أحاديث عابرة. ناهيك عندما يسمعُ «نورٌ على نور» تُردَّدُ بسطحيّة، هو الذي يُدركُ بِعمقٍ ما تعني «ظلماتٌ بعضُها فوق بعض»!...

كم سأل أمّهُ في طفولتهِ كثيرًا عن أصناف الألوان وتنوّعِها!... إجابتها لا تُفارقُ وجدانَه لحظةً واحدة، يُسمِّيها «سورة الألوان»:

ـ الألوانُ تكسو الكونَ يا ولدي، تمنحهُ جمالَه! لو كان للكونِ لونٌ واحد لكان قاحلاً حزينًا جدًّا، بِلونِ الموت!...

لِلورودِ والأزهارِ ألوانها. لِفقّاعةِ الماء، لِعُنقِ الببّغاء، لِريشِ الطاووس، لِلحيّةِ المُرقّطة ألوانها!...

Twitter: @ketab_n

لِجناحِ الفراشة، لِلسمَك، لِشُعَبِ المرجان، للقشريّات الملتمعة، لِمساحيقِ الخضاب، لِلأفق عند الغروب، لِقوسِ قزح ألوانُها الخاصّة!...

ها هي أمُّهُ، بعد ربعِ قرنٍ تقريبًا من «سورة الألوان»، تضيفُ لها آيات جديدةً اسمها هند، تنقشُها بألوان ساحرةٍ متألّقة، تحفرُها في مركزِ دماغه وهي تقول:

ـ هِنْدُ قمريّةُ البشرة، سوداءُ الضفائر، حمراءُ الشفتين، عسليّةُ العينين، ذات أسنانٍ ناصعةِ البياض، منتظمةٍ جدًّا!...

آه، كم تعرفُ أمُّهُ كيف تشعلُ بالألوان أحاسيسَه ورغباته، كيف تشتريه بها!...

* * *

«هِنْدُ ذات جَمالٍ جهنّميّ!»، قالت لأبي العلاء ذات يوم أمُّهُ التي تعرف كم يسخرُ من جَمال حوريّات الجنّة، كما سرَّبهُ بذكاءٍ في «رسالة الغفران»، لا سيّما عندما صوَّر، في فصل «شجر الحور»، شهوةَ أحد ساكني الجنّة (ابن القارح) وهو يفاوض الباري عزّ وجل، بين سجدتين، على حجم مؤخّرةِ الحوريّة!... يتوسّلهُ أوّلاً أن يُكبّرَ دبرَها الضاوي قليلاً عندما رآها هزيلةَ الدّبر. ثم يعود لِيدعوهُ من جديد، بعد أن كبر دبرُها أكثر من اللازم، أن يُصغِّرَهُ «سنتمترًا سنتمترًا» حتى يصِلَ للحجمِ الذي يروق لِمزاجِهِ ومُناه!:

((ويمرُّ ملَكٌ من الملائكة فيقول ابن القارح: يا عبد الله! أخبرني عن الحور العين، أليس في الكتاب الكريم: «إنّا أنشأناهنّ إنشاءً، فجعلناهنّ أبكارًا، عُرُبًا أترابًا، لأصحاب اليمين» فيقول الملَك: هنّ على ضربين: ضرْبٌ خلقهُ الله في الجنّة لم يعرف غيرها، وضرْبٌ نقلهُ الله من الدار العاجلة لـمّا عمل الأعمال الصالحة.

Twitter: @ketab_n

فيقول، وقد هكِرَ عجبًا ممّا سمع: فأين اللواتي لم يكنّ في الدار الفانية؟ وكيف يتميّزن عن غيرهنّ؟ فيقول الملَك: اقفُ أثري لترى البديءَ من قدرة الله. فيتبعه، فيجيء به إلى حدائق لا يعرف كنهَها إلا الله، فيقول الملَك: خذ ثمرةً من هذا الثمر فاكسرها فإن هذا الشجر يعرف بشجر الحور!

فيأخذ سفرجلةً أو رمّانةً أو تفّاحةً أو ما شاءَ الله من الثمار، فيكسرها، فتخرج منها جاريةٌ حوراء عيناء تبرق لحُسنِها حوريّات الجنان، فتقول: من أنت يا عبد الله؟ فيقول: أنا فلان بن فلان. فتقول: إنّي أُمنى بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة ألف سنة!...

فعند ذلك يسجدُ إعظامًا لله القدير ويقول: هذا كما جاء في الحديث: أعدَدتُ لعبادي المؤمنين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمِعتْ!...

ويخطر في نفسه، وهو ساجدٌ، أنّ تلك الجاريةَ على حسنها ضاويةٌ، فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردفٌ يضاهي كثبان عالج (رمالٌ على الطريق إلى مكّة) فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير، ويقول: يا رازق المشرقة سناها، ومبلغ السائلة مناها، والذي فعل ما أعجز وهال، أسألك أن تقصّر بوص هذه الحوريّة على ميلٍ في ميل، فيقال له: أنت مخيّرٌ في تكوين هذه الجارية كما تشاء. فيقتصر ذلك على الإرادة!...)).

تهمس له أمُّهُ كلَّ مساء:

- حان موعد زواجك يا بنيّ، وقد تجاوزتَ الثلاثين! لا توجد في هذه الدنيا فتاتان مثل هند! هِنْدُ واحدةٌ إحدى!... ثم هي تُحبُّكَ وتُريدك!...

يتسارعُ شهيقُهُ وزفيرُه، تغيبُ «نظراته» في العدَم عند سماع أمِّهِ تحثُّهُ على الزواج!... يرفض ذلك تمامًا خوفًا من الإنجاب! لا تروقُ لهُ فكرةُ الزواج إطلاقًا: لا ينسجمُ وفلسفتَهُ هذا التقليدُ الثقيلُ الذي فرضتْهُ العادات والتقاليد، وخضّبتْهُ الأديان بطقوسٍ وسلاسل ثقيلة!...

Twitter: @ketab_n

أبو العلاء يحبُّ العشقَ الهوائي، الحُرّ، المجّاني، الذي ينتهي بالضرورة بأصدق وأقدس ارتباط: توحّدٌ طوعيٌّ يتجدّدُ تعاقدُهُ بِحُرّيّةٍ وقناعةٍ يومًا بعد يوم، بتشبُّثٍ وولعٍ حقيقيٍّ أكبر فأكبر!...

حبُّ «الإنسان الأعلى»؟ حبُّ القرن الواحد والعشرين؟ الواحد والثلاثين؟ الواخد والتسعين؟...

ثم هو يدركُ أنّه سيكون عبئًا على من تتزوّجه، في كلِّ لحظة. يلزمها أن تكون عكّازَهُ الثاني!... يرفضُ أن يتوكّأ على أحد: لا يريد أن يكون أكثر من نسمةٍ رقيقةٍ لمن تحبُّه!... يقبل أن يكون الكونُ عبئًا عليه خلال حياةٍ تدوم أربعة وثمانين عامًا، لكن لا يقبل أن يكون، هو، عبئًا على أحدٍ ثانيةً واحدة!...

* * *

تحتدمُ المباراة، تزدادُ رغباتُ هِنْدَ عنفًا بمن تُحدِّقُ به دون كلل، بِصاحبِ هذه الكلمات الذي قال في أوجِ شبابِه (دون الشعور بِوَجَعٍ في كُوعِ الرِّجل، دون عُقَد!):

وإنّي وإن كنتُ الأخير زمانُهُ   لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ!

لكنّها تطيلُ المباراة مع ذلك! تستفزُّ ذاكرتَهُ وبصيرتَهُ الأسطوريّتين، تُنهكُ بدهاء دماغَه العبقري الذي يظلّ متوتّرًا طوال المباراة. تُجبرُهُ في كلِّ مرّة على البحث عن استراتيجيّةِ نصرٍ جديدة يَستنفدُ بها أقصى طاقاته الذهنيّة...

لا تشعرُ بِنَوعٍ من الراحة إلّا عندما ترى صدغَهُ يتّكئ على كفِّهِ اليمنى: تقبضُ سبّابتُهُ وإبهامُه على خصلةٍ في أطرافِ شَعرِهِ الفضّي المنسابِ على عنقِه، تعبثان وتلعبانِ بها بحركةٍ لولبيّةٍ لا تتوقّف!...

الحيوانُ في أوجِ تفكيره!

Twitter: @ketab_n

يعتورُهُ قلَقٌ حلزونيٌّ ما؟

نوعٌ أنيقٌ من النرفزة؟...

يشعر فجأة أنّ ثورًا يستيقظُ في أعماقه، يريدُ أن يفترسَ هذه اللبوة الصغيرة التي تعرف كيف ترهقهُ أبدًا، كيف تجعلهُ يُعطي أعظمَ ما لديه، كيف تعتصرُ كلَّ ملكاتِهِ وتشعلُ طاقاته الدفينة!... كيف تجعلهُ ينتظر، رغم أنّها تحترقُ شوقًا مثله لأن تحومَ أطرافُ أصابعها كظبيٍ في بستان صدرِهِ وغابةِ لِحيَتِه. تموتُ رغبةً في أن تكون جوزاءَهُ، هو الذي قال أيضًا (وهو في معمعان شبابِهِ وهيجان خيلائه):

أفوق البدرِ يوضعُ لي مهادٌ أم الجوزاءُ تحت يدي وسادُ؟

Twitter: @ketab_n

٣

«الأعلى جدًّا» يُحيّي أمجادَ الكربون والجرانيت

ذات ليلةٍ قارسةِ الكآبة من شتاء عام ٢٠٠٨ (بعد ألف عامٍ من ميلاد نور ابنة أبي العلاء المعرّي) اجتاحَ «الأعلى جدًّا»، وهو في عرشهِ في السماءِ السابعةِ والسبعين، حنينٌ مفاجئ لِمعرفةِ أخبارِ كونِهِ السحيق.

نسيهُ تمامًا منذ أن خلقَهُ قبل ١٣ مليار و٧٠٠ مليون سنة!...

بدأ كلُّ شيءٍ آنذاك، في لحظةٍ لا تماثلها لحظة، عندما انتزع من كينونتهِ اللانهائيّةِ السامية جُسَيمًا لانهائيَّ الصغر (حجمُ حبّةِ الرمل بالنسبة له أكبرُ من حجم الكرةِ الأرضيّةِ بالنسبةِ لحبّةِ الرمل، وإن كانت كثافتُهُ تساوي كثافةَ هذا الكونِ الشاسعِ من أقصاه إلى أقصاه)، وقال له: «انفجر!» فانفجر!...

تشكّلَ بعد هذا «الانفجار الكونيّ الكبير» (البيج بونج) الزمانُ والمكان، أو الزمكان، أي: هذا الكونُ الشاسعُ الذي ينتفخُ كبالونةٍ وهو يعبرُ الزمن!...

غادر الأعلى جدًّا المشهدَ بعد ذلك. انسحبَ بكلِّ سموِّهِ وجلالِهِ

Twitter: @ketab_n

من هذه الأزِقّةِ الصغيرة. تركَ كونَهُ الرضيعَ (بِكلِّ مليارات مجرّاتِه التي تحوي كلُّ مجرّةٍ منها عشرات آلاف ملياراتِ النجومِ والكواكبِ والأجرام المتنوّعة) يخوضُ حياتَهُ وحيدًا، يسرحُ ويمرح، ينسجُ يوميّاته على سجيّته، تحكمهُ قوانينُ الضرورةِ والصّدفة، لا سلطةَ عليه غير سلطةِ فيزياءِ السببِ والنتيجة!...

انشغل الأعلى جدًّا بخلقِ ملياراتِ الملياراتِ من أكوان أخرى لا يراها أحدٌ ولا يمتلك أدنى فكرةٍ عن طبيعتها، عن نوعيّةِ وعدَدِ أبعادِها (إن كان وعاؤها المكان والزمان، هي الأخرى)، وعن قوانين نشوئها وتطوّرها...

لا يستطيع، في كلّ الأحوال، حتى تمثُّلَها أو إدراكَها، لأنّ دماغَ الإنسانِ مقنّنٌ بالزمكان، معجونٌ به، لا يستطيع رؤيةَ أو فهمَ ما يتنافرُ جِينيًّا مع بُنيَتِه!...

ثم ذات يوم، في لحظةِ شجنٍ واسترخاءٍ لذيذَين، أراد الأعلى جدًّا أن يجوبَ بِنظرهِ مليارات أكوانه!...

لم يلفت نظرَ الأعظم جدًّا شيءٌ يستحقُّ العجبَ والإطراءَ في كلِّ أكوانه الزاخرة!... لم يتوقّف إلّا برهةً صغيرة عند كونٍ (مغمورٍ كَحبّةِ رملٍ في صحراءِ أكوانه) رأى فيه مجرّةً ضائعةً اسمها «درب اللبّانة»، صغيرةً نسبيًّا: تحتوي على مائةِ مليارِ شمسٍ فقط، يختفي في ثنايا إحدى مجموعاتها الشمسيّة كوكبٌ ضئيلٌ استحوذَ على انتباهِه قليلاً!...

أثارهُ قليلاً هذا الكوكبُ المسكين (الذي تشكّل قبل خمسة مليارات سنةٍ تقريبًا فقط، أي بعد حوالى تسعة مليارات سنةٍ من البيج بونج) لسببٍ يشرحُ نفسه:

تفجّرَتْ في أعطافِهِ ظاهرةٌ نادرةٌ جدًّا اسمها: الحياة (أغنى كلمةٍ في

Twitter: @ketab_n

أيّ قاموس) بعد تشكّلِهِ بمليار عام: طرأتْ فيه تشابكاتُ ظروفٍ كيميائيّةٍ وبيئيّةٍ فريدةٍ، يعرفُ العِلمُ اليوم كُلَّ معادلاتِها، انبثقتْ جرّاءها الموادُّ العضويّة (طوباتُ الخلايا الحيّة) من الموادّ الأوّليّةِ غير العضويّة الموجودة حينذاك: كربون، هيدروجين، ميثان. . .

حيّا الأقدسُ جدًّا بحرارة أمجادَ الكربونِ والجرانيت!. . .

أمتعَتِ الأعظمَ جدًّا قوانينُ الضرورةِ والصدفةِ وهي تكتب ملحمةَ هذه الظاهرة العبقريّة المفاجئة!. . . لم يتوقّع، رغم لانهائيّةِ بصرِهِ وبصيرتِهِ، أنّ أكوانَهُ الجرداء التي اندلعت من انفجاراته الكونيّة سيُمكنُها أن تقودَ يومًا إلى هذه المعجزة التي لا تماثلها في الحقيقةِ معجزة!. . .

تجلّى أمامه كلُّ شيء وهو يشاهدُ السيرةَ الذاتيّةَ للحياة على الأرض: رآها تفترشُ وتكتسي رويدًا رويدًا بالورودِ والغاباتِ والمروج. شُعَبٌ مرجانيّةٌ وحيواناتٌ بَحْريّةٌ تأسرُ العين. صقورٌ وفراشاتٌ تبهتُ النظر!. . .

جذبتْهُ أكثر فأكثر أوديسةُ الحياة بكلِّ تفاصيلها الصغيرة!. . .

تمتمَ الأعلى جدًّا شيئًا ما يُشبِهُ: «لا بأسَ، لا بأس!. . .».

ثم أضاف بدون غلوٍّ أو حماسٍ متوهّجٍ، بدون جذلٍ وابتهاجٍ عامر: «بوووووووف!. . . نتيجةٌ متوسّطة بشكلٍ عام!. . . لا ضرر ولا مضرّة!. . .».

قبل أن يُردّد بإعجابٍ نصف فاتر: «حسنًا، حسنًا!. . . لا بأس، لا بأس!. . . جيّدٌ، جيّد، في آخر التحليل!. . .».

Twitter: @ketab_n

٤

الشاعرُ الذي يجيدُ الإصغاءَ لِنموِّ الأعشاب!

ينتصر أبو العلاء في نهاية كلّ مباراة بصعوبةٍ أكبر، وإن كانت تلميذته هي «المنتصرة» في آخر المطاف!...

هِنْدُ (التي لم يهزمها في الشطرنج إلّا أستاذُها الضرير، والتي تستحقُّ لِوحدِها روايةً منفصلَةً خاصّةً بها) لا تقبل الهزيمة إلّا منه فقط! تستلِذُّ بها في الحقيقة: يكفيها أنّها الوحيدة التي تنهكهُ أثناء لعبة الشطرنج أيّما إنهاك! مثلما تنهكُهُ في نقاشات المجالس الدراسيّة بسبب تعصُّبِها لأفكار المعتزلة، في حين بَلْوَرَ أبو العلاء «نظريّةً» للعقل أكثر تقدّمًا ونقاءً وعقلانيّةً ممّن سبقه أو لحق خلال عدّة قرون!...

لِنهاياتِ مبارياتهما تقليدٌ غريب، لا يعرف أسرارَه إلّا الخصمان العاشقان، وربّما ثالثهما: أمّ أبي العلاء التي تتابعُ المباراة ثانيةً ثانية، قبل أن تتركهما في غمرةِ احتدامِها، معتذرةً بأنّ عليها أداء بعض الصلوات في الحجرة المجاورة!...

في نفاقٍ دينيٍّ جميلٍ وتواطؤٍ إنسانيٍّ مهذّب، تغادرُ أمّ أبي العلاء

Twitter: @ketab_n

لأداء ركعات سُنَنٍ قَبْليّةٍ وبَعْديّةٍ لصلواتٍ افتراضيّة طويلة، تكرِّرها دون توقّف، تسجدُ أثناءها بإسهاب، تتلو خلالها بِتَرَف لفيفًا لا ينتهي من آياتِ سورةِ البقرةِ وآل عمران. . .

تليها سلسلةُ صلوات الضحى والوتْر للأيّام الماضية، التي تعيدُ تكرارها قضاءً، بكلِّ طولِها البلاستيكيِّ المفتوح، عشرات المرّات، وكأنّها لم تؤدِّها في وقتها المحدّد! . . .

يليها حشدٌ من ركعاتٍ أخرى، بلا عنوان، تُهدي ثوابَها لِحسابِ كلِّ أقربائها وأحبّائها، وأمّة محمّد أجمعين. . . لكنّها تهدي ثوابَ معظمِها لابنِها الذي تجاوزَ الثلاثين من العُمر، ولِتلميذتِهِ الصغيرة التي تقترب من الثامنة عشرة، وهما يستعدّان لتلاوةِ ما تيسّرَ من شهقاتِهما الصغيرة، في خلوتهما الحميميّة في الغرفة المجاورة، بعد أن أعلنت هند استسلامها في المباراة، قبل أن تلوحَ بوادرُ الهزيمة حقًّا بكثير! . . .

يستغربُ أبو العلاء من استسلام هند في النقلةِ الحاديةِ والثلاثين. لم تكن هزيمتُها أكيدةً قطّ! . . . يُسعِدُهُ مع ذلك بالتأكيد (رغم يقينِهِ بِخَلَلٍ ما في نتيجة المباراة، وعدمِ رضاهِ الصامت بانتصاره)، لأنّه كان سيضطرُّ للاستسلام قبلَها هذه المرّة من فرط شوقِهِ لها! . . .

* * *

تشربُ لُعابَهُ ومناجاته. . . تغمضُ عينيها لِتراهُ كما يراها! . . .

تنهمرُ مناجاتُهُ أكثر فأكثر، دون توقّف، تُحاصِرُها من كلِّ مكان. . .

تُصغي له بقدسيّة! . . . كلماتهُ نظراتٌ تُفجّرُ رغباتِها، جمرٌ يُشعِلُها حدّ اللهيب! . . .

يتغزّلُ بها كأنّه يراها! . . .

Twitter: @ketab_n

تثقُ هِنْدُ أنّه يراها أفضل من بصير! (يُهمُّهُ ذلك جدًّا!... لا يشعرُ في الحقيقةِ بالاستقرارِ النفسيّ قبل أن يُلاحظَ أنّها متأكّدةٌ أنّهُ يراها!)...

يشعرُ أخيرًا أنّها كما يهوى وأكثر من ذلك، محمومةٌ حقًّا، في أوج رغبتِها. تتفاعلُ معهُ بشدّةٍ وبمبادراتٍ شخصيّةٍ تُفاجِئهُ، تسيلُ لذّةً حقيقيّةً دافقةً بين أصابعِه! ذلك ما يبحثُ عنه أوّلاً لأنّ عقدتَهُ السوداءَ هي أن يَضْمُرَ حضورُها بين أحضانِه لِمجرّدِ أن تتذكّرَ في لحظةٍ ما أنّها في حضنِ ضرير!...

يكتنفهُ أَلَمٌ خفيٌّ لا يبوحُ به، لأنّهُ لا يشتاقُ لِرؤيةِ الضوءِ إلّا لكي يراها بِعينيهِ في هذه اللحظةِ بالذات، عندما تغادرُها أوّلُ الأنّاتِ التلقائيّةِ الرقيقة!...

ثم يهربُ من كلّ حنين: يغرقُ في ألوانِها التي وصفتْها أمُّه، يعانقُ قوسَ قزح. يشربُ رضابَها، صوتَها الساحر، يشربُها، يتنفّسُها!...

تضيءُ كلُّ نهاراتِهِ ولياليه!...

تسحرهُ رائحتُها، تُجنّنُ به. تعلّمَ كيف يرى هِنْدَهُ (بكلِّ أصغرِ تفاصيل قسماتِها) في تلك الرائحة!...

تعرفُ حبيبتُهُ كم يهوى بإدمان نسغَ مساماتِها، كم تُثيره!

أيقنَتْ من فرطِ إيمانِهِ بِدِينِ رائحَتِها (يُسمِّيها «عطرَ العطر»، «عرَقَ الآلهة». كم تعشقُ هِنْدُ هذه التسمية!) أنّ لها رائحةً خاصّةً عبِقةً بالفطرة، بِفطرةِ كيمياء البيولوجيا الجينيّة!...

يستعيدُ بَصرَهُ كاملاً عندما يستنشِقُها وهي تتلوّى في أحضانِه الآن، عاريةً أسِيلة!...

Twitter: @ketab_n

يراها فعلاً. عواصفُ قُبَل، توحُّدٌ كثيفٌ، طويلٌ جدًّا، محاصَرٌ بالحذَر، يتخلّلُ سجدات السُّنَنِ القَبْليّةِ والبَعْديَّةِ التي تنهمرُ هي الأخرى في الحُجرةِ المجاورة!...

يُجيدُ الإصغاءَ لِشهقاتِها الصغيرة، هو الذي يجيدُ الإصغاءَ لِنُموِّ الأعشاب.

شهقاتُها فضاء. الفضاءُ شهقات...

لم يعد يُميّزُ بين المبتدأِ والخبر، ملكُ النحوِ والصرفِ والكلمات. بين الوصفِ والموصوف، بين الصِّلةِ والموصول، بين العائدِ والضمير، بينها وبينه، بينه وبينه!...

يُغمِضُ عينيهِ وقت اللذّة! (أيحتاجُ لِذلكَ من طمَسَ القدَرُ بصرَه؟)، يغمضُهما لِيراها أفضل!...

يتذبذبُ فجأةً بِصمت، منفعلاً كوحْشٍ مقيّدٍ بِسلاسل: اللعنة، لا يكفيهِ الإصغاءُ لِشهقاتِها الصغيرة!...

يريدُ أن يرى حبيبتَهُ الآن، أثناء رفرفةِ هذه الشهقات وتسارعِ وتيرتِها!... هذه الشهقات التي يعبدُها عبادة. يعرفُ كم تنبثِقُ بِتلقائيّةٍ وصدقٍ من قعرِ أحاسيسها ومراكز غُدَدِها!...

يريدُ أن يراها أثناءَ اتّساعِ سُمكِ هذه الشهقات (أذناهُ مملوءتانِ باللاقطاتِ الإلكترونيّة، بالرّاداراتِ الصوتيّةِ والترمومترات الحسِّيّةِ الدقيقة)، أثناءَ تماوجِ بلاستيكيّةِ تلك الشهقات (أبو العلاء متخصّصٌ في قوانينِ فيزياءِ الشهقة، خياشيمُهُ وألياقه العصبيّةُ مفعمةٌ بِبارومتراتٍ زئبقُها شديدُ الحساسيّة)، أثناءَ انزياحاتِ تلك الشهقاتِ وانسيابِ أجملِ كلماتِ العشقِ في أعطافِها!...

Twitter: @ketab_n

يا لَلظلم، أين رحمة السماء؟ لا يكفيه الإصغاء فقط!. . .

حتى وإن كانت أذناه مُدجّجتين بالحواسّ السادسة والسابعة والثامنة!. . .

حتى وإن كانت «عبقريّتهُ في فَتْحَتَي أنفه»، مثلما قال أحدُهم!. . .

يدركُ الشاعرُ المطعون في الظهر بأسًى أنّه يستطيعُ أن يتخيّلَ كلّ شيءٍ في الوجودِ ببصيرتهِ الثاقبة، إلّا قسمات وجهِ حبيبتهِ في هذه اللحظات المترنِّحةِ بالذات!. . .

يحاولُ مع ذلك أن يستشفَّ (داخل منطقةِ تقاطعِ رائحتِها مع صوتِها) شدّةَ بريقِ عينيها الثاقبتين، المفتوحتين بِنَهم، المسلَّطتينِ على قسماتِ حبيبها كَبُؤرٍ ضوئيّة!. . .

يلعنُ بصمتٍ مكبوت، وهو يتخبّطُ معها في لُجِّ اللذّة، مرَضًا مجرِمًا أطاح ببصرِهِ وهو في نعومةِ طفولتِه، وعينَيْن مصلوبَتين تخونانه في أقدس اللحظات!. . .

تنسابُ قرب صدغِهِ همساتٌ رقيقةٌ خافتة:

ـ ألا ترغبُ في أن يكونَ لنا طفلٌ ذات يوم؟. . .

يداعب خدّيها بأطراف أصابعه. يكتنفه حزنٌ ميتافيزيقيٌّ أصمّ، صمتٌ قارص!. . . تدركُ تمامًا أنّها جرحَتهُ دون قصد!. . . تعتذرُ منه بطريقتها!. . . تعتذرُ منه بمهنيّةٍ وعشقٍ صادقٍ وعطاءٍ وضراوةَ!. . .

ينسى الحذرَ والحذرَ من الحذر. يسترجعُ «سورة الألوان». بها يبدأ صلواته من جديد!. . .

Twitter: @ketab_n

٥

رقصٌ في عِلّيّين

تفجّرتْ جميعُ الأكوان غبطةً وحبورًا (وهي ترى نظرَة الأعلى جدًّا التي منّها بها تتوسَّدُها بِوداعةٍ إلٰهيّةٍ لا نظير لها، خلال لمحةِ بصرٍ طفيفةٍ عابِرة):

تماوجَ طرَبٌ راقصٌ في كلِّ الموجات الكهرومغناطيسيّة: هبطَتْ أو علَتْ إلكترونات كلِّ ذرّاتِ الكون من مداراتها النوويّة إلى مدارات أقلَّ أو أكثرَ طاقة، لِتنسابَ جرّاء ذلك الهبوطِ أو الصعود موجاتٌ ضوئيّةٌ ذات ألوانٍ غير أليفة، مدهشةٍ جدًّا:

صار الكونُ في لمعةِ برق مهرجانَ ألوان جديدة: الأفقُ مذهلُ الزرقة، الشمسُ بنفسجيّةٌ ناعمةٌ تنسلُّ منها أضواءٌ برتقاليّةٌ دافئة. الصحراءُ لازورديّةٌ تخلبُ اللبّ. لِلسماءِ بياضٌ خالصٌ كَقلبِ الأقدسِ جدًّا. احمرَّتْ بعضُ سفوحِ جبال الثلوج وتوشَّحتْ قمَمُها ببريقٍ ذهبيٍّ نقيٍّ لامع.

تفتّحتْ عوراتُ الورودِ على مصراعيها، وتفجَّرتْ في الأعشاب

Twitter: @ketab_n

والأشجار روائح شذيّةٌ دافقةٌ مسكرة، وألوانٌ قوسُ قزَحِيّةٍ ساحرة!...
انبعثَتْ سيمفونيّاتُ فرحٍ من كلّ أجرامِ المجرّاتِ، دندَنتْ فيها السهولُ والبحار، وزغردَت الهضابُ والجبال!...

توقّفَتْ كلُّ العصافير في الجوِّ مبهوتةً من جلالِ نظرةِ الأعلى جدًّا للكون، ثم تناثرَتْ في تشكيلاتٍ فنّيّةٍ متداخلة تلعبُ رقصات باليْه فريدةً في مسرح الفضاء!...

لم تجذب تلك الاحتفالات الكرنفاليّة انتباهَ الأعلى جدًّا... لم تستحوذ عليه، بدهشةٍ حقيقيّةٍ غمرتِ الكونَ بروقًا وأقواسَ قزح، إلّا لحظةٌ مفصليّةٌ من سِفْرِ تكوينِ أحدِ حيوانات شجرةِ الكائنات الحيّة، امتلكَ إثرَها دماغَ نصفِ إله، يعلو الجسدَ كتاج!...

راقب الأعلى جدًّا ما حدث بِتمعُّنٍ ملحوظ: تطوّرَ دماغُ هذا الحيوان، خلال ملايين من السنين، في ظروفٍ بيئيّةٍ وتاريخيّةٍ خاصّة (عندما كان يحيا في عالمهِ الأفريقي، مهدِ البشريّة) أدّتْ لأن يصلَ دماغُه، قبل حوالى خمسين ألف سنة من الآن، إلى هيئتهِ الحاليّةِ الراقيةِ جدًّا...

دوّى الأعلى جدًّا: «واااااو!» وهو يخترق بنظرتهِ في لمحةِ بصر جمجمةَ ذلك الحيوان!...

تعرّتْ لِلأقدسِ جدًّا كلُّ أسرارِ آلاف ملياراتِ عصبوناتِ الدماغ التي يتفاعلُ كلٌّ منها مع عشرةِ ألف عصبونٍ في الوقت نفسه: «منظومةُ منظوماتٍ» عصبونيّة لا يمتلكُ ثراءَ تفاعلاتِها وتعدُّدَ عوالمِها حيوانٌ آخر (قارّاتُ عصبونات اللغة، محيطاتُ ذاكرةٍ متراميةِ الأطراف، غاباتُ أنسكلوبيدياتٍ ذهنيّة متخصّصة في كلّ النشاطات والمجالات الحيويّة والاجتماعيّة...).

Twitter: @ketab_n

قرّر هذا الحيوانُ بعد ذلك أن يتكبَّرَ ويتعالى عن حيوانيّته، ويُطلقَ على نفسِه اسْمًا أرستقراطيًّا متغطرسًا جدًّا: إنسان!. . .

سمحت تلك الجمجمة له في الحقيقة أن يستوعبَ العلاقات التي تحكمُ زمكانه (منذ أن أجلاها آينشتاين قبل حوالى قرن)، أن يُدرِكَ أصلَ الأنواعِ البيولوجيّة وآلِيّة تطوُّرِها (منذ أن فصّلَها داروين قبل ١٥٠ عامًا، وأجلى قوانين نموِّ «شجرةِ أنواعِها»)، وأن يبتكرَ الكتابةَ، البوصلة، رقمَ الصفر، الأهرام، الإلياذة، ألفَ ليلةٍ وليلة، الكمبيوتر، السيمفونيّةَ الخامسة لبيتهوفن، إنترنت، اللزوميّات، لوحةَ جارنيكا، تلسكوب هوبل، تنويعات جولدبيرج ليوهان ساباستيان باخ، «هكذا تكلَّمَ زرادشت!»، تاجَ مَحَلّ، وبيتَ أبي العلاء المعرّي:

والذي حارتِ البريّةُ فيهِ حيوانٌ مستحدَثٌ من جمادِ

Twitter: @ketab_n

٦

نور، ٣١ كانون الأوّل ١٠٠٨ م

ـ أستشتاقُ لي إن غبتُ يومًا عنك؟ سألتْهُ هند. . .

ـ لا أعرف كيف أشتاقُ إليك!. . .

ـ ماذا؟

ـ أيشتاقُ الإنسانُ لِرئتيه، لِدماغه؟. . .

(«أتشتاق الخليّة لِنواتها؟»، كان سيقولُ حتمًا أبو العلاء لو كان مفهومُ الخليّةِ الحيّةِ ونواتُها معروفين حينذاك!).

أحسَّ أنّها ستغيبُ عنهُ بالفعلِ، لسببٍ هامّ. لم يحبّ تكديرها بطلبِ الإفصاح عنه. . . داهمهُ قلقٌ مباغت!. . . لاحظتْ ذلك، سَألتْهُ:

ـ ما الذي يقلقك إذن إذا كنت لن تشتاق لي يومًا ما؟

ـ يقلقني أنّي لن أعود قادرًا على التفكير والخيال والشّعر! لأنّي لا أفكّر إلّا لأُثير إعجابك! لا أتخيّل إلّا لأجلك! لا أقول الشّعرَ إلّا لِتسمعيه!. . .

Twitter: @ketab_n

ـ لكنّي سأعود!...

ـ كرّري ما قلتِ من جديد!، ردّ الشاعر الأعمى الذي أراد سماع هذه الجملة مرّتين، مليون مرّة!...

ـ سأعود حبيبي!... سأقرأُ (بعيدةً كنتُ أو قريبةً عنك) كلَّ ما تقوله، سأحتفظ في ذاكرتي بكلّ فكرةٍ أو بنتِ خيال راودَتْك وستراودك!...

ثم هامسته في أذنه: «اعتبرْ، فؤادي، كلَّ ما تجودُ وستجودُ به قريحتُك وعقلُك غذاءً لِروحي!... لا تعرفُ كم أحتاجُ لهذا الغذاء، أعشقهُ عشقًا، فأكرمني به فَدَيْتُكَ بعمري!»...

قبل أن تضيف:

ـ أريد أن أكرّر من جديد عبارةً أخرى، لِنُسَمِّ هذا الحديث بعد ذلك «حديثَ التكرارين»!...

ـ ما هي؟

ـ اعتبرْ، فؤادي، كلَّ ما تجودُ وستجودُ به قريحتُك وعقلُك غذاءً لِروحي!... لا تعرفُ كم أحتاجُ لهذا الغذاء، أعشقهُ عشقًا، فأكرمني به فَدَيْتُكَ بعمري!...

بكى أبو العلاء بحرارة، اختلطت دموعها بدموعه بعد «حديث التكرارين»!... راودهُ شعورٌ غامضٌ أنّ آلهةً ما اتّخذت في تلك اللحظة بالذات قرارًا أعوج!...

أعوج؟... ربّما!...
لكنّهُ ضريبةٌ طبيعيّة لِقرارٍ سليم،
سليمٍ جدًّا،

Twitter: @ketab_n

قرارٍ مقدَّسٍ اندلعَ قبيل أسابيعَ قليلة من صُلبهِ وترائبِ معشوقته، بين سجدتين صغيرتين كان يتلو بينهما ما تيسَّرَ من «سورة الألوان»!...

* * *

بين ركعَتين صغيرتين لأمّ أبي العلاء، تسلّلتْ خارج السرب إحدى الشظايا المباركة لِفيلسوفِ الشعراء وشاعر الفلاسفة، تبرعَمَتْ إثرها جدّتي الثانية والثلاثون، نور!...

أماطَتْ أُمّي، في صباحِ عيدِ ميلادي الرابع عشر في حَلَب، خبايا ولادةِ نور، وكأنّها تكشفُ لي أهمَّ سرٍّ في الكون: فرشتْ أمامي مخطوطةً رماديّةً ملفوفةً طويلة (لها رائحةٌ خانقةٌ قادرةٌ على تفتيتِ أعتى زكام: مزيجٌ عويصٌ من النفتالين ورائحة الأكفان!) تحافظُ عليها كبؤرةِ عينها، نُقِشتْ عليها، بحبرٍ باهتٍ وأسطرٍ أفقيّةٍ وعموديّةٍ ومائلةٍ متضاربة، تفاصيل شجرةِ سلالةِ عائلتنا!...

أمامَ اسم نور وجدتُ، على حاشيةٍ داخل حاشية، هذا التاريخ: ٣١ كانون الأوّل ١٠٠٨ م.

أمامَ اسم أبيها (جذرِ الشجرة، بجانب هند) وجدتُ هذه الكلمات: «٢٧ كانون الأوّل ٩٧٣ م، قبيل غروب الشمس، وُلِد أبو العلاء!»...

لم أر في ذلك أمرًا ذا أهمّيّةٍ تستحقُّ كتمانًا وطقوسًا باطنيّة تُتوارَثُ من جِيلٍ لِجيل!... كانت تشغلني قضيّةٌ أساسيّةٌ جوهريّةٌ أكبر بكثير: هل سيكونُ بين هدايا عيد ميلادي «أكورديونٌ» صغير؟...

لم أردّ، لم أعلّق!... لم أسأل أمّي كيف عرفَتْ تفاصيلَ مبارياتِ شطرنجِ أبي العلاء وهند، وقصّةَ ولادةِ نور، وكيف اكتشفَتْ دقائق سِيرتها الذاتيّة التي تستطيع حكايتها، كما يبدو، بإسهابٍ مثير!...

Twitter: @ketab_n

عاهدتُها (بِهزّةِ رأسٍ مُبْهمةٍ وابتسامةٍ داكنة، وانزعاجٍ صامت) أن لا أبوحَ بالسرِّ لأحد، كما طلبَتْ، إلّا لأبنائي فقط!...

أخفيتُ ضيقي من كلِّ ذلك وشعوري بالانحشار في مواضيع تتجاوزني (لعلّهُ لا يحِقُّ للآباءِ أن ينتزعوا وعودًا من أطفالِهم، مهما كان نبلُها أو أهمِّيّتُها!).

لكنّني لم أستطع كبحَ جماح نخوةٍ نرجسيّةٍ عابرة، وفخرٍ فضفاضٍ في الانتماءِ لِسُلالةِ أبي العلاء... وقليلٍ من البهجةِ الماكرة!...

لاحظتُ سعادةً كثيفةً في بريقِ عينَي أمّي حينها!... ثم صمتٌ غامضٌ طويل!...

خانت أمّي بعد ذلك هذه الكلماتُ التي لا تليقُ بِعيدِ ميلادِ صبيٍّ تُوفّي والدهُ قبل أشهر: «بعد وفاتي لن يبقى في شجرةِ سلالةِ أبي العلاء الضاوية غصنٌ آخر عداك، حبيبي»!...

عبارةٌ ثقيلةٌ على كُوْعِي هي الأخرى، أفرجَتْ بها أمّي، دون شكّ، عن وزرٍ يؤرّقُها غيرِ خفيف...

لمحتْ اضطرابي حال سماع «بعد وفاتي»! شعرَتْ بامتعاضي من هذه الآفاقِ السوداء والعهودِ الخانقة، فيما كنتُ أحلمُ حينها، بكلِّ بساطة، بـ «الأكورديون» الصغير!...

احتضَنَتني كعادتها بكلِّ حبٍّ وتلقائيّة. قبّلتْني بِلُطف، هنّأتْني بِعيدِ ميلادي، ودَعَتْ الله عزَّ وجل أن يرزقَني ذُرّيّةً نجيبة، ويُجيرَنا جميعًا من كلِّ شرٍّ أو مكروه!... دعوتُه، وأنا أغرقُ في أحضانِها، أن يرزقني الأكورديون!...

ثم سحبَتْني لِتُريني ما تبقّى من مخطوطاتٍ ملفوفةٍ أو مُجلّدةٍ تحتفظُ

Twitter: @ketab_n

بها بعنايةٍ خاصّة، في صندوقٍ صغيرٍ مُحْكَم الإغلاق في دولابها الخاصّ، وعدَتْني أن تترك مفاتيحه لي يومًا أمانةً في عنقي!... قالت:

ـ أهمُّ ما فيه رسائل كتبَتْها هند، ونصوصٌ طويلة كتبَتْها نور!...

ـ أمّاه، سأقرأُ ذلك عندما أكبر!...

ـ ألا يُهمُّكَ ذلك؟

ـ سيُهمُّني، عندما أكبرُ أمّاه!...

(يُهمّني حاليًّا الأكورديون الصغير!)...

سألتُ أمّي ذات يوم:

ـ سرٌّ عبثيّ هذا الذي نتوارثُ الإصرارَ على عدمِ البوحِ به!... لماذا كتمانُه؟ وكأنَّ أبا العلاء عيبٌ على أحفادِهِ وخلَفِه!...

ردّتْ بهدوءٍ وكلماتٍ حذرةٍ خافتة ورثَتْها من أبويها:

ـ قرّةَ عيني: سيضرُّ ذلك الخَبرُ بِسُمعةِ أبي العلاء! سيحوِّلُ بيتَ شِعرِهِ الذي يُردِّدهُ القاصي والداني: «هذا جناهُ أبي عليّ...» إلى مهزلة، حتى وإن لم يكن يعرفُ، رحمه الله، أنّ هِنْدَ أنجبَتْ منه طفلاً!...

لم تُعبِّرْ أمّي بالطبع، بشكلٍ صريح، عن إحساسِها المتوارثِ، أبًا عن جدّ وأمًّا عن جدّة، بأنّ الحكم الدينيّ: «الزاني والزانية وأبناؤهما (وسلالتُهما ربّما؟) حَطبُ جهنّم، وبئس المصير!» لن يترك انطباعاتٍ حسنة عن مآل جذرِ سلالتنا في الآخرة، وربّما عن مصيرِ كلِّ شجرة العائلة!...

هاأنذا اليوم، أنا، نبيل بدر سليمان التنّوخي الذي لا يُجيد كتمان سرّ، أخُونُ عهدي لأمّي، وأفشي السرَّ الذي ظلّ مكتومًا ألف عام!...

رفضتِ الحياةُ (التي حرمَتني من أبي منذ طفولتي، وأنا في الرابعة

Twitter: @ketab_n

عشرة، بِسنِّ أبي العلاء عندما تُوفّي والِدُه) أن تمنحني طفلاً (أحكي له سرًّا صغيرًا، يعاهدني بكتمانه!) يَخرجُ من ترائب معشوقتي لمياء التي تغادرني هي الأخرى على حين غرّة من شقّتِنا الباريسيّة في الحيّ الخامس عشر، لا أدري إلى أين، في فجر أوّل يومٍ من عام ٢٠١٠!...

كلّ شيءٍ في حياتي ينتهي في هذا الفجر الخائن، وكلّ شيءٍ في هذه الرواية يبدأ من ذلك الفجرِ الخائن!...

ثم لماذا يلزمني إخفاءُ هذا السرّ؟

ألم يكن أبو العلاء ألدَّ أعداء الكذبِ والزيفِ والنفاق، باستثناء نفاقِ صلوات ما قبل انتهاء مباريات الشطرنج الذي مارس شعائرَهُ بِقدسيّة وإدمان، مع بقيّة الثالوث الحميم: أمِّهِ الحبيبة، ومعشوقتهِ الأبديّة!...

ثم من قال إنّ ذلك البيت مكتوبٌ على قبره؟ لم أره شخصيًّا عليه في معرَّةِ النعمان التي أضحتْ هي الأخرى قبرًا لِقبر!...

أشكُّ شخصيًّا أنّ أبا العلاء (الذي يَعتبرُ أنّ الإنسان «ابن أنثى»، كما يقول في قصائده) هو من قال هذا البيت الذكوريّ المتطرِّف!... إذا كان هو صاحبَهُ فما كان لِيقولَ إلّا: «هذا جَنَتهُ أُمّي عليّ!» الذي قالها، بالحرفِ الواحدِ بعده بحوالى ثمانية قرون، العاشقُ المتسكّعُ المبدعُ شاتوبريان!...

* * *

أمّي، نوال التنّوخي، أستاذةٌ متقاعدةٌ درَّستِ الأدبَ العربي في جامعة اللاذقيّة. تعرفُ تفاصيل يوميّات أبي العلاء في المعرّة بدقّةٍ مثيرة، تتحدّث عنها بِشغفٍ دائم.

سألتُها ذات يوم:

Twitter: @ketab_n

ـ حدّثيني قليلاً عن هِند!

(أسعدَها سؤالي غير الأليف!. . . لامتْني دومًا على عدم اهتمامي بالصندوق السرّيّ الذي تحتفظ فيه بكلّ وثائق سلالتنا، وعلى تأجيلِ رغبتي، من عامٍ لعام، في الإصغاء لِكلّ ما تعرفهُ عن تاريخ عائلتنا، والدخولِ معها بنقاشٍ شغوفٍ حول كلّ تفاصيلها الخفيّة). . .

أجابتْ بخطابٍ شبهِ أيديولوجي، ثقيلٍ على ابنِها الصغير!. . . خطابِ أستاذةٍ في جامعة، لها انتماءاتُها الفكريّةُ «العروبيّة» (تحبُّ أمّي هذه الكلمة التي أوشكتِ اليوم على الاختفاء!)، وآراؤها الاجتماعيّة الخاصّة التي لا تتردّدُ في إشهارِها بفخر!. . .

ليس في ردِّها الفضفاض، في كلّ الأحوال، شيءٌ ممّا أردتُ معرفتهُ عن هند!:

((كانت هِنْدُ أكثرَ تلاميذ خصمِها الحميم، وأكثرَ مُعاصريه أيضًا، إدراكًا بأنّه إنسانٌ لا يتكرّر، وأعمقهم إيمانًا بأنّ مجد أمّته لن يتأتّى إلّا يوم دراستها الجادّة لأفكاره، واستلهامها في بناء مشروعِ حضارةٍ سامقة، رسمَ لها أبو العلاء، أفضل ممّا رسمه أيُّ إنسانٍ آخر، معالمَ مجتمع «لا إمامَ سوى العقل»، وأُسُسَ علاقتهِ الراقيةِ مع الكونِ والحياة، مع الأسئلةِ الوجوديّةِ المفتوحة، مع المجهولِ والسرّ، مع الدِّينِ والغيبِ والآلهة، هو الذي قال:

يَرْتَجي الناسُ أن يقومَ إمامٌ ناطقٌ في الكتيبةِ الخرساءِ
كذب الظنُّ لا إمام سوى العقلِ مشيرًا في صبحهِ والمساءِ

صاغ لها أيضًا مشروعًا أخلاقيًا للحياةِ الخاصّةِ والعامّة، حضاريًا وطليعيًا جدًّا، يسمو بها لِأعلى قِممِ النبلِ والفضيلة!. . .

لم تكن هِنْدُ تعرف حينها بالتأكيد أنّ أمّةَ أبي العلاء ستكون اليوم

Twitter: @ketab_n

(بعد عدَّةِ قرونٍ من رحيل حبيبها) أحوج، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، لاستلهام روحهِ النقديّةِ المتينةِ وصرامةِ منهجهِ العقلي، في نهايةِ هذه الألفيّة الثانية التي لم يخرج العقلُ العربي فيها من غيبوبةٍ تعبرُ القرون.

أو لعلّهُ (يا لَأُمِّ الكوارث!) وصل الآن (من يدري؟) إلى مقبرَةِ «النقطةِ الثابتة»: تمكّنَ بنجاحٍ منقطعِ النظير من خَلْقِ شروطِ وظروفِ تأبيدِ غيبوبتهِ وإعادةِ إنتاجِها على الدوام!...)).

تسترسلُ أمّي، بدونِ فرامل، خطابَها اليائسَ الساخطَ الذي كان يُرهقني في صِغَري، وإن صرتُ، بعد أن كبرتُ، أكرِّرُ فحواه بلا وعي، مضيفًا لهُ أحيانًا قليلاً من الضجيج:

((كانت هِنْدُ تتأرجحُ في حياتِها بين التشاؤمِ المطلق، والتفاؤلِ المتواضعِ الحكيم!...

لعلّها، لو عاشت اليوم، كانت ستشعرُ (وهي متشائمة) أنّ أبا العلاء قال للعرب «ما يكفي من الرعودِ لتتعلّمَ القبورُ الإصغاء»، لكنّهم لسوءِ الحظِّ أكثرُ صممًا من القبور!...

وربّما كانت ستشعرُ (وهي متفائلة) أنّ لأبي العلاء موعدًا قدَريًا معهم قد يأتي متأخّرًا أكثر من اللازم: بِضياءِ كلماتهِ وحدِها ستتمزّقُ العتمةُ التي تغمدُ بصيرتهم وتطمسُها منذ قرون!...)).

حالما أكملتْ أمّي ردَّها القاصف، علّقتُ عليه:

ـ ليس هذا ما أريدُ معرفتهُ أمّاه!... ماذا حدث لِهِنْد بعد أن حمَلَتْ مِمّن ظنّ أنّهُ لم يجنِ على أحَد؟...

Twitter: @ketab_n

٧

إثنانُ أهلُ الأرض

حيّا الأعلى جدًّا وبارك بِحماس هذا الكائنَ الصغير الذي امتلك بِفضلِ دماغهِ أعظمَ وأهمَّ وأخطرَ وأقوى الملَكاتِ التي أكسبَتْهُ سلطتَهُ الهائلةَ على الأرض: الخيال!...

وجد الأقدسُ جدًّا أنّ لهذه الكلمة أحرفًا من أبجديّتهِ الخاصّة، نوتاتٍ من سيمفونيّتهِ الحميمة، شذًا من ضوعِهِ الذي يغمرُ عبقُهُ الأكوانَ والأبديّة!...

دوّى بذهول: «يا لَلعجب! ما أروع روايةَ الحياة، أمّ الروايات!... صدقَ آينشتاين إذ قال: "الخيالُ أهمُّ من المعرفة"!»...

لاحظ الأعظمُ جدًا أنّ الخيالَ سيفٌ جبّارٌ ذو حدّين، أنجب عملاقين هائلين يسيطران على رؤيةِ الإنسانِ للكونِ والحياة، وعلى طرائق فهمهِ وتفكيرهِ ومعيشتهِ: العِلمُ والدِّين!...

أجاد شاعرٌ عربيٌّ ضرير، عاش في معرّة النعمان قبل ألف عام، تصويرَ ذلك عندما قال:

Twitter: @ketab_n

إثنانُ أهلُ الأرضِ: ذو عَقلٍ بلا   دِينٍ، وآخرُ دَيِّنٌ لا عقلَ له

الدِّينُ والعِلمُ أخوان شقيقان، بِكْرُهما الدِّين: كاهلٌ كسولٌ كثيرُ الادّعاء، لا يُجيدُ أيّة حرفةٍ عمليّةٍ مفيدة!... نال مع ذلك كلَّ تدليلِ الإنسان واهتمامِه منذ عشرات آلاف السنين. منحهُ كلَّ السلطات والحقوق المطْلَقة، ترَكَ له الحقَّ في قول الكلمة الأخيرة في كلّ شيء. الزمكانُ ملكُه هو وحده، العوالمُ الميتافيزيقيّة أيضًا!...

وصغيرُهما العِلم: مراهقٌ متوقّدُ النشاط والألمعيّة! وُلِد متأخّرًا جدًّا، وأدرك مُذّاك أنّ عليه، لإثباتِ وجودِهِ على أيّ مترٍ مربّعٍ، أن يزيحَ منهُ أخاه الأكبر، شديدَ الحضورِ والتسلّطِ والسطوة!...

أراد منذ البدء أن يُحدِّدَ أراضيه. اقترحَ بلا هوادة: «ليَ الزمكان فقط، والعوالمُ الميتافيزيقيّة، كلُّ العوالمِ الميتافيزيقيّة، لأخي الأكبر!»...

يا لهُ من ماكرٍ أريبٍ عندما كرّرَ: «كلُّ العوالمِ الميتافيزيقيّة» وهو يقصدُ في قرارة نفسه: «المجموعة الرياضيّة الفارغة»، العدَم!...

يا لهُ من متواضعٍ كاذب عندما قال: «لي الزمكان فقط» مشدِّدًا على كلمة «فقط»، هو الذي لا يمنعُ نفسَهُ من وضعِ أنفِهِ خارج الزمكان، عندما قال على لسان أبي العلاء:

قلتم: «لنا خالقٌ حكيمٌ»   قلنا: «صدقتُمْ، كذا نقولُ!»

زعمتموهُ بلا مكانٍ ولا زمانٍ، ألا فقولوا

هذا كلامٌ لهُ خبيءٌ معناهُ ليست لنا عقولُ!...

ـ لماذا العوالمُ الميتافيزيقيّة لأخيك وحدَه؟

ـ هذه عوالمُهُ التي يعرفُ وحدَهُ كيف يملؤها سماواتٍ وجهنّمات

Twitter: @ketab_n

وجنّات وآلهة وشياطين وعفاريت وأمّ الصبيان! عوالمهُ لا تطيق وجودي، تعتبرني عدوَّها المطلق، حافرَ قبرِها (مثل الضوء الذي يبتلع الظلمات)، وإن كنتُ لا أحبُّ أن أتدخّلَ في شؤونها! . . .

ـ لماذا الزمكانُ لكَ وحدك؟

ـ أحيا فيه مثل السمكةِ في الماء، لا أستطيعُ أن أتنفّسَ خارجه! أشيّدهُ وأدرسهُ على الدوام، هو لا شيء تقريبًا بِدوني! . . .

ـ ولماذا تريدُ أن تطردَ أخاك منه؟

ـ الزمكانُ لا يحتاج لأخي، يحيا سعيدًا بِدونه! أخي يملؤهُ معابد مطرّزةً بتماثيلِ ثعابين وشياطين وتنّينات تنفثُ النار، يصرخُ الأطفالُ هلعًا عند رؤيتها! . . .

يملؤهُ هياكلَ وجدرانَ غفران وضرائح أولياء لِرطم الرأس ولكزِ الجسد، ومحاريبَ تُدوِّي ميكرفوناتها بفجائعِ عذابِ القبر وأهوالِ ليالي جهنّمَ الساهرة. . .

يملؤه قصصًا تُجرجَرُ من شَعرِها، لا أميّزُ بين رأسِها وأرجلِها! . . .

ـ تطردُ منهُ أخاك الأكبر إذَن؟

ـ لا! . . . أموضِعهُ بشكلٍ عقلانيٍّ رشيد!

ـ أين تُموضِعهُ؟

ـ «ليس لِلعدَمِ وسط، لا حدود لِلعدَمِ إلّا مع العدَم!»، كما قال ليناردو دافينشي. . .

ـ لا مكان لأخيكَ إذن في هذا الكون؟

ـ لا مكانَ له في الكونِ الماديِّ فقط، كونِ ميكروسكوباتي وتيلسكوباتي! . . .

Twitter: @ketab_n

ـ لن يتبقّى له شيءٌ إذن؟

ـ كلّا!

ـ ماذا يتبقّى له؟

ـ كلُّ شيءٍ تقريبًا!...

ـ لا أفهم، ماذا تقصد؟

ـ الأدب، أخي نجمُ الأدبِ الساطع!... الفكرُ والفلسفة، أخي موضوعهما الأثير!... العقيدةُ والإيمانُ لمن يريدُ بِحُرّيّة، أخي يعرفُ كيف يكتسحُهُما بِثوان!...

ـ يا لهذا الكرَم!...

ـ شُكرًا! (ردّ هذا «الصعلوكُ» الصغير كما لو لم يَلمَح سخريةً من أحد!)...

Twitter: @ketab_n

٨

رحلةُ الأهوال

ردّتْ أمّي:

((لم تحضر هِنْدُ مجالس أبي العلاء يوم شعرَتْ أنّ شيئًا ما يتكوّرُ أعلى خاصرتِها!... لم تخبر أحدًا بما يعتمل في أحشائها، عدا خالتها السيّدة رقيّة بنت عبد الملك!...

غادرت المعرّة سرًّا، دون أن تذهب لِوداعِ أمّ أبي العلاء!...

توجّهتْ لِتعيشَ في ضيعةٍ قريبةٍ من اللاذقيّة، في بيت خالتها، السيّدة رقيّة: امرأةُ عِلْم ضليعةٌ بالفلسفة وبمؤلّفات «إخوان الصفاء» وعلومِهم الباطنيّة، ميسورةُ الحال، تحفظُ شعرَ أبي العلاء، وتحبُّ هِنْدَ كثيرًا!...

احتارت هِنْدُ في تسميةِ ابنتها: «نور»، أم «كلمة»؟ اختارت الأوّل فيما كانت تُفضّلُ الثاني، لأنّ أبا العلاء، الذي عاش حينها ثلاثة عقود من الشوقِ الجريحِ لِرؤيةِ النور، «النور الشعشعاني» الذي لا يملُّ الحديث عنه، باح لها ذات يوم أنّه يحبّ اسم «نور» كثيرًا!...

Twitter: @ketab_n

كانت هِنْدُ تخاف أن يدرك أبو العلاء أنّه «جَنَى» على طفلٍ ما كان له إلّا أن يكتشفَ، منذ نعومةِ أظافِرِه، أنّ أباه لا يتفاعل مع ابتسامته. لا يرى حُزنَهُ ودموعَه. وأنَّ عليهِ أن يقودَ خطى أبيهِ أثناء المشي أحيانًا، أن يكون بوصلته ليل نهار!...

تعرف كم هو حسّاسٌ رقيقٌ مثل كأسِ كريستال، وكم هو أرضٌ خصبةٌ للأحزان والآلام!... تدركُ أنّ ذلك الخبر كفيلٌ بتدميرِهِ والإطاحةِ بحياته، وإنهاءِ مشروعِهِ الأدبيِّ والفكريّ الذي لم يكن حينها إلّا في إرهاصاتهِ واعتمالاتهِ الأولى!...

ناهيك أنّ هذا الجنين سيُسبِّبُ مشاكل إضافيّة، لأنّه ليس «ابن حلال» في نظرِ الشرعِ، وإن لا يُكِنُّ أبو العلاء لِلشرعِ تقديرًا عاليًا!...

خالتُها رُقيّة كانت تدركُ ذلك مثلها على الأقلّ، وتوافقُها عليه تمامًا!... ثم هو يرفضُ الزواج، وهي لا تريدُ من أستاذِها إلّا طفلاً بِأيِّ ثمَن!...)).

استأنفتْ أمّي التي عرفَتْ من أمِّها، ومن صندوقِ مخطوطاتها الصغير، تفاصيلَ حياة هِنْدَ وأسرارها الحميمة:

((كانت هِنْدُ تشعر (وكأنَّ ذلك واجبًا دينيًا مقدّسًا) بأنّ عليها أن تحافظ بِعنايةٍ شديدة، بعيدًا عن القيل والقال ومتطرّفي الحديث عن أطفالِ الزنى والفحشاء والمنكر، على ثمرةِ عشقِها لِأستاذها الحبيب، نور، ميراثِ أبي العلاء الجينيّ وذاكرتِهِ البيولوجيّة، وأن تهتمَّ بعطائهِ الجسديِّ الأوحد، لا سيّما وأنّ دماغَهُ كان منشرحًا جدًّا حينها، عقب أوجِ تلظّيهِ في معمعان مباراة شطرنج عنيفة لو لم تستسلم فيها هِنْدُ قبل الأوان لهزَمتْ أبا العلاء في أغلب الظنّ!...

هزمتْهُ في كلِّ الأحوال وهي تنتزعُ منه نورَهما بضراوة، مُخلِّدةً

Twitter: @ketab_n

بذلك أكثف وأحلى توحّداتهما، وأعمقها قاطبة:

يكفي رؤيةُ عينَي نور العسليّتين الواسعَتَين اللتين ورثْتهما من هند، وقامتها الهيفاء التي ورثْتها من أبي العلاء، وسناءَها وألمعيّتَها اللذين ورَثْتُهما من أبويها معًا، لإدراكِ جلالِ تلك الهزيمة!...)).

أردفَتْ أمّي:

((بعد غياب هِنْدَ المفاجئ، لم يستقرّ ورَكُ أبي العلاء على كرسيّه في محرابِ مجلسهِ الذي يأتي للتعلُّمِ فيه بشرٌ من أقصى المعمورة... جُنّ جنونُهُ عندما سمع أنّها غادرت المعرّة دون أن يعرف أحدٌ في أيِّ اتّجاه!...

لم يعد يطيق هذه المجالس، ملَّ المحاضرات والردَّ على الأسئلة، وكأنّه لا يتحدّثُ فيها إلّا لِيُثيرَ إعجاب هند!... كمدَتْ رغبتُهُ في قولِ الشِّعر، وكأنّه لا ينسابُ من ثغرهِ إلّا لتسمعَهُ طالبتُهُ الحبيبة!... سئمَ الفلسفةَ التي لم تكن إلّا وسيلتَهُ لإشعال إعجابِ هند والجدلِ معها!... فقد الرغبة في كلّ شيء إلّا في أن يطوي البيد والقفار بحثًا عنها!...

لا يدري العاشقُ المكفوف أين يتّجِه: حلب، إنطاكية، دمشق، اللاذقيّة، طرابلس الشام، أرض العراق؟...

خرج، ذات يوم، كإعصار!... أهناك شجاعةٌ وجبروتٌ بمقامِ شجاعةِ وجبروتِ إنسانٍ قرَّرَ السفر واقتحام جدرانِ العالَمِ بِعينَين مطموستين؟...

خرج الشاعر الضرير بمطيّتهِ وعكّازِهِ بحثًا عن هند. ظلماتُ نظرِهِ تخترقُ ظلمات الليل. يحاولُ في كلِّ لحظةٍ يصعدُ فيها جبلاً أو يعبرُ شارعًا أن يستشعرَ من همساتِ الريح ورائحةِ الضوء إن كان يواجهُ مليحةً ذات خمارٍ أسودِ، أم شدقَ ذئبٍ جائع!...

Twitter: @ketab_n

خوفٌ دائم!...

خرجَ مع ذلك، يُرافقه كاتبهُ وبوصلةُ خطاه، الذي يقرأُ له ما تيسّرَ من نصوص العرب، وينسخُ شعرَهُ كلّما تفجّرت قريحته (يعني: معظم الوقت)!...

تعرّض لِلُّصوصِ وقطّاع الطرق، لمغامرات غير حميدة!... ذئابٌ، قلقٌ لا يتوقّف!... تعثّر هنا وهناك، لم يطب له مكان في ما أسماها «رحلة الأهوال»!...)).

تسترسلُ أمّي بابتسامةٍ ماكرة:

((أجمع المؤرّخون على أنّه سافر للاحتكاك بالعلماء والشعراء ومجالس المعرفة!... ربّما كان كذلك، ربّما أتاحت تلك الرحلةُ له فعلاً لقاءَ رهبان في طرابلس أو اللاذقيّة تعلَّمَ منهم كثيرًا من علوم الإغريق وتفاصيل الأديان، ربّما أتاحت له معرفةَ تراثِ الهند وفارس والصين عندما كان في بغداد، ربّما سمحت له بحضور مجالس أدبيّة شهيرة، لا سيّما في بغداد، مدينة السلام...

لكنّه في الحقيقة لم يكن يريد من رحلته تلك (وخبرُ إطلالتهِ على أيّةِ مدينةٍ ينتشرُ فيها قبل وصولِهِ بأيّام) إلّا أن تعرفَ هِنْدُ أنّ عاشقها الضرير جاء يبحثُ عنها، لا غير!...

عَبَثًا!...

وصلَهُ ذات يوم وهو في بغداد، بعد سنةٍ وسبعة أشهر من سفره، خبرُ مرضِ أمّه! هرع للعودةِ للمعرّة آملاً أن تكون هِنْدُ قرب مخدعِ «ستِّ الحبايب» وأغلاهم!...

تحطَّمَتْ آمالُه سريعًا: ماتتْ صاحبةُ «سورةِ الألوان» وهو في طريق العودة!...

Twitter: @ketab_n

سألَ على التوّ:

ـ «هل كانت هِنْدُ قربها؟».

ـ «كلّا!». . .

سقط هذا الردُّ على جمجمتهِ كمطرقة. تضاعفتْ صدمتُهُ، انكسر إلى الأبد!. . .)).

تسترسلُ أمّي وهي تحاول أن تخفي دمعتين على وجنتيها الضامرتين:

((قرّر حينها أن يحاول لملمةَ كلّ انكساراته، ويتصومع في بيته حال وصوله المعرّة، وحتى نهاية العمر!. . .

كتب، وهو في طريق العودة، رسالتَهُ الشهيرة لأهل المعرّة التي قال فيها إنّه سينعزلُ في بيتهِ ولن يغادره لأيّ سبب، راجيًا منهم احترامَ رغبتهِ وعدمَ مؤاخذتهِ على ذلك القرار، هم الذين يتنافسون، حاكمًا أم محكومًا، عالِمًا أم جاهلاً، غنيًّا أم فقيرًا، على دعوةِ جلالتهِ لمجالسِهم والتباهي بحضوره!. . .)).

* * *

تصومعَ الشاعرُ الضريرُ في عشٍّ بدونِ شمسٍ وهواء، بِدون أمِّهِ وهند، أسماه السجن الثالث!. . .

أو بالأحرى، دخل في غيبوبةٍ دامتْ شهرًا كاملاً من البكاء المتواصل، والألم والانعزال الكامل. . . بدونِ أمٍّ كانت تحتضنهُ ككتكوت، وتجعلهُ يشعرُ أنّ الدنيا تستحقُّ الحياةَ، حتى لو كانت ظلماتٍ بعضها فوق بعض. . . وبدون هندٍ كانت تضيء ليلَ حياتهِ البهيم!. . .

شهرٌ كاملٌ من البكاء المتواصل قبل أن يتذكّر أخيرًا أنّ عليه أن

Twitter: @ketab_n

ينضحَ غذاءه الروحي لمن قالت له إنّها تحتاجُه، تريدُه، «تعشقُهُ عشقًا»، وسترجع بحثًا عنه حتمًا ذات يوم!...

صاحبةُ حديثِ التكرارين!...

لا طريق أمامهُ إذن إلّا أن يتشبّثَ بخيط دخان!...

تستأنفُ أمّي:

((لم يعزل نفسه عن الكون مع ذلك: ظلَّ بيتُهُ مفتوحًا لمن جاء لِطلبِ المعرفةِ والأدبِ والحكمة، أو لزيارتهِ وتحيّتهِ وتقبيلِ يدِه! لم يتلكّأ عن الردِّ دومًا على الرسائلِ الكثيرةِ التي كانت تنهالُ عليه!... لكنّه ظلَّ فعلاً حبيسَ بيتِهِ نصف قرن، كَيُونُس في بطنِ الحوتِ، ولو بقرارٍ شخصي!...

لم يتوقّف طوال وُحدَتِهِ عن التسلُّقِ نحو قِمَم أدبيّةٍ إنسانيّةٍ خالدة، أعلاها دون شك: «لزوم ما لا يلزم»، ١٥٧٨ قصيدة، ١٠٦٤٩ بيتًا، إعجازٌ أدبيٌّ وفلسفيٌّ فريد! و«رسالة الغفران»، نصٌّ سردِيٌّ مدهشٌ خالد، دون الحديث عمّا كتبه قبل وُحْدتِه، مثل ديوان «سقط الزند» الذي تشرئبُّ منه قصيدةٌ شهيرةٌ مذهلة، مطلعها:

غير مُجدٍ في ملّتي واعتقادي نوحُ باكٍ ولا ترنّمُ شادي!

أو عن كلّ ما اختفى من مؤلّفاته ورسائله، إثر دخول الصليبيّين المعرّة، والتي تُقدّرُ بأربعة أضعاف ما وصلنا منه!)).

* * *

الشاعرُ الأعمى أضاع عصاه! لذلك قرّر أن لا يُغادر محبسَهُ الثالث!...

عصاه: هند. محبسُه الثالث: كَونٌ من حُجْرتين.

Twitter: @ketab_n

حُجْرةٌ دخل فيها في جدلٍ فكريٍّ مع هند. وحُجْرةٌ دخل فيها في جدلٍ جسديٍّ معها...

قطبٌ سلبيٌّ وآخرُ موجب: كهرباءٌ تملأُ الأحاسيسَ والكلمات!...

لا يستطيع الابتعادَ عن هاتين الحُجْرتين إلّا إذا استطاع الإنسان أن ينتزع كُرَتي دماغِهِ اليُمنى واليسرى من جمجمته، أن يضعهما على طاولةٍ أمامه، ويبتعد عنهما وهو ينظر باتّجاههما مؤشّرًا بيديه: «باي باي، إلى اللقاء قريبًا!»...

في حُجْرتَي منزلِهِ التي تنفّسَتْ فيهما هند يستطيعُ أن يتنفَّس، يُفكِّر. لا يستطيع ذلك خارجهما. إذا غادرهما فهو سيغادر رئتيه!...

هو لا يفكّر، لا يتخيّل، لا ينبضُ الشِّعرَ إلّا عندما يتذكَّرها، لذلك هو يفكّر ويتخيّل وينبض الشعر دون توقّف. ولذلك يصنعُ لها على الدوام غذاءً روحيًّا عامرًا بالهرمونات والڤيتامينات، قالت له كم تُحِبُّه، كم «تعشقه عشقًا» حسب تعبيرها المفضّل!...

لكنّه مع ذلك أضاع عصاه!... لذلك قرّر العاشقُ الحزين أن لا يُغادِر محبسَهُ الثالث!...

طنّتْ في ذاكرته للمرّة المليار عبارةٌ تربطه بالحياة، كأنبوبةِ أوكسجين محشورةٍ في منخار مريض:

- لكنّي أعِدُك أنّي سأقرأُ كلَّ ما تقوله، سأحتفظ في ذاكرتي بكلّ فكرةٍ أو بنتِ خيال راودتَك وستراودك!... سأعود!...

وظّفَ، بعد عودتِهِ من «رحلة الأهوال» بِشهْرٍ قَضاهُ بكاءً وحسرات على أمِّهِ ومعشوقتِهِ الضائعتين، كاتبًا جديدًا يقرأُ له ما يريد من الكتب والمخطوطات، ويكتب ما تجود به قريحته...

Twitter: @ketab_n

استهلَّ كاتبُه عملَه الجديد بقراءةِ كوم من الرسائل التي وصلتْ أبا العلاء من مُحبّيهِ ومُحاوريهِ في بلدان شتّى، أثناء غيابه في رحلة الأهوال. . . لم تثرهُ واحدةٌ منها، اللهمّ إلّا رسالتين صغيرتين من سيِّدةٍ تُسمّي نفسها «صاحبة حديث التكرارين»، لم يفهم الكاتبُ منهما حرفًا واحدًا، فيما اقتلعتا قلبَ أبي العلاء من جوانحه!. . .

في الرسالة الأولى (التي كتبَتْها بِضميرِ الغائب) اعتذرَتْ عن مغادرتها ديار معشوقها. «كان ذلك مُستحسَنًا ولازمًا في كلِّ الأحوال»! لم تُعلِّل ذلك أكثر، لكنّها أضافت: «تشتاقُ صاحبةُ حديثِ التكرارين لِمعشوقِها وتتذكّرهُ في كلِّ لحظةٍ وسَكنْة!». . .

وفي الرسالة الثانية تقول إنّها تابعت كلّ أخبارِ رحلةِ معشوقِها وأسفارِه، وكلّ ما حدث له في مجالس مدينة السلام، وكلّ «غذائه الروحيّ» الذي أنعمَها به، هنا وهناك، مُعلِّقةً: «تشتاق صاحبة حديث التكرارين لِمعشوقِها وتعشقهُ أكثر من أيّ وقتٍ مضى، كما لم يشتق إنسانٌ أو يعشق آخر!». . .

حكّ كاتبُ أبي العلاء رأسه. لم يفهم شيئًا، أو كأنّهُ كذلك!. . .

تضيءُ الدنيا في عيني أبي العلاء بعد هاتين الرسالتين! تمتلئُ روحُهُ آمالاً وأشواقًا (وإن لا يشتاقُ المرءُ لِرئتيهِ كما قال!). . .

أوكسجينٌ نقيٌّ عامرٌ يتدفّقُ في كلِّ جوانحِ وحنايا السجنِ الثالث!. . .

* * *

أمّي، نوال التنوخي، مُنهمِكةٌ في دراسةِ حياةِ أبي العلاء، ممحونةٌ بها. سافرت مرّاتٍ عديدة لِمدينة السلام (وإن لم يعد هٰذا الاسمُ يناسبُ

Twitter: @ketab_n

بغدادَ كثيرًا) لِتقتفي آثار أبي العلاء، ولِتُنقِّبَ عن كلِّ ما يرتبطُ بِرحلتِهِ من مخطوطات وآثار.

تُخفي في صندوقِها السرّيّ الصغير مخطوطات وأسرارًا كثيرة، تساورني الرغبة في معرفة تفاصيلِها أحيانًا، لكنّي لا أحبّ رائحة النفتالين والأكفان! لا أحبُّ أن أتدخّل في هذه الشؤون التاريخيّة، وأتحمّل مسؤوليّات تكسرُ كوعَ رِجلي!...

حوارٌ قديمٌ معها تكرَّر أكثر من مرّةٍ في صباي:

ـ يلزمكَ أن تعرف أنّ هِنْدَ بعثتْ ابنتها نور عندما تجاوَزتِ العشرين، من اللاذقيّة إلى المعرّة، لحضور مجالس أبي العلاء الذي بدأ إثر وصولِها (أو بفضلِ وصولِها، في الحقيقة!) «كتابةَ» روايةِ «رسالةِ الغفران»: «روايةِ الغفران»!... ألا يهمّك معرفةُ تفاصيل لقاءِ نور بأبي العلاء، التي لم تكن تعرفُ أنّها ابنته؟... أمعقولٌ أن لا يُهِمُّكَ ذلك؟...

ـ سيُهمُّني، عندما أكبرُ أمّاه!...

(يُهمُّني أبدًا الأكورديون الصغير!)...

Twitter: @ketab_n

٩

حربٌ روحيّةٌ ضروس

أدركَ الأعلى جدًّا، بعبقريّتهِ التي لا حدودَ لألمعيّتها، منذ أن رأى هذين الشقيقين، أنّ «حربًا روحيّةً» ضروسًا، ظاهرةً وباطنةً، ستندلعُ بينهما ولن يخمد أوارها يومًا!... كفاهُ مجرَّدُ رؤيتهما ليستشفَّ ذلك:

الأخُ الأكبرُ (بعمامتهِ أو قلنسوته، بقميصِ الراهبِ الذي لا يفارقه، بشمعدانهِ أو عصاه وهو يصعدُ المنبر...) بطيءُ الخطوات، له نظراتٌ تُشبِهُ السلاسل، صوتٌ صارخٌ يأمر وينهى بقساوة. يُقَضّي وقتَهُ راكعًا أمام التماثيل والقِبْلات، في حينِ لا يركعُ في حقيقتهِ إلّا لِلحاكم!...

الأخُ الأصغر (بِشَعرهِ المنفوشِ على طريقةِ إروين شرودينجير، بنظّاراتهِ الدائريّة وقامتِهِ الفرويديّة، بلِسانهِ «المُلاوِقة» على طريقة آينشتاين، بغمزةِ عينيهِ على طريقة كارل ماركس) شاعرٌ تائهٌ لا أكثر ولا أقلّ، يكتبُ شِعرَهُ بالأرقام والصيغِ والمعادلاتِ والأمواجِ الكهرومغناطيسيّة وأشعّةِ الليزر، لأنّهُ فشل ذات يومٍ في كتابتِهِ بالكلمات!...

Twitter: @ketab_n

لم يتوقّف، كما لاحظ الأعظم جدًّا، تنازعُ الأخوين على الأرض نفسها منذ بدءِ حياتهما المشتركة. كيف يمكن غير ذلك، ووسيلتاهما في التفكير تقعان في أقصى طرفي قُطرٍ دائرة:

وسيلةُ الأخِ الأكبر: الآلهة!... خلقَها وكيّفَها مع حاجاتهِ الاجتماعيّة، ومع بُنيةِ دماغِه، وجعلها تسيطرُ أكثر فأكثر على مركزِ حياته!... أعطاها بسخاء كلَّ القدرات الخارقة. أثّث لها عالَمًا لا حدّ له، خارج عالَمِ البشرِ المرئي، شحَنَهُ بشياطينَ وملائكةٍ وجِنٍّ وعفاريت وأمّ الصبيان...

دعاها جميعًا من هناك لِتسكنَ هذا العالَم المرئي الصغير، لِتتدخّلَ في كلِّ حركاتِهِ وسكناتِه، لِتلِجَ في جماجمِ أناسِه، في أحشاءِ أجسادِهم وقرارةِ أنفسهم، لِدرجة أنّه ألصق اثنين منهما: رقيب (مُسجّل الحسنات) وعتيد (مُسجّل السيّئات) على الكتف اليمنى واليسرى لكلّ إنسان، مثل الثعبانَين الملتصقَين بِكتفَي الملِك الظالم سرجون في الأساطير الفارسيّة والكرديّة، الذي يُحتفَلُ كلّ عامٍ بموتِه على يد الحدّاد الأسطوري كاوا، في عيد النيروز الشهير، عيد الربيع!...

لاحظ الأعلى جدًّا أنّ إجابات آلهةِ الأخ الأكبر نهائيّةٌ قاطعة، لا يستطيع تخطيئها أحد!... العلاقةُ معها تتطلّبُ نَعَمًا صريحةً خالصةً، إيمانًا مطلقًا وعبادةً دائمة!... بعبارةٍ بسيطة، لغةُ الأخِ الكبير تتلخّصُ بِكلمةٍ واحدة: «نعم»، كلمةِ القطيع، كلمةِ العبيد، كلمةِ الجسدِ الخاضع!... آمين!...

وسيلةُ الأخ الأصغر: المختبرات، البرهان العلمي، التجريب العملي... سنواتٌ وحيواتٌ من التفكير والمكابدة، من «التغذّي من جذورِ المعرفة وعروقها» لِبرهنةِ هذه النظريّة الرياضيّة أو تلك، لصنعِ هذا الجهاز أو ذاك!...

Twitter: @ketab_n

أقوالهُ ومداخلاته، كما رأى الأعلى جدًّا بإعجابٍ خاصّ، غيرُ قاطعة، تبدأ غالبًا بِـ: «لا أعرف بعد!...»، «يبدو لي أنّ...»، «من المحتملِ أنْ...»، «لكن يحتاج ذلك للبرهنةِ أوّلاً!...». يقولُ ذلك وهو يحكُّ ببطء ذقنَهُ العشوائي، مُبتسمًا لِلعدَمِ بفتور، قبل أن يتثاءب بدون كياسةٍ مفرطة!...

لا تحتاجُ أطروحاتهُ لأيّة فرضيّةٍ أو وسيطٍ ميتافيزيقيّين. يرفضُ أيّة مسلّماتٍ مُسبقَةٍ لم يُبرهنْها هو نفسه مختبريًّا. تَقبَلُ فرضيّاتُه النقاشَ والدحض، تتجاوزُ نفسها يومًا بعد يوم، قبل أن تُقرَّ كمعارف يُسلِّمُ بها الجميع!...

من يستطيعُ، مؤمنًا كان أم ملحدًا، الطعنَ بنظريّات فيثاغورس، نيوتن، داروين، آينشتاين، معادلة شرودنجِر؟...

(بما في أولئك الكنيسة الكاثوليكيّة: القلعةُ التاريخيّة التي ناهضتِ العِلمَ في أوروبا طوال قرون!...

وإن احتاجت لِقرنٍ ونصفٍ من العداء الشرسِ لِنظريّة داروين، قبل أن تعترفَ بها رسميًّا في عام ١٩٩٦، على لِسانِ البابا يوحنّا بطرس الثاني وهو يُدلي بهذا التصريحِ التاريخيِّ المكثّفِ الذي يشرحُ نفسه:

«نظريّة داروين أكبرُ من فرضيّة!»...

«أن تصلَ متأخّرًا أفضلُ من أن لا تصلَ أبدًا!» كما يُقال، لأنّ العلومَ الجينيّة التي نشأتْ في الخمسينيّاتِ من القرنِ المنصرم أضافتْ حينها آخر البراهين العلميّة الساطعة لهذه النظريّة التي يتأسّسُ عليها علمُ الأحياء الحديث!...).

إجاباتُ الأخِ الأصغرِ دقيقةٌ مُرقَّمَة، لكنّها مرهِقةٌ جدًّا في الغالب: يلزمُ لابتكارِها وقبولِها نزعُ مسلّماتٍ وقناعاتٍ فَرَضَتْها آلافُ السنين من

Twitter: @ketab_n

إجاباتِ الأخِ الأكبر، يلزمُ استيعابُ كلِّ تاريخ وتفاصيل تلك المسلّمات والقناعات، كيف، لماذا، ومتى جاءت. . .

شفق الأعلى جدًّا على الأخ الأصغر عندما رأى أنّ ذلك مجهودٌ خارقٌ لا حدّ لِصعوبتِه!. . .

يلزم، في الحقيقة، إجادةُ الردِّ على خطابِ أساطين كهنةٍ عباقرةٍ في الميديولوجيا، عرفوا كيف يُكيِّفون خطابهم منذ فجر التاريخ ويطوّرونه، كيف يستولون به على دماغِ الإنسان الذي يعرفون خارطةَ قلقهِ واحتياجاتهِ أكثر من غيرهم، كيف يُضرِمونَ دمَهُ هلعًا بتهديداتِهم له بالتعذيب والقتل والصلبِ في الدنيا إذا كفر بخطابهم، قبل «يوم حشرٍ» و«جهنّم» تتجاوزُ أهوالُها كلَّ الأوصاف، تنتظرهُ عقابًا لِكُفرِه، في «آخِرَةٍ» صمّموها له أرهبَ وأدقَّ تصميم!. . .

لعلّ حكيم المعرّة قال أشياء كثيرة جدًّا عن ذلك منها:

طلب الخسائسَ وارتقى في منبرٍ ... يصفُ الحسابَ لأمّةٍ ليهولها

ويكونُ غيرَ مصدِّقٍ بقيامةٍ ... أمسى يُمثّل في النفوسِ ذهولَها

فخُذِ الذي قال اللبيبُ وعِشْ به ... ودعِ الغواةَ كذوبَها وجهولَها!

لم يكتف هؤلاء الكهنة بذلك!. . . عرفوا بِمهنيّةٍ فريدةٍ كيف يحشرون إجاباتهم في نسيج الرموز الأثيرةِ في حياة الإنسان اليوميّة لا سيّما تلك التي ترتبطُ بعاداتِهِ وتقاليده، وكيف يجعلونها «إسمنت المجتمع»، كما يقولون!. . .

تمتمَ الأقدسُ جدًّا: «يا لَمشقّةِ مسعاه: يلزمُ على الأخ الأصغر دحضُ خطابِ عملاقٍ التصقتْ كلماتُهُ بكريات الدم الحمراء للإنسان، وأكْسدَتْ مسلّماته عصبونات الدماغ البشري منذ آلاف السنين!. . .».

Twitter: @ketab_n

لاحظ الأعلى جدًا: لغةُ الأخِ الصغير تتلخّصُ بِكلمةٍ واحدةٍ أرستقراطيّةٍ جدًّا: «لا»، أصعبُ الكلمات، كلمةُ الروح، كلمةُ عظماءِ التاريخ وثُوّارِهِ وأنبيائهِ وعلمائهِ وفلاسفتِه!... بارك الأعلى جدًّا ميولَ هذا المتمرّدِ الدائم للرفضِ والقطيعةِ وتجاوزِ الذات! كم أحبَّهُ وهو يقولُ مثلاً: «لو اكتفيتُ بِتطويرِ الشموعِ وعربات الأحصنة، لما اخترعتُ الكهرباءَ والطائرات!»...

رأى الأعلى جدًّا أنّ للأخوَين منهجَين مختلفَين: كي يصلَ الأخُ الصغيرُ إلى أعلى العمارة يلزمُهُ أن يبني، بِجهدٍ جهيد، مصعدًا كهربائيًّا أو سُلّمًا متينًا. كي يصل إلى القمر يلزمُهُ ابتكارُ سفينةٍ فضائيّة...

فيما يكتفي الأخُ الكبيرُ بالوصول إلى قمّة العمارةِ، والقمرِ، والسماءِ السابعةِ والسبعين، عبر معراجٍ هوائيٍّ اسمهُ أجنحة الآلهة، وهو نائمٌ في فراشه يرتّلُ: «إنّ الله على كلِّ شيءٍ قدير» متوسّلاً جلَّ جلاله، بكلِّ استجداءٍ وأمل: «آمين، يا ربّ العالَمين!»...

Twitter: @ketab_n

١٠

طفولةُ النور

وُلِدتْ نورُ في رحابِ دارِ السيّدة رقيّة بنت عبد الملك، خالةِ أمِّها: سيّدةٌ فاضلة، تمتلكُ عقاراتٍ وتجارةً رابحةً يُديرها وكلاءُ لها وموظَّفون، فيما لا تهتمُّ هي إلّا بِعقاراتِ الرّوحِ من أدبٍ وفلسفةٍ وموسيقى!...

امرأةٌ فريدةٌ تحيا خارج السرب: لها آراؤها الخاصّة التي تخالفُ، في كلِّ شيءٍ تقريبًا، العادات والتقاليد السائدة، وإن كانت تجيدُ التعاملَ مع أعرافِ زمانها وموازينِ قواه واتّجاهاتِ تيّاراته بمرونةٍ وحكمة، وعدمِ اكتراثٍ أيضًا!...

تعتبرُ السيّدة رقيّة، التي لم ترزق طفلاً رغم زواجِها مرّتين، هِنْدَ ابنتها، بل أكثر من ذلك بكثير! ليس فقط لأنّها بحاجةٍ لِممارسة أمومتها بشكلٍ أو بآخر فحسب، بل لأنّ في دارِها الرحبِ، الرابضِ في علياء ضيعةٍ على مشارفِ اللاذقيّة، ترعرعتْ هند، قبل سفرِها بعد ذلك إلى المعرّة لِطلبِ الحكمةِ والأدبِ والمعرفةِ...

تربّتْ هِنْدُ على يدِ السيّدةِ رقيّة، وارتبطتْ بها مُذّاك بحميميّةٍ خاصّةٍ

Twitter: @ketab_n

جدًّا... تبوحُ منذ طفولتها بِكلِّ ما يدور بخاطرها لِخالتِها رقيّة، ولها وحدها فقط. فيما تعتبر الأخيرةُ هِنْدَ أجملَ مشاريعِها وأعظمَ نجاحاتِها: علّمتْها الجرأةَ والوفاءَ لأحاسيسها، باحتْ لها بأسرارِها الخاصّةِ وبواطنِ آراءِها الوجوديّة المُغلّفةِ غالبًا، أذكَتْ فيها التفكيرَ العقلانيّ وحبَّ المعرفة... شاطرَتْها، دون أدنى غِيرَة، حبَّ أبي العلاء (التي وُلِدتْ مثلهُ في عام ٩٧٣ م) وإن لم تقابلْهُ يومًا إلّا في الأحلام!...

ناهيك أنّها سافرت هي نفسها إلى المعرّة، حالما وصلتْها من هِنْدَ رسالةٌ تبوح فيها بأنها حبلى من أستاذها الحبيب، لتأخذَها لِلحياةِ معها من جديد في دارِها الفارهة: مسقطِ رأسِ هِنْدَ الأثير، آمنِ بيتٍ لإنجابٍ هادئٍ سعيد، وأفضلِ مأوًى وحضانةٍ ومرتعٍ وقصر لِجنينِ «ابنتِها» هند، بكلِّ تأكيد!...

لعلّ السيّدة رقيّة كانت تنتمي لِطائفةٍ غيرِ رسميّة تميلُ للتفكيرِ الحرّ، للقراءة النقديّة للكتب الدينيّة، لوَحدة الإنسان بكلِّ أطيافِ معتقداتهِ وألوانِ ثقافاتِه... طائفةٍ تعتبرُ صاحبَ «لا إمام سوى العقل» و«لا تحسب مقال الرُّسلِ حقًّا» أيقونةً لا يجود بمثلها الزمان إلّا مرّةً كلّ عدّةِ قرون...

ما هو مؤكّدٌ في كلِّ الأحوال: شرحَتِ السيّدةُ رقيّة لِهند، قبل أيٍّ كان، أفكارَ المعتزلةِ وإخوان الصفا، أُسُسَ الفلسفات الشرقيّة والإغريقيّة...

أرسلتْها للتعلُّمِ في مجالسِ أبي العلاء، وأغدقتْ عليها بمصاريف حياةٍ لائقة، وهدايا كانت تبعثُها عبر هِنْدَ لِسيّدِ المعرّة الذي اشتهر بأنّه كان يوزِّعُ كلّ ما تصلُهُ من هدايا للفقراء والمحتاجين!...

بعدما وصلت هِنْدُ القصرَ وهي حبلى بمضغةٍ في أسابيعها الجنينيّة

Twitter: @ketab_n

الأولى، أقامتْ السيّدة رقيّة صلاةَ الميّتِ الغائب وحدادَ بضعةِ أيّام لموظَّفٍ عندها اخترعتْ سيرتَهُ الذاتيّة وفصّلتها بما يلزمُ من المقاييس:

قالت للملإِ إنّه زوج بنتِ أختِها. وإنّها رتّبَتْ هي نفسها زواجَهُ بِهند، قبل بضعة أشهر...

مات، رحمهُ الله، في سفينةٍ تجاريّة غرقت في طريقها إلى شواطئ الهند!...

كان رجلاً فاضلاً، صالحًا، صادقًا، يشتغل منذ سنين في تجاراتها بأمانةٍ وذكاءٍ وإخلاص...

مشكلتُه، سامحهُ الله: يحبُّ الأسفار كثيرًا، لا يقرُّ له قرار إلّا عندما يستعدُّ لِسفرٍ جديد... لكنّ البحرَ غدّار لا يرحم، يلقفُ من يريد، لا يقرُّ له قرارٌ أيضًا!...

يرحمه أرحم الراحمين!...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته!...

أرادتْ هكذا أن تُجير هِنْدَ من كلِّ قيلٍ وقال يوشكُ أن يعكِّرَ ولادتَها، لِتنام قريرةَ العين، ولِتتمتّع بما تبقّى من أشهر الحمل... ناهيك أنّ السيّدة رقيّة تعتبرُ هذا الجنينَ، الذي يُجسّدُ ويُخلِّدُ عشقَ أبي العلاء وهند، أنبلَ وأقدسَ هديّةٍ يمكنُ لِلسماءِ أن تمنحها لِعاشِقَين!...

ما إن بلغَتْ نورُ السابعةَ من العمر حتى صارت بؤرةَ الدار، فراشتَهُ وجذوتَه!... يتحدّثُ الجميع فيه عن ذكائها المبكِّر، قاموسِها الرحب، تفاعُلِها مع كلِّ ما يحيطُها بِحبِّ استطلاعٍ وتلقائيّةٍ وديناميكيّةٍ جذّابةٍ مثيرة... يُردِّدُ الجميعُ عباراتها الأثيرة، تركيباتها اللغويّة الطفوليّة المدهشة، يميلون للدردشة معها حالما تُطِلُّ هنا أو هناك!...

Twitter: @ketab_n

لِعينيها لمعةٌ راقصةٌ أدهشتْ محيطَها، تطفحُ حذقًا وفطنةً وحيويّة!...

لها جَمالٌ يتجذَّرُ يومًا بعد يوم. يُنذِرُ، بعد سنواتٍ، بصاعقة!...

انتشر خبرٌ فحواه أنّ موظفًا أخرس يعمل في قصر السيّدة رقيّة نطق عند رؤيتها قائلاً: «لم أر في حياتي طفلاً بهذه التلقائيّة والألمعيّة!»...

لم يكن أخرس في الحقيقة، كما تقولُ الروايات التي تميل دائمًا للمغالاة عند الحديث عن نور. امتنع عن الكلام فقط منذ ١٥ عامًا، بعد أن فقد طفلَهُ الصغيرَ الذي خرج معه ذات يوم إلى السوق لشراء بعض الحاجات، ثم غاب عن مرآه عندما كان مستغرقًا بالحديث مع تاجر، قبل أن يختفي عن الأبصار كلّيّة، رغم تفتيش الجميع عنه في أزقّةِ وحوانيت السوق!...

من يدري، لعلّه سقطَ في بئرٍ بلا قاع، أو اختُطِفَ من رَجُلٍ أو امرأةٍ بدون بنين، أو من سارق أطفالٍ متخصّص هربَ بهِ لِديارٍ بعيدة... لم يسمع عنه بعد ذلك أحد، كما قيل!...

عندما يئس الأب من العثور على ابنه أقسم أن يمتنع عن الكلام حتى الموت، إذا قُدِّر له أن لا يرى ابنه قبل ذلك!...

* * *

غرست السيّدةُ رقيّةُ حبَّ الموسيقى في جينات نور، مثلما أشعلتْ هِنْدُ فيها حبّ الشِّعرِ والأدبِ والكلمات!... لجأت الأولى لأسلوبٍ «عسكريٍّ» حميد للوصول إلى مأربِها، والثانية لِ «مؤامرةٍ» مباركة لِتحقيقِ هدفِها!...

بدأت المؤامرةُ المباركة منذ زمنٍ مبكّرٍ جدًّا: كانت هِنْدُ تضمُّ نورَ كلّ يوم وهي في أشهرها الأولى إلى صدرِها بِرديف، ثم تخرج ملتصقةً

Twitter: @ketab_n

بها سويعات في البساتين المجاورة لِقصرِ خالتها، أو في السهول والأودية القريبة، على الأعشاب أو قرب السواقي، أو في شواطئ اللاذقيّة أحيانًا... تُقضيها في المشي محتضنةً صغيرتَها، تثرثرُ وتلعبُ معها بحميميّة!...

تختلي بها كلّيَةً خلال تلك السويعات، «رأسًا برأس» بكلٍّ ما في الحبِّ الأمويّ الجارف من حميميّةٍ وتفانٍ، تُرتِّلُ لها الشِّعرَ أو تُغنّيه بِسعادةٍ وتوحّدٍ خالص، لا سيّما شِعر معشوقِها الذي يتلَظّى من الضنك، ويموتُ وجدًا منذ أن حرمتْهُ من كلماتِها، صوتِها، عِناقِها، رائحةِ مساماتِها، عبقِ رضابِها... وتركتهُ وحيدًا في محبسِهِ الثالث في المعرّة، مُدانًا بالنزيفِ الإبداعيّ المؤبّد الذي «تعشقهُ عشقًا»، كما قالت!...

أين آلهةُ الشفقة، يا أعدل العادِلين؟!...

أين ملائكةُ الرحمة، يا أرحم الراحمين؟!...

لم تتوقّف هند، خلال سنواتٍ طويلة، عن هذه الطقوس التي كانت تمارسُها في الصباحات الباكرة حينًا، وفي لحظات الغروب حينًا آخر، والتي تجدُ فيها سعادةً خالصة، ومتعةً وراحةً كبيرة، وتصالُحًا مع أشياء كثيرة:

تذوبُ أثناءها في بوتقةِ ثالوثٍ طرفاهُ: ابنتُها الملتصقةُ بصدرها، ومعشوقُها البعيدُ الملتصقُ بقلبِها والذي تشتاقُ له حدّ الجنون، وإن لا يعرف هو كيف يشتاقُ لها، لأنّ «المرءَ لا يشتاق لِقلبهِ ورئتيه»، حسب تعبيرهِ الزائف، المتعالي جدًّا، لأنّه في واقعِ الحال يبكي رطلَ دموعٍ كلَّ يومٍ شوقًا لِصوتِها ورائحتِها ونقاشاتِها ونهاياتِ مباريات شطرنجاتِها!...

نجحت المؤامرة: امتلأتْ آذانُ نور هكذا بإيقاعات الكلمات منذ أن وُلِدت تقريبًا. ذابت موسيقاها في خلايا نور، مُبلّلةً بِصوتِ أمِّها، منذ

Twitter: @ketab_n

أن كانت تَرضعُ حليبَ هِنْدَ الشهيَّ الدافئ!...

اعتجن مسمعُها وتشرّبتْ أليافُها العصبيّةُ بالشعر، لا سيّما شِعر حكيم المعرّة، الذي لاحظت، منذ وقتٍ مبكّر، أنّ عَيْنَي أمِّها تغرورقان بالدموع عند تلحينهِ وغنائه!...

تسأل نورُ أمَّها أحيانًا:

ـ أين أبي؟ حدّثيني عنه!...

ـ تُوفّي رحمه الله غرقًا في سفينةٍ تجاريّةٍ قرب شواطئ الهند!...

ثم تتركُ هِنْدُ سفينةَ «زوجِها» السكرانة تغرقُ بِهدوءٍ في محيطٍ بلا قاع، لِتستغرق في الحديث عن أستاذها القديم، شِعرِه، عاداتِه، ضحكِه، مبارياته في الشطرنج والنرد، نكاتِه، وطقوسِ مجالسِه في المعرّة...

ـ لماذا تحدّثينني عن أستاذكِ القديمِ دائمًا؟...

ـ لأنّك ستدرسينَ في مجلسهِ عندما تكبرين أنتِ أيضًا!...

ـ وأبي، هل كان ينظمُ الشعر؟

تبتسم هند... تُقبِّلُ نورَ بحرارة، تحتَضِنُها...

دمعتان من جديد!...

لاحظت نور أنّ أمّها ماكينةُ بكاء، تسيل دموعها على وجنتيها على الدوام!... لكنّها لا تسيل فقط إلّا عند تذكُّرِ أستاذِها القديم (أي معظم الوقت!)...

ـ هل تألّمَ أبي عندما مات في السفينة؟...

ـ لا... الله أعلم!... رحمه الله!...

Twitter: @ketab_n

ثم تدور هِنْدُ ١٨٠ درجة في الاتّجاه المعاكس، تُغنّي لها أبا العلاء:

غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي نوحُ باكٍ ولا ترنّم شاذِ

ثم:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

دمعتان ولهانتان من جديد!...

* * *

ترعرتْ نور هكذا في أحضان مُربّيَتين إلٰهيّتين: هند ورقيّة. رافقهما، بعد أن كبرتْ قليلاً، مدرِّسون يجيئون إلى دارِها لِتدريسها الشعرَ والبلاغةَ والموسيقى والعلوم!...

عاشتْ صباها بِحيويّةٍ وشغفٍ وتفجُّرٍ وحرّيّة: ربطتْها بِصبيّات أهل الضيعة والأقارب صداقاتٌ وثرثراتٌ دائمة... تحبُّ الحديثَ المتنوّعَ المملوءَ بالجديد المدهش مع محيطها، صغارًا وكبارًا...

أصبحتْ أيضًا تخوضُ النقاش، بِتمكُّنٍ أكبر كلّما مرّت الأيّام، في شؤون الساعة ويوميّات الناس، في أمورِ الشعرِ والبلاغةِ وأخبارِ الأقدمين، في الصراعات المذهبيّة والخلافات الطاحنة والحروب التي تعمُّ ديارَ المسلمين!...

لِنور صوتٌ سماويٌّ لا تخونهُ الكلمات: تهبطُ نحوهُ عموديًا من علّيين، تنسابُ في نبراتِهِ مذهلةً نقيّةً طازجةً رقراقة...

تُجيدُ الغناءَ أيضًا أيّما إجادة. الموسيقى والشعرُ بالنسبة لها شغفٌ جينيٌّ وراثيّ، حاجةٌ عضويّةٌ يوميّة ماسّة، وليسا مجرّد ترف: لا تنام في غرفتها مثلاً قبل أن تغنّي لِوحدِها بصوتٍ مسموع...

Twitter: @ketab_n

تصغي لها هِنْدُ ورقيّةُ من غرفتين مجاورتين وهي تشدو ذات مساء:

ألا هبّي بصحنكِ فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

تخضلُّ عيناهما بِدموعِ الإعجاب والدهشة والطرب في الوقت نفسه، عند سماع صاحبة الصوت السماوي تغرِّد:

كأنَّ متونهنَّ مُتون غُدرٍ تُصفِّقُها الرياحُ إذا جرَيْنا

تضطجعُ هكذا نور على متون غديرِ نبراتِها الوثيرة التي تُصفِّقُها رياح الموسيقى. تَثقُلُ جفونُها رويدًا رويدًا على إيقاع تجاعيد ذلك الغدير الرقراق، لِتهيمَ بعد ذلك في أرخبيل جزرٍ بعيدة لا تغرقُ السفن قرب شواطئها إطلاقًا!...

Twitter: @ketab_n

١١

«زرقاءُ يمامةِ» الفكر

تابع الأعلى جدًّا سِفْرَ تكوينِ دماغِ هذا المخلوق العجيب الذي لم يكتفِ خيالُهُ بخلقِ آلهتهِ فقط، بل تماهى معها أيضًا، افترستهُ الرغبةُ بمنافستها!... صارَتْ عُقدةَ حياته!... لا يفكّرُ إلّا بسرقةِ أسرارِها، مثلما سرق بروميثيوس النار من أيديها!... لا يحلم إلّا بقضم التفّاحة المحرّمة التي تكشف له ينابيع أسرارها وتمنحهُ صفاتها!...

تمتمَ الأقدسُ جدًّا: «مسكينٌ هذا المخلوقُ المسكون بِعُقدةِ الآلهة!»...

لاحظَ الأجلُّ جدًّا أنّ «الأخَ البكر» يبحثُ عن الاقتراب منها بِطقوسهِ وصلواته!... فيما يعتقدُ أصغر الأخوين أنّ كلَّ نظريّاته وقوانينه، من صغيرِها وقديمِها (كنظريّة فيثاغورس) لكبيرِها وحديثِها (كنظريّة النسبيّة، النشوء والارتقاء، الميكانيكا الكونتيّة، الهندسة الجينيّة، الذكاء الاصطناعي...) اكتشافاتٌ تُقلِّلُ المسافةَ التي تفصلهُ عنها!...

Twitter: @ketab_n

يشعرُ في أعماقهِ أنّ كلّ اختراعاته خطواتٌ تُقرِّبهُ من مصافّ الآلهة: الأدوية، اللقاح وحبوب منع الحمل، الكهرباء، الموتورات، الإذاعة والتلفزيون، هذا الآيفون الصغير الذي يحمله، والذي يرى فيه التلفزيون، يتّصلُ به بمن يريد في طرف الكون، يرتبطُ به في شبكة إنترنت، يستلمُ عبرهُ من الأقمار الاصطناعيّة خارطةَ المكان الذي يسير به، ويصغي فيه لِصوتِ رشيقٍ يقودُهُ في الطريق حيثما يريد، يشحنُ ويقرأُ في شاشتهِ ما يشاءُ من الصحف وملايين الكتب المنصوصةِ في رفوف المكتبات الرقميّة العملاقة!...

كلّما كبر الأخُ الصغيرُ يومًا بعد يوم، ظنَّ أنّه يخلعُ الآلهةَ من عرشِها رويدًا رويدًا، وهو يغزو مناطقَ جديدة من ملكوتِ أسرارِها: خارطةَ الدماغ وفهمَ خفاياه وآليّاته، خارطةَ الجينومِ وتفكيكَ ألغازِه، رؤيةَ حركةِ المجرّات وتباعدِها المتواصل، الوصولَ إلى القمر والكواكبِ المجاورة، استنساخَ الكائنات الحيّة، برمجيّات الكمبيوتر التي تهزمُ الإنسان بالشطرنج، أبحاثَ تطويلِ الحياة (أو تأجيلِ الموت)، تعديلَ خلقِ المولودِ قبل ولادته!...

أحبَّ الأعلى جدًّا الأخَ الصغير، سقطَ في غرامه!... لم يحقد على الأخ الكبير أو يُفكّر بالانتقام منه عندما لاحظ أنّه ينتحلُ اسمه على الدوام، فيما هو نقيضٌ له في كلّ شيء: الحقدُ والكراهيّةُ والانتقامُ ومكرُ الماكرين من صفات «أخلاق العبيد»، بالمدلولِ النيتشويِّ لهذا المفهوم، والأعلى جدًّا أسمى وأنزهُ من أن تلتصقَ بهِ صفاتٌ دنيئةٌ كهذه!...

استدعى الأعلى جدًّا أمينيائيل: ملاكَهُ المطيع، مديرَ مكتبهِ الأسمى، ساعيَ بريدهِ الأثير!...

مثلَ كلِّ مرّةٍ يقتربُ فيها من عرشِ الأعلى جدًّا، يسْجدُ ملاكُه

Twitter: @ketab_n

الأمين سبعة وسبعين سجدةً تتكهرَبُ من شُحنةِ خشوعِها كلّ المجرّات!. . .

قال الأعلى جدًّا لِملاكِه الأمين:

ـ أريد، عزيزي أمينيائيل، تخليدَ هذا الكون العبقري بمتحفٍ هائل في السماء ٧٧، أكرّمُ به هذا المخلوقَ الصغيرَ المدهش الذي يبتكر آلهته بنفسه، يخلعها من عرشها، لينتصّ محلّها!. . . أرأيتَ، عزيزي أمينيائيل، منذ فجر الأبديّة، أعجبَ من ذلك؟. . .

لم يُذهِل الملاكَ شيءٌ في الحقيقة: يعرفُ كوكبَ الإنسان عن ظهرِ قلب، لأنّه مديرُ مكتبِ الأعلى جدًّا المختصُّ بِملفّاتِ كلِّ أكوانِه، وساعي بريدِهِ الخاصّ إليها!. . . لذلك تمتمَ في أعماقِه: «لم يرَ الأقدسُ جدًّا من الجَمَلِ إلّا أذنَه!». . .

أعطاهُ الأعلى جدًّا كلّ الصلاحيّات، تركهُ وطاقمَهُ المجرار يتابعون، أوّلاً بأوّل، شؤون وأحوال حياة كوكبٍ لا أهمّيّة له، في كونٍ لا أهمّيّة له. . . فيما يقضي الأجلُّ جدًّا وقتَهُ الثمين يغمرُ سماءَ الأبديّة بألعابٍ ناريّة من البيج بونجاتِ الكونيّةِ العملاقة. . .

ردّ الملاك الأمين:

ـ سمعًا وطاعة أيّها الأجلُّ جدًّا، الأعلى جدًّا، الأعظمُ جدًّا!. . . أعرف ذلك الكوكب عن ظهر قلب، وإن لا أفهم شيئًا من شعبكات وخربطات ما يدور به! اسألني ما تشاء عن أخبارِه، سأُجيبك حالاً! لم أحبّ ضيعةً أو قريةً في أكوانك العملاقة، مثلما أحببتُ ذلك الكوكب، ولم أفكّر بِخنقِ رقابِ سكّانِ كوكبٍ أشعلوا شعرَ رأسي شيبًا إلّا سكّان ذلك الكوكب!. . .

ثم انصرف الملاكُ العظيم لِيعودَ بعد لمحة بصر بِمخطّطٍ معماريٍّ

Twitter: @ketab_n

دقيقٍ للمتحفِ الذي أمر الأجلُّ جدًّا ببنائه!... اقترحَ للأعظمِ جدًّا بُنيةً دائريّة قطرها آلاف الكيلومترات. على جدارها الأسطواني شاشاتٌ عملاقة تنقلُ كلَّ أفلامِ مراحل أوديسةَ الكوكبِ والحياة لحظةً لحظة، كما حصلتْ فعلاً!...

للمتحف بابان متجاوران. اقترح الملاكُ السَّنِيُّ أن يُسمّى الباب الأوّل «باب داروين» تخليدًا لِصاحبِ نظريّة النشوء والارتقاء، وأن يُسمّى الباب الثاني «باب آينشتاين» تخليدًا لِصاحب نظريّة النسبيّة!...

يمكن عبورُ المتحف من باب داروين، باتّجاه عقارب الساعة، لرؤيةِ تاريخِ الكون والحياة أوّلاً بأوّل منذ الانفجار الكوني الكبير. ويمكن عبوره من باب آينشتاين، في الاتّجاه المعاكس، لرؤيةِ التاريخ بشكلٍ تنازليّ من الحاضر حتى بداية البدايات!...

اقترح أن يكون للبابين مدخلٌ واحد، تعلوه لوحةٌ طولها بضعة كيلومترات، منحوتٌ عليها، بالأحجارِ الكريمةِ المنتقاةِ من أفضل جواهر كواكبِ دربِ اللبّانة، بيتُ شعرٍ خالد:

والذي حارتِ البريّة فيهِ حيوانٌ مستحدَثٌ من جماد!

علّق أمينيائيل على البيت:

((قال هذا البيت، أيّها الأعلى جدًّا، قبل ألف عام شاعرٌ عربيٌّ لم يَطُف الأرضَ خمس سنوات بسفينة بيجل (كما فعل داروين) كي يدرك أصولَ الأنواعِ البيولوجيّة وشجرتها السلاليّة التي يسكنُ الإنسانُ أحدَ فروعِها الحيوانيّة، على مقربةٍ شديدةٍ من شقيقهِ العزيز قردِ الشمبانزي... ولم تعتورهُ الحاجةُ لاكتشافاتِ العِلم الحديثِ ليُدركَ أنّ الحياةَ اندلعت من الجماد، أو «استُحدِثت»، كما يقول ببلاغته الحصيفة!...

ما أبدعهُ وأكثفهُ وهو يستخدمُ معًا هذين التعبيرَين: «حيوانٌ»

Twitter: @ketab_n

و«مستحدَثٌ من جماد» في الشطر نفسه! . . . ما أروعَ روحهُ البلّوريّة وهو يُلخِّصُ نصف العِلْمِ الحديث في نصف بيتٍ شعر! . . . ناهيك أنّ ذلك الشاعر العبقريَّ كانَ . . .

كانَ . . .

كانَ . . .

ضريرًا منذ فجرِ طفولته! . . .)).

وافق الأعلى جدًّا، دون تردّد، على المخطّط المعماري لملاكهِ الرائع! . . . لاحظَ أنّه استشهدَ في مخطَّطِه أكثر من مرّة بأبي العلاء، وفي مواقع حسّاسةٍ جدًّا:

ثمّة مثلاً لوحةٌ فوق بابِ داروين مباشرة مكتوبٌ عليها:

أرى الحيَّ جنسًا ظلّ يشملُ عالمي بأنواعهِ، لا بوركَ النوعُ والجِنس!

علّق أمينيائيل على اللوحة قائلاً:

((لا أعرفُ من أهلِ البشرِ واحدًا، قبل أبي العلاء، شعَر بِحَدسٍ إلٰهيٍّ ثاقب أنّ كلَّ الأنواعِ الحيّة، حيوانات ونباتات وطحالب وبكتيريات وغيرها، تُشكِّلُ شجرةً تطوُّريَّةً واحدة، انبثقتْ من الجذر نفسه! . . .

أي: جنسٌ واحد، كما قال الشاعر! . . .

أليس ذلك فحوى نظريّة داروين؟)).

ثمّة أيضًا لوحةٌ مذهلةٌ جدًّا، تُكمِّلُ اللوحة السابقة، مكتوبٌ عليها:

جائزٌ أن يكونَ آدمُ هذا قبلَهُ آدمٌ على إثرِ آدم!

تقعُ بعد بابِ داروين، في علياءِ قسم تنقلُ شاشاتُه صورًا حيّةً لِتطوُّرِ الجنس البشريّ، منذ فجرِ الحياةِ إلى الآنَ! . . .

Twitter: @ketab_n

علّق أمينيائيل على اللوحةِ بِحماسٍ محموم:

((ما أدهى كلمة: «جائز» في هذا البيت! ماكرةٌ عبقريّة!...

يا لَجبرّوتِها: تُفجِّرُ كعُبْوةٍ ديناميت عمارةً ضخمةً من العقائد العتيقة الصمّاء، تطيح بها بقوّةٍ هادئة!...

من خطر له، قبل عشرة قرون، أنّ الإنسانَ جذعٌ في شجرةِ الأنواعِ الحيّة، انتقلَتْ فروعُ أغصانِهِ من نوعٍ إنسانيٍّ إلى نوع، من «آدم لآدم» كما يقولُ الشاعرُ بألمعيّتِهِ الفريديّة، قبلَ أن يصلَ إلى صيغتِهِ الحاليّة: هومو سابيانس، الإنسان الحديث!...

بين «آدمِ ابن آدم» الذي درستْهُ وبرهنتْ على سلسلةِ تطوّراتِهِ البيولوجيّة حفريّاتُ ومختبراتُ الأخِ الأصغر، و«آدم ابنِ النفخةِ في الصلصال» الذي يُلوّحُ به الأخ الأكبرُ في بيارقِهِ ويُحرِقُ حيًّا من يرفضُ الإيمان بها، تكمنُ وتنطوي كلُّ الحروب الروحيّة الخفيّة!))...

ثمّة أيضًا هذا الشطر: «يرى الفكرُ أنّ النورَ في الكونِ مُحدَثٌ» يقعُ في قسم «ولادة الضوء» الخاصّ بتشكُّلِ فوتونات الضوء بعد ٣٨٠٠٠٠ عامًا من البيج بونج، قريبًا من باب آينشتاين!...

علّق عليه أمينيائيل قائلاً:

ـ إلٰهي، كيف شعر هذا الأعمى أنّ ثمّة لحظةً محدّدةً وُلِدَ فيها الضوء في كونٍ كان يسبح قبل ذلك في بحر الظلمات؟...

ثم أردف (حتى لا يدعكَ مزاجَ الأعلى جدًّا وإعجابَهُ الأثير بعبارة: «الضوءُ ظلُّ الله») قائلاً:

ـ لا ينفي ذلك، أيّها الأعلى جدًّا، الأقدس جدًّا، عبقريّةَ وروعةَ عبارة الشاعر جوزيف جوبير: «الضوءُ ظلُّ الله» التي لا أملُّ تَرديدَها، بل

Twitter: @ketab_n

يفتكُ بي جمالُها فتكًا كلّما استذكرتُها (يعني معظم الوقت)!...

ثمّة أيضًا هذا الشطر: «وزمانٌ على الأنامِ تقادمْ!» في القسم الخاصّ بالزمان (الذي وُلِدَ مع البيج بونج)، قرب «بابِ آينشتاين» مباشرة، تخليدًا لمن أدرك ببصيرتهِ أنّ الزمانَ سبقَ ظهورَ الحياةِ والأنام، «تقادمَ عليها» (بحوالى تسعة مليارات سنة، كما سيُحدِّدُ العلمُ بعد موتِ أبي العلاء بحوالى تسعة قرون!)...

عبّر أمينيائيل ببراءته الشهيرة وصدق أحاسيسه عمّا يختلجُ في مشاعرهِ قائلاً:

ـ ما أغرب بشر ذلك الكوكب: أبصرُهم أعمى! لعلَّ فقدان البصرِ بصيرةٌ فعلاً، وتَحرُّرٌ من سرابِ مرايا الواقعِ وخداعِ بريقِه الوهمي!... ربّما تمكّن تيريزياس الأعمى، بسببِ ذلك، من التنبّؤ بأنّ أوديب سيقتلُ أباه ويتزوّجُ أمّه!...

أُعجِب الأعلى جدًّا بأبي العلاء («زرقاءُ يمامةِ الفكر»، كما يسمّيه أمينيائيل) الذي لم تَنْحَنِ البشريّةُ بعدُ إجلالاً له!... أمر ملاكَهُ الحبيب، بِوُدِّه الربّانيِّ الغامر:

ـ لا تنسَ، عزيزي أمينيائيل، أن تكتب تحت أبيات شِعرِه: «أبو العلاء المعرّي (شاعرٌ ضرير، وُلِدَ بمعرَّةِ النعمان في العام ٩٧٣، ومات في العام ١٠٥٨!)»...

علّق أمينيائيل (الذي لا يستطيعُ منعَ نفسهِ عن التعليقِ على كلّ شيءٍ ولا شيء، لا سيّما في حضرةِ حبيبِهِ الأكبر، الأعلى جدًّا):

ـ مات قبل ألف عامٍ وعامٍ بالضبط من نشرِ كتاب «أصل الأنواع»!...

Twitter: @ketab_n

١٢

أصفادُ السجنِ الثالث

شاركتْ أمّي ذات يوم، دون أن يعرف أحدٌ أنّها سليلةُ أبي العلاء، في ندوةٍ خجولةٍ (لم يسمع بها أحدٌ تقريبًا) عن مرور ألف عامٍ على ميلاد أبي العلاء!...

قالت في مداخلتها ما يلي عن سنوات عزلةِ سلَفِها في قضبان بيتهِ لِمُدّةِ خمسين عامًا:

((خمسون عامًا من التصومعِ والزهدِ في أصفادِ محبسِهِ الثالث الذي يقبعُ داخله محبسُهُ الثاني: الجسد، الذي يقبعُ داخله محبسُهُ الأوّل: العمى:

أراني في الثلاثةِ من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيثِ
لِفقدي ناظري ولزومِ بيتي وكَونِ النفسِ في الجسدِ الخبيثِ

مارس خلالها طقوسَ التأمُّلِ والبحثِ والمكابدةِ والخلق، بعيدًا عن لغطِ الغوغاء وبريقِ الزيفِ اليومي.

خمسونَ عامًا توالتْ ببطء، يومًا بعد يوم، شهرًا بعد شهر، لِيسيلَ

Twitter: @ketab_n

من تعاقبِ دقائقِها وساعاتِها، شهيقِها وزفيرِها، عسلُ الحكمةِ الصافي الذي صبَّ نهرُهُ في صحراءِ أمّةٍ جاحدةٍ صمّاء، انقطعَ عِرْقُ الذوقِ من جبينها!...

وأنفقتُ بالأنفاسِ عمري مجزّئًا بها اليومَ، ثم الشهرَ، يتبعهُ الشهرُ
يسيرًا يسيرًا مثلما أخذ المدى على النأي ماشٍ في جوانحهِ بُهرُ
كَذَرٍّ على ظهرِ الكثيبِ فلم يزل به السيرُ حتى صار من خلفِهِ الظهرُ

شِعْرٌ رهيفٌ كَسَيرِ الذرِّ على ظهرِ الكثيب، لَدُنِّيٌّ خالص!...

قطعةٌ سيمفونيّةٌ جنائزيّة بإيقاعِ عُمْرٍ طويلٍ يُنفَقُ شهيقًا وزفيرًا، مثلُ شطرِ بيتِ شِعرٍ يتلوهُ شطرٌ آخر، خلال حياةٍ كلّها شِعر... يُنفَقُ شمعةً تتقدّمُ وراء شمعة، في ظلامٍ سرمديٍّ لِلَيلٍ بهيم...

يصعبُ أن يكونَ الشعرُ أكثر شِعْرًا من هذه الأبيات!...

خمسون عامًا «أدار ظهرَهُ بعدها للكثيب» كما يقول بأجملِ الكلمات، أثْرَتِ الأدبَ والفلسفةَ الإنسانيّين أيّما إثراء، كتب خلالها «رهين المحبَسَين» (كما سمّى نفسه) أهمَّ أعمالهِ العظيمةِ الفريدة، لا سيّما ديوانَهُ الإنسكلوبيديَّ الخالد: «لزوم ما لا يلزم»، ونصَّهُ السرديَّ العبقري: «رسالة الغفران»).

لم تضف أمّي هذه العبارة السرّيّةَ للغاية، المكتوبةَ في إحدى أوراقها، في ملفٍّ مُحصّنٍ في صندوقِها السرّيّ: «غايتهُ في كلِّ ذلك أن تقرأهُ هِنْدُ ذات يوم!»...

لم تضف أيضًا عبارةً أخرى في مداخلتها كان سيمنعها سيفُ الرقابةِ السوريّ: «سجنهُ الثالثُ.يقبعُ اليوم قرب سجنِهِ الرابع: القبر، الذي يقبعُ داخل سجنِه الخامس: المعرّة (التي أصبحت اليوم قبرًا يرتعُ فيه الفقرُ

Twitter: @ketab_n

والبؤس) يقبعُ هو الآخر داخل سجنٍ سادسٍ. . .».

لكنّها أضافت في مداخلتها للندوة:

((عاش أبو العلاء فعلاً نصف قرن في «ماتريوشكا» سجونِهِ الثلاثة، لكنّ كلماته رحّالةٌ تعبرُ الزمن، خيولٌ جائلةٌ تسافرُ بِنعالِ الريح نحو المستقبل، تخترقُ القرون. يهوي جسدُ الفارسِ ويذوي، «ينقلهُ الحتفُ عن عاداتِه» كما يقول أبو العلاء، فيما تواصلُ خيول الكلماتِ، مشرئبّةَ الأعناق، رحلتَها الأبديّة في دنيا الخلود:

لا خيلَ مثل قوافي الشعرِ جائلةً   أبقى على الدهرِ أعناقًا وآطالا

إن ينقُلِ الحتفُ عن عاداتِهِ بطلاً   فما تزالُ معانيهنّ أبطالا))

ثم اختتمَتْ أمّي مداخلتَها بهذه العبارة (التي يعرفُ مدلولَها من قرأ زرادشت!):

«هكذا تحدّثَ أبو العلاء!»، وإن لم يكن هناك أجمل وأقوى من خَيْلَي ذينكما البيتين الشعريّين وهما يعبران الدهر بأعناق مشرئبّة، لاختتامِ أجملِ مداخلة!. . .

أحيّيكِ يا من تدمعُ عيناها دومًا عند قراءةِ الكلماتِ الأدبيّة الجميلة، نوال التنوخي، أمّي!. . .

لم يبقَ لي الآن إلّا أن أحيّيَ تلك التي بدأ كلُّ شيءٍ في هذه الرواية عشيّة اختفائها، في فجر رأس العام ٢٠١٠، لمياء!. . .

* * *

لمياءُ ترتدي فستانًا حريريًّا خفيفًا يمتزجُ فيه الأزرقُ بالأبيض. أزهارهُ رهيفةٌ سائلة، زرقاءُ جدًّا بِلونِ البحرِ الأحمر في الصيف، لونِ عالَمِها المفضّل: لمياء باحثةٌ متخصّصةٌ بِشُعَبِ البحر الأحمر المرجانيّة.

Twitter: @ketab_n

تغادرُ باريس عدّة مرّات سنويًّا باتّجاهِ البحرِ الأحمر وخليج عدن وخليج سيناء لمُهمّاتٍ علميّة.

الفستانُ ناصعُ البياض، له لونُ قلبِها، لونُ بشرتِها الأسيلةِ النقيّةِ الناعمة!...

شقّةُ أصدقائنا في الحيِّ السادسِ من باريس، التي أصِلُها مع لمياء، جاهزةٌ لِحفلَةِ استقبالِ العام ٢٠١٠.

اعتدنا، وأصدقاءَ آخرين، التحضيرَ جميعًا لِحفلات رأسِ السنة بِحُبٍّ وتأنٍّ وشغَف: كافيار، كبد البطّ المسمّن وسلمون مدخّن يصنعهما لنا متخصِّصٌ في مطعمٍ باريسيّ، قواقع وفواكه البحار والمحيطات، صوصات ومشويّات، كلّ ما ندر وطاب من الوجبات الغريبة اللذيذة والحلويات المختارة بعناية... بعض أرقى مشروبات النبيذ والشمبانيا... هدايا، سيجار فاخر، مفاجآت، موسيقى تختلطُ فيها «قُلْ لِلمليحةِ ذي الخمارِ الأسودِ» لصباح فخري، بِفالس رافِل، بِسيمفونيات أنتونان دفوراك التي تعشقُها لمياءُ عشقًا!...

أسمحُ لنفسي في رأس السنة بأن أتجاوز حدودي الدينيّة الصمّاء (كأسا نبيذٍ لا غير، في بعضِ الأيّام فقط) من المشروبات الروحيّة، داعيًا المولى عزّ وجل، على غرارِ أحدِ أحبِّ أصدقائي، أن «يخصم ما أشربه من مستحقّاتي من أنهار الجنّة»!...

لكنّني أجد هذه المرّة بهجةً حقيقيّةً غيرَ اعتياديّة في تذوُّقِ ألوانِ المشروبات بدون حساب، وكأنّي أريدُ تخديرَ شجونٍ ما، أو كأنّي أبحثُ عن «اللجوءِ الكحوليّ» للهروبِ من ظلال أشباحٍ غامضة تحتشدُ وتتناسلُ على جدران كهوف روحي. قرّرتْ، كما يبدو، أنْ يكونَ لها موعدٌ انفجاريٌّ معي في نهاية هذا العام الذي سال بين أصابعي بِسرعةٍ مارقة!...

Twitter: @ketab_n

١٣

سخطٌ ربّانيٌّ صامت

اختطف كوكبُ الأرضِ وجدانَ الأعلى جدًّا في آخر المطاف: لم تَعُد تُهِمُّهُ، كعادتِهِ، هوايةُ تفجيرِ البيج بونجات وصناعة الأكوان! شعر بنوعٍ من الضجرِ من ممارسة هذه الهواية التي تُسبِّبُ له الصداع، منذ مليارات السنين!...

لم يعد يمرُّ أسبوعٌ دون أن يَخْلُدَ للراحةِ بُرهَةً لانهائيّةَ الصغر لمُراقبةِ ما يدور في ذلك الكوكبِ الضائعِ في مجرّةٍ صغيرةٍ في كونٍ مغمورٍ داخل محيطِ أكوانهِ اللانهائي!...

صار كوكبُ الأرضِ الضئيلُ ملاذَهُ اللذيذ من السأم، طفلَهُ المُدلَّل!...

استوعب معظمَ ما دار فيهِ، منذ تشكُّلِه، في أقلِّ من واحدٍ على مليارِ مليارِ مليارِ لمحةِ بصر. عرف خلالها سيرةَ حياةِ ملياراتِ مليارات ملياراتِ البشرِ والحيوانات والنباتاتِ والبكتيريا والجماد في أقلّ من واحدٍ على مليارِ مليارِ مليارِ ثانية. أجادَ خلالها لغاتِ كُلِّ البشر (بما

Twitter: @ketab_n

فيها اللغات المنقرِضة) أفضلَ من ناطقيها في أقلّ من واحدٍ على مليارِ مليارِ مليارِ ثانية!...

غير أنّ الأعلى جدًّا، تألَّمَ وهو يُلاحظ أنّ الشرّ والآلام تغمرُ هذا الكوكبَ من طرفهِ إلى طرفه، منذ فجرِ التاريخ إلى الآن. الفقرُ والظلم والمجاعات تطحنُ معظمَ سكّانه، الحروبُ ثابتٌ أزليٌّ فيه!...

يتغيّرُ ديكورُ المسرحِ الأرضيّ من زمنٍ لِزمن، لكنّ المسرحيّة نفسَها تتكرّرُ على الدوام: عنفٌ ودمار، صراعٌ دامٍ للاستيلاء على السلطة والموارد، نهبٌ لا يتوقّف، خرابٌ وموت!...

ما أبشع هذا الكائن وهو يُحرِق مُدنَ جيرانه، يغتصبُ نساءَها وأطفالَها، يصنعُ أحقر المنكرات: النازيّة، الفصل العنصريّ (الأبارتايد)... يرتكبُ أحطَّ المجازر: الحروبَ الصليبيّة، الحربين العالميّتين، تدمير هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرّيّة، المحرقة (الهولوكوست)، حرب ڤيتنام، احتلالَ فلسطين وتشريدَ شعبِها، جرائم الإبادة الجماعيّة في رواندا، البوسنة، صبرا وشاتيلا، حَلْبَجَة... وعددًا هائلاً من أقذر الجرائم!...

ما أظلمَهُ مثلاً وهو يصلُ في سفينةِ كريستوفر كولمبس لِعالَم جديد، يبحثُ فيه عن معدنٍ سخيفٍ أصفر! تتعانقُ أمامه قارّتان مدهشتان، تسيلان أمامه. لا يُهِمُّهُ ذلك، بقدرِ ما يُهمُّهُ ويُسيلُ لعابَه بريقُ ذلك المعدن!... يُدرِّبُ أحصنتهُ وكلابَه لإبادة مليون هنديٍّ أحمر بهمجيّةٍ ووحشيّةٍ بحثًا عن الذهب، في أرضٍ بلا ذهب (لم يتبقّ منهم إلّا عشرون ألفًا بعدَ ذلك)!...

ما أقربه للجنون وهو يُلوِّثُ كوكبَهُ بنفايات المصانع وغازات الاحتباس الحراري التي تُذيبُ جليدَ المحيطات الثلجيّةِ والجبالِ الشاهقة، موشكةً أن تُفجِّرَ غضبَ الكوكب وتطيحَ بِتوازنِ منظومتهِ البيئيّة!...

Twitter: @ketab_n

تأوّهَ الأعلى جدًّا حسراتٍ ارتجّتْ لها «الثقوبُ السوداء» والمجرّات:

((آه، هذا المخلوق الصغير الذي استطاع معرفةَ التركيبِ الحميميّ للذرَّة، الذي فكّ أسرارَ أصلِ الحياة، الذي صنعَ الكمبيوترَ وسكانيرَ قراءةِ الدماغ، هو نفسُهُ المخلوقُ الدمويُّ الناهبُ المُخرِّبُ المغتصبُ المجنون الذي اخترعَ القنبلة الذريّة، الأسلحة الكيماويّة، الجحيم، الأسلاك الشائكة، الحدودَ الجغرافيّة وتأشيرات السفر...

هو نفسُه، يا لَلمأساة، من قال عنه أبو العلاء:

شرُّ أشجارٍ علمتُ بها شجرات أنبتت ناسا
كلّهم أخفتْ جوانحهُ ماردًا في الصدر خنّاسا

هو نفسُه، يا لَلكارثة، من قال عنه زرادشتُ نيتشه، رفيقُ أبي العلاء الذي لا تفصله عنه إلّا تسعة قرون:

«في مسرحيّات المآسي وفي مصارعة الثيران وأعمال الصلب كان يجدُ دومًا أكثر ما يغمرُهُ سعادةً على وجهِ الأرض. وعندما اخترعَ الجحيم كان ذلك جنّتَهُ على الأرض!»...

ثمّة في هذا الكوكب، يا لَخيبتي، درَنٌ جذريٌّ يشتاقُ لِطوفان، كما قال أبو العلاء:

والأرضُ لِلطوفان مشتاقةٌ لعلّها من درَنٍ تُغسَلُ))

تنحنحَ الأقدسُ جدًّا!

حكَّ رأسه بقلقٍ (لا يخلو من طوفانِ سخطٍ ربّانيٍّ صامت)!...

شعر بإحباطٍ مفاجئ، بِقَرف!...

راوَدتْهُ فكرةٌ قاسيةٌ جدًّا!...

Twitter: @ketab_n

١٤

لمياء

لا جديد في حفلةِ رأسِ العام ٢٠١٠، اللهمّ إلّا أنّ أحدَ أصدقائنا حضر برفقةِ شاعرٍ كان يعبرُ باريس في طريقه للمغرب. اقترح صديقُنا عليه في الحادية عشرة والنصف بأن يقرأ بعض أعماله!...

كان الشاعرُ قد أعدّ سيناريو عرضهِ الشعريِّ بِشغَفٍ وأناقةٍ ومهارةٍ وعنايةٍ بالتفاصيل! شِعْرٌ مُكثّف، مغامراتٌ أدبيّة شديدةُ التنوّع والعَصْرِيّة، إلقاءٌ جذّاب، جنونٌ عنيف، كلماتٌ نقيّة تسيلُ على إيقاعِ موسيقى وصوَرٍ تتناغمُ وكلَّ قصيدة، تتماوجُ على شاشةٍ كريستاليّةٍ سائلة متّصِلةٍ بالكمبيوتر!...

كان العامُ الجديد قد بدأ قبل ٣٥ دقيقة!... لم نلاحظ ذلك، نحن الذين اعتدنا التحديقَ في ساعاتنا قبل بدء العام بعشر دقائق، بانتظار ثانيةِ منتصفِ الليل القَدَريّة، كي نمارس طقوسَنا الوثنيّة:

نتعانقُ ونهنّئُ بعضُنا بعضًا ببدءِ عامٍ سعيد، بنفس دقّةِ توقيتِ قطيعٍ من أجدادِنا البدائيّين في غابات أفريقيا، وهي تُباغتُ فِيلَ ماموت، تهجمُ

Twitter: @ketab_n

عليه بالمشاعل من كلِّ الجهات، في الثانيةِ نفسها، كبرقٍ خاطف، تنقضُّ عليه، ثم تبدأُ أسبوعًا من الولائمِ والإجازاتِ الجماعيّة، تمارِسُ فيه العشقَ حتى الثمالة، وكثيرًا من الرقصِ الجماعيِّ الليلي، والفنونِ الميتافيزيقيّةِ التي تنقشُها في جدرانِ مغارةِ الجبل المجاور!...

انتصرَ شاعرُنا المغربي على طقوسِنا الوثنيّة، مثلما انتصرَتْ شهرزاد في ألفِ ليلةٍ وليلة، مثلما تنتصرُ الكلمةُ دائمًا في آخر كلّ مطاف!...

كانت لمياء كعادتها جذوةَ الحفلة، نبراسَ الليلة، إلٰهتي الصغيرةَ التي أنتصرُ بها كلّ ثانيةٍ على الزمن!...

عشرون عامًا من الحياةِ المشتركة معها مرّت كخمس دقائق! فتاةٌ في الأربعين برقَّتِها وذكائها وروعةِ مهنتِها وشغفِها في أن نعيش الحياةَ بالطولِ والعرض، بِجسدِها البديعِ وجمالِها الخالص (لستُ منافقًا كي أمنعَ نفسي من الاعتراف بذلك، ومن التلويحِ به بِفخْر: لمياءُ حسناء، مذهلةُ الجمال!)، تملأ كلَّ فضاءٍ من يعشقها!...

أعشقُ في الحقيقة شيئين في هذه الدنيا أكثر ما أعشق:

١) أن أتناول معها وجبات في المطاعم التي نحبُّها (نمارسُ هذا الطقس عدّة مرّات كلّ أسبوع. لا نتوقّف فيه عن الحديث الآسر في كلّ شيء ولا شيء، كأنّنا تعارفنا قبل خمس دقائق فقط، ويريدُ كلٌّ منّا إسقاطَ الآخرِ في عشقهِ بعنف).

٢) أن أدخلَها كلَّ ليلةٍ بتفجُّرٍ ورغبةٍ شديدتين، ثم «أتشعْبَطُ» فيها أثناء النوم كأنّنا جسدٌ واحد: أسندُ رأسي على كتفِها أو أتركُها تغوصُ في أحضاني، ألتحفُها وتلتحفني، أتلفَّعُها وتتلفَّعُني، أغرقُ في روائحِها، وأحيطُها بيدَيّ ورِجليّ من كلّ جهة كأنّنا ملاءتين متداخلتين، ثم أنامُ ملتصقًا بها كطفل!...

Twitter: @ketab_n

عشرون عامًا تنقّلنا خلالها من البرازيل (حيث يسكن أبواها، سوريّان مهاجران)، حتى أستراليا، مرورًا بستّين بلدًا!... غَرِفْنا من الحياة بِنَهم، لم نتوقّف عن التسكُّعِ في أزقّةِ العالَمِ الفسيح والاندماجِ بضراوة في تفاصيله الصغيرة كـ «حاديي أظعانٍ يطويانهِ طيًّا»، حسب تعبير ابن الفارض!...

عُمنا خلالها في كلّ محيطاتِ وبِحارِ الكون بِهوَسٍ يقتربُ من مصافِّ الجنون، لا سيّما في لجّ البحر الأحمر الذي تطوفهُ لمياءُ كسمكة، تنجذبُ له بمغناطيسيّةٍ وعشقٍ فوق طبيعيّ، تعرفُ أغوارَهُ وشُعبَهُ المرجانيّة وكلَّ كائناته عن ظهر قلب، كما يعرفُ المرءُ منديلَ جيبِه!...

قضينا أجلَّ لحظاتِ حياتِنا نتمرّغُ في رمالِ الشواطئ الجميلة، نضطجعُ فوق صخورِها في مواقِعَ بَكينا أحيانًا من فرطِ جَمالِها، نتسكّعُ في مقاهي الجزرِ النائية التي نجدُ فيها سعادةً كثيفةً لا نستطيعُ وصفَها!...

لعلَّ لِتعلُّقِنا بالبحار (من يدري؟) علاقةً ميتافيزيقيّة بذلك الماضي السحيق الذي نشأتِ الحياةُ وتطوَّرتْ فيه داخل الماءِ فقط، طوال أكثر من ثلاثةِ مليارات عامٍ، قبل خروجها إلى اليابسة في المليار الرابع فقط!...

نغادرُ الحفلةَ في الثانية والنصف باتّجاه شقَّتِنا في الحيّ الخامس عشر. لمياء تقود السيّارة في شوارع باريس المكسوّةِ ببياضِ ثلجٍ متوهّجٍ ناصع!... يلفُّنا في كلِّ مكانٍ منها، في هذا الوقتِ المتأخّر من الليل، ضياءٌ فضّيٌّ غامضٌ خفيفٌ آسر. شذراتٌ مُدوِّخة من «بون آنيه» (عام سعيد) تصِلُنا بين الحين والحين من شبابٍ يجدُ طريقَهُ بِصعوبةٍ على الأرصفة!...

Twitter: @ketab_n

ـ كوعُ رجلكِ يزدادُ جمالاً منذ عشرين عامًا!...

ـ بِجَدْ؟...

ـ صدغُكِ أيضًا يزدادُ حلاوةً، قلبي!...

ـ آه!...

ثم كرعتُ عموديًا أمام مسمعِها ذكريات توحُّداتِنا في كلّ رأس سنة، منذ عشرين عامًا، سنةً بعد سنة!...

أراقبُ بتلذّذ، وأنا أسترسلُ بالسرد، لمعةَ عينيها وهي تقودُ السيّارة، ابتسامتَها الجنّيّةَ الخلّابةَ الخفيفة، وتلذّذَها المتواطئَ الجليَّ لتذكُّري كلَّ صغيرةٍ وكبيرة!...

معطف باريس الأبيض الذي يحتضنُنا يناسبُ مزاجَ حبيبَين مثلنا، سماوات حياتِهما بهيّةٌ مُشرِقة. عشقُهما كُلّيّ، يرقصُ على أرضٍ نقيّةٍ بيضاء، في فضاءٍ منيرٍ مفتوحٍ على الأفق، لا تشوبهُ أشباحٌ أو قصصٌ محبوكةٌ أو مماحكاتٌ أو لُعَبُ مراهِقةٌ سخيفة!...

الأدهى: كانت تُصحّحُ بعضَ أخطائي في ترتيبِ السنين، تضيفُ ذكريات عبارات ولحظات حميميّة نسيتُها تمامًا، وتفاصيل صغيرةً في غاية الحلاوة! (هزمَتْني: «المرأةُ لا تعرفُ غير الحبّ، لا تؤمنُ إلّا به!» كما قال من قال)!... يكفي سماعُ حوارِنا لإدراك أنّ أُلبومَ عشقِنا يحميهِ من النسيان عاشقان أمينان يحرسان كلَّ طقوسِهِ المجنونةِ اللذيذة!...

تلاهُ حوارٌ، لا أتجرّأُ على سردِهِ هنا، امتلأ بمقارنات رياضيّةٍ بين كثافةِ اللذّة في رأس هذه السنة أو تلك، حجم المتعة... وكأنّا مكلّفان بإعداد تقريرَين متوازيَين، مدعومَين بالرسوم البيانيّة، طلبتْهُما أفروديت،

Twitter: @ketab_n

لِتقييمِ ممارستِنا للعشق في رؤوس العشرين سنة الماضية!...

لا أدري لماذا اكتسحتني الشجون والذكريات والحنين والنوستالجيا في رأس العام ٢٠١٠ على غير عادتي تمامًا، أنا الذي أنظرُ إلى الأمام دائمًا!... أبِسببِ ازدحام العشرات: لمياء في الأربعين تمامًا، أنا في الخمسين تمامًا، وحياتنا المشتركة في العام ٢٠١٠ عمرها عشرون عامًا بالضبط؟...

نصلُ البيت. تبدأُ لمياء بزيارة حوض الشعبِ المرجانيّة في الصالون! تُحيِّي كلَّ شُعبةٍ مرجانيّةٍ وسمكةٍ صغيرةٍ ملوّنة! تتفقّدُ أحوال كلِّ حيوانٍ مائي (لم أكن أعرف قبلها أن الشعبَ المرجانيّة حيواناتٌ وليست نباتات!)، تنظرُ له كما تنظر الأمُّ إلى طفلِها!...

ثم تذهبُ للأنبوبة الأسطوانيّة الزجاجيّة البيضاء الطويلة التي تسترخي فيها قناديل ورخويّات ورئات بَحْريّة أحضرَتْها من رحلاتها إلى البحر الأحمر وخليج عدَن!...

على جانبَي الأنبوبة الأسطوانيّة سراجان نحيفان متوازيان يمتدّان من الأرض إلى السقف، يبعثان ضوءًا هادئًا يمكنُ تغييرُ ألوانِه!...

تُحيِّي لمياءُ كائناتها واحدًا واحدًا!...

لكلِّ شُعبةٍ مرجانيّة اسم (فاطمة، بريجيت، سُعاد، إيزابيل، فردوس، جاكلين، عبد الوارث، سيلڤي، بهيّة، وردة، مها، عيشة، سونيا، إيما، سميرة، زينب، هيلين...)!

يكفي أن تنظرَ لمياءُ لِشُعبةٍ مرجانيّة (كما يقول زملاؤها في مختبر عملها) لِتسردَ عن ظهر قلب سيرتَها الذاتيّة وتاريخَها البيولوجي: «لمياءُ أنسكلوبيديّةُ شُعبٍ مرجانيّةٍ متنقّلة»، كما يُسمّيها زملاؤها في المختبر!...

Twitter: @ketab_n

تضخُّ إلى الأنبوبةِ الزجاجيّة والحوضِ غذاءً خاصًّا لهذه الكائنات الرقيقة، ومساحيق ثمينةً لِتنظيفِ الماءِ الذي أحضرَتْه مع هذه الأسماك من البحر الأحمر!... (أشعرُ دومًا، لا أدري لماذا، بنشوةٍ خفيفةٍ وأنا أرى كلّ يومٍ ماءَ البحرِ الأحمر يتلألأُ شفّافًا رقراقًا في شقّتِنا)!...

أجلسُ على الكنبة. أغيبُ في حنينٍ غامضٍ غريب. أسترجعُ أحلامًا صغيرةً مؤجَّلة صعدَتْ لِسطح ذاكرتي بعنف في هذه اللحظة الحميميّة الهادئة من بدء عامٍ جديد!...

أعيشُ ما يُشبِهُ لحظةَ إعدادِ كشوفاتِ حساباتٍ نهائيّة! أزِنُ أيّامي بِصمت، أتأرجحُ مثل شوكةِ ميزان!...

يراودني شيءٌ ما يُشبهُ الندم!...

لعلّي أبدو في الحقيقة، كما يلاحظ أصدقائي، سعيدًا في حياتي وعملي!... لكنّي أحملُ في طيّاتِ أعماقي جراحات، تزدادُ ثقلاً مع مرِّ الزمن، آنَ أوانُ أن أكشفَ نقابَها الآن وأسردَها دفعةً واحدةً!...

Twitter: @ketab_n

١٥

الأعلى جدًّا يشمُّ رائحةَ خراب

ما إن شعر الأعلى جدًّا بالهمِّ والغمّ، وهو يرى كوكبَ الأرضِ مسرحًا للأوجاعِ والشرِّ والألم، حتى قرّرَ العزوفَ عن مشاهدةِ يوميّاتهِ المجنونة! . . .

تأفّفَ منه. تكفيهِ، إذا راودهُ يومًا حنينٌ ميتافيزيقيّ، العودةُ لمتابعةِ أخبارِ هذا الكوكب، مرّةً كلَّ بضع مئاتٍ من السنين، ورؤيةِ تطوّراتِهِ وجديدِه، إذا كان ما زال عليه حياةٌ وبشر! . . .

قال بِحزنٍ جليٍّ وهو يُودِّعُ هذا الكوكبَ الشقيّ، في لحظةٍ تراجيديّةٍ ارتجفَتْ لها أطرافُ السماءِ السابعةِ والسبعين:

((من يدري، ربّما تتغيّرُ في هذا المخلوقِ المرعوشِ «الطبيعةُ الإنسانيّة» التي تشكّلتْ في معمعان الحياةِ الاجتماعيّة البدائيّة للإنسان خلال عدّة ملايين من السنين، لِينكسرَ هذا المجرى الدائريُّ الأبديُّ لِسلسلةِ الحروب والاغتصابات والنهب والظلم والآلام! . . .

من يدري، ربّما يأتي عصرُ «الإنسانِ الأعلى» الذي تنبّأ به نيتشه،

Twitter: @ketab_n

على أعقاب آلاف سنين ساد فيها العنف والعبوديّة والاستبداد، في أرضٍ يكونُ فيها هذا الإنسان، الذي أنجب شلّة «مقهى الكوكبَة»، قد تحرّرَ تمامًا من عقليّة العبوديّة والخضوع، وحقّقَ انتصارات حضاريّةً حاسمةً أكبر في مجالات الحرّيّة والقانون والمساواة!...)).

أضاف الأعظمُ جدًّا، بتردُّدٍ وشكٍّ وحسراتٍ من عرف أكثر من غيرهِ تعقيدَ «الطبيعةِ الإنسانيّة» ودهاليزِها المظلمة: «من يدري؟!»...

ما أعمق وأعذب وأحلى «من يدري؟» عندما يلفظُها الأعلى جدًّا!...

غير أنّ الأقدسَ جدًّا لاحظ فجأة ظاهرةً فريدةً في بقاعٍ منكودةٍ في الأرض، لم يُعطِها انتباهًا خاصًّا من قبل! شاهد كم تستفحلُ فيها الغيبوبةُ الحضاريّة وتتكثّفُ الظلمات منذ قرون طائلة!...

ما جَرحَهُ بشكلٍ خاصّ هو أنّ معظمَ سكّانِها يعتقدون أنّهم أكثرُ أبناءِ الأرض وفاءً للأعلى جدًّا، يتحدّثون باسمهِ على الدوام (يقولون إنّه اختارهم موطنًا «للإيمانِ والحكمة»، وجعلَ الآخرين موطنًا «للانحراف والرذيلة»!)، فيما هم الأكثرُ تمرُّغًا في حياةٍ حالكةٍ ديدَنُها الخضوع والقمع والنفاق والرياء والعبوديّة، الأكثرُ تلميعًا وتطبيلاً للجلّادِ والطاغية، الأكثرُ قبوعًا كسلحفاةٍ عرجاء خارج بابِ العِلمِ والحضارةِ الحديثة التي يتقدَّم الآخرون في رِحابِها بسرعة النسور!...

لم يفهم الأقدسُ جدًّا شيئًا ممّا يحدثُ في تلك الديار. كلّما توغّلَ في تفاصيلِ حياةِ أهلِها استفحلَ اللغز:

عندما يبدأ المواطنُ هناك باستنكار الظلم يصيحُ به بائعو العبوديّة، باسم الأجلِّ جدًّا: «اصبرْ: دولةُ الظلمِ ساعةَ، ودولةُ الحقِّ حتى قيام الساعة»!...

Twitter: @ketab_n

عندما يحاولُ الرفضَ، يُلوِّحون له، باسم الأقدسِ جدًّا، أنّه تجاوزَ الخطّ الأحمر: «وأطيعوا وليّ الأمر!»...

تملْملَ الأقدسُ جدًّا في علّيّين السابعةِ والسبعين! عبرَتْهُ مسحةُ غضب، قشعريرةٌ إلٰهيّة!...

ثم سمعهم يقولون إنّه قال: «إن تعذِّبْهم فإنّهم عبادك، وإن تغفرْ لهم فإنّك أنت العزيزُ الحكيم»!...

أصابه الدوار: لا تُثيرُ غثيانَهُ، في الحقيقة، كلمةٌ واحدةٌ أكثر من كلمةِ «التعذيب»!... أمّا إذا أنيطتْ بهِ هذه التُّهمةُ فالبشرُ قليلو الحياء، يرمون بجلالةِ اسمهِ المقدَّسِ في الوحل، دون خجل!...

باي باي!... في ستّين داهية!... على الأرضِ السلام!...

تأرجحَ الأعظمُ جدًّا بين الرغبةِ في إهمالِ هذا الكوكبِ المعتوه، أو مواصلةِ الحفرِ والتغلغلِ في خفايا بقاعهِ الغامضة!...

فضّلَ التغلغل!...

ازداد قرفُهُ وهو يرى أنّ الأنثى تُعتبَرُ هناك: «حَطَبَ جهنّم» في أسوأِ الأحوال، نصفَ الذَّكَرِ في أفضلِها!... شاهدَ بِحزنٍ لا حدَّ له أنّها المنطقة الوحيدة في العالَم التي تخرج فيها المرأةُ إلى الشارعِ مُحاطَةً بِخَيمةٍ سوداء!... كلُّ هذا باسمِ شريعتِهِ أيضًا!... وأنّه، بكلِّ عظمتهِ وجلالِه، متّهمٌ بأنّه قال هذه الآيةَ الداكنة التي لا يمكنها أن تصدرَ إلّا من متوحّشٍ ساديٍّ أو عديم أخلاق: «واهجروهنّ في المضاجع، واضربوهنّ!»...

شعرَ برغبةٍ عنيفةٍ في التقيّؤ، لم تراودْهُ يومًا ما!...

وجدَ الأقدسُ جدًّا أنّ اسمَهُ الأجلَّ جدًّا محشورٌ في تلك الديار،

Twitter: @ketab_n

بشكلٍ آليّ، لِتبريرِ كلِّ ما يثيرُ سخطَهُ وغثيانَه:

يُحلَّلُ القتلُ فيها بِاسمِ شريعَتِه. تنسحِقُ فيها الشعوب أمام حُكّامِها المستبدِّين الذين يعثون بحياتِها فسادًا باسمِ شريعتهِ أيضًا...

يرفضُ فقهاءُ أحدِ بلدانِها مثلاً أيَّ قانونٍ يمنعُ زواجَ الطفلات (يسمّوهنّ: «الموز» أو «البَيض») بِحجَّةِ أنّ الرسول تزوّجَ عائشة وهي في «سنِّ البَيْض»، التاسعة من العمر!...

في بلدٍ آخر تُجلَدُ المرأةُ إذا لَبِستْ بنطلونًا!... القَضِيّةُ الفكريّةُ الجوهريّةُ لبلدٍ آخر: «هل يجوزُ أن تقودَ المرأةُ السيّارة؟»!... في بلدٍ آخر بدأ عصرُ أمجادِ «بولِ البعير» و«رضاعِ زميلاتِ العمل»!... يفتي فقهاءُ بلدٍ آخر بِترقيعِ غشاءِ البكارة، لمن فقدتْهُ قبل الزواج، لِمُغالَطةِ الزوج!...

متحفُ كوابيس!...

لم يمتلك الأعلى جدًّا القدرةَ على مواصلةِ التجوّل في متحف الرعبِ هذا. شعرَ أنّهُ مطعونٌ في الظهر في تلك البقاع التي تقذفُ باسمِهِ المقدّس، بانتظام، في أسوأِ الأدرانِ التي تثيرُ غثيانَه!... أسماها «بقاع المشلولين»!...

غيّرَ قرارَهُ بالاكتفاءِ بِمشاهدةِ آخر تطوّرات كوكبِ الأرض مرّةً واحدةً كلّ بضعة قرون: قرّرَ أن يستوعبَ علّةَ ما يدور في «بقاع المشلولين»!...

فكّرَ الأجلُّ جدًّا كثيرًا... شعرَ أنّه لن يفلحَ وحدهُ بِتفكيكِ وإجلاءِ تعقيدات هذه الأسرار التي بدتْ له أكثر فأكثر عبثًا وغموضًا!...

وجدَ الأعظم جدًّا أنّ ثمّة، لا شكّ، مفارقةَ المفارقات:

Twitter: @ketab_n

«لا صوت يعلو فوق صوتِ الأخِ الأكبر» هو الشعارُ المهيمنُ على حياةِ تلك البقاع، فيما انتصرَ مشروعُ الأخِ الأصغر بِشكلٍ حاسم خارَجها (في كلّ مكانٍ في العالم تقريبًا، من أطرافِ أستراليا إلى أطرافِ كندا):

منع «الأصغرُ» «الأكبرَ» من التدخّلِ في شؤون العِلمِ والتعليمِ والعمَلِ والسياسةِ والقانون، خَلَعَهُ من إدارةِ شؤون الحياة المدنيّة عمومًا، والتزم بدورِهِ بإغلاقِ فيهِ في قضايا الدِّين والمعتقدات الشخصيّة والقيَمِ الروحيّة، بل باحترامِها بِصدق!...

أين «الأخ الصغير»؟ ماذا يعمل في تلك البقاع؟ هل قرّر التنازلَ إلى الأبد عن هذه البقاع لِأخيهِ الأكبر، والاستيلاءَ على بقيَّةِ أنحاءِ العالَم؟ هل استقال منها بِشكلٍ نهائي وانصرفَ منها دون رجعة؟...

سكنَتِ الأعظمَ جدًّا أمُّ الحيرات، أيقن أنّ ما يحدث في «بقاع المشلولين» لغزُ الألغاز بامتياز!... فكّر بدعوة ملاكِهِ الفطين أمينيائيل لاجتماعٍ طارئٍ في القمّة لتفكيكِ غموض هذا اللغزِ الأكبر!...

ثم فضّل أن يواصل هو نفسه الحفرَ في أغوار الخراب، والغوصَ في أهوالِ التفاصيل (الأعلى جدًّا يهوى التفاصيل) لاستيعابِ ما يدور هناك!...

Twitter: @ketab_n

١٦

صِبا النور

تلجأ نورُ أحيانًا قُبيل النوم للقيثارة أو الناي اللذي تُجيد العزفَ بهما بأناقةٍ وموهبةٍ وحرفيّة!...

تعلّمتْ حبَّ عزفِ الموسيقى بأمْرٍ «عسكريٍّ» من السيّدة رقيّة: خصّصتْ لها موعدًا إلزاميًّا كلّ يوم لتعلُّم الموسيقى وممارستها بصرامةٍ وانتظام! يجيئُها مدرِّسون متخصِّصون لذلك أحيانًا. تراقب السيّدة رقيّة تطوّرات نور وأدائها لتمارينها بشكلٍ يوميّ...

كانت نورُ تكرهُ هذا الإجبار، لا تحبُّ هذه الساعة التي تنعزل فيها في غرفتها عن الجميع، تعتبرها أسوأ ساعةٍ في اليوم. تُفضّلُ اللعبَ والثرثرةَ مع صِديقاتها!...

ثم مع مرِّ الزمن تحوّلَتْ هذه الساعةُ إلى أفضل ذكرى! تدين لها نور بتفجير عشقِها للموسيقى التي أضحتْ غذاءَها الروحي اليومي. لا تتصالح مع حياتِها إلّا بالموسيقى، لا تخفِّفُ من همومِها إلّا بالهروب إليها، لا تنام بعمقٍ كطفلة إلّا بعد تناولِ جرعاتٍ مضاعفةٍ منها!...

Twitter: @ketab_n

صارتْ الموسيقى لِنور «طبيعةً ثانية»: تنسابُ الموسيقى في إيقاعات صوتِها ونظراتها، ترفلُ في محيّاها... تسمعُ نورُ الموسيقى في تنفّسِ الأعشاب، في انسياب السواقي، في لحظات الغروب، في ضياء النجوم، في أعطاف الكلمات الجميلة...

يكفي أن تُقرفِصَ في ركنِ صالةٍ بفستانها الحريري الورديّ، بين مخدّات من سُندسٍ بنفسجيّ، وتضمَّ القيثارة إلى صدرِها الذي تنسابُ عليه ضفائر من شعرها الكستنائي الغامق، ثم تعزفُ وتغنّي في الوقت نفسه:

أيّها القلبُ تعلّلْ بِدَدَنْ إنّ همّي في سماعٍ وأذَنْ

وشرابٍ خسروانيٍّ إذا ذاقهُ الشيخُ تغنّى وارجَحَنْ

لتُشجيَ من يحيطها بِروعة عزفِها وغنائها، بِجمالِها الباذخ وعذوبتِها المُسكِرة، وبِسحرِ المنظرِ الكُلّي لهذه اللوحة التي لو رآها ملِكان لتفجّرت حروبٌ طاحنةٌ بين مملكتيهما للاستيلاء على هذه الصغيرة الفاتنة!...

يكفي أن ترى نورُ المتعةَ في عيون من يحيطها وهي تغمرهم بألحانٍ وأنغامٍ يتخلّلُها صوتٌ سماويٌّ عذبٌ يدغدغُ أعمق أحاسيسهم، لِتشكر في سريرتِها السيّدةَ رقيّة بنت عبد الملك على تلك الساعة «العسكريّة» الحميدة!...

يكفي أن تطلبَ منها هِنْدُ أن تغنّي لها:

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتكُ الصبرُ أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ

وترى بعد ذلك سعادةً ولهانةً، غامضةً وكثيفةً جدًّا، ترفرفُ في وجنات أمِّها وتلمعُ في عينيها، لتعصفَ بها تلك السعادة نفسها، ولِتشكرَ في سريرتها من جديد حبيبتها الجنرالة السيّدة رقيّة!...

* * *

Twitter: @ketab_n

ما إن شبّتْ نور حتى درستْ كلَّ ما تحتفظُ به أمُّها من نصوصِ فيلسوفِ المعرّة. قرأتْ بِتمحيصٍ كلَّ ما كانت تسطرُهُ هِنْدُ من نقاشاتٍ في مجالسه، كلَّ أقوالِهِ اليوميّة المأثورة وقصصِه... حفظتْ شعرَهُ عن ظهر قلب!... كتبَتْ أسئلتَها وملاحظاتِها وهوامشَها هنا وهناك...

ـ كيف كان شكل أبي؟ تسألُ نور أُمَّها!...

ـ كان سامقًا، جميلاً، رشيقًا، رخيمَ الصوت، نيّرَ الجبين، له شَعرٌ فضّيٌّ طويل!...

لاحظتْ أنّها ورثَتْ كلَّ ذلك منه، إلّا فِضّيّة الشَعر: شَعرُها حريريٌّ كستنائيٌّ غامق!... لكنّها مثله: طويلةٌ، رشيقةٌ، لها صوتٌ سماويٌّ وجبينٌ يحلمُ بتقبيلِهِ كلُّ من رآها... أمّا جمالُها فهو آيةٌ فريدةٌ بإجماع كلِّ من شاهدها أو لمحها لمحًا!...

ـ هل كان أبي يُجيدُ لعبَ الشطرنجِ مثل أستاذِكِ القديم؟

ـ آه، شطرنجُ أستاذي القديم!...

تسيل دموع هِنْدَ من جديد!... قبل أن تقول:

ـ في صالةِ مجلسِ أبي العلاء دولابٌ به باقةُ شطرنجاتٍ أُهْدِيتْ له من كلّ أنحاء الدنيا! شطرنجٌ سمرقنديّ، آخرُ هنديّ، فارسيّ، صينيّ... ومن كلّ الموادّ الأوّليّة: شطرنجٌ من النحاس، آخرُ من العاج، الجرانيت، الفضّة، الشمع، السيراميك الفارسي، حجارة القدس، العقيق اليماني، رخام فلسطين، فخّارٌ شاميّ... آخرُ من الزجاج، من القرميد، البخور، من كلِّ الأخشاب النبيلة، لا سيّما خشب الصندل...

باقةٌ مهيبةٌ مدهشة! كان أستاذي يمنحُ بسماحة، لمن يحبُّ أن يلعب

Twitter: @ketab_n

معه الشطرنجَ (أي: لمن يحبُّ أن ينهزمَ منه) الحقَّ في أن يختار منها الشطرنجَ الذي يُفضِّلُ أن ينسحقَ به سريعًا!...

كنتُ، لا أدري لماذا، لا أختارُ إلّا شطرنجَ البخورِ اليمني، أو شطرنجَ الرخامِ الفلسطيني عندما ألعبُ معه!...

(لم تضف هِنْدُ لنور أنّ أبا العلاء كان يقول لها إنّها «تجدُ نفسها هكذا بين عناصرها الأوّليّة: هِنْدُ رخامٌ أبيض يتلألأ بخورًا وعطرًا!»... باحت ذلك بالنيابة عنها دمعتان غادرتان!)...

ـ كيف يستطيعُ أستاذُكِ أن يلعبَ الشطرنجَ وهو ضرير؟

ـ ضرير؟... أستاذي بصيرٌ أكثر من اللازم، هذه مشكلته!... ليت لِلبصراء رُبْع نظرِه!...

ـ أريد أن أتعلّم لِعبَ الشطرنجِ أنا أيضًا، قالت نور!... ثم سألتْ:

ـ كيف كان أستاذُكِ القديم يلعبُ الشطرنج؟...

ـ مثلما يقولُ الشعر: بالإيقاعِ الهادئِ المدروس نفسه؛ اللامواربة نفسها؛ المفاجآت نفسها التي لا تنكشفُ لمن يلعب معه إلّا في آخر نقلة، مثل أبياتِهِ التي لا ينجلي معناها إلّا في آخر كلمة؛ الثراء نفسه في اختراعِ الأوضاعِ والحركات الجديدة التي لا يضاهيها إلّا ثراءُ كلماته...

لِعبُهُ فنّيٌّ دقيق، حديثٌ جدًّا. يميلُ لِتطبيق قواعدِ ودروسِ حكماء الشطرنج، مثلما يميلُ بتلقائيّة للتجريبِ الحرّ الدائم والاختراع!...

هو باختصار: قنّاصٌ في الشطرنج، قاطعُ رؤوس، سفّاحٌ لا تلين له قناة، قاتلٌ لا يُمهِل، طامّةٌ كبرى!...

ثم أضافت بهدوء (بين بوادرِ دمعتين):

Twitter: @ketab_n

ـ لكنّه، عدا ذلك، أرقُّ إنسانٍ في الوجودِ!...

ترغبُ هذه الصغيرةُ، بِسرّيّةٍ وضراوة، أن تتعلّم الشطرنج لتلعبَهُ مع أستاذِ أمِّها ذات يومٍ ستذهبُ فيه للدراسةِ في مجالسه!... ولِتهزمَهُ، هو الذي لم يهزمهُ بصير، و«بالعمياء» أيضًا (دون رؤية الشطرنج مثله، كما لو كانت ضريرةً هي الأخرى!)... لتكون هزيمةً حقيقيّةً كاملة: هزيمةُ ندٍّ لِندّ!... (ما أبدعَ وأسهلَ وأروع أحلام الصبى!)... كأنّها، هي الأخرى، تريد أن تدخلَ حياتَهُ من السقفِ كصاعقة!...

حياةُ أستاذٍ لأُمِّها، سقطتْ بِحبِّهِ بشدّة، وإن لم ترهُ بعد!...

عذرُها أنّها لا تعرفُ أنّهُ أبوها، إذا كان ثمّة ما يدعو لِعُذر!...

* * *

يستحوذُ الشطرنجُ سريعًا على لبِّ نور!... تحاولُ أن تتمرّسَ عليه أثناء اللعب مع أمِّها أوّلاً، ومع من يجيدونهُ من الأهل والأقارب ونساءِ اللاذقيّة. تدرسُهُ أيضًا عِبر قراءةِ كتبِ الأقدمين، وعبر تحليل المباريات والاستفادة من الهزائم والتجارب...

تقتني مخطوطات الافتتاحيّات التقليديّة الشهيرة لمباريات حكماء الشطرنج، تُقشِّرها تقشيرًا... تسألُ أمّها على الدوام، وهي تدرسُ هذه الوضعيّة في هذه المباراة أو تلك: «أمّاه، ماذا كان سيلعبُ أستاذُكِ القديم في هذه الحالة، في اعتقادك؟»، أو السؤال نفسه بِطريقةٍ أخرى: «ما هي أفضل النقلات في هذا الوضع في رأيك؟»...

مع مرور الزمن صارت نور تلعب الشطرنج كما تمارسُ الموسيقى. «تعزِفهُ» لِجمالِ النقلة أوّلاً، لإيقاعِ المباراةِ ثانيًا. ثم قبل هذا وذاك لتتعلّمَ كيف تهزمُ يومًا بُعبُعَها الحميم جدًّا: أستاذَ أمِّها!...

ثم أضحتْ لا تهتمُّ إلّا بالشطرنج فقط، فيما العالَم ٱلذي يحيطُها

Twitter: @ketab_n

لا يهتمُّ إلّا بِجمالِها وروعتِها وألمعيّتِها!...

يلزمُ القولُ إنّ لِوَجهِها سحرًا غامضًا مربكًا، روعةٌ في التكوين تفطرُ القلب، جمالٌ مثيرٌ في تناسقِ تفاصيلِهِ الدقيقة وتناغمِها الفاتن!...

نورُ «غصنُ بانٍ بأعين غزال» كما يقول من يعرفها عن كثب. ورثتْ ذلك من أبويها، كما ورثتْ منهما هذا الذكاء المشتعل الذي أذهل كلَّ من عاشرها!...

كلُّ من رآها، أو سمع عنها، يحلمُ بمجرّدِ استنشاقِها من بعيد، أو لمسِ كفِّها بأطرافِ الأصابع!...

يتقدّمُ لِطلبِ يدِها صفوةٌ من كبارِ أشراف أهل اللاذقيّة والديار المتاخمة، يتغزّلُ بعضهم بها شِعرًا، يكيلون لها آيات الإعجابِ كيلاً لإسقاطِ قلبِها...

«تُطَنِّشُ» بالجميع!...

تتركُ السيّدةَ رقيّة تعتذر بأدبٍ ومرونةٍ ومهارة لكلِّ متقدِّم مباشرٍ أو عبر وسيط!... لا تُفكِّر هي، في واقع الأمر، إلّا في إسقاطِ رأسِ أحد ملِكَيها، كلّ مرّة!...

تفكِّرُ بأشياء أخرى غامضةٍ جدًّا: سرٌّ كبيرٌ، لا تعرفهُ إلّا أمُّها، يسيطِرُ على حياتِها التي تبدو مؤجّلةً إلى حين...

بانتظار ذلك الحين، تلتهمُ نورَ الرغبةُ بِمعرفةِ أصغرِ التفاصيل عن أبٍ تجهلُ عنهُ كلَّ شيء تقريبًا، وبِرؤيةِ أستاذِ أمِّها التي تعرفهُ (دون أن تُدرِكَ في العمقِ لماذا) أكثرَ من اللازم بِكثير!...

صارتْ مثل حَجرةٍ تتدحرجُ في جبلٍ، باتّجاه ميعاد رؤيتِه!...

بانتظار يوم الميعاد: دموعٌ سرّيّةٌ حرّى تُخفِّفُ من أثقالِ صدرِها بين

Twitter: @ketab_n

الحينِ والحين. ألحانٌ على الناي والقيثارةِ تعزِفُها حدّ الثمالة، للتآمر على همومِها وآلامِها. وأفيونٌ ناجعْ، قاطعٌ مانعْ: الشطرنج، يُنسِيها نداءات نواقيسِ حياتِها المؤجّلة!...

* * *

تهزمُ نور مع مرِّ الزمن كلَّ من يحيطون بها، كلَّ أهلِ الضيعةِ وصديقاتِ أمِّها من سيّدات اللاذقيّة اللواتي يُجِدْنَ الشطرنج. تهزمهم جميعًا إلّا هند!...

تشعر بالقرف والإحباط: كيف لها أن تهزم سيّدَ المعرّة إذا كانت ما تزال تنهزم ممّن كانت تنهزم منه؟...

ـ متى ستسافرين إلى المعرّة للدراسة؟، تسألُها هند!...

ـ بعد أن أهزم أمّي الحبيبة الغاليةِ بالشطرنج أوّلاً!...

ـ تحتاجين، حبيبتي، لِقَرْنٍ من الزمن للوصول إلى ذلك!...

تلاحظ هِنْدُ من جهتِها أنّ شغفَ ابنتِها بالشطرنج بات يطغى على ميولِها للغناء والموسيقى وقراءةِ الشعرِ وحفظهِ ونقدِه!... وأنّ آخر ما تفكّرُ به قرّةُ عينِها: العشّ الزوجيّ، الرجلَ، الحبَّ... ناهيك عن العشقِ الذي يكسرُ الضلع!...

أو لعلّها عاشقةٌ بالسرّ كما كانت أمُّها في السّن نفسها!... من يدري؟... إلٰهي، أيُمكنُ ذلك، أيمكنُ حقًّا؟...

Twitter: @ketab_n

١٧

الأعلى جدًّا يحفرُ في عوالمِ الخراب

حاول الأجلُّ جدًّا أن يتغلغلَ هو نفسهُ بِمنهجيّةٍ في تفاصيل حياة «بقاع المشلولين»! . . .

بدأ من أهمِّ الأسئلة التي راودتهُ: أين «الأخ الأصغر»؟ هل استقال إلى الأبد من تلك الديار وغادرها بلا رجعة؟ . . .

شعر الأعظمُ جدًّا بقرَفٍ خاصّ (وهو يبحثُ فيها عبثًا عن الأخِ الغائب) عندما رأى أنّها الوحيدةُ التي تسير باتّجاهٍ معاكسٍ لِرغباتِ الأخِ المهزوم:

مجتمعاتُها تضربُ أرقامًا قياسيّةً في الأمّيّة أثارتْ في الأعلى جدًّا أسًى خاصًّا لا يمكنُهُ وصفُه . . .

التعليمُ فيها يُدرِّسُ بعضَ الخدمات الحياتيّة اليوميّة المفيدة لا شكّ، كالطبّ وبعض مجالات الهندسة، (وإن كان ذلك بطريقةٍ عتيقةٍ لا تواكبُ العلمَ الحديثَ غالبًا) لكنّهُ، قبل هذا وذاك، يَغرِسُ ثقافةَ الغيبِ والخضوعِ والاستسلام. يمنعُ التساؤلَ الحرّ والروحَ النقديّة. يخلقُ أمام

Twitter: @ketab_n

الطالبِ أو الباحثِ خطوطًا حمراء تلِدُ خطوطًا حمراء. يُمجِّدُ «أخلاق العبيد»!...

يصنعُ قطيعًا بلا عقليّةٍ علميّة!...

«بقاع المشلولين» لا تصنعُ المعارفَ والعلوم، تستهلكُ كلَّ شيء تقريبًا. كلُّ منشآتها وأجهزَتِها مستورَدةٌ من الخارج!...

لاحظ الأعظمُ جدًّا أنّ ما يُحبُّه بشكلٍ خاصّ في إنسانِ كوكبِ الأرض: «البحث العلمي» غائبٌ تمامًا في تلك الديار الملغّمةِ بديناميتِ الخطوط الحمراء والمسلّمات واليقينِ الدينيِّ القاتل!...

لم يغادر الأجلُّ جدًّا المنظرَ رغم بؤسهِ وشناعتِه!... قرَّرَ أن يستوعبَ قوانين حركةِ الخراب الذي يعيث في المشهدِ فسادًا، بِاسْمِ عظمتِه.

واصلَ التغلغل!...

يغرقُ الأعلى جدًّا بِبحرِ التفاصيل أكثر فأكثر:

الدنيويُّ في تلك الديار مخلوطٌ بالدينيّ بِشكلٍ يُثيرُ الاختناق: يتسلّلُ الدينيُّ إليه من كلِّ بابٍ ونافذة (من افتتاحيّاتِ الكُتب والرسائل والخُطَب، القانون، معظم عبارات اللغة اليوميّة، الأساطير والحكايات، العلَم الرسمي، السرير...)، يمتزجُ به في كلِّ حركةٍ وسكنة، في كلِّ صمتٍ وكلمة!...

يملؤها رجالُ الدينِ في كلِّ مكان! يُقضّون وقتَهم بالحديثِ فيها باسم الإله، بتأليفِ فتاوى تُحلِّلُ التصفيقَ (وتُحدِّدُ طريقتَهُ الشرعيّة: اليدُ اليمنى تلطمُ اليسرى عند التصفيقِ وليس العكس، بِشرطِ أن لا يتجاوز التصفيقُ ثلاث أو سبع تصفيقات لا غير، لأنّ «الله وِترٌ، يحبُّ الوِتر»!)،

Twitter: @ketab_n

بتأليفِ أدعيةٍ لممارسةِ النكاح عند الحيض. وأخرى للتلاوة قبل جماعِ ليلةِ الزواج، بعضها يلزمُ أن تُتمتمَ حال دخولِ بابِ غرفةِ الجماع (بالرِّجلِ اليمنى بالضرورة)، وأخرى قبل «إدخال الذّكَرِ في فرجِ المرأة»، وأخرى «لتطويل الجِماع»...

أدعيةٌ لِخلعِ الملابِس الخارجيّة (في ليلة الزواجِ أو غيرها)، أخرى لخلعِ الملابسِ الداخليّة، لِربطِ خيوطِ الحذاء...

وهلمَّ شعوذةً ودجلاً!...

شدّتْ انتباهَ الأقدسِ جدًّا آليّةُ العلاقةِ الماكرة في هذه المنطقة بين الدينيِّ والدنيويِّ وفرطِ نفاقِها:

لاحظ مثلاً أنّ أهلَها يقولون إنّهم يُحبُّون لغتَهم كثيرًا، وإنّها «لغةُ الجنّة» التي يُفضِّلُها الله على كلِّ اللغات، فيما هي لغةٌ مُحنّطة، لا تواكبُ العصر: تنقصُها معظمُ كلماتِ ومصطلحاتِ العِلْمِ الحديث وتقنيّاتِه. تعاني من أنيميا الترجمة: لا يُترجَمُ لها من أعمالِ اللغات الأخرى إلّا قسطٌ زهيدٌ لا يستحقّ الذكر!...

مواقعُها العلميّة فارغةٌ تقريبًا أو غيرُ موجودةٍ في الأساس وكأنّ هذه اللغةَ غيرُ قادرةٍ على استيعاب العِلم الحديث كما يردِّد الكثيرون بيقينٍ مُطلق!... لم تعد تُستخدَمُ في تدريس مواد العلوم إلّا نادرًا، في كلِّ الجامعات تقريبًا، وفي معظم المدارس أيضًا!...

همسَ الأعلى جدًّا بِصمت: «كارثةٌ حقيقيّة! لو خرج الأصمعي والخليل من قبريْهِما واكتشفا هولَ الكارثةِ التي آلتْ لها لغتُهما الحبيبة، لانتحرا على التوّ، برصاصتين في الحَلْق!»...

الحقُّ أنّ الأجلّ جدًّا، رغم كلِّ جهودِه، لم يفهم شيئًا! أيقنَ أنّ

Twitter: @ketab_n

ثمّة هاويةً سحيقةً بلا قاع، انتصارًا كُلّيًّا للخراب في تلك البقاع!...

شعر بأسًى لم يعرفهُ من قبل، تألّمَ كما لم يتألّم يومًا!... سالتْ دموعُهُ قهرًا وأحزانًا! (دموعُهُ طوفاناتٌ وتسونامي تبلغُ القارّات والمجرّات)!...

استدعى الأعظمُ جدًّا من جديد ملاكَهُ الحبيب أمينيائيل، مديرَ مكتبِهِ الأعظم، لاجتماعٍ طارئٍ في القمّة!...

Twitter: @ketab_n

١٨

جراحاتٌ صغيرة

أحملُ في طيّاتي أوجاعًا وجراحات!...

أدْماهُم وألظاهم: أحدُنا، لمياء أو أنا، أو ربّما كلانا (لا نودّ أن نعرف أكثر من ذلك) غيرُ قادرٍ على الإنجاب!...

استنزفَنا الانتظار! عندما يُحدِّقُ أحدُنا في الفراغ (يحدثُ ذلك أكثر فأكثر) بِدماغٍ نصفِ مشلول، بِفكٍّ متهالكٍ مُنهار، أو عندما يغيبُ في التمعُّنِ الدامعِ الصامت في منظرِ طفلٍ يحتضنُهُ والداه في قطارٍ أو طائرةٍ أو شارعٍ أو قربَ بابِ مدرسة... فذلك لأنّهُ «يطوسُ» في مأساتنا الحياتيّة!...

نهربُ منها بالأمل، بالسفر، بالصبر، بالانتظار، بالهروب... لكنّا نعودُ لها بلا وعي، بقلقٍ أكبر!...

لسنا وحدنا من يعيشُ هذا الجرحَ الوجوديّ اليوميّ! ثمّة أمّي، نوال التنّوخي، تُشاركُنا عن بُعد الانتظار نفسه، وهي تناهز اليوم السادسة والسبعين!...

Twitter: @ketab_n

أقرأُ في نظراتِها أحيانًا عباراتٍ صامتة: «حان وقتُ الطفلِ الآن!»، أو «أعملوهُ سريعًا كي أراهُ قبل الموت!». . .

أنبَتْني بشكلٍ غير مباشر عندما قالت ذات يوم: «بعد موتي ستنتهي سلالة أبي العلاء البيولوجيّة والتاريخيّة معًا!». . .

البيولوجيّة: مفهومٌ جدًّا! . . .

التاريخيّة: لأنّي لم أعر بعد انتباهًا لصندوق مخطوطاتها، لم أطلب منها أن تُفرغَ أمامي كلّ ما تعرفه من ذاكرةِ أسرارِ سلالتنا! . . .

بعد أن بدأتُ حياتي الثانية في فرنسا، كانت أُمّي تقول، حال مجيئي لزيارتِها في سوريا، في كلِّ إجازةٍ صيفيّة:

ـ لعلّك قد كبرتَ الآن حبيبي! الأرشيفُ ينتظرك! . . .

ـ أعدكِ أُمّاه أنّي سأقرأه باهتمام في إجازتي القادمة. سأتفرّغُ له تمامًا! . . .

حوارٌ مؤجّلٌ مغلق! . . .

أقرأ في نظراتِها عبارات جارحةً أحيانًا: «وداعًا سلالة أبي العلاء؟. . . يا لَلكارثة! . . .» وكأنّ عدمَ إنجابِنا طفلاً رمزٌ لِكارثةٍ كونيّة! . . .

أيّة كارثةٍ تقصدُ أمّي الغالية؟. . .

أتذكّرُ يومًا أنّها لمّحتْ، في حديثٍ قديم، قناعتَها بأنّ نهايةَ سلالةِ أبي العلاء ستكونُ علامةً قدَرِيّةً تواكبُ موتَ الأملِ في عودةِ الحياةِ للعقلِ العربي، وإشارةً ميتافيزيقيّةً لِخروجِ العَربِ من التاريخ إلى الأبد! . . .

من يدري؟. . .

Twitter: @ketab_n

أظنُّ أنّ ذلك يُشْبِهُ في نظرِها، أرادتْ أمّي أم لم ترد، كونَ عودةِ المسيحِ إلى الأرض لِيقتلَ المسيحَ الدجّال علامةً من علاماتِ يوم القيامة!...

أو بالأحرى: ليطعَنَهُ بِرُمْحٍ، كما يقول فقهاءُ اليوم أيضًا (وكأنّا لم ندخل بعدُ عصرَ المسدّساتِ والأسلحةِ الإلكترونيّة) بعد أن يكون قد صلّى بالناس صلاةَ الجمعة. (كنتُ أظنُّ قبل ذلك أنّ المسيحَ متخصِّصٌ بِقدّاسِ الأحد!)...

كلام ثخينٌ جامدٌ جدًّا: سأتحوّلُ هكذا، إذا لم أنجِبْ طفلاً، مسؤولاً أمام التاريخ عن موتِ العقلِ العربي!...

أسألكِ الرحمةَ أمّاه: أجِدُ صعوبةً في أن أكون مسؤولاً على نصفِ أخطائي الشخصيّةِ الصغيرةِ جدًّا، أمّا إذا أُضيفَتْ لها مأساةُ بلدان العرب والمسلمين، فذلك، حبيبتي نوال، أكبر منّي!...

أحبُّ أمّي الرائعة بشكلٍ لا حدّ له، أقدِّسُها تقديسًا، لكنّي أعترف بأنّها تتركُ على كاهلي أحيانًا أثقالاً أكبر من خاصرتي!...

ثمّة جراحٌ أخرى!... يلزمني قبل سردِها أن أقول إنّي أعملُ في فرعٍ باريسيٍّ لِشركةٍ دوليّةٍ كبيرة، أقود فيه مشروعًا بحثيًّا صناعيًّا هامًّا وواعدًا في علوم الكمبيوتر، هدفهُ تدجيجُ عصًا إلكترونيّة طويلة، ترافِقُ الضرير، بكاميرات ولاقطات وكمبيوترات صغيرةٍ مخفيَّةٍ فيها، تسمحُ له بالنظر!...

أو لِأقُلْ بتواضعٍ وواقعيّة: تسمحُ له (بالاستعانةِ بِعدساتٍ صغيرةٍ محشورةٍ في القبّعة التي ترافقُ العصا الإلكترونيّة) بالحركةِ بكثيرٍ من الحرّيّة!...

Twitter: @ketab_n

اقترحَ بعض الزملاء تسميةَ هذا المشروعِ «معجزة المسيح Jesus Miracle، أو J.M!. . . رُفِضَ المقترحُ لئلّا يُعتبر سخريةً من حكاية المسيحِ الذي أعادَ النظر للمكفوفين!. . . اقترحتُ تسميتَهُ: «عينا أبي العلاء»، Eyes of Abu al-'Ala, أو E.A.A!. . .

تلتقِطُ راداراتُ العصا والقبّعةُ، «عينا أبي العلاء»، صورَ كلّ ما يُحيط بالضريرِ دون توقّف، تُحلِّلُها، ثم تُرسلُ إشارات خاصّة لِدماغِهِ حول عوائق الطريق وما يحيطُ بالضريرِ أثناء حركته!. . .

بعضها تُستخدَمُ اليوم عمليًّا، بنجاحٍ متواضع: ينهضُ بعضُ المكفوفين للعمل كلّ صباح، يأخذون بفضلِ عيني أبي العلاء القطارَ أو المترو للذهابِ إلى مرافقِ عملهم، «يرون» بفضلِ عينيه السلالم والسيّارات وإشارات المرور والعوائق. . . ثم يعودون لبيوتهم بأمانٍ لا بأسَ به!. . . يخرجون أيضًا بفضلِها للتسكّعِ في الشوارع، لِشراء بعضِ حاجاتهم اليوميّة، للجلوس في المقاهي (يعطِّفون حينها عصاهم لتصبح بِطولِ مسطرة). . .

عكّازُهم مُدجَّجٌ بـ «منظومةِ منظوماتٍ» إلكترونيّة في تواصلٍ شبكيٍّ مع المحيطِ الخارجيِّ ومع الجمجمة، مسبوكٌ بآخر إبداعات الرياضيّات والتكنولوجيا التي تنوي اليوم، كما يبدو، تحويلَ «عيني أبي العلاء» إلى «عيني زرقاء اليمامة»!. . .

المشروعُ مستقبليٌّ واعد، هدفُهُ الاستراتيجيُّ البعيدُ جدًّا أن تحُلَّ هذه العصا الإلكترونيّة محلّ العينين تمامًا، وتتجاوزهما!. . .

ليس ذلك من أجل المكفوفين فقط، لكن أيضًا لالتقاطِ صورِ وأفلامِ ما يُحيطُ بالإنسان، أوّلاً بأوّل، وإدخالهِ في عالَم الكمبيوتر الافتراضي. ليتحوَّلَ فيلمُ العالَمِ الخارجيّ، الذي يراهُ الإنسانُ ويعيشهُ

Twitter: @ketab_n

كلّ لحظة، أرشيفًا رقميًّا صغيرًا يرافقُهُ، إذا أراد، في كمبيوترِهِ أو جيبهِ أو ساعتِهِ.

أي ليكون فيلمُ الواقعِ اليوميّ، في سيرورتِهِ المُتّصلة، نهرًا لا غير، يصبُّ في بحرِ العالَم الافتراضي الشاسع!...

أحملُ جرحًا آخر أيضًا:

مأساةُ واقعِ عالَمِنا العربيّ الذي أتابعُ هزائمَهُ وتقوقعَهُ وتخلُّفَهُ بكلِّ عجزٍ وألم، أتفاعلُ معهُ في كلِّ لحظةٍ تقريبًا، أكنتُ في ربوعهِ أو بعيدًا عنه جغرافيًّا!...

جرحٌ ينزفُ ببطءٍ دون توقّف، منذ أن هجرتُ سوريا (أكثر من نصفِ من غادرها لا يعودون إليها!) بعد الخدمةِ العسكريّة القاتلة واندمجتُ عضويًّا مثل لمياء في أكثر من ثقافةٍ وعالَم: كلانا «مواطِنانِ عالميّان» كما يحلو للبعضِ تسمِيتُنا!...

الفجائعُ تتوالى عليّ آتيةً منهُ كلَّ يوم: غيبوبةٌ حضاريّةٌ تُقاومُ الدهر، تعليمٌ يصنعُ الخنوعَ ويغتالُ العقليّة العلميّة، تنميةٌ ضعيفةٌ وثرواتٌ تَتَبدَّدُ يوميًّا، قتلٌ وتعذيبٌ يوميٌّ في هذا البلد أو ذاك، حكّامٌ مخلّدون غيرُ شَرعيِّين وجمهوريّاتُ توريث، قمعٌ دائمٌ وعدمُ احترامٍ كُلّيٍّ للمواطنِ وحرّيّته!...

لا أدري في الحقيقةِ لماذا أعيشُ مأساةَ العالَم العربي شخصيًّا جرحًا لا يجفّ (لا أستطيعُ التجرّدَ منهُ ولو قليلاً)، إن لم يكن ذلك بِسببِ نوال التنّوخي، أمّي، التي جعلتني أندمجُ بعشقٍ مجنونٍ في ثقافتِنا العربيّة التي أفتخرُ بتارِيخِها العملاق، وأعيشُ همومَها حتى لو كنتُ في المرّيخ!...

وبشكلٍ خاصّ بِسببِ محنةِ حُبِّ اللغةِ العربيّة التي زرعَتْ أمّي

Twitter: @ketab_n

جينات عشقِها في أضلعي منذ الصغر!... أمّي، «العروبيّةُ» جدًّا، التي يقول بعضُ زملائها في الجامعة إنّها آخر من بكى انقراضَ لغةِ الضادّ من ثقافات أهالي تركيا، كازاخستان، تاترستان... واستبدالَ أحرفِ اللغةِ العربيّة بأحرف أخرى في كتاباتِهم!... (لعلّ حبيبي الخالد عمر الخيّام يُشاركها الحزن نفسه وهو في قبره!)...

كم أعشقُ عشقًا «لغةَ منكر ونكير» كما يسمّيها فقهاؤنا!... لا أعرفُ، لسوء حظّي، شخصًا واحِدًا خرج من القبر، أو عاد من الدار الآخرة، ليؤكّدَ لي حوارَهُ مع منكر ونكير بلغة الضادّ... لكنّي أعرفُ فقط أنّها لغة حبيبتي نوال التي درَّست الأدبَ العربيّ في جامعة اللاذقيّة بكلِّ شغفٍ وعشقٍ وإخلاص!...

حاولتُ أن أستغلَّ معرفتي بعلوم الكمبيوتر للمساهمة مع فرقٍ علميّة بإعداد مشاريع حقيقيّة لِإدخال اللغة العربيّةِ العصرَ الرقمي الذي يؤلمني غيابُها عنه، ولِبناءِ بوّاباتٍ تعليميّةٍ ومعرفيّةٍ حديثةٍ بلُغةِ حبيبيَّ الخالِدَين: أبي العلاء وعمرَ الخيام!... عبثًا!...

صرختُ في كلّ مكان: الأمم تبني صروحًا وبوّابات جبّارة للمعرفة الرقميّة منذ ثلاثة عقود. دخلَتْ جميعها عصرَ الرقمنةِ العملاقة اليوم. تعيش سباقًا يوميًا للتواجدِ الرقميّ في مجال العِلم والمعرفة، فيما لغةُ الضادّ غائبةٌ تمامًا عن كلِّ ذلك... عملاقٌ من قشّ!...

لا تمتلك بعد بناءً تحتيًا رقميًا يسمحُ لها بدخول عصر الرقمنة مثل بقيّة لغات العالم:

ليس لها «قارئٌ ضوئيٌ للأحرف» (رغم امتلاك كلّ اللغات الأخرى لذلك). ليس لها مدوّنةٌ أو معاجم إيثيومولوجيّة، هي التي كانت أوّلَ من أسّسَ القواميسَ والمعاجمَ اللغويّة (منذ الخليل بن أحمدَ الفراهيدي

Twitter: @ketab_n

صاحب قاموس العين، وربّما الأصمعي قبل ذلك)، والتي لَعِبَتْ في عصرِها الذهبيِّ دورًا طليعيًا في تأسيسِ دراسات عبقريّةٍ في النحو والصرف والبلاغة، وتصنيفِ المفردات وترتيبِ جذورِها واشتقاقاتها، وتأليفِ كلّ المعاجم (بما فيها معاجم الجنّ والشياطين!). . .

بذلتُ جهودًا للمساهمة في مشاريع تسمح بحضورِها في العالم الرقمي. عبثًا: لا تُوجدُ حيثما طرقتُ البابَ رغبةٌ حقيقيّةٌ في بحثٍ علميٍّ ونهضةٍ تليقُ بهذه اللغة!. . .

«لا تُتعبْ نفسك، أنت تنطحُ جبلاً!»، يقول لي بعض المخلصين!. . .

«لا يمكنُ إعادةُ بناءِ غرفةٍ واحدةٍ في عمارةٍ خربة! ألم تقرأ ما قاله الإله شيفا الهنديّ عن البناءِ بعد الردم؟ لن تتحقّقَ مشاريعُك قبل أن توجدَ رغبةٌ شاملة بتهديمِ العمارةِ الخربةِ لإعادةِ بنائها من جديد!» يقول لي آخرون!. . .

«لا حلّ لك إلّا إذا وصلتَ بطريقةٍ أو بأخرى للسلطانة فلانة التي يُمكنُها أن تُموّلَ مثل هذه المشاريع بإخلاص!»، يقول آخرون أيضًا!. . .

عطّفتُ أحلامي لأنّ آخر أمنياتي أن أقضيَ وقتي بحثًا من رُكنِ شارعٍ لِرُكن عن سلطانةٍ أو سلطان، لأنّ بيني وبين جنس السلاطين برزخًا لا يبغيان، فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان. . . صدقَ الله العظيم!. . .

لم يبقَ لي إلّا الاستسلام واليأس بجدارةٍ وهدوء!. . .

* * *

في هذه اللحظات الهادئة الرقيقة (التي استهلّتْها لمياءُ بتدليلِ أطفالِها المائيّين الراقصين في حوضِ الصالون وأسطوانتهِ السامقة، بعد عودَتِنا من حفلةِ رأس السنة) لم أَلُمْ نفسي فعلاً، وبقساوةٍ اقتربَتْ من

Twitter: @ketab_n

تخومِ جلدِ الذات، إلّا على حلمٍ صغيرٍ أجّلتُ تحقيقه طوال العام ٢٠٠٩ الذي انقضى قبل ساعات!...

كان عليّ في ذلك العام (وفيهِ وحدَه) أن أنجزَ مهمّةً صغيرةً وبسيطةً جدًّا، لكنّها في غاية الجوهريّةِ والأهمِّيّةِ، تماطلتُ في أدائها، أو حتى في الشروعِ فيها!...

جريمةٌ صغيرة!...

Twitter: @ketab_n

١٩

نورٌ يلعبُ «بالعمياء»

تكابدُ نور لِلتألّقِ السريعِ في الشطرنج، شغفِها الأوحد!... تبدأ أيضًا ممارستَهُ «بالعمياء»: تجتاحُها، في الحقيقة، رغبَةٌ جامحةٌ صمّاء للتمكُّنِ من لعبِ الشطرنج دون رؤيته!... جنوحٌ متطرِّفٌ يُثير استغرابَ أمِّها التي لم تراودُها هذه الرغبةُ يومًا، ولم تخطر بِبالِها من قريبٍ أو بعيد!...

ألَدَى نور ميولٌ ما لِتعذيبِ النفس؟ شعورٌ مغرورٌ بالتميّزِ الذهنيّ والمقدرةِ الخارقةِ على التمثُّلِ والتخييلِ والحياةِ في عوالم افتراضيّة؟ أم في تلك الرغبةِ متعةٌ فكريّةٌ ما، وإن كانت قاسيةً مُهلِكة؟ أو أنّ أفيون الشطرنجِ «بالمشاهدة» لم يعد كافيًا للتخفيف من همومِها الدفينة، فصارتْ تحتاجُ لجُرعةٍ من العيار الثقيل؟...

تُغمضُ نورُ عينيها، أو تُحدِّقُ بثباتٍ في نقطةٍ محدّدةٍ في السقف أو ركنِ الجدار، تتخيّلُ أمامَها رقعةَ الشطرنجِ نفسها التي ينظرُ نحوها الخصم. يتحوَّلُ دماغُها ساحةَ وغى: ٦٤ مربّعًا يتخندقُ فيها جيشان

Twitter: @ketab_n

افتراضيّان يتأهّبان لِحربٍ ضروس!...

يتحوّلُ دماغُها الحكمَ والخصمَ في الآن نفسه، الساحةَ والجيشين، القاتلَ والمقتولَ وهيئة الأركان...

اختارتْ، في بدءِ تعلُّمِها اللعبَ بالعمياء، صديقاتٍ لا يُجِدْنَ الشطرنجَ كثيرًا. تتركهنَّ يَنظُرنَ للرقعة، يُحرِّكن قطعةً ما من مُربّعٍ لِمُربّع، يُخبرنها بنقلَتِهنّ بِلغةٍ شطرنجيّةٍ مقتضبة...

تنقلُ نورُ القطعة نفسها، بالحركة نفسها، في شطرنجِها الذهنيّ. تردُّ عليهنّ شفويًّا باللغة المقتضبة نفسها لِينقلنَ على رقعة الشطرنج ما حرّكتهُ تخييلاً... وهكذا دواليك!...

تلعبُ معهنّ مثلما يلعبُ أبو العلاء مع خصومه!... تتمثّلُ هكذا يوميّاتِه وطقوسَ حياتِه وقيودَها القسريّة!... يا لَقساوةِ وظلمِ تلك القيود!...

تشعرُ نورُ عندما تُنهي المباراة أنّ جمجمتَها تكادُ تشتعل!... دوخةٌ، إعياءٌ مُهلِك، تمرينٌ يُنهكُ الذاكرة، يُضنيها حدَّ الغشيان!... ما أرهق هذه الرياضة الذهنيّة الصارمة! ما أتعبها!...

لكنّها تعتبرُ هذه الطقوسَ العويصة أفضلَ الوسائل لِفهمِ عالَمِ أبي العلاء، وأقصر الطرقِ للدخول إلى جمجمتِه!...

ليفهمَ الإنسانُ أبا العلاء، من وجهةِ نظر نور، يلزمُهُ أن يقطن مثله كرةً مظلمةً بِحجمِ كوكب، في مركزِها شطرنجٌ نورانيٌّ هائل، عليه قِطَعٌ سَنِيّةٌ متوهِّجة!... تتناثرُ في فضاء الكوكب، كألعاب ناريّة، ملايين الكلمات التي تتواصلُ بأسلاكٍ ديناميكيّةٍ متوقِّدة. تتغيّرُ شبكةُ اتّصالاتها وتقاطعاتها وقوانينُ جاذبيّتها من ثانيةٍ لِثانية...

Twitter: @ketab_n

تتعاقبُ من تفاعلِ تلك الكلمات فسيفساء نصوصٍ تنطبعُ على جدرانِ الكوكب أوّلاً بأوّل، لو كان البحرُ مدادًا لكلماتِها لنفِدَ البحر قبل أن تنفدَ كلماتها ولو جيء بِمثلهِ مددًا!...

في أحد أرصفة جوفِ هذه الكرة الكونيّة، يمتدُّ مضطجعًا، متّكئًا على أحدِ مرفقيه، شاعرٌ باسقُ الطول، رشيقُ الجسد، وسيمُ الوجه، شَعرُهُ الفضّيّ يسيلُ على كتفيه ببوهيميّة، يمدُّ رجليه بهدوء، لا إمام له سوى العقل!...

ما لم تضفهُ نور:

تضعُ رأسَها على فخذِ هذا الشاعِر الحرّ، لِيُمسِّدهُ بعشقٍ وحنان، امرأةٌ لا تتكرّر، لها أريجٌ ملائكيٌّ وطراوةٌ أنثويّةٌ ناعمة: هند!...

تَحدثُ تطوّراتٌ مفاجئة بعد أن أجادتْ نورُ لعبَ الشطرنج بالعمياء: صارتْ تبدو أكثر ضياعًا وغيابًا. تُحدِّق في العدمِ بين الحين والحين!...

تُقضّي وقتًا طويلاً مختليةً بِنَفسها تلعبُ الشطرنجَ بالعمياء مع بشرٍ افتراضيّين... صارت مقدراتها على التخييل قويّةً جدًّا بالفعل، لكنّها أضحتْ تبتعدُ عن محيطها يومًا بعد يوم، تعيش في عوالم أخرى... أقلقَ ذلك هِنْدَ التي تراقبُ ابنتَها، قرّةَ عينِها وجذوةَ حياتها، بقلقٍ مطّرد!...

ثم الأهمّ: صارت نور، لأوّل مرّة، تهزمُ خصمَها العنودَ وحبَّها الأكبر: هند!...

ـ متى ستسافرين إلى المعرّة للدراسة إذن؟ تسألُها أمُّها المهزومة!...

Twitter: @ketab_n

ـ بعد أن أهزم أمّي الحبيبة الغالية بالعمياء!...

ـ تحتاجين، حبيبتي، لِقَرْنٍ للوصول إلى ذلك: الشطرنجُ بالعمياء صعبٌ قاتل. يُبدِّدُ الإنسان أثناءَهُ طاقاتِهِ بِتذكُّرِ مواضع قِطَعِ رقعةِ الشطرنج. لا يستطيع لذلك كعادتِه التخطيطَ والتفكيرَ والمناورة. يلعبُ بالضرورة دون مستواه بكثير!...

ـ لماذا كان أستاذكِ القديم ينتصرُ إذن؟

ـ لأنّه يمتلك دماغين، ربّما ثلاثة!...

لا يُهِمّ!... لِنور مشروعٌ مجنونٌ تتقدّمُ نحوه بِسرعةِ الضوء!... تختلي لذلك مع نفسِها أكثر فأكثر. تُقضّي وقتًا أطول فأطول في لعب الشطرنج الافتراضي مع رَجُلٍ افتراضي، له، بجانبِ دماغهِ الذي يتذكّرُ ويتمثّلُ رقعةَ الشطرنج وقِطعَها لحظةً لحظة، دماغٌ آخر، ربّما اثنان، يُجيدان تخطيطَ الاستراتيجيّات المنتصرة بالتأكيد، وقولَ الشعر في الوقت نفسه، من يدري؟...

لا تريد أن تهزمَه باللعبِ بالمشاهدة فقط (وإن لم يهزمه أحدٌ كذلك): لن تعتبرَ ذلك انتصارًا إطلاقًا!...

لكن تريد أن تهزمَ صاحبَ الدماغين بالعمياء أيضًا!...

هزيمةُ قرينٍ لِقرين!...

تتحدّثُ معه كثيرًا أثناء اختلائهما الافتراضي. تضحكُ معه، تُداعبُه، يُداعِبُها كثيرًا، يمدحُها دون توقّف (يَحْمرُّ وجهُها خجلاً من ذلك) يتناقشان في كلّ شيءٍ ولا شيء!...

تشكو له حياةً حرَمَتْها من الأب، تسردُ له أشواقَها لِرؤيتِه، تضعُ رأسَها على كتفِه، يُمسِّدُ شعرَها بِرِقّةٍ وحنان، وكأنّهُ يخشى أن

Twitter: @ketab_n

يخدُشَها... تشعرُ بمتعةٍ ولذّةٍ هائلةٍ بذلك!... تستيقظُ من أحلام يقظتها على حين غرّة، كأنّها ارتكبَتْ جرمًا ما في مباراتها الافتراضيّة!... تبكي بخجل!...

يزدادُ لجوؤها إلى كتفِ أبي العلاء وفضائهما الافتراضي، يزداد ابتعادُها عن محيطها اليوميّ، يزدادُ قلقُ هند...

ـ هل تتذكّرين نقلات بعض مبارياتكِ مع أستاذك القديم، أمّاه؟...

ـ أتذكَّرُ نقلات مباراتنا الأخيرة بالتفصيل!...

تسردُ هِنْدُ سلسلةَ نقلات آخر مبارياتها التي لعبتْها، قبل أكثر من عشرين عامًا، مع أستاذها القديم! تَصِفُها لِنور نقلةً نقلة!...

تتوقّفُ في لحظةٍ ما: ثُقبٌ أسود!...

يتغيّرُ لونُها!... ثم رعشةٌ خفيّة تتحرّرُ من عِقالِها!... قبل أن تقول: استسلمتُ بعد هذه النقلة!...

تغيبُ في عالَمٍ آخر، تخفي وجهَها في راحتَيها... (لعلّها تبكي!)...

تضعُ نورُ أصابعَها بِحِنِّيَة في شَعر أمِّها، على كتفِها...

تكتبُ بلا وعي بأطرافِ أصابِعها على بشرةِ ساعدِ هِنْدَ أنصافَ كلماتٍ بدون معنًى محدّد...

تنتظر أن ترفعَ أمُّها رأسَها لِتقول لها:

ـ لا أفهم أمّاه! لماذا استسلمتِ في النقلةِ الواحدةِ والثلاثين؟ كان وضعكما متكافئًا إن لم يكن لِصالحك قليلاً!...

لا تردُّ هند، تخفي وجهَها في راحتيها من جديد (لعلّ دموعَها

Twitter: @ketab_n

تنهمرُ من جديد، أكثر دفقًا وأشواقًا!)...

تعزفُ نور عن توجيهِ هذه الأسئلة اللاسعة التي تُوقظُ وتهيّجُ ذكرياتٍ قديمةً كما يبدو!...

تقول هند: «اعذريني يا ابنتي! داهمَتْني بعض الذكريات، وحزنٌ مفاجئ!...».

يكبر السرّ! غشاوةٌ حالِكة! دوّامةٌ جديدة!...

تلعبُ نور بالعمياء، مع شاعرِ المعرّة الافتراضي، نقلات تلك المباراة نفسها التي سرَدَتْها أمُّها. تواصل تخييلَ وتمثُّلَ هذه المباراة المبتورة من حيث توقّفَتْ، إثرَ استسلامِ هِنْدَ غيرِ الطبيعي في النقلة الواحدةِ والثلاثين!...

تتقمّصُ نورُ أمَّها، تلعبُ في محلِّها... تُجرِّبُ كلَّ الاحتمالات المنطقيّةِ الممكنة لِنقلات أبي العلاء وهو يردُّ على هند: تنتصرُ الأخيرةُ دومًا في آخر المطاف!...

تقول نورُ لِنفسِها: «لا أفهم! ماذا حدث لأمّي؟ لماذا استسلَمتْ في حين كانت موازينُ القوى لِصالِحِها إلى حدٍّ ما، إن لم تكن قاب قوسين أو أدنى من نقلةٍ حاسمةٍ تقود بعد ذلك إلى نصرٍ أكيد؟»...

تشعرُ نور أنّ ثمّة سرًّا غائرًا جديدًا!

ثمّة في الحقيقة أسرارٌ وأسرار...

بانتظار فتحِ بابِ كلِّ الأسرار، تلوكُ نور، كلّ يومٍ تقريبًا، هذه المباراةَ الغامضة بكلِّ تشعّبات سيناريوهات نهاياتها الممكنة.

تشعرُ أنّها ترى، أثناء ذلك، حركةَ دماغِ هند كما لو كان في كفِّ يدِها اليمنى. وحركةَ دماغِ أبي العلاء كما لو كان في كفِّ يدِها اليسرى!...

Twitter: @ketab_n

يخطر بِبالِها أن تطبقَ راحَتَي كفّيها إحداهما على الأخرى بقوّة، أن تعجنَ هاتين الكتلتينِ الهلاميّتين المرعبتين، أن تخلطهما طويلاً، لترى في آخر المطاف دماغَها هي نفسها، بأمِّ عينيها!...

ثم لتنفشَ به في الفضاء كي تتناثر أشلاؤه في كلِّ الاتّجاهات...

قبل أن تبدأ أخيرًا حياتَها المؤجّلة إلى حين!...

حدثَ شيءٌ عجيبٌ أيضًا بعد كلِّ هذه التجارب الافتراضيّة التي أجْرتْها نورُ في مختبرِها الذهنيّ: صارتْ، ولِأوّلِ مرّة، تهزمُ هِنْدَ بالعمياء أيضًا!...

ـ متى ستسافرين إلى المعرّة للدراسة إذن، وقد اختزلتِ كلّ قرنٍ بسنة؟، تسألُها هند!...

ـ عندما تريدُ ذلك أمّي الحبيبةُ الغالية: أنا جاهزةٌ للسفر!...

ـ حسنًا!... أيمكنكِ أن تَعديني وعدًا صغيرًا؟...

ـ نعم، ما هو أمّاه؟

ـ أن لا يعرفَ أبو العلاء شيئًا عن كونك ابنتي، عنّي، عن سكننا الجماعي هنا...

(كان بودِّ نور أن تسأل لماذا، لكنّها لم تحبّ وخزَ أمّها ودعكَها من جديد!)...

ـ نعم، أعِدُك!...

ـ سأعطيكِ أيضًا رسالة!... اتركيها في سلّةِ الرسائلِ التي تصلُ أبا العلاء، قبيل عودتكِ النهائيّةِ إلى اللاذقيّة، مهما طال بقاؤك في المعرّة لِطلَبِ الحكمةِ والعِلمِ والمعرفة!... يلزمُ أن لا يشعرَ أحدٌ أنّكِ من حملت هذه الرسالة!...

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، أعِدُكِ أمّاه أيضًا بذلك!...

ـ ستسكنينَ في بيت سيّدةٍ طيّبةٍ في المعرّة سأكتبُ لها رسالةً الآن. سأبعثُ لكِ مبالغ شهريّة تُعطين ثلثًا لها، وما تبقّى لاحتياجاتك اليوميّة...

تذهبُ هِنْدُ لغرفةٍ مجاورة. تغلق الباب. تبكي هذه المرّة كما لم تبكِ يومًا في حياتِها!...

من ألَمِ فراق نور؟ من سعادتِها بِسفرِ نور لرؤية أبيها ومعاشرتِه (قبل أن تكشف هِنْدُ لها السرّ ذات يوم!)؟ من بدءِ تحقيقها أخيرًا، هي نفسها، الخطوة الأولى من مشروعِ عودتِها لِرؤية معشوقِها الخالد، كما وعَدَتْهُ قبل أكثر من عقدَين؟...

تذهبُ نور لِغرفتِها أيضًا. تبكي هي الأخرى. تُفكِّرُ كثيرًا (دون أن تدركَ لماذا) في الساعات الأخيرة لِحياةِ رُكّابِ سفينةٍ غرقتْ ذات يومٍ في شواطئ الهند!...

Twitter: @ketab_n

٢٠

اجتماعٌ استثنائيٌّ طارئٌ جدًّا في قمّةِ عِلّيّين

ـ ثمّة في الأرض، عزيزي أمينيائيل، بقاعٌ غريبةٌ، أسمّيها «بقاع المشلولين»، يصعب عليَّ سبرُ أغوارها واستيعابُ آليّتها! اشرحْ لي ما يدور هناك، أنت الذي قضيْتَ معظم وقتك في التسكّع في تلك الأصقاع!...

يركعُ أمينيائيل أمام جلالِ الاستشارة، بانحناءٍ قدسيٍّ طويل، قبل أن يُغَمْغِمَ بصوتٍ خافت:

ـ أتقصدُ بلادَ العرب أيّها الأجلُّ جدًّا، الأعظمُ جدًّا؟

ـ نعم!، ردّ الأعلى جدًّا!...

ـ تقبّلْ عذري مسبقًا أيّها الأقدسُ جدًّا: أشعر بالفشل مقدّمًا كلّما حاولتُ أن أفهمَ وأفكّكَ طلاسم ما يدورُ في ديارِهم، رغم أنّها متّجهي الأثير ومحطّة كلِّ زياراتي!...

ـ ألديكَ فكرةٌ عن فحوى ذلك الغموضِ والسرّ؟...

ـ نعم: «السرطان الرجيم»، أيّها الأجلّ جدًّا! السرطانُ انتصرَ

Twitter: @ketab_n

هناك وهو يُسيِّرُ أمور تلك الديار عكس رغبتك تمامًا، لكن باسمك!... هذه مؤامرته وحده لا غير!...

السرطان هناك يلبسُ عمامةَ الفقيه!...

شعرَ الأعلى جدًّا بشيء من القرف وهو يسمعُ ملاكَهُ الحبيب يردّد اسم سرطان!... يعرفُ الأجلُّ جدًّا هوسَ ملاكِهِ الغالي بِعدوِّهِ سرطان، عُقدةِ حياته، منذ أن تمّ «خلعُ سرطان من إدارةِ مكتبِ الأعلى جدًّا، ونفيِهِ لمملكةِ الظلمات»، كما تقول رواية «اخرجْ منها إنّك لعين!» (اختارها صدّام حسين أيضًا عنوانًا لروايتِه) التي يمكنُ أن يتفوّهَ بها «فتوّةٌ» في ركنِ شارع، أو حاكمٌ عربيّ، وليس الأعلى جدًّا: ينبوع الرقّة والعشقِ، منتهى السموّ والجلال!...

يَشعرُ الملاكُ الأعظم بالغيرةِ من سرطانَ على الدوام، حدّ الجنون!... خوفهُ الأزرق هو أن يتمَّ ذات يوم تصالحٌ بين سرطان والأعلى جدًّا (إثرَ اعتذارٍ قلبيٍّ صادقٍ من سرطان للأسمى جدًّا الذي يصفح عن كلّ إثم، ولا يحقد على أحد) يستعيدُ قائدُ جيش الظلمات، بعدَهُ، منصبَهُ القديم: قائدَ جيشِ الملائكة!...

لا تمرّ لذلك دقيقةٌ واحدة دون أن يُردّد أمينيائيل: «أعوذ بالأجلّ جدًّا من سرطان الرجيم!»...

ـ سرطان، سرطان، سرطان! ليست في فمك كلمةٌ غيرها، عزيزي أمينيائيل؟ قال الأعلى جدًّا بنبراتٍ لا تخلو من نكهةِ غضب!... ثم أضاف:

ـ اتركْ هذا الذي عشقَني عشقًا صوفيًّا غيورًا مجنونًا يَحْيَ تجربتَهُ الغراميّة بهدوء، دعْهُ يَعبُرْ صحراءَ عشقِهِ ويحيَ مشروعَهُ الشخصيَّ الخاصّ كما يهوى!...

Twitter: @ketab_n

حكّ أمينيائيل رأسَه! أحزنَهُ أن ردَّهُ لم يَرُقْ للأعلى جدًّا. . . تلعثم، احْمَرّ وجهُه، لم يدرِ ما يقول!. . . كان قد أراد في الحقيقة أن يُشعِلَ كراهيةَ الأعلى جدًّا لِسرطان! لكنّه أخفقَ كعادتِه: الأعلى جدًّا محصّنٌ ضدّ الكراهية، ملقّحٌ ضدّ الحقدِ والرغبةِ في الانتقام، كلُّهُ حبٌّ وتسامحٌ وغفران!. . . الضغينةُ والحقدُ والكراهيةُ ورغبةُ الانتقامِ من صفات «العبيد»، والأعلى جدًّا عاشقُ الحبِّ والحرّيّة، إلهُ الأنوار!. . .

أنقذَ الأعلى جدًّا ملاكَهُ من ورطتِهِ وهو يسألُه:

ـ لماذا لا تذهب هناك من جديد، وتمهِّد الطريقَ لأحدِهم لِيصير نبيًّا أو مجنونًا، كي يُخرِجهم من المستنقع الذي يعيشون فيه؟. . .

ـ مستحيلٌ ذلك، هذه المرّة!. . .

ـ لماذا؟

ـ ثمّة نبيٌّ (أحبّهُ بشكلٍ خاصّ) قال لهم قبل أربعة عشر قرنًا إنّه آخرُ نبيّ!. . . لعلّه أراد أن تكون تلك الخطوة قبل الأخيرة لِقطعِ علاقةِ مجتمعات الأرض بالسماءِ وبالغيبِ تمامًا، لا سيّما أنّه قد مهّدَ ذلك بإلغاءِ الكهنوتِ والوساطة بين أهل الأرض والسماء!. . .

ـ كان رائعًا بالتأكيد ذلك الإنسان! ردّ الأعلى جدًّا. . .

ـ أكثر من رائع! (لو كان يحيا معهمُ اليوم لعذّبهُ الحكّامُ والفقهاءُ وقتلوهُ وأطلقوا عليهِ ألف فتوى تكفير!). . . مشروعُهُ الشخصيُّ فريدٌ جدًّا، تجربتُهُ الحياتيّة متميّزةٌ بشكلٍ خاصّ، هو الذي لم يُحبّ من الدنيا الفانية إلّا «العطرَ والنساء»، كما قال!. . .

ـ يا لَروعةِ ذوقِه!. . . الذوقُ حاسّةٌ لَدُنّيّةٌ تُكثِّفُ وتوحِّدُ كلَّ الحواسّ. لذلك هي أهمُّ وأنبلُ الحواسّ، عصارةُ كلِّ الحواسّ،

Twitter: @ketab_n

وصاحبُكَ هذا مَلِكُ الذوقِ بلا شكّ!...

يا لتعاستهم، لماذا خذلوهُ وعكسوا اتّجاهَ مسيرتِهِ بدل أن يكونوا الآن في طليعة المجتمعات العلمانيّة التي تحرَّرَتْ من ظلمات السلفيّة والجهل وربطِ الكنهوت بأمور الحياة اليوميّة؟!...

ردّ أمينيائيل بلا وعي:

ـ سرطان هو السبب!...

تلعثَمَ مرّةً ثانيةً وهو يردُّ بِطريقتهِ التلقائيّة البريئة جدًّا!... شعر أنّه أثار ضيقَ الأعلى جدًّا من جديد (أو ربّما جعلهُ يكتمُ بصعوبةٍ ابتسامةً ساخرةً غاضبةً صغيرة) وهو يشيرُ مرّةً أخرى بأصبع الاتّهام لِسرطان، هَوَسِهِ اللدود!...

تنحنحَ، تراجعَ، وصحّحَ ما قاله:

ـ عفوًا أيّها الأجلّ الأعلى!... لا أعرف السبب!... تستعصي سراديبُ أوضاعِهم وأقبيةُ آليّاتِ حياتِهم على فهمي تمامًا!...

قبل أن يضيف:

ـ إذا وُجِد تفسيرٌ لواقِعِهم فلن يأتي إلّا من خياشيمه، من قَعْرِهِ، منهم، وليس من أبراجنا السماويّة العاجيّة!...

ثم استرسل وهو يرى أنّ الأعلى جدًّا ينتظر منه أن يبلورَ ما قاله:

ـ من أحَدِ أكبر عظمائهم وفلاسفتهم الذي أثبت خلال كلّ حياته أنّه أهْلٌ لذلك!...

ـ لعلّك فكّرتَ في الأمر مليًّا من قبل!... ما تقولهُ يطوي مقترحًا مطبوخًا، ناضجًا جدًّا، محدَّدًا بالتأكيد! ثمّة اسمٌ يختفي بجلاء أسفل لسانك، عزيزي أمينيائيل!... قُلْهُ الآن، لو سمحت، بدون إبطاء أو

Twitter: @ketab_n

تشويق أكثر من اللازم!...

استغرب أمينيائيل من اهتمام الأعلى جدًّا بما يدور في بقاعِ العرب ورغبتِهِ في مساعدتهم بالخروج من المستنقع، هو الذي سما دومًا عن كلِّ التفاصيل الكونيّة الصغيرة! شعر بالسعادة أيضًا، لأنّ الأعلى جدًّا يثِقُ بهِ دومًا، يستشيرهُ بتلقائيّةٍ ومحبّة!... ردّ:

ـ نعم أيّها الأجلُّ جدًّا، الأعظمُ جدًّا! فكّرتُ مليًّا بأوضاع تلك البقاع: يلزم أن نبعث إليهم واحدًا منهم في مهمّةٍ استطلاعيّةٍ لدراسةِ أوضاعهم، وتقديمِ استنتاجات محدّدة تُساعِدنا في استيعابِ شعبكتهم التاريخيّة!...

ـ ألديكَ اسمٌ ما؟

ـ نعم، جلّتْ عظمتك!...

ـ من؟

ـ أبو العلاء المعرّي!

ـ شاعرُكَ الأعمى، من جديد!...

خاف الأعلى جدًّا أن تكون ثمّة بصمات فسادٍ في علاقة أمينيائيل بشاعرِهِ الأعمى! سألهُ بتركيز:

ـ لماذا اخترتهُ هذه المرّة؟...

ـ لا يختلف عصرُهم اليوم عن عصر أبي العلاء في الجوهر إلّا في تغيّر ديكور المسرح (الذي يعجّ بالسيّارات اليوم بدلاً من الجِمال والحمير) لا غير: بدأ في عصره استفحالُ الفكرِ السلفي، كثرت المؤامرات والانقسامات، ضعفتِ الدولة وتفاقم الفقرُ والفساد... لم تحدُثْ منذ وفاتِهِ أيّة قطيعةٍ معرفيّةٍ في حياة تلك الشعوب، لم يحدث أيّ

Twitter: @ketab_n

تغيّرٍ ولو طفيفٍ في العلاقةِ بين الحاكمِ والمحكوم، بين الدينيّ والدنيويّ، اللهمّ إلّا مزيدًا من تقهقرِ العقلِ وسيادةِ المؤسّسةِ الدينيّة، في عالمٍ معاصرٍ يُحيطهم، يسير في الاتّجاهِ المعاكس تمامًا!...

سيفْهمُ أبو العلاء ذلك بِعُمق وهو يقارن بين تطوّرات واقعهم خلال عشرة قرون: تعلَّمَ ذلك الشاعر الأعمى في حياتِهِ الأرضيّة كيف يكون منشورًا ضوئيًّا يُفكِّك ألوان الطيف. تأمّلَ في جذور آلامِهِم مَلِيًّا بتجرُّدٍ وجرأة، هو الذي قال:

دِينٌ وكُفرٌ وأنباءٌ تُقصُّ ... وفرقانٌ يُنصُّ وتوراةٌ وإنجيلُ
في كلّ جيلٍ أباطيلٌ يُدانُ بها ... فهل تفرَّدَ يومًا بالهدى جيلُ؟

وهو الذي قال أيضًا:

عجبتُ لكسرى وأشياعهِ ... وغسلِ الوجوهِ ببولِ البقر
وقولِ النصارى إلٰهٌ يضامُ ... ويُظلمُ حيًّا ولا ينتصر
وقولِ اليهودِ إلٰهٌ يحبُّ ... رشاشَ الدماء وريحَ القتر
وقَوْمٍ أتوا من أقاصي البلاد ... لِرميِ الحجارِ ولثمِ الحجر
فواعجبي من مقالاتِهم ... أيعمى عن الحقّ كلّ البشر؟

وهو الذي قال أيضًا:

أفيقوا أفيقوا يا غواةُ فإنّما ... ديانـاتكم مكرٌ من القدماءِ
أرادوا بها جمعَ الحُطامِ فأدركوا ... وبادُوا وماتتْ سنّةُ اللؤماءِ
يقولون إنّ الدّهرَ قد حان موتُهُ ... ولم يبقَ في الأيّامِ غيرُ ذَماء
وقد كذبوا: ما يعرفونَ انقضاءهُ ... فلا تسمعوا من كاذبِ الزّعماءِ

قدّم أبو العلاء، أيّها الأعلى جدًّا، مشروعًا عقليًّا متكاملاً جدًّا لإخراجِ «كتيبتِهم الخرساء»، كما يُسمّيها، من ورطتِها المُتأبّدَة، عنوانهُ

Twitter: @ketab_n

«لا إمامَ سوى العقل»، هو الذي قال:

يَرتَجي النّاسُ أن يقومَ إمامٌ ناطقٌ في الكتيبةِ الخرساءِ

كذبَ الظنُّ لا إمام سوى العقلِ مشيرًا في صبحهِ والمساءِ

فإذا ما أطعتهُ جلبَ الرحمةَ عند المسيرِ والإرساءِ

لكن لم يلتفت لِمشروعه أحدٌ منذ عشرة قرون، فيما عدا شذرات إعجاب مارق هنا وهناك!... ربّما حان الوقت لأن يخرج أبو العلاء من قمقمِهِ ويتوجَّهَ لِبلاد العرب، وأن يكفَّ سرطان عن إقحام أسمائنا في مؤامراته في تلك الديار! (تنحنحَ أمينيائيل من جديدٍ وهو يذكرُ اسمَ سرطان!)...

استحسنَ الأقدسُ جدًّا ملاكَهُ النبيل الذي امتلكَ الشجاعة الكافية لِيعترِفَ بِعجزِه، واقترحَ بحكمةٍ وألمعيّةٍ، أُعجِبَ بهما الأقدسُ جدًّا، أن يسافر أبو العلاء إلى كوكبِ الأرض لكتابةِ تقريرٍ استطلاعيٍّ عن أحوالِها العامّة، وعن أوضاعِ العرب بشكلٍ خاصّ!...

سألهُ الأقدسُ جدًّا:

ـ أأنتَ متأكّدٌ أنّه سيوافق على هذا المقترح؟

ـ لا تقلق أيّها الأجلُّ جدًّا!...

ثم ابتسمَ أمينيائيل بأدبٍ جمّ، مضيفًا:

ـ لِساعي بريدك صاعٌ وباعٌ في علوم المفاوضات مع بني البشر!...

سأل الأقدسُ جدًّا الذي يعرفُ كم يحبُّ ملاكُه إطلاقَ التسميات على مهمّاتِه:

ـ ماذا ستسمّي هذه المهمّة، هذه المرّة؟

Twitter: @ketab_n

ـ «تقريرُ الهدهد»، ما رأيك؟ . . .

(تذكّرَ الأعلى جدًّا قصّةَ الملكِ سليمان وهو يصغي لِهدهدِهُ الذي عادَ من مملكة سبأ، حاملاً تقريرًا مفصَّلاً عن أوضاعها وعن الملكة التي تحكمُ أهلَها! . . .).

ـ أوكيييه!، ردّ الأعظم جدًا بابتسامةٍ خفيفة (لا نظير لِسحرِها منذ فجر الأبديّة) غمرَ منظرُها الأكوان عبقًا وأنغامًا وألوانًا أنيقةً مُباركة! . . .

Twitter: @ketab_n

٢١

أبو العلاء وهند يلعبان الشطرنج في جهنّم بِقطَعٍ من جمر!

ماذا ارتكبتُ من جريمةٍ في العام ٢٠٠٩؟

كان العام ٢٠٠٩ عام داروين: احتفل العالَمُ بِمُرور ١٥٠ عامًا على صدورِ كتابهِ «أصل الأنواع»، و٢٠٠ عامًا على ميلادِه!...

تابعتُ، أوّلاً بأوّل، النشاطات الكثيفة للمتاحف والمدارس والجامعات ودور النشر والإعلام، للاحتفال بداروين والانحناءِ أمام أحد أهمّ ما أنتجهُ العِلمُ الحديثُ قاطبة!... توالتْ، احتفالاً بهذا الحدث، سلسلةٌ غنيّةٌ من المحاضرات والندوات والأفلام والمعارض والكتب العلميّة والثقافيّة والفكريّة!... أضافت اكتشافاتٌ أركيولوجيّةٌ جديدةٌ هامّة لهذا العامِ تفرُّدَه وثراءَه!...

تابعتُ بِدقّة سلسلةَ البيبلوجرافيا التي ظهرَتْ في كلِّ كتاب في العام ٢٠٠٩، والتي تتحدّثُ بتفاصيل دقيقة عن كلّ فيلسوفٍ أو عالِم عاش قبل العِلم الحديث، ونظر لاندلاع الحياة على الأرض بِروحٍ علميّةٍ ماديّةٍ

Twitter: @ketab_n

عقلانيّة، تخالفُ النظرةَ الميتافيزيقيّة الدينيّة السائدة!...

توالَتْ كلّ الأسماء، من ديموقريط الإغريقي في القرن الخامس قبل الميلاد، مرورًا بباسكال الفرنسي في القرن السابع عشر، حتى فلاسفة وعلماء ما قبل لامارك وداروين!...

كوكبةٌ عظيمة، لا شكّ!...

يكفي أن يُلمِّحَ الواحدُ فيها تلميحًا غائمًا لِشكِّهِ من قِصصِ الخلق الدينيّة، أو أن يُسرِّبَ تساؤلاتٍ فكريّةً مضادّةً لفلسفة الكهنوت، يُثيرها بصوتٍ خافت، لِيلِجَ الكوكبة!...

يكفي مثلاً أن يقول الفيلسوف الموسوعيّ الفرنسيّ دِيدرو، في القرن الثامن عشر: «كلّ حيوانٍ إنسانٌ أكثرَ أو أقلّ، كلُّ نباتٍ حيوانٌ أكثرَ أو أقلّ. كلّ الكائنات ترتبطُ بعضُها ببعض...» لينهالَ الإعجاب، من كلِّ مكان، بهذه «العبارة العبقريّة» السابقةِ لِزمانها!...

لم أجد في كلِّ الكوكبةِ التي استعرضَتْها ببيبلوجرافيا العلماء والمؤرّخين، في العام ٢٠٠٩، عظيمًا واحدًا شَعَر مثل أبي العلاء، منذ عشرة قرون، بأنّ الحياةَ اندلعت من الجماد، وأنّ الإنسانَ تطوّرَ انطلاقًا من أصول حيوانيّةٍ انبثَقتْ وتطوّرتْ هي الأخرى من أصولٍ غير عضويّة، لهُ شجرةُ تطوّرٍ واحدة: («أرى الحيَّ جنسًا ظلّ يشملُ عالمي بأنواعِهِ!» نشأ من أحدِ فروعِها جذعٌ تطوَّرَتْ فروعُهُ من «آدمٍ لِآدم»...

دوّن الحديثِ عن مقولاتٍ أخرى لا تخلو من الحدسِ العقلاني الماديّ المذهل نفسه، عن رؤيتهِ الطليعيّة المتميّزة لِدورِ العقل، وفلسفتهِ المُثلى في الأخلاق!...

ناهيك أنّه قال كلّ ذلك بكلماتٍ أدبيّةٍ رشيقةٍ تعبرُ الزمن!...

Twitter: @ketab_n

عن أبي العلاء أردتُ أن أكتب مقالاً أنشرهُ في عام داروين، يجعلُ فيلسوفَ الشعراء وشاعرَ الفلاسفة الأمجد، يخترقُ كقنبلةٍ سقفَ «بونتيون» كوكبةِ المفكّرين والمبدعين الذين تفتخر بهم بيبلوجرافيا تاريخِ العقلِ الكونيِّ المنير!...

مقالاً يَشفي غليلَ مقهورٍ في الصميم يشعرُ أنّ ثمّة ظلمًا «جغرافيًّا» يخشى أن تكون له روائح عنصريّة:

لو وُلِد هذا الشاعرُ الأعمى قبل عشرةِ قرون في ربوع أوروبا، لَتربّعَ اليوم عرشًا مُتميّزًا في علياءِ كوكبةِ الفكرِ الإنسانيّ ينحني قربهُ الجميع!...

أردتُ أيضًا أن أختتمَ مقالي بالسؤال الجوهري جدًّا، الذي نهربُ دومًا من الإجابة عليه:

كيف يمكن استيعابُ أنّ حضارةً برز فيها من يقول هذين البيتين، في فجر القرن الحادي عشر، تؤول إلى ما آلت إليه، فيما نهضَتْ شعوبٌ، كالغرب واليابان، كانت حينها في قاع التخلّف وفي عمق أعماق الظلاميّة والجهل، ووصلت اليوم إلى الثريّا؟...

مرّ العام ٢٠٠٩ كثوانٍ!... أجّلتُ مقالاً ما كان له أن يتأجّل...

شعرتُ بذنبٍ لا يُغفر!...

ناهيك أنّ مقالي كان سيُسعدُ أمّي الحبيبة، نوال التنّوخي، قبل أن «تديرَ ظهرَها للكثيب»، أيّما إسعاد!...

كان سيُسعِدُ أيضًا أبا العلاء نفسَه، في سجنِهِ الرابع داخل قبرِهِ الرثّ في معرّة النعمان!...

وإن كان لا يسعدُهُ في الحقيقة (ويجعلهُ يشعرُ بالكمال!) شيءٌ آخر

Twitter: @ketab_n

مثل مذمّةِ السلفيّين له، منذ أن أسماهُ ابنُ الجوزي «خليفةَ إبليس»، ونعتَهُ ابن القيّم بـ «أعمى البصر والبصيرة، كلبِ معرّة النعمان». . . وانتهاءً بِمنْعِ سلفيّي القرنِ الحادي والعشرين لِكُتبِهِ في بعض بلدان العرب، وشتمِهم السوقيِّ له (يشعرُ حينها بِكمالِ الكمال!) في مواقعِهم على إنترنت، التي تبدو ألفاظ ابن الجوزي وابن القيّم بالمقارنة بها راقيةً ومهذّبةً جدًّا. . .

* * *

اكتنفني، وأنا أترنّحُ في كلِّ هذه الأوجاع بعد العودةِ مع لمياء من حفلةِ رأس السنة، حزنٌ عميقٌ صامت، أخفيتُهُ وأنا أراقبُ بِسدَر تماوجات أسماك حوضِ لمياء ورخويّاتِ أسطوانتِها السامقة، وسعادةَ شُعبِها المرجانيّة بابتسامةِ أمِّهم الحسناء الرقيقة! . . .

تضعُ لمياء بعد ذلك موسيقى يابانيّةً هادئة أحبّها كثيرًا (تعتقدُ حبيبتي أنّ هذه الكائنات البحريّة ترقصُ عند سماعها)! . . . تتمنّى لهذه الجنّة الصغيرة التي خلقتْها في قلب صالون شقّتِنا عامًا سعيدًا وأحلامًا لذيذة. . .

تقترب من الكنبة (تقرعُ قلبي سعادةٌ كلّما اقتربتْ لمياء منّي، منذ عشرين عامًا، بِالقوّة نفسها!):

ـ بماذا تفكّر حبيبي؟، سألتني! . . .

ثم أضافت بصوتٍ متحشرجٍ خافتٍ مُتسارعٍ حزين:

ـ بِطفلِنا الذي لم يولد بعد؟ . . .

ـ لا!

ـ بماذا إذن؟ . . .

Twitter: @ketab_n

ـ بالمقال الذي لم أكتبه! . . .

ـ آه، مرّ عامٌ وأنتَ تؤجّلُ ذلك! . . . اكتبْهُ الآن! . . .

ـ يستحيلُ ذلك . . . أشعرُ بإرهاقٍ شديد! . . .

ـ ابدأْ بِهِ الآن على الأقلّ!

ـ لا أستطيعُ التركيز! . . . لعلّي تجاوزتُ بإفراط حدودي في الأكل والشرب، أكثر من أيِّ رأسِ عامٍ آخر! . . .

ـ اكتبه لأجلي، على الأقلّ! . . .

ـ غدًا! . . .

ـ عِدْني بذلك! . . .

ـ أَعِدُكِ! . . .

ـ لكن قل لي: لماذا أجّلتَهُ كثيرًا؟ هذه ليستْ عادتك! ما الذي منعك من نشرهِ خلال عام داروين؟ . . .

ـ أردتُ في البدء أن أكتب مقالاً استنكاريًّا صارخًا لنسيان البيبلوجرافيا الغربيّة لأحد أهمّ من يلزم ذكرُهُ من الفلاسفة! . . . ثم قلتُ لنفسي: يحتاج أبو العلاء لأكبر من ذلك التذكيرِ الاستجدائي: أبو العلاء مَنسيٌّ قبل هذا وذاك في عقر دارِه! . . .

لا يستحقُّ إلّا أن تبدأ نهضةٌ عربيّةٌ شاملةٌ تتكئُ على مشروعِه! . . .

تأرجحْتُ كثيرًا بين مقالٍ أصغر ممّا يستحقُّهُ أبو العلاء، لكنّي تلكّأتُ في تحقيقه، وحلمٍ أكبر من مقدراتي لم أعرف كيف يمكن أن أساهمَ في إنجازِه! . . . ثم سال الوقت بين أصابعي، وتُهتُ كعادتي في أزقّةِ حياتي التافهة الصغيرة! . . .

قالت لمياء:

Twitter: @ketab_n

ـ اتركْ كلّ ذلك الآن إذن! . . .

ـ ماذا؟ . . . (تساءلتُ مستغربًا ممّا تقوله، غير متوقّعٍ ذلك من لمياء التي قضتْ عمرَها تفتحُ لي الأبواب، تُشجّعني وتدفعني لتحقيق كلِّ ما يخطرُ ببالي، وما لا يخطر أحيانًا!) . . .

ـ لماذا لا تكتبُ بدل ذلك روايةً تُعيدُ فيها أبا العلاء إلى الحياة، تجعلهُ يعيش هذا العصر؟ . . . اجعلْهُ يحيا حياةً ثانيةً خياليّةً على الأقلّ! . . .

بيج بونج صامت! . . .

قبل أن أقبّلَ أذنَها:

ـ أعشقُ شحمةَ لُغدِ أذنِك! . . . تزدادُ جمالاً منذ عشرين عامًا! . . .

* * *

ذهبَتْ لمياءُ لِلسرير. توجّهتُ في الاتّجاه المعاكس، بحركةٍ لا واعية تقريبًا، نحو التلفون، لأتّصل بسوريا! . . .

الساعة في باريس تتجاوز الثالثة فجرًا. الخامسة في مدينة قُطيفة القريبة من دمشق، حيث تسكن أمّي في طرف المدينة، في بيتٍ هادئٍ قرب مزرعة. . . ترافقها السيّدة الشابّة هدى جمعة: مهندسةٌ معماريّة في الثلاثين، بدون وظيفة! . . . تسكن بصحبة أمّي التي غادرتْ حَلَب منذ سنوات لِتعيشَ في قُطيفة قرب صديقة طفولةٍ أقرب لها من حبل الوريد، وعددٍ من الأقارب الحميمين! . . .

ترافق هدى أمّي وتخدمُها ليل نهار مقابل راتبٍ شهري، يربطهما حبٌّ وحنان لا يُقاسان بالليرات. . . لهدى ولَدان يأتيان لزيارتها بين الحين والحين، يعيشان مع أبيهما منذ أن طلّقها وتزوّج بأخرى! . . .

اعتذرتُ للسيّدة هدى جمعة على تجرُّئي الاتّصال في هذا الوقت المتأخّر لتهنئة أمّي برأس السنة. قالت: «بالعكس، صحّتْ السيّدة نوال

Twitter: @ketab_n

لِصلاة الفجر قبل قليل! سيبهجها اتّصالك أكثر ممّا تتصوّر! انتظرناه كلَّ الليلة الماضية، في الحقيقة!»...

سعدتُ كثيرًا بسماع صوت نوال التنّوخي (كم أحبّ اسم أمّي!) في هذا الليل الفضّيّ الذي لا تتوقّف فيه السماء من صبِّ «حيواناتها المنويّة الربّانيّة» لِمضاجعةِ الأرض، كما تقول الأساطير!...

كان صوتُ أمّي رهيفَ النبرات، مملوءًا بالحنان، رخيمًا نقيًّا هادئًا واضحًا جدًّا، تتخلّلهُ (أكاد أسمعُ ذلك بجلاء أيضًا) أصداء نبرات ديكٍ يستعرضُ، مع إطلالةِ أشعّةِ الفجر على مزارع شرق قُطيفة، أوتارَ حبالِهِ الصوتيّة أمام دجاجات وكتاكيت الحارة!...

بعد أمنياتٍ بِعامٍ سعيدٍ ودعواتٍ (تفجّرتْ من قلبي كينبوع) لحبيبتي نوال بالقوّةِ والصحّةِ وطولِ العمر، ذهبتُ عموديًّا لِبيت القصيد:

ـ أمّاه، ما حكاية مباريات الشطرنج بين هِنْدَ وأبي العلاء التي حدّثْتِني عنها في طفولتي؟ ما دليل ذلك؟... أعرف من خلال الكتب أنّ أبا العلاء كان ماهرًا جدًّا في الشطرنج والنرد. لكن كيف وصلتْكِ تفاصيلُ مبارياتهما؟ وكذلك تفاصيل ولادة نور؟...

لم تستغرب أمّي من هذه الأسئلة التي تستيقظ على حين غرّة، بعد سباتٍ دام دهورًا!... شعرْتُ من نبرات تنفُّسِها أنّها لا تخفي ابتسامةً وجذلاً... ردّتْ ببهجةٍ خجولةٍ لا تخلو من لومٍ لَزِجٍ غائرِ الجذور:

ـ انتظرتُ أسئلتك هذه منذ ٣٦ سنة، حبيبي، منذ أن كشفتُ لك مخطوطةَ شجرةِ سلالة أبي العلاء، وحدّثتكَ عن جوانب مجهولةٍ في حياته!... لماذا تعاليتَ عن هذه الأسئلة كلَّ هذا الزمن؟ لماذا لم تكلِّف نفسك قراءة الأرشيف الذي يحوي كلّ هذه الوثائق القديمة، والذي سيكون أمانةً في عنقك وحدَك لا غير؟...

Twitter: @ketab_n

(ذكّرتني أيضًا أنّها أضاءت البارحة، ٣١ ديسمبر، كعادتِها، شمعةً بمناسبة عيد ميلاد نور. كما أضاءت أخرى قبل خمسة أيّام، ٢٧ ديسمبر، قبيل غروب الشمس، بمناسبة عيد ميلادِ أبي العلاء!).

صمتٌ مريع!... زاد دَوِيُّه وهي تقول:

ـ لم تُكلِّفْ حبيبي نفسَك عناء إضاءةِ شمعةٍ واحدة لقراءة ما في ذلك الأرشيف، أنت الذي تقضي كلَّ وقتِك في سبِّ الظلمات!... ألم يكن لِزامًا عليك أوّلاً الهبوط إلى المنجم لِفتحِ صندوق ذلك الأرشيف، قبل الصعود إلى رأس برج إيفل والصراخ عاليًا لتحريض شعوب العرب على الحرب ضدّ الظلمات؟...

لحلِّ مشاكلِ الوجود لا يكفي الجلوسُ أمام الكمبيوتر والتجوّلُ على إنترنت! يلزمُ أحيانًا تمريغُ اليدين في الوحل!...

شعرْتُ أنّ أمّي الرقيقة الغالية صفعتني بجلافة!... لم تعرف كيف تتدارك نفسها، كما يبدو! أضافت:

ـ اطمئنّ، عيني!... ليس هناك نصٌّ لأبي العلاء في أرشيفي، غير ما نُشِرَ له في المكاتب! تعرف مثلي أنّ أربعة أضعاف ما هو منشورٌ له اليوم ضاع إلى الأبد بعد غزو الصليبيّين المعرّة!... غير أنّنا، أنا وأنت، نمتلكُ في ذلك الأرشيف، الذي لم تُكلِّف نفسك فتحَه، مخطوطات رسائل لِهند، ونصوصًا طويلة لابنتهما نور، كتبَتها بعد أن سافرتْ من اللاذقيّة إلى المعرّة لحضور مجالس أبي العلاء وهي في الثانية والعشرين، كما قلتُ لك يوم عيد ميلادك الرابع عشر، دون أن يثيرَ ذلك اهتمامَك حتى الآن!...

ستشرحُ لك نصوص هِنْدَ ونور أسرار عديدة في غاية الأهمّيّة!...

صفعةٌ ثالثة!...

Twitter: @ketab_n

ـ اعذريني أمّاه! أعدُكِ أنّي سآتي قريبًا جدًّا لِتقبيلِ جبينكِ ودراسةِ كلِّ تلك النصوص بنفسي!... لكن أخبريني قبل ذلك: كيف تحدّثتْ تلك النصوص عن مباريات الشطرنج مثلاً؟ أريد أن أستوعب ذلك في البدء!... لديّ أسئلةٌ كثيرة أخرى بعد ذلك!...

ـ عرفتُ قصصَ مبارياتِهما في الشطرنج من أكثر من مصدر: أروعهم نصٌّ لِنُور، يلي تعليقاتها على «رواية الغفران»! أُسَمِّيهِ شخصيًّا: «هوامش نورانيّة على رسالة الغفران»، أو «ما لم يكتبهُ أبو العلاء في رواية الغفران»!... نصٌّ مذهل، حبيبي!... ستجدهُ في صندوق المخطوطات الذي ينتظركَ منذ ٣٦ سنة!...

ـ ماذا يقول النصّ؟...

ـ أشياء كثيرة ستقرأها لوحدِك. تضيفُ نور في ملحقها لرواية الغفران (بعد لقاء ابن القارح بِرتلٍ من الشعراء في الجحيم: بشّار بن برد، امرئ القيس، عنترة العبسي... حتى الأخطل التغلبي) ما يلي:

«سأل ابن القارح عن أبي العلاء في جهنّم!...

وجدَهُ فيها يلعب الشطرنج مع هِنْدَ بِقِطَعٍ من جمر!...».

صرختُ مستغربًا (لا أدري هل نامت لمياء، أم سمعتني وأدركَتْ فحوى مكالمتي مع أمّي):

ـ بِقِطَعٍ من جمر؟!... هل نور مُختلّةُ الذهن، مخربطةُ العقل إلى هذا الحدّ؟ كيف يجوز لها أن تتخيّل أبويها في جهنّم يلعبان الشطرنج بِقِطَعٍ من جمر؟... يا للعنفِ والساديّة!...

ردّت أمّي بِصفعةٍ جديدة، أشدّ وأعتى:

ـ لعلّك، حبيبي، لم تقرأ رواية الغفران، أو بالأحرى لم تفهمها!...

Twitter: @ketab_n

٢٢

أبو العلاء يرفضُ مقترح أمينيائيل

حالما قرأ أمينيائيل إس إم إس أبي العلاء الذي وصلَهُ من مقهى الكوكبة وهو بصحبة شُلّتِه، والذي يرفض فيه مقترح هيئة أركان السماء ٧٧ بالتوجّهِ إلى الأرضِ لِكتابة «تقرير الهُدهد»، حكّ شعرَهُ قليلاً، ابتسم. . .

ثم بعث سيلاً من الكلمات في إس إم إسٍ مفروشٍ كَمِلاءة، قرأهُ أبو العلاء أوّلاً بأوّل لِرفاقِه في شُلَّةِ الكوكبة:

((أنت حرٌّ بالطبع، عزيزي الغالي أبا النزول، لكن لا تنس أنّك ستعيشُ ظروفًا استثنائيّة خلال هذه الرحلة، طالما حلمتَ بها عندما كنتَ حيًّا: بإمكانك أن تعبر الكون بالسرعة التي تريدها، بِسرعةِ الضوء، بأكبر من سرعة الضوء بمليارات المرّات، إذا أحببتَ!. . . سيسمح لك ذلك باللحاق بأشعّة الضوء التي غادرت الأرض في الماضي السحيق، سترى فيها بِأمِّ عينيك الماضي كما حدث فعلاً، لا كما رواه الرواة!. . . ألم يكن ذلك أسمى أحلامك؟. . .

Twitter: @ketab_n

ستشاهدُ لحظةَ بدءِ الكونِ والحياة، سترى الانفجارَ الكونيّ الكبير، سترى سيرةَ حياةِ من حفرَ ثُقبًا في الليل عندما قال: «حيوانٌ مستحدَثٌ من جماد»، ثم حوّلَ الثقبَ نافذةً مفتوحةً على الفجر، عندما قال «قبلهُ آدمٌ على إثرِ آدم»!...

ستشاهدُ في حياتك الثانية بأمّ عينيك ما خمّنْتَهُ في حياتك الأولى بعقلك: كيف اندلَعَت الحياة من أعطاف الجماد، وكيف تطوّر أصلُها المشترك وتشعَّبَ وقادَ إلى شجرةٍ عملاقةٍ من الأنواع البيولوجيّة بِحجمِ كوكب، انبثق من أحد فروعِها حيوانك الذي حارتِ البريّة فيه!...

ستشاهدُ وتعيش كلَّ شيء، ستحيا كما تريد، ستتجوّلُ حيثما تحبّ، أنت الذي كنتَ أسير ثلاثة سجون!... أخَطَرَ ببالك مجرّدُ الحلم بذلك يومًا؟... أليست ثمّة مغامرةٌ أدبيّةٌ ساحرةٌ فريدة، لا مثيل لها قطّ، حلمُ كلِّ أديبٍ وكاتب؟...)).

علّق بيكاسو جهرًا أمام كلِّ أعضاء الشلّة:

((ثمّة مغامرةٌ أدبيّةٌ فريدة لا شكّ!... غير أنّ ثمّة رشوةً أرستقراطيّةً إلٰهيّةً لم يحظَ بها إلّا رهينُ المَحبَسين!... ثمّة أيضًا ثمنٌ لهذه النزهة الفريدة: «أبو النزول»، الذي دسّ في أبياته قنابلَ فكريّةً توقظ الموتى، سَيَفهمُ أفضل من غيره سرَّ سبات شعوبِ العرب، وسيساعِدُ بذلك «القيادة العامّة» التي أعلنتْ، دون عُقَد، عجزَها عن استيعاب قوانين حركة هذه الشعوب التي تهرولُ، كما يبدو، نحو الدركِ الأسفلِ من الخراب!...)).

شعر أبو العلاء بالحيرة والارتباك والتشوّش: أغراهُ ما قال أمينيائيل، وإن كان نفورُهُ الذاتيّ من حياة الأرض لا يُقهَر، لا يتزعزع!... لم يُعقِّب كعادتهِ على التوّ!...

Twitter: @ketab_n

أراد أمينيائيل أن يقلب سريعًا موازين الحوار في هذه اللحظة بالذات التي بدأ التردّدُ والضبابيّة يتسلّلان فيها إلى سيماء أبي العلاء!...

أخرجَ لذلك عبقريُّ الملائكة ورقتَهُ الرابحة الأخيرة، ورقتَهُ الحاسمة: هند!... استأنفَ سريعًا جدًّا:

ـ ستجد في هذه الرحلة إجابات على كلّ الأسئلة المجهولة التي راودتك! ستعرفُ مصائر فتاةٍ عشقتَها بِسرّيّة، في حياتك الأرضيّة الأولى ولم تعرفْ أين ولّت ولماذا اختفت عنك حينذاك! ستراها بأمِّ عينيك، وستعرفُ سرّ أسرارِ حياتك الذي لا تعرفه حتى الآن، بل لم يخطر ببالك قطّ...

أردَفَ أمهرُ مفاوضي الأبديّة بِكُلِّ دلالٍ وإثارة، بعد لحظات قلائل:

ـ والذي يحلو أن تكتشِفَهُ لوحدِك دون أن أهمسَ لك به الآن! أرجو أن تفهمني!...

يا لَدهائه وهو يغمزُ ويقول: «أرجو أن تفهمني!»...

وصل سهْمُ أمينيائيل إلى مركزِ نقطةِ ضعفِ أبي العلاء: هند!...

ثم بعث أمينيائيل نصفَ إس إم إس، لم يفهم منه أبو العلاء شيئًا!...

لعلّ لِسان أمينيائيل كادت تزلّ وتضيفَ: «نور» في النصفِ الذي لم يبعثهُ من ذلك الإس إم إس، لكنّه تدارك نفسه في آخر لحظة!...

أو ربمّا كان ذلك الإس إم إس المكسورُ مجرّدَ مناورةٍ فنّيّةٍ من أمينيائيل لا غير، لإثارةِ أبي العلاء وتشويقهِ لمفاجآت الرحلة!...

ـ أعطني مهلةً للتفكير! سأبعث لك قراري النهائي بعد أقلّ من أسبوع!، ردّ أبو العلاء!...

Twitter: @ketab_n

ثم أضاف وهو في أوج ارتباكه:

ـ عفوًا عزيزي أمينائيل، بعد أقلّ من يوم!...

ردَّ عبقريُّ دبلوماسيّي الأبديّة:

ـ حسنًا، حسنًا!... كما تريد! فكِّرْ جيّدًا، لك الوقت الذي تريده! اتّخِذْ قرارك بحرّيّةٍ مُطلقة!... لكن لا تنس في لحظةٍ ما، إذا وافقتَ على هذا المقترحِ بالطبع، أن تبعث لنا انطباعاتك عن أحوال شعوبٍ تحتضرُ في عصرِ استفاقةٍ علميّةٍ وحضاريّةٍ شاملة، ناهيك أنّ هذه الشعوب كانت في قمّة الحضارة الإنسانيّة أثناء حياتك الأولى، نما في أحشائها مشروعٌ عقليٌّ طليعيٌّ كمشروعك!...

لا يفهمُ أحدٌ ذلك في السماء ٧٧، حتى الأعلى جدًّا، هو نفسه!... هل يمكنكَ أن تتصوَّر ذلك؟...

في كلِّ الأحوال، القرار بيدك وحدك لا غير، أنت حرٌّ، عزيزي أبا العلاء! أنت حرٌّ تمامًا!...

توجّه ساعي بريدِ الأعلى جدًّا، وهو يخفي نصفَ ابتسامةٍ ماكرة، نحو أرشيف الأبديّة ليفتحَ ملفًّا جديدًا كتبَ على غلافه: «تقرير الهدهد»، دون أن ينتظرَ موافقةَ أبي العلاء!...

كتبَ في مذكّراتِ يوميّاتِه الشخصيّة، الحميميّة جدًّا:

((اقترحتُ «للأعلى جدًّا» إرسالَ أبي العلاءِ للأرضِ، لِكتابةِ «تقرير الهدهد»، لِسببٍ يشرحُ نفسَه: اختزلَ أبو العلاء «هكذا تكلّمَ زرادشت»، قبل تسعة قرونٍ من نيتشه، بِبَيتين جذريّين، شديدَي الجوهريّة والنورانيّة، لا مراوغةَ فيهما أو غموض:

ولا تحسبْ مقالَ الرُّسلِ حقًّا ولكن قولُ زُورٍ سطَّروهُ

Twitter: @ketab_n

وكان الناسُ في عيشٍ رغيدٍ   فجاؤوا بالمحالِ فكدَّروهُ

وكثَّفَ، بحدسِهِ العبقريّ نفسه الواحدِ الأحد، جوهرَ «أصل الأنواع»، قبل ثمانيةِ قرونٍ ونصف من داروين، بهذه الثلاثة الأبيات ذات البصيرةِ الثاقبة:

١) والذي حارتِ البريّةُ فيهِ   حيوانٌ مستحدَثٌ من جمادِ

٢) أرى الحيَّ جنسًا ظلّ يشملُ عالمي   بأنواعهِ، لا بوركَ النوعُ والجِنس!

٣) جائزٌ أن يكونَ آدمُ هذا   قبلَهُ آدمٌ على إثرِ آدم!))

غادر أبو العلاء شلّةَ الكوكبة معتذرًا. «أحتاجُ للتفكير!»، قال لهم قبل الانسحاب!... خرج معه كارل ماركس، حتى باب المقهى ليودِّعه!...

عندما يضع ماركس يدًا في جيب بنطلونه ويتركُ أطراف أصابع الأخرى تتنقّلُ ذهابًا وإيابًا من جيبِ معطفه «الجوخ» البُنّي إلى أسفل لِحيتِهِ، فذلك لأنّه يفكِّرُ بتركيز، يبحثُ عن شيءٍ ما!... ثمّة شيءٌ يقلِقُهُ في هذه الرحلة، لا يستسيغهُ كثيرًا، لم يفصح عنه، أو بالأحرى لا يعرفُ كيف يُفصِحُ عنه!...

خاف أبو العلاء أن يطلب ماركس تقريرًا موازيًا منه، هو الآخر، أو قائمةً من أفخر النبيذ الفرنسي، كما كان يطلبها من صديقِهِ الميسور ورفيقِهِ الشيوعي أنْجلزْ (ويوبِّخهُ في رسائلهِ الخاصّة، عندما لا يبعثها له كما يهوى!)...

ودَّعَهُ أبو العلاء باستعجال، وغاب عن مرآهُ سريعًا!...

هرع أبو العلاء نحو مقصورتهِ في قمّةِ هضبةٍ صغيرةٍ مفتوحةٍ على «محيط اللانهايات» الذي يتلألأُ أسفل نافِذتِه!...

Twitter: @ketab_n

مليونُ نورسٍ بألوان قوسِ قزح ترفرفُ وترقصُ قربهُ على إيقاعِ أمواج المحيط!...

أمامهُ الشموسُ السبعُ والسبعون، بألوانِها المتنوّعة، تبتعدُ جميعها عن كبدِ السماءِ، تنسابُ معًا باتّجاهِ الأفقِ الأوّل، تنزلقُ منهُ نحو الثاني، الثالث... خلال غروبٍ صيفيٍّ ساحر، على إيقاعِ سيمفونيّةٍ إلٰهيّةٍ تَخرجُ من حنايا الأفقِ السابعِ والسبعين!...

يتابعُ أبو العلاء تدحرجَ قافلةِ الشموس في سُلّمِ آفاقِ سمائهِ، أفقًا أفقًا، قبل أن يلهفَها غسقٌ ربّانيٌّ ساحر يُشبِهُ العدم، تنطفئُ في شدقِهِ جميعُها، في اللحظةِ نفسها التي ينتظرُها الشاعرُ كلَّ يومٍ بفارغِ الصبر!...

Twitter: @ketab_n

٢٢

يُمنع منعًا باتًّا أكلُ التفاح والحديثُ مع الحيّات في الجنّة!...

«لعلّك حبيبي لم تقرأ رواية الغفران!...» قالت أمّي!...

أيّ صفعةٍ أكبر من هذه؟ كنتُ أعتقد، ولا فخر، أنّي أكثر من قرأ هذه الرواية وأحبّها!... كم تمنّيتُ وما زلتُ حتى هذه اللحظة أن أشتريها ذات يوم لطفلنا (الذي ننتظره، لمياء وأنا، حدّ السخطِ من قوانين الحياة التي حرَمتنا منهُ حتى الآن، والحقدِ على أقدارِها، وبعضِ الغيرةِ ربّما ممّن أنعمتهم الحياة بحظوظها في هذا الجانب) وأن أكتب له عليها إهداءً شخصيًّا بِخطّ يدي!...

أعرف عن ظهر قلب ماذا سأكتب!... لا ينقصني إلّا الطفل فقط!...

أيّ استخفافٍ أحَدُّ من استخفافِ أمّي؟ لا سيّما وأنّ قراءاتي لهذه الرواية روايةٌ بحدِّ ذاتها!...

ازدحمَتْ الكلمات في فمي لِتُثبِتَ لأمّي، حال تشكيكها لقراءتي

Twitter: @ketab_n

لِرواية الغفران، كم اندمجتُ بهذه الرواية حدّ تذكُّرِ تفاصيلها الصغيرة!. . . أردتُ أن تسحبَ أمّي إهانتها سريعًا!. . .

لخّصتُ لذلك، مثل طالبٍ يدافعُ عن أطروحتهِ أمامها، السيرةَ الذاتيّة لعلاقتي الحميمة بهذه الرواية:

حاولتُ، أمّاه، قراءةَ رواية الغفران التي أهديتني إيّاها في الصغر. وجدتُ صعوبةً في أغلب الأحيان. . . لم أفهم أثناء قراءتي الأولى لها إلّا شذرات هنا وهناك. شذرات أخرجَتْني مع ذلك من جحيمِ أستاذِ صفِّنا في المدرسة!. . .

كان الأستاذ عبد الحقّ أبو وردة (أو عبد الحقّ أبو جهنّم، كما كنّا نسمّيه) يحبُّ الحديث عن جهنّم، بشيءٍ من الساديّة على ما أظنّ. أو لعلّ تلك طريقته الناجعة لجذبِ انتباهِ وإصغاء الصفّ له، وضبطهِ وتهدئتِه!. . .

بابُ جهنّم، كما كان يصفُهُ أستاذنا في طفولتي، مَعينُ ذُعرٍ وكوابيس: ستارُهُ، كما يقول، كتيبةٌ من ملايين الأفاعي والثعابين، معلّقةٌ من ذيولها في سقف الباب، تتدلّى منه كأسنان مشط، تتلوّى من الجوعِ كَمَوجٍ مضطرمٍ هادر.

لمعانُ جلودِها الملوّنةِ الملساء يُحرِق النظر. شوكات أنيابها ترفرفُ بشكلٍ محموم، لها لون الجمر والصديد!. . .

تتزاحمُ جميعها حال وصولِ كلِّ محكومٍ عليه بجهنّم للاحتفالِ باستقباله: يكفي أن يقترب المسكين من «بابِ مالِك» لِتُلوِّحَ له حيّاتُ جهنّم بِشوكات أنيابِها بِشَبَقٍ محمومٍ راقص، ولِتكتظَّ لاحتضانهِ وعناقهِ بحرارة!. . .

كان يكفي أن أسمع الأستاذ عبد الحقّ أبو جهنّم لأشعر بالغثيان

Twitter: @ketab_n

والرغبة بالطرش. يكفي أن أراه لأبحث عن أقربِ ملجأٍ أو خندقٍ يحجبني عنه... صرتُ أكره المدرسة بسببه. أصبح بابُها يثير هلعي مثل باب جهنّم! أقتربُ منه بخطوات محبوسةٍ ثقيلة. أشعر أنّ مليون ثعبان سيستقبلني حال دخوله!...

قاطعتني أمّي:

ـ لم تخبرني بذلك حبيبي إلّا اليوم!... لو عرفتُ ذلك لخنقتُ أستاذك أبو جهنّم حينها!...

ضحكنا معًا من «تَعَنتُرِ» أمّي مع تقدُّمِ السنّ، ومن تصوُّرِ أنّها، بكلّ رقّتها ونحافتها، تخنقُ عفريتًا بِحجمِ الأستاذ عبد الحقّ أبو جهنّم!...

كنتُ، قبل الأستاذ أبو جهنّم، أتخيّلُ كثيرًا حياةَ الجنّة والجحيم بطريقتي الخاصّة: الجنّة في مخيّلة طفولتي قصورٌ وواحات. يسودها لونانِ: الأبيض والذهبيّ. روائحُ ورودٍ وعطر في كلّ مكان. أشجارٌ ظليلة. لا حاجة للأكل في الجنّة، وإن طفحَتْ بِبذخٍ بِكلّ ما لذّ وطاب: أنهار شوكلاتة، أنهار إيسكريم، أنهار حلويات مثلّجة... لمن يهوى، حسب الشهيّة والرغبة والنهم!... قصورٌ ونوادٍ ترفيهيّة في كلّ شارع. بساتين وأنهار تُحيط بكلّ حيّ...

على باب كلّ حديقة، في جنّةِ صباي، هذه العبارة التحذيريّة ذات الأهمّيّة القصوى:

«ممنوع أكل التفّاح، والحديث مع الحيّات!»

بسبب ما كلّف بني آدم أكلُ آدمَ وحوّاء للتفّاحةِ المحرّمة، بعد حديثهما مع الحيّة الشيطانيّة، من طردٍ من الجنّة وكسورٍ وفوضى ومصائب!... ومن بولٍ وبرازٍ أيضًا، بعد أن كانت مثاناتهم وأمعاؤهم في إجازةٍ بيولوجيّة منذ الأزل!...

Twitter: @ketab_n

لم أفهم وأنا أتجاوز الخامسة عشرة من العُمر لماذا خُلِقتْ في البدء هذه الأجهزة البيولوجيّة دون أدنى جدوى، أو هل تمّت إضافتها مؤخّرًا جدًّا بسبب خطيئة آدم وحوّاء!...

المهمّ الآن: عُوقبَ آدم وسلالته بسبب تلك التفّاحة اللعينة، فأصبحوا ماكينات نفاياتٍ إلى الأبد (لا تنفعُ الآن أيّة وساطات أو مفاوضات لإلغاء تلك العقوبة، كما يبدو!)، على غرار إخوتِهم بقيّةِ الحيوانات التي أتذكّرُ أنّي لم أكن أعرف حينها هل كانت تعيش في الأرض قبل هبوطِ آدم وحوّاء إليها، هل وصلتْ بعدهما بمناطيد من السماء، أم هل صُمِّمتْ لاحقًا في مختبرات المعمورة!...

أمّا جهنّم فكنتُ أفضِّلُ في صباي أن أتخيّلها بشكلٍ هلاميٍّ غائم: روائحُ نتنةٌ كريهة، بؤسٌ، جراح، شتمٌ وسبٌّ واعتداءاتٌ في كلِّ لحظةٍ ومكان...

لِلجحيمِ لونان فقط: أحمر وأسود!... البشرُ فيها ممسوخ: له نصفٌ آدميٌّ ونصفٌ بِهيئةِ شيطان!... لكنّي لم أطق أو أتجرّأ يومًا أن أتخيّل عذابًا في جهنّم!...

كان أستاذُنا عبد الحقّ أبو جهنّم يحبُّ ذلك كثيرًا! متعتهُ الكبرى: الحديثُ عن أصنافِ عذابات السعير.

يتفنّنُ في وصفِ السلاسل الملتهبة التي تحيط بالجسد في «الدرك الأعلى من الجحيم»، حيثُ العذابات الرقيقة.

يبدعُ في تصوير الحرابِ التي تخترق العينين وتطحن الأحشاء في ذلك الدرك الناعم، المطارق التي تُهشِّمُ الجماجمَ والعمود الفقري والمفاصل والعظام لِيلَ نهار، القارّ المحموم الذي يُرمى فيه الجسدُ بين عذابين كأنّه في استراحة صغيرة، الجمرات التي تُوضَعُ كلَّ يومٍ عدّة

Twitter: @ketab_n

مرّات في أماكن حميميّة من الجسد: الخصيتين، العينين، الإبطين، وفتحة الدبر...

وأخيرًا: الجلود والعظام التي تُستبدَلُ كلَّ يومٍ لبدءِ برنامج عذاباتٍ جديدة، على وتيرة الأمس نفسها، وحتى أبد الآبدين («هيلا هيلا هوب! هيلا هيلا هوب!...» كان يردّدُ أستاذُنا حينها بتأجّجٍ وهيجانٍ وسعادة)!...

ثم يبدأ أستاذنا العزيز بعد ذلك فقط وصفَهُ لِزبانيّة الدرك الأسفل من الجحيم وطقوس عذاباتهم الخشنة التي لا أتجرّأُ على تذكُّرها!...

تبدو عذابات الدرك الأعلى بالنسبة لها ناعمةً بالفعل، رقيقةً جدًّا، أشبه بشهر عسل رومانسيٍّ هادئٍ سعيد!...

يكفي رؤيةُ السعادةِ تلمعُ في عيني أستاذنا وهو يجلجل بصوتِه الرعديّ: «سَقَر! وما أدراك ما سَقَر!... حبيبي!»، أو عندما يردُّ على سؤال: «يوم نقول لِجهنّمَ هل امتلأتِ؟»!...

يفتحُ حينها ذراعاه لاحتضان الكون، يردِّدُ بِنهمٍ وشراهةٍ وشبق، مبتسمًا ملء شدقه، كأنّهُ لسان حال جهنّم:

«فتقولُ: هل من مزيد؟ آه، هل من مزيد؟ آه، هل من مزيد؟... حبيبي!».

يرفرفُ معصماه وأصابع يديه حينها مثل راقصةٍ شرقيّة وهو يضيف بلا وعي: «يا هلا!... يا هلا!... يا هلا!...».

تخلّلتْ كوابيسُ عذابات الأستاذ عبد الحقّ ليالي طفولتي... لم تعافني منه، أمّاه، إلّا «رواية الغفران» لأنّ حيّاتِها، كما اكتشفتُ بكلِّ سعادة، يتحوّلنَ حسب الإرادة إلى حُورٍ عين، ولأنّ جحيمَها مثيرةٌ جذّابةٌ

Twitter: @ketab_n

أيضًا، منتزهٌ أرستقراطيٌّ بامتياز!...

* * *

تُصغي لي أمّي بانتباه، وأنا أحاول أن ألخِّصَ لها عبر الأثير، في هذه الساعة المتأخّرة من الليل، روايةَ قراءاتي لِرواية الغفران، وآثارها العديدة عليّ، كي تسحبَ عبارتها الظالمة: «لعلّك، حبيبي، لم تقرأ رواية الغفران، أو بالأحرى لم تفهمها!»...

أنتظرُ ذلك في البدء، قبل أن أطلب منها أن تفسِّرَ لي أسرار لغزٍ ما كتبتْهُ نور عن «أبويها في الجحيم وهما يلعبان الشطرنج بِقِطَعٍ من جمر!»...

تنفَّستُ الصعداء طويلاً، استأنفتُ الغوصَ في الذاكرة:

أثارتني، أمّاه، قبل هذه الاكتشافات السعيدة لِأفاعي آخِرةِ روايةِ الغفران، ولِجهنّمِها المهذّبةِ الجميلة، شخصيّةُ ابن القارح وقصّةُ دخولِهِ الجنّة!...

ابن القارح، كما عرفتُ من بدء الرواية، شيخٌ حلبيٌّ من أهل الأدب كان قد بعث رسالةً لأبي العلاء المعرّي سرد فيها آراءه حول عددٍ من الشخصيّات الأدبيّة والفكريّة، وشكا فيها حاله.

ردّ عليه أبو العلاء بكتاب: «رسالة الغفران» يتضمّنُ نصًّا يناقش تلك الآراء ويختلف معها، ترافقهُ رواية مدهشة: «رواية الغفران» التي تقولين أمّاه إنّي لم أقرأها! قرأتُها مع ذلك عدّة مرّات منذ صباي إلى الآن!...

لم تجذبني، أمّاه، أثناء قراءتي الأولى للرواية في المدرسة إلّا قصّةَ عبور هذا الشيخ المحشر، حتى دخوله الجنّة باللكز والوساطات!...

Twitter: @ketab_n

تقول رواية الغفران، كما تعرفين أمّاه، إنّ ابن القارح تاب في نهايةِ عمرِه: كان ذلك مخرجَه من أهوال جهنّم، من وجهة نظر القِيَم الدينيّة، لا سيّما وأنّ حسناته طوال حياته الأرضيّة شحيحة، كما يقدِّمهُ صاحب رواية الغفران!...

ابن القارح، الذي قضى حياته يتقرّبُ من الحكّامِ والنافذين ويمدحهم شعرًا، خاض في الرواية غمار رحلةٍ طويلة للدخولِ إلى الجنّة. بدأها، على سليقتهِ وديدنِه، بِنظمِ شِعرٍ يمدحُ به رضوان، خازن الجنّة، للتقرّب منه...

لسوء حظّه كان مثل مُغنٍّ قرب أصمّ: يجهل رضوان ماذا يعني مفهوم الشعر!...

بعقليّةِ ماسحِ أحذية في الدنيا والآخرة أيضًا، مدح ابن القارح خازنًا آخر للجنّة، يُقال له زفر، بديوانٍ كاملاً نشده أمامه. إلّا أنّه كان كمن «يخاطب ركودًا صمّاء»!...

إذا به بِرَجُلٍ «عليه نورٌ يتلألأ»: حمزة بن عبد المطلب! قال لنفسه: «الشعرُ عند هذا أنفق منه عند خازن الجنان لأنّه شاعر، وإخوته شعراء!»... مدحه شعرًا ليُسهِّل له دخول الجنّة! ردّ عليه حمزة: «إنّي لا أقدر على ما تطلب لكنّي أُنْفِذُ معك رسولاً إلى ابن أخي عليّ بن أبي طالب، ليخاطب النبيّ في أمرك»...

يسترسل ابن القارح: «فلمّا قصّ الرسول قصّتي على عليّ، سألني عن صحيفة حسناتي!... فشرحتُ له أنّها ضاعت منّي في المحشر»، ثم يضيف الكوميديّ الرهيب ابن القارح: «وأظهرتُ له الولَه والجزع!»...

نجح التمثيل المسرحي كما يبدو لأنّ أمير المؤمنين ردّ عليهِ ببراءته الشهيرة: «لا عليك! ألكَ شاهدٌ بالتوبة؟...».

Twitter: @ketab_n

بعد أن وجد شاهِدَهُ: قاضٍ حلبيّ، انتقل إلى «حوض النبي محمّد الذي يسقي منه أمّته يوم القيامة»، فقال للعترة المختارين فيه هذه العبارة، بعقليّة بقّالٍ في سوق الحسنات: «إنّي كنتُ في الدار الذاهبة إذا كتبتُ كتابًا وفرغتُ منه، قلت في آخره: وصلّى الله على سيّدنا محمّد خاتم النبيّين، وعلى عترتِهِ الأخيار الطيّبين». . .

فقالوا له: «ما نصنع بك؟» وكأنَّ عليهم تسديد ثمن ذكرِهِ لهم في صلواتِهِ!. . . قال لهم: «إنّ مولاتنا فاطمة، عليها السلام، دخلت الجنّة منذ دهر». ثم طلبهم أن يتوسّطوا له عندها، حال خروجها من دارها لزيارة والدها، لتتوسّط له عند أبيها!. . .

بعد نجاح وساطتهم، قالت لأخيها إبراهيم: «دونك الرَّجُل!». . .

ثم وساطةٌ جديدة، قبل أن يمنحه النبيّ محمّد الشفاعة، ويتعلّق ابن القارح بعد ذلك بركاب إبراهيم، ليعبر الصراط. . .

تتعقّدُ الأمور من جديد عند عودته لرضوان في باب الجنّة، لأنّه لا يمتلكُ بَعدُ جوازًا لِدخولِها!. . .

لم تنفعه في الأخير إلّا عودة إبراهيم بحثًا عنه بعد أن تأخّر عنه، لِيجذبَهُ جذبةً رمت به في الجنّة!. . .

دخلها لكزًا (كنتُ أضحكُ من ذلك، أمّاه!) في آخر المطاف، دخلها «بالدهفة»، بِفضل لكزةِ إبراهيم، ابن النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم!. . .

أحببتُ هذه القصّة، أمّاه، لأنّي فهمتها أوّلاً، ولأنّي تابعتها كفيلم، ولأنّها مثيرةٌ بشكلٍ لا أستطيع تفسيره، ولأنّها جعلَت، قبل كلّ شيء، كثيرًا من الشخصيّات الدينيّة الشهيرة (التي كنتُ أُؤلّهها بشكلٍ أو بآخر، وأصمتُ إجلالاً وخوفًا عند سماع أسمائها: رضوان، حمزة، عليّ،

Twitter: @ketab_n

فاطمة، الرسول. . .) تحيا في مخيّلتي كَبَشر! . . .

لم تعد هذه الشخصيّات الجبّارة كينونات مجرّدة، غيرَ قابلةٍ للتصوُّرِ والتخييل. . . لذلك استلطفتُها فعلاً وأحببتُها كثيرًا، لذلك لا غير! . . . ولذلك تحرّرتُ منها أيضًا! . . .

أحببتُ، أمّاه، وفهمتُ أيضًا، أثناء قراءتي المبكّرة للرواية، بدايتَها التي استهلّها أبو العلاء بِسردِ يوميّات «نعيم» ابن القارح و«لياليه الساهرة» في الجنّة، قبل أن يعود بعد ذلك إلى الخلف، في سردٍ جميلٍ غير خطّيّ، لِيُفصّل تجربة ابن القارح المضنية في عبور موقف الحشر، ودخوله الجنّة! . . .

كان يُخدِّرني سردُ ذلك «النعيم» الذي افتتحَ أبو العلاء به روايته، يُثيرني بِتَلذُّذٍ غامضٍ لا أُنكِره! . . .

ما لم أحبّهُ، أمّاه، أو بالأحرى ما لم أفهمه في قراءتي الأولى للرواية، هو حوارات ابن القارح (الذي يتقمّصهُ أبو العلاء في كينونته الأدبيّة فقط، ويختلف عنه تمامًا في كلِّ كينوناته الأخرى) مع شعراء الجنّة والجحيم! . . . حواراتٌ نخبويّةٌ يلزم لمن يقرأها أن يكون بِطْرِيقًا في النحو والصرف والبلاغة، ضرغامًا في النقد والشعرِ وشؤون الأدب! . . .

كنت أختار من بين تلك اللقاءات الأدبيّة لقاءَ ابن القارح بامرئ القيس في الجحيم وحواره معه! . . . أشعر براحةٍ هائلةٍ عند قراءة ذلك: تبدو الجحيمُ أثناء قراءة نصِّ أبي العلاء أشبهَ بِسجنِ رأي، مَدنيٍّ جدًّا، حتى لا أقول منتزهًا للنقاهة والتصومع والتفكيرِ الهادئ! . . .

شعرتُ ببهجةِ أمّي وهي تسمعني أحكي لها ما تعرفهُ عن ظهر قلب! . . .

Twitter: @ketab_n

استرسلتُ بحماسٍ أكبر، كأنّي طالبٌ يدافع بضراوةٍ عن أطروحتهِ أمام الأستاذة الدكتورة نوال التنّوخي:

مجرّد سماع امرئ القيس يتحدّثُ في الجحيم (كشخصيّةٍ في مقابلة تلفزيونيّة) مع ابن القارح، كان يريحني كلَّ الراحة!...

حوارٌ أدبيٌّ ونقديٌّ وثقافيٌّ متنوّعٌ طويل، شديد الثراء، دام ٨ صفحات. يُسرِّبُ امرؤ القيس في أحدِ ردودهِ سرّ المهنة: «أمّا أنا وطبقتي من الشعراء فكنّا نمرُّ في بيت الشعر حتى نأتي إلى آخره، فإذا فنِي أو قارب تبيّن أمره للسامع!»...

أثلجَ صدر أمّي استشهادي بعبارةِ امرئ القيس وتذكُّري تفاصيل ذلك!... قاطعتني:

ـ لو كنتَ قربي، حبيبي، لاحتضنتكَ وقبّلتُك!...

لم أكن أتوقّع في هذه اللحظة بالذات أنّها ستنتظر بهدوء نهاية سردي المتحمّس لكلّ قراءاتي لرواية الغفران، كي تُوجّهَ لي أكبر صفعة: «لكنّك لم تفهم أهمّ شيءٍ في الرواية!»...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الباب الثالث

سندبادُ الزَّمكان

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٢٤

بِساطُهُ «إبطُ الجوزاء»

يغادرُ أبو النزولِ السماء ٧٧، في فجر الأوّل من يناير، كانون الثاني، ٢٠٠٩!...

يطنُّ في تلفونهِ إس إم إسٌ عاجلٌ من أمينيائيل: «رحلةٌ مثمرةٌ سعيدة!»...

يصلُ الشاعرُ بلمحة بصر الفضاءَ الكونيَّ في طريقه إلى الأرض لتنفيذِ «مهمّةِ استقصاءِ الحقائق» التي كلّفهُ بها أمينيائيل، وكتابةِ «تقرير الهدهد»!...

يرتجفُ من هولِ اللحظة، وتاريخيّةِ الحدث!...

يقرِّرُ أن يهيم أوّلاً في أرجاء الزمان والمكان، أن يعبر مليارات المجرّات، أن يقوم بجولةٍ استطلاعيّة في أرجاء الكون ودهاليز التاريخ، في حقبٍ زمنيّةٍ متباعدةٍ مختلفة!...

لا تحرِّكهُ، في الحقيقة، أشواقٌ خاصّة للركض السريع لاستيعاب ما يدور في كوكب الأرض!...

Twitter: @ketab_n

وطنهُ، في دهرِهِ الثاني، أكبر من ذلك الثقب الجغرافي الضائع! وطنهُ: الزمكان. يُفضّلُ أن يجوبهُ كغوّاصٍ في حقل شُعَبٍ مرجانيّة، أن يسكنهُ بالطولِ والعرضِ والارتفاعِ (والبعدِ الرابعِ أيضًا!)...

يُحلّقُ حكيمُ المعرّة مجيلاً ناظريه في كلّ الاتّجاهات! الكون بكلّ مجرّاته و«ثقوبه السوداء» ومذنّباته وسُدُمهِ تحت أقدامه!... يديرُ نظرَهُ المرّة تلو الأخرى: كرنفالُ ألوانٍ يغمرُ الفضاء! لِكلّ نجم أو كوكبٍ أو سديمٍ لونُهُ الخاصّ! الكونُ فسيفساءُ ألوانٍ أنيقةٍ غامرة، أزهى من ألوان ريش طاووس، أنقى من جناح فراشة، أمتعُ من حوضٍ زجاجيٍّ لأسماك ملوّنة!...

يزغردُ ملء الفضاء، يُغنّي كطفلٍ في مدرسة ابتدائيّة، بكلّ سعادةٍ بريئة:

تُغردُ الطيورْ فرحانةً بالنورْ

تقولُ في سرورْ: «ما أجملَ الضياءْ!»

«ما أجملَ الضياءْ!»...

يلاحظ فيلسوف الشعراء، باديَّ ذي بدء، أنّ الكونَ خليطٌ من سيمفونيّتين، قائدا أوركيستراهما: الحبّ والموت!... يسجّلُ بِعجَل ملاحظَتهُ هذه في إحدى مذكّرات هاتفهِ المحمول، ليبعثَها لاحقًا كأوّلِ إس إم إسات تقريرِه لأمينيائيل!... يضيفُ لها:

((الأوّل، الحبّ، ينسابُ في قانون الجاذبيّة الذي يشبك الأجرام الفلكيّة، يعكس رغبتَها العنيفة بعضها ببعض، يموسقُ عشقَها المغناطيسي، يوجّهُ رقصَها المشترك، عناقَها، تناغمَها الأبدي!...)).

يشاهدُ أبو النزول نجمًا يدخل في آخر، يلتحمُ به بضراوة. يكتبُ على هامش مذكّراته: «حبٌّ طافح»!... يشاهدُ عِناقًا ما يُشبِهُ ولادةَ نجم: أشلاءُ «ضبابٍ نجوميٍّ» تتكثّفُ وتتوحّدُ، تقاومُ بحرارةِ ارتطامها

Twitter: @ketab_n

واندماجها صقيعَ الآلهة. يشخطُ على كرّاسته الإلكترونيّة: «حبٌّ أبديٌّ حقيقي»!...

يسترسلُ شاعرُ الفلاسفة:

((الثاني، الموت، جلّادٌ يقتربُ من النصر في كلّ ثانيةٍ تمرّ، ينتصرُ حتمًا في آخر المطاف، لا صوت يعلو فوق سيمفونيّة الفناء التي يعزفها!...)).

يتذكّرُ أنّه قال في حياتهِ الأولى:

يُحطِّمُنا ربُّ الزمانِ كأنّنا زجاجٌ، ولكن لا يُعادُ لهُ سبْكُ

يتذكّر أيضًا أنّ هذه الآيةَ العميقةَ البديعة: «وما يُهلِكُنا إلّا الدهر» (التي قادت «الدهريّين» للمماهاةِ بين الله والدهر: «اللهُ هو الدهر!») كانت تُثيرُ تأمّلاتهِ كثيرًا!...

يلاحظُ أنّ حرارةَ قلبِ كلّ نجم (التي تصلُ إلى مليارات الدرجات أحيانًا) تنخفضُ رويدًا رويدًا على إيقاعِ عبورِ الزمن، قبل أن تتبدّد قشرتُهُ الخارجيّة (بعد انخفاضٍ شديدٍ لحرارته) لِيصبحَ «قزمًا أبيض»، يسمّيه الفلكيّون «عين الله»!... ثم يكفي أن يُؤشّر قضيبا قائد أوركيسترا سيمفونيّةِ الفناءِ باتّجاه «عين الله» لِتخرّ صريعةً في محيط العدم!...

يشاهد أبو النزول قربه نجمًا شائخًا في نهاية حياته يوشك أن ينهار! يرثي نجمًا آخر أمام ناظريه، يشفطُهُ «ثقبٌ أسود» ويحوِّلُهُ إلى عدَمٍ في لمحة برق!...

يرتجف أبو النزول من هولِ المشهد. يضيف لِتقريرهِ هذا الاستنتاجَ المركّز:

((الحبُّ والموتُ سيمفونيّةٌ واحدةٌ، مزدوجةٌ لا غير، مسرحُها

Twitter: @ketab_n

المكان: مخدع الحبّ، وإيقاعُها الزمان: بائع الموت!...)).

* * *

تكتَنِفهُ الحيرة!... «من أين أبدأ؟» يتساءل أبو النزول وهو يداعبُ بِسبّابتهِ وإبهامه، بحركةٍ لولبيّة، خصلةً شاردةً على تخوم العنق من شعرهِ الرماديّ الفضّيّ الطويل!...

لا يدري ساعي بريدِ ساعي البريدِ الأكبرِ من أين يبدأ: كلّ الكواكب والنجوم التي ذكرها في قصائده، أثناء حياته الأرضيّة الأولى (ولم يشاهدها بالطبع)، بدءًا بزُحَل، الثريّا، المرّيخ (التي تتسلّل كثيرًا في قصائده ولزوميّاته) تجذبُهُ إليها، تغمزُ له من بعيد!...

نجم سُهَيل أيضًا (الذي يبعد عن الأرض أربعمائة سنةٍ ضوئيّة) يُحيّي أبا العلاء بحرارة، يُدِين له بذكرهِ الأنيق:

وسهيلُ كوجنةِ الحبِّ في اللون وقلبِ المحبِّ في الخفقان

لا سيّما وأنّه حتى لو لم يفقد النظر (وإن كان في الحقيقة بصيرًا جدًّا، يرى بأربعِ أعين: لهُ عينانِ في قفاه!) فلم يكن لِيستطيعَ رؤيةَ ذلك النجم من أرض الشام والعراق، لأنّه لا يُشاهَدُ إلّا من النصف الأسفل من الكرة الأرضيّة!...

لأبي النزول نظرٌ قوْسِيٌّ ينطُّ فوق الحواجز.

لهُ، في الحقيقةِ، نظران يُغطّيان محيط الدائرة!...

النجومُ التي لم يبخل بذكرها جميعًا في لزوميّاته: نجم الشعرى اليمانيّة، نجما الفرقدين، نجما الأشعرين... تنحني عند رؤيته على بُعْدِ بضع سنين ضوئيّة منها! يلاحظ أبو النزول أنّ معظم النجوم تعيش حياتها مثنى، مزدوجةً كراقصَين في رقصة فالس، كعصفورَين لا يتفارقان!...

Twitter: @ketab_n

يماوجُ نظراته على إيقاع رقصات فالس أزواج النجوم! يلاحظ، بعدم سعادة، أنّ شمسَنا الغالية، التي يدور حولها كوكبُ الأرض ورفاقُه السبعة، شابّةٌ عانسةٌ وحيدة، ضائعةٌ في أطراف مجرَّةٍ درب اللبّانة، بلا توأم، لا نجم يعشقها ويضاجعها ويؤانسها في كلّ هذا الفلك الفسيح!... يسجِّلُ أبو النزول في مذكّراته حسرتَهُ لأنّ كوكبنا الأزرق ليس له شمسان! (أشاركهُ كلَّ حسراتهِ ورغباتهِ، بالجملةِ والتفاصيل!)...

السُّها الذي كانت العرب تمتحن به قوّة النظر: «أُريهِ السُّها ويُريني القمر» يرقصُ في مدارِهِ، يفتحُ ذراعيه جذلان برؤيةِ حكيمِ المعرّة، لا سيّما أنّه اشتهر بفضلِ أبي العلاء عندما قال: (وقال السُّها للشمسِ: «أنت ضئيلةٌ»...).

مجموعةُ الجوزاء، بما فيها النجم المصنّف بألمع النجوم الذي أطلق عليه العرب اسم «إبط الجوزاء»، تراودهُ عن نفسِها لتستلقيَ تحت ركبتيه، تتمنّى أن تكون وسادًا له فعلاً، هو الذي قال (دون أن يشعر ببردٍ في العينين، دون عُقَد!):

أفوق البدر يوضعُ لي مهادٌ　　أم الجوزاءُ تحت يدي وسادُ؟

يتقلّبُ أبو النزول في الفضاء الفلكيّ كراقصةٍ في الماء! المشهدُ الذي يحيطه يبهتُ النظر: فوقهُ مطرٌ من الشهب، ألعابٌ ناريّة تتفرقعُ فيها أكداسُ نجومٍ عملاقة... حولهُ «ضبابٌ نجوميٌّ» رقيق، «رياحٌ شمسيّةٌ» عاتية... تحت رجليه سيلٌ من «غبار النجوم»، رتلٌ من مذنّباتٍ يرقصن في كلِّ اتّجاه... قربهُ مجرّاتٌ تتصادم، نيازك تهرولُ نحو كواكب، تتبدّدُ قرب نجوم!...

أبو النزول حرٌّ طليق، سعيدٌ بين عناصرهِ الأوّليّة!... ينطُّ كعصفورٍ

Twitter: @ketab_n

من مكانٍ لمكانٍ بسرعةِ الضوء. (يُصيبهُ دوارٌ ماحق لِمجرّدِ تمثُّلِ الرّقم: ثلاثمائة ألف كيلومترٍ في الثانية! حوالى عشرة آلاف مليار كيلومترٍ في الساعة!)...

يربطُ حزامَهُ جيّدًا، وإن كان بدون حزام!...

يقفز بأكبر من سرعة الضوء: أبو النزول لا يخضعُ لِفيزياء الكونِ المادّي حيث لا تستطيع الأجسام أن تتجاوز سرعة الضوء، وإذا اقتربت من تلك السرعة تتحوّل إلى طاقة، حسب نظريّة آينشتاين التي أنجبت القنبلة الذرّيّة!...

لا يخضع أبو النزول (الذي يتجاوز الآن سرعة الضوء، رغم أنف قانون صديقه العزيز آينشتاين) إلّا لقوانينِ فيزياءِ ما قبلِ الفيزياء وما بعدِ الفيزياء: فيزياء الجنِّ والعفاريت، فيزياء اللاشيءِ المُطلَق، فيزياء العَدَمِ الجميل الخارقِ!...

الحاضرُ والماضي أمام عينيه الآن!... يكفي أن يمخر عباب الكون بسرعةٍ أكبر من سرعة الضوء أحيانًا، وأن يتجاوز سرعة الضوء بمليارات المرّات أحيانًا أخرى، لِيلحقَ أشعّةَ الضوء التي انبعثَت في الماضي، والتي تهيم بعيدًا في أقصى الكون حاملةً فيلم الحياة كما مرّت حينذاك!...

لا يريد أبو النزول إلّا أن يرى الماضي كما حدث فعلاً، هذا هوَسُهُ الأسمى!... لم تروِ غليلَهُ رؤيتُهُ في شاشات متحفِ داروين وآينشتاين في السماء ٧٧، قرب مقهى الكوكبة! يريد أن ينغمسَ فيه، أن يحياهُ ويراهُ بلا شاشة، بلا وسيط!...

Twitter: @ketab_n

٢٥

نورٌ في رحابِ أبي العلاء!

لم يكن يومًا أليفًا، مثل بقيّة أيّام نصفِ قرنٍ من السجن الثالث، ذلك اليومُ الذي وصلَتْ في عصرهِ شابّةٌ صغيرةٌ إلى مجلسِ أبي العلاء لِطلبِ العِلمِ والمعرفة!...

نَصتَ الشاعرُ الفيلسوفُ بتركيزٍ وخشوعٍ وارتباكٍ لِنبراتِها وهي تقول:

«حفِظكم الله حكيمَنا سيّدي أبا العلاء! اسمحوا لي أن أكون طالبةً في مجلِسكم الأغرّ، ابتداءً من هذا اليوم!»...

تذكّرَ مصعوقًا: سمعَ، قبل ولادةِ هذه الطالبة بقليل، هذه الكلمات نفسها تقريبًا، بِنبراتٍ تُشبِهُ كثيرًا هذه النبرات التي تُذيبهُ وتُهلِكه، من طالبةٍ أخرى عصفَت بحياتِه، ثم اختفتْ منذ عقدين!...

من يدري، لعلّ من قالت «سأعود ذات يوم!» (هند! هند! هند!...) هي نفسها من طلبَتْ من هذه الصغيرة أن تكرِّر تلك الكلمات نفسها!...

Twitter: @ketab_n

يحلم! يحلم! يحلم!...

كان الحكيمُ قبيل ذلك ريشةً في مهبِّ الضياعِ والقلقِ والخوفِ والوحدةِ والضنك، بعد أكثر من عشرين عامًا من عودتِهِ إلى معرّةٍ تخلو من هِندٍ كانت جذوةَ سعادتِه، ومن أمٍّ كانت شمسَ حياته!...

الحياةُ بدونهما صقيعٌ مظلم!...

كان الشيخُ حينها فريسةَ الشعورِ بِتوغُّلِ الضعفِ والوَهن، باستفحالِ اليأسِ والعُزلةِ القاتلة... مناطقُ السرورِ والنشوةِ والبهجةِ في دماغِه تعطّلتْ منذ أكثر من عقدين. تَصحّرتْ وتَكلسنَتْ تمامًا. لم تعد قابلةً للإثارة أو التشغيل...

صار يمقتُ الحياة، يشعرُ بالقرف من كلّ شيء، وبالرغبة بخنقِ رقَبَةِ عزرائيل الذي خانهُ وتأخّر كثيرًا عن المجيءِ لِخطفِ روحِه!... ينتظِرُهُ مع ذلك بباقة وردٍ، كلّ يوم، منذ عقدين!...

يشعرُ أيضًا أنّه صار قليلَ الإنتاجِ والفعاليّة، شاخ كثيرًا. «أغذيته الروحيّة» لِصاحبةِ «حديث التكرارين» صارتْ غبراء، بدون روح، بدون حماس، بدون قرنفل!... لا يدري هل تصِلُها في كلِّ الأحوال!

رسائلُها أيضًا صارت نادرة. هل ملّت كتابتها؟... آخرُ رسالةٍ وصلتْ قبل تسعة أشهر، وإن كانت كعادتها تنضحُ أشواقًا وعشقًا ودموعًا!...

لا يفهمُ ما يحدث، لا يريدُ أن يفهم!... هو مرهقٌ الآن من كلِّ شيءٍ، من الحياة، من البشر، من الشعر، من نفسِه، من هند، من الإرهاق...

يعرفُ مع ذلك أنّ هِنْدَ لن تُفرِّطَ به، بدون سبب. يَخشى، قبل كلِّ

Twitter: @ketab_n

شيء، أكثر من أيّ شيء، أن يصيبها أيّ مكروه. يتساءل كعادتِهِ عبثًا: أيوجدُ عذرٌ معقولٌ يمكنه أن يبرِّر غيابَها أكثر من عقدَين؟ أثمّة سرٌّ كونيٌّ شديدُ الغموض إلى هذا الحدّ؟...

ثم يتساءلُ مُحبَطًا حزينًا: ألم تقل إنّها ستعود ذات يوم؟... يضيف ساخرًا: لكنّها لم تحدِّد إذا كان ذلك في هذه الحياة أو في حياةٍ أخرى!...

اقتربَتْ منه الشابّةُ الصغيرة. صافحتْ يدَهُ وقبَّلَتْها!...

أحسَّ بشعورٍ مداهمٍ غير طبيعي: لعلّ هذه اللمسة والقبلة ليستا غريبتين عليه تمامًا! يتذكَّرُ لمسةً وقبلةً من الطراز نفسه، بالإيقاعِ نفسه والرائحة نفسها، ملتصقتَين على يدهِ حتى الآن، منذ أكثر من خُمسِ قرن!...

تلتقطُ راداراتُ آذانِه دقّات قلبِ هذه الصغيرة، ودفقات شرايين أصابِعها وثغرِها وهي تُقبّلُ كفَّه: ما زالت أجهزةُ خياشيمِه وأسلاكُها الإلكترونيّة صالحةً للعمل إذَن!...

تحاولُ كمبيوتراتُ جمجمتِهِ تفكيك إيقاعات تلك الدقّات والدفقات، وتشخيصها. لا تستطيع... طلاسِمُها مُدلهِمَّةٌ معقّدةٌ غزيرة!...

ارتعشَ سيّدُ المجلس بشكلٍ ملحوظٍ التقطهُ الحاضرون، كما لو كان ينتظرُ هذه اللحظة منذ أكثر من عشرين سنة!...

لم يردّ على الصغيرة، خانتهُ الكلمات!... تمتمَ جملتين لم يفهمها أحد...

حاول إخفاءَ ارتباكٍ لَمحَهُ كلُّ الحاضرين!...

Twitter: @ketab_n

لم يدر كيف يُسيطر على نفسه!... أخذَ عصاه، نهض، وخرج من صالةِ المجلسِ باتّجاهِ حُجرةٍ صغيرةٍ، خاصّةٍ جدًّا، تحاذي الصالة، يتوجّهُ عادةً نحوها للاغتسال ولِتناولِ الغداء (غداءهُ زهيدٌ جدًّا: شربةُ عدسٍ أو بطاطس، خضرواتٌ متنوّعة، تمْرٌ وخبز، فواكهُ طازجةٌ أو مجفّفة...

لا يحبُّ أن يشاهدَهُ الآخرون وهو يتناول الغداء خوفًا من فتات خبزٍ أو قطرةٍ طائشةٍ قد تلتصقُ بِلحيتهِ أمامهم!... كان ضريرُ المعرّة حسّاسًا كشريحةِ كريستال، سريعَ الانخداش والتأثّر، يُقلقُهُ بِشدّة ويكدِّر حالَهُ أدنى همزٍ يمسُّه، أو لمزٍ يحومُ في أرجائه!...

يعتبرُ السخريةَ من ضرير: ذروةَ الجبن والحقارة، لا سيّما إذا كان ذلك الضرير شاعرًا بِساطةُ الجوزاء!)...

اختلى أبو العلاء بنفسِه في هذه الحُجرة التي كانت أمُّه الحبيبة (في عهدها «النبويّ»، الذي لا يكفُّ طفلُها الأبديُّ عن الحنين إليه) تُرتِّبُها بِدقّةٍ مليمتريّة: تهيّئُ فيها كلَّ ملابسِهِ، أدوات مغسلِه وكلَّ حاجاتِهِ الصغيرة، وتضعُها في أماكنِها المحدّدة. تشرحُ له أيَّ جديدٍ طفيفٍ يطرأُ هنا وهناك، أيّة إزاحةٍ مليمتريّة يسارًا أو يمينًا لهذا الفنجان أو تلك الخرقة، وتسألُهُ رأيَهُ بذلك...

لا تسمحُ لأحدٍ عداهما بدخول هذه الحُجرة!...

يتذكّر: في عصرِها الذهبيّ كان يجدُ كلَّ احتياجاته في هذه الحُجرة، وكلَّ المنزل، بِلمحةِ بصر، دون بحثٍ وقهرٍ وغضب...

أمّا الآن فيعلمُ الله وحدُه كيف صارتْ هذه الحُجرة: لا يجِدُ في موضعِهِ المحدّدِ إلّا مقبض الباب، الذي يوشكُ أن يلفظ أنفاسهُ الأخيرة!...

Twitter: @ketab_n

كانت أمُّه الغالية تعرفُ تمامًا أنّه يرسمُ في دماغِه، في كلِّ لحظة، صورةً جغرافيّةً افتراضيّةً حيّة، دقيقةً كاملة، لِفضاءٍ ثلاثيِّ الأبعاد، مؤثّثٍ بِتفاصيل كلِّ ما يحيطُ به من بشرٍ وأشياء...

لا يتحدّثُ ابنُها مع إنسان إلّا ويتمثّله، «يراهُ»، داخل ذلك الفضاء. لا يخطو خطوةً واحدة دون أن يتحرّكَ ذلك الفضاءُ معه، ويتغيّرَ حسب اتّجاهِ خطوتِه!...

تعرفُ أمُّ أبي العلاء بشكلٍ خاصّ أنّ نقل موضعِ أيّة حاجةٍ شخصيّةٍ لابنِها داخل ذلك الفضاء، دون إشعاره، يخلقُ في دماغِه فوضى ذهنيّة تتعبُهُ كثيرًا!...

لا شيء في الحياة يغيظهُ ويرفعُ ضغطَ دمهِ إلى تخوم «الضغط المرتفع» أكثر من وضعِ أصابِعهِ في مكانٍ ما ليلتقطَ حاجةً ما، لكنّه لا يجدُها لِمجرّدِ أنّ هناك من حرّكَها من محلّها بكلِّ بساطة، أو غيّرَ مكانَها دون إشعارِه!...

يعتبرُ ذلك عدمَ احترامٍ لِخصوصيّته، إن لم يكن خيانةً له أو طعنةً صغيرةً في ظهرِه!...

لم يفهم أحدٌ من الحاضرين سببَ توجُّهِ أبي العلاء الآن إلى هذه الحُجرة التي عاد لِتوّهِ من تناول الغداء فيها قبيل قليل، هو الذي لا يُغادِرُ مقعدَه بعد عودتِهِ منها وبدءِ موعدِ محاضراتِه ومداخلاتِه ونقاشاتِه!...

لجأ لها مع ذلك، ومكث فيها وقتًا ملحوظًا، طويلاً جدًّا في نظر الجميع!... ماذا يعمل؟... أهو بخير؟...

اغتسلَ فيها كما يبدو، وغيّرَ بعض ملابسه...

بحث أيضًا عن قنّينةِ عطر! آه، لم يستخدمِ العطرَ منذ عقدين!...

Twitter: @ketab_n

اللعنة! لم يجد القنّينة!...

يعصفُ به ما يُشبِهُ غضبَ شابٍّ مراهقٍ طائش، مدلَّلٍ جدًّا وكثير النزوات، لم يجد بذلتَهُ الصارخة التي أراد ارتداءها لموعدِ لقاء حبيبتِهِ التي لا تهواه إطلاقًا، بل تستصغرُهُ، بدون تلك البذلة!...

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همى يا زمانَ تلك الأمِّ التي جعلتهُ يحيا آنذاك في البيتِ كبصير! أضاءَتْ وجودَه، قضَتْ وقتَها تراقبُ حركاته وسكناته، تُنظِّمُ أشياءه الصغيرة، جعلتْهُ يحيا دومًا بأمانٍ وهدوء!...

كان يرى أمّهُ دومًا كبصير: حافظ على منظرِ صورتِها الحيّة في مركز ذاكرته بعنايةٍ شديدة منذ فجر طفولته، قبيل إصابتِهِ بالعمى!...

لا يسمعُها أو يتحدّثُ معها أو يتذكّرُها إلّا وصورتها الحيّة تواجهُه وتتحرّك أمامه بدون وعي!...

يتذكَّرُها الآن في الحُجرة، يراها، يتذكَّرُها من جديد، يتذكّرُها بِشدّة: كان يكفي أن تحتضنَهُ كطفل، أو أن تشربَ الشاي معه فقط، لِتَتبدّدَ همومُه وآلامُه دفعةً واحِدة، لِتضيءَ الدنيا في عينيه، ولِيشعرَ أنّ هذه الدنيا، «أمّ دفر»، تستحقُّ الحياةَ مع ذلك!...

كانت أمّه تعتبرُ أنّ القدرَ ضربَها شخصيًّا في الصميم عندما أعمى حبيبَها الصغير وهو في المهد...

لم تغفر للقدَرِ هذه الإهانة، هذا الجرحَ الملتهبَ في كلِّ لحظة، هذه الهزيمةَ الكبرى التي أمناها بها!...

لذلك كان همُّها الأعلى في الحياة تسريبَ الفرح لِحياته بكلِّ الطرق!... تعتبرُ في قرارة نفسِها أنّ أيّة متعةٍ أو سعادةٍ صغيرة تزرعها في طريقه انتصارٌ، بشكلٍ أو بآخر، على الظلم والظلمات، انتقامٌ من هزيمتها الكبرى!...

Twitter: @ketab_n

يتذكّرها: كم كانت تجيد احتضانَهُ وتهدئتَه في ظروفٍ كهذه!...
يتذكّرُ أنّها كرّستْ لهُ كلَّ وقتِها، كلّ حبِّها، كلَّ صلواتِها!... من غيرها كان يعرف كيف يُفرِّجُ عن كربه، ويشرحُ صدرَه؟... ما أحوجه إليها اليوم!...

تذكَّرَ أيضًا بارتباكٍ وخجل (وعرفانٍ لا حدّ له!): لولا صاحبةُ «سورة الألوان»، لولا صلواتها الطويلة المباركة قبل نهايات مباريات الشطرنج، لما احتضنَ هِنْدَ في حياتِهِ لحظةً واحدَة، ولتوفّي ضريرُ المعرّةِ أعمى الحبِّ أيضًا، وذلك أبشع العَمَيَين!...

لم يستوعب كيف ولماذا خرجت تلك الذكريات من لاوعيهِ الدفين في هذه اللحظة بالذات التي يختلي فيها بنفسِه قبل الذهاب لِلحديثِ مع طالبته الجديدة!...

«آه، لَيتَ أمّي هنا اليوم بالذات!» يتأوّهُ باستسلامٍ الشيخُ المراهقُ الطائش أبو العلاء المعرّي، ملخِّصًا كلَّ حسراتِه، وهو في حجرتِهِ الصغيرة التي لم يجد فيها قنّينةَ العطر!...

أهملَ نفسَهُ في الحقيقة منذ عقدين (غابتْ طوالَهما من تُدلِّلُه: أمُّه، ومن يُدلِّلُها: هند) لم يعدْ خلالهما يهتمُّ بِمظهرهِ الخارجيِّ كثيرًا!... صارَ برنامجُ «عرضِ أزيائه» أكثر تقشّفًا من أيّ وقتٍ مضى:

يغتسلُ كلّ فجرٍ باقتضاب. يرتدي ملابسَهُ بزُهد، وإن كان يميلُ لِتغييرِ قميصهِ ومعطفهِ البسيطَين، النظيفين جدًّا، مرّةً أو مرّتين كلّ يوم!...

لم يفتح قنّينةَ عطر منذ أن اختفت عنه من كان يُسمِّيها: عطرَ العطر، عرَقَ الآلهة. لكنّهُ يضعُ دومًا عمامتهُ بِاهتمامٍ ومنهجيّة، مُخفِيًا تحتها كلَّ شَعرِهِ البوهيميِّ الغزير...

Twitter: @ketab_n

تُكسِبُهُ هذه الهيئةُ العامّة، البسيطةُ الطازجةُ النقيّةُ على الدوام، والتي تخلو من كلِّ مظاهر التكلفةِ والاستعراض، جمالاً خاصًا يثيرُ جميع طالباته وطلّابه (وإن ظلّ لا يصدِّق ذلك حتى وفاتِه، رغم أنّ هِنْدَ أغرقتهُ تغزُّلاً بِجمالِهِ وأناقتِهِ الفطريّة!). . .

وجد أخيرًا قنّينةَ عطرِ العنبرِ بعد أن كنّستْ أطرافُ أصابِعه كلَّ مليمترات جدران الحجرة، وبعد أن لعن «أمّ دفر» كما لم يلعنْها يومًا! . . .

وضعَ شذراتٍ منه على يديهِ وثيابه! . . . لا يدري هو نفسه لماذا يريد اليوم أن لا تراهُ هذه الطالبة الجديدة إلّا في أزهى وأعطر حلّة! . . .

أضاف شذرات أخرى من العطر على جانبيهِ وساعديه. . . فكّ عمامته، اعتمرَها من جديد. قاس توازُنَها وضبَطَها مرّةً ثانية. . .

شتمَ «أمّ دفر» من جديد لأنّهُ شعرَ أنّ رائحة العطرِ تتبدّدُ بأسرع من العادة. . . عَبَرَتْ رأسَهُ عبارةٌ مارقة: «كانت للعطرِ أيضًا رائحةٌ أخرى في عهدِ أمّ أبي العلاء!». . .

شذرةٌ ثالثة، مبالغٌ فيها هذه المرّة، قرب العنق وعلى الكتفين! . . .

تنفّسَ الصعداء، تنفَّس طويلاً! . . .

يستعدُّ للعودةِ للمجلس. قلقٌ مفاجئٌ كثيف! . . .

اللعنة، سقطتْ قنّينة العطر! رنينٌ حادٌّ مزعج! . . .

يضطربُ الشاعرُ الضريرُ بشدّة. ارتباكٌ وهرجٌ ومرجٌ في المجلس. يطرقُ أحدُهم على باب الحُجرة ليطمئنّ عليه. يردُّ أبو العلاء: «كلّ شيء على ما يرام، سأعودُ بعد لُحيظات!». . .

ينحني الشاعر. تهبطُ ركبتاهُ لِيُلامسَ القاع. تركَعُ كلُّ قامتهِ

Twitter: @ketab_n

السامقة. يُكنِّسُ بأصابعِهِ أرضَ الحُجرة بحثًا عن القنّينة... لا يجدُ منها إلّا بعض أشلاءٍ فقط. أصابعهُ سليمةٌ في كلِّ الأحوال إلّا من قطرة دمٍ صغيرةٍ مَصَّها سريعًا، لِتتلوها أخرى أبطأُ تكوُّنًا وأقلُّ غزارة...

«ثمّة لونٌ أحمر على أصبعي الآن»، يقول مبتسمًا! يعرفُ لونَ هذه القطرة التي تسيل على أصابِعه، يشعرُ بسعادةٍ صغيرةٍ مداهمة! يتذكّر من جديد لونَ قميصهِ الأخير قبل أن يهبط ستارٌ حديديٌ أمام بؤبؤي عينيه، وهو في فجر الرابعة من العمر!... يتذكّر دروس صاحبة «سورة الألوان»!...

شظيّةٌ ميكروسكوبيّةٌ من الزجاجِ اخترقتْ سبّابته اليسرى لا غير!... لا يهمّ! يعرف كيف يستخرجُها بدون عناء. وجدَها، شفطَها بأسنانِ فكّيْه. ثم انتزعَها بإبهامِ وسبّابةِ يدهِ اليمنى بسهولة!...

يلزمُ أن يعود للمجلسِ الآن!...

يشعرُ بالظمأ. يتقدّمُ، لتلافي أشلاءِ وشظايا الزجاج، بخطواتٍ حذرةٍ جدًّا، نحو موضعِ كوزِ الماء، على بُعدِ قدَمٍ ونصفِ شبرٍ من شرقِ الباب...

يجدُ طريقَهُ دون صعوبة!... هو هنا في حجرتهِ التي يعتبرُها «أرضَهُ المحرَّرة»، فنارَ محبسهِ الثالث!...

يجرُّ ببطء الكأسَ المعدنيّة من عنق كوز الماء. يملؤها بالماء. يسكبُ خيطًا منه على أصبعِهِ الدامية. يُجفِّفُها في الهواء، ثم في خرقة منديلٍ أبيض صامدٍ منذ عصر أمّه، يحتفظُ به في جيبِ معطفِهِ...

يشربُ بعد ذلك جرعتين سريعتين. يتمضمضُ ويتمضمض... يعيدُ ترتيبَ عمامتِهُ للمرّة الثالثة. يتفقّدُ قطرةَ الدم الأخيرة...

Twitter: @ketab_n

يُخرِجُ من جيب معطفِهِ علبةً صغيرةً صامدةً هي الأخرى منذ عصرِ أمّه، يحتفظُ بها بعنايةٍ شديدة!... يفتحُها، يأخذُ منها حبّةَ هيلٍ وحبّةَ قرنفل!...

يُركِّنُ القرنفلةَ في زاويةٍ من جوفِ ثغره، وحبّة الهيل في زاويةٍ أخرى، ليحلو لهُ الحديثُ بنكهةٍ عبقةٍ طازجة...

عادَ للمجلس أخيرًا!... طلب من تلميذتِهِ الجديدة أن تجلس قربَهُ لِيمتحنَ معارِفها، كعادتِهِ عندما يصلهُ طالبٌ جديد!...

هامسها، منذ البدء، بسؤالٍ غريبٍ لم يسمعه أحد:

ـ ما اسمُ أمّك؟

ـ فاطمة!

ـ أأنتِ متأكّدةٌ من ذلك؟ ألم يكن لها اسمٌ آخر قبل ولادتِكِ؟...

ـ ...

(بدا لِنور أنّ لِأهلِ المعرّة عادات غير أليفة: يسألون الزائر عن اسم أمّهِ قبل اسمه!).

Twitter: @ketab_n

٢٦

أمينيائيل يشعرُ بالصداع!...

ها هو أبو النزول يطاردُ الضوء، يتنقَّلُ على أرجوحةِ الزمان من قرْنٍ لِقرْن، من تاريخٍ لتاريخ، من الماضي إلى ماضي الماضي، من مستقبلِ الماضي إلى حاضرِ ماضي المستقبل. . . كلّ الماضي ينسابُ في صفحات الضوء أمامه، يتعرّى نقيًّا خالصًا، دون قناع!. . . لكن:

«يا إلٰه السردِ والشعر، كيف أستهلُّ الروايةَ التي يريدها أمينيائيل؟ من أين أنطلقُ بمنهجيّةٍ وتسلسل؟ كيف أختارُ الفقرةَ الأولى التي تتدفّقُ بعدها روايةُ «تقرير الهدهد» كسَيْلٍ لا يتوقّف؟» يردّدُ وهو يشعر بالضياع وبمزيدٍ من الدهشة!. . .

يضحكُ من فرطِ الذهول، يقهقهُ كمجنون. إذ يكفي أن يخطر بِبالهِ تاريخٌ ما، حَدَثٌ ما، إنسانٌ ما. . . ليُعدِّلَ من سرعةِ اختراقهِ جدارَ الضوءِ زيادةً أو نقصانًا، كي يُطِلَّ على الأشعّةِ التي تحملُ في صفحاتها اللحظةَ التاريخيّة التي تحتضنُ ما يصبو لِرؤيته، قبل أن يواكبها ثانيةً ثانية، لِيُشاهد كلَّ ما حدث حينها، كما حدث تمامًا، كما لو كان عائشًا حينذاك فعلاً!. . .

Twitter: @ketab_n

أيريدُ هذا الشاعر البوهيميّ أن يشاهدَ كيف عاش الفراعنة؟

لا شيء أسهل من ذلك: ينطلق بسرعةٍ فوقِ ضوئيّة باتّجاه نجم «الذنب» Deneb، في مجموعة «الدجاجة»، Cygnus، حيث تتقدّم حاليًّا كلّ الأضواء التي أتت من عصر الفراعنة!...

أيريد أن يشاهدَ ليونارد دافنشي وهو يرسم الموناليزا؟

لا أسهل من ذلك: يخترقُ جدارَ الضوء لِيقترب من نجم «إبط الجوزاء»، Bételgeuse، في مجموعة «الجبّار»، Orion، حيث يهرعُ المشهدُ الذي يبحث عنه!...

أيريد أن يشاهدَ لمياء، معشوقةَ آخر سلالته، وهي تغادر شُقّتهما في الحيّ الخامس عشر من باريس، في فجر عامٍ جديد، متّجِهةً يعلمُ الله إلى أين؟

لا شيء أشنع وأتعس من ذلك: ثمّة أضواء طريّةٌ (يستطيعُ الإمساكَ بها بسهولة) تتلوّى من الألم في مكانٍ ما في مجرّةٍ حزينةٍ اسمها دربُ اللبّانة، يسكنها كوكبٌ يحمل اسمه بجدارة، «وادي الدموع»!...

يشعرُ بالدوار: مشاهدةُ أيّة لحظةٍ زمنيّةٍ سحيقة أسهلُ من البحث عن كلمةٍ في القاموس، وأسرعُ بكثير من التجوّلِ بـ «المُوَجِّهِ عن بُعد» من قناةِ تلفازٍ لِقناة!... يبعث لساعي بريد الأعلى جدًّا: «شكرًا عزيزي أمينيائيل على اقتراحي لهذه المهمّة! لك قُبلات كلِّ هداهدِ الكون!»... لكن:

«إلٰهي، كيف أبدأ هذه الرواية المجنونة؟ عمّاذا أتحدّثُ في الصفحة الأولى منها؟» يُردِّدُ وهو يتأرجحُ مبهوتًا في ضياعِ الزمكان!...

يتأفّف أمينيائيل قليلاً! يشعرُ بالقرف والخيبة: إس إم إسات الشاعرِ المبهوت تنهمرُ عليه وعلى دواوين الدراسات الإلٰهيّة في السماء ٧٧

Twitter: @ketab_n

مشحونةً بالأخبار والتعليقات والآراء التي يتطلّعون لها بِشغف، تُنيرُهم وتثيرُهم في الوقت نفسه، لكنّها بدون نسَق، بدون منهج، بدون هيكلٍ عظميّ، بدون خيطٍ سرديٍّ رائق!. . .

يكفي مثلاً أن يُفكّر أبو النزول بحدثٍ ما: «بناء الأهرام»، «كتابة ألف ليلة وليلة»، «ولادة النبي محمّد»، «سقوط غرناطة» (ورؤية السلطان محمّد الصغير، في فجر يومٍ فاجر، يودِّعها بآخر نظراته، بجانب صخرة «آخر حسرات الإسباني المسلم»)، اكتشاف البارود والبوصلة في الصين، انهيار مكتبة الإسكندريّة، موت توت عنخ آمون، ماني، المتنبّي (الذي أعجِبَ به أبو العلاء ودافع عنهُ بضراوة، إن لم يعتقد فعلاً أنّ علاقةً روحيّة تربطهما، وأنّ «المتنبّي رأى بعين الغيب ميلادَه عندما قال: أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي!». . .) الحلّاج، سقراط، غسّان كنفاني، روبيسبيير، المهدي بِنْ برَكة، فرج فودة، إبراهيم الحمدي، نِظام المُلْك، لويس السادس عشر، عبد الفتّاح إسماعيل، بوشكين. . . ويُعدّلَ من سرعتهِ فوق الضوئيّة أكثر أو أقلّ، لِيجدَ نفسَهُ حالاً في معمعان اللحظة المنشودة!. . . يبعثُ منها على الطائر إس إم إساته الساخنة للسماء ٧٧!. . .

يكفي أن يخطر ببال أبي النزول أيُّ حدثٍ صغيرٍ أو كبير: اكتشافُ النار قبل مليون عامٍ ونصف، رؤيةُ أوّلِ وجهٍ نقشَهُ إنسانٌ بدائيٌّ على جدران مغارةٍ قبل خمسين ألف عام، حرب داحس والغبراء، استيلاء حسن الصبّاح على قلعة ألَموت، الاجتماعات السرّيّة التي نظّمها بن لادن لترتيب أحداث ١١ سبتمبر، استنساخ النعجة دولي، رحلة شارلس داروين على سفينة بيجل («سفينةُ نوحٍ» العِلم التي نقلت الأنواع البيولوجيّة من طوفان الميتافيزيقيا إلى مرفأ المعرفة)، هبوط أرمسترونج على القمر، حادثة الإفك للسيّدة عائشة رضيَ الله عنها. . . لِيَجِدَ نفسَهُ

Twitter: @ketab_n

يواجهُ الحدَث، كما أواجهُ الورقةَ التي أكتبُ عليها هذا النصّ، ولِيبعثَ إس إم إساتِهِ، حول كلِّ ما يراهُ ويخطرُ بِباله، عموديّةً ثاقبة لأمينيائيل الذي يشعرُ غالبًا، مثل مكاتبِ دراساتِه، بالدوخة من تشتُّتِها الفظيع!...

يخشى مديرُ مكتبِ الأعلى جدًّا أن تُعلَنَ حالةُ طوارئ في دواوين ومكاتب دراسات عِلّيّين ٧٧!...

تسيلُ دموعُ أبي النزولِ من الفرح وهو يدركُ أنّه يكفيه فقط أن يصرخ مثل طفلٍ مُدلّلٍ مِزاجِيٍّ كثير النزوات: «سرينجيتي: عام ٥٠٠٠٠ قبل الميلاد»! أو «بابل: القرن السادس قبل الميلاد»، «سيشوان: القرن الثامن» أو «مكّة: ١ محرّم سنة أولى هجريّة!» أو «فلسطين: ٥ يونيو ١٩٦٧!» أو ««نيويورك: ١١ سبتمبر ٢٠٠١»، ليحُطَّ بلمحةِ بصر في قلب المشهد، بالسهولةِ نفسها التي يضغطُ بها بحّارٌ في الشبكةِ العنكبوتيّة على «روابط النصوص الفائقة» لِينتقلَ من موقعِ صفحةٍ في كمبيوترٍ بِطرفِ الكرةِ الأرضيّة، لموقعٍ في طرفِها الآخر!...

لا يُصدَّق: يكفي أن يتذكّرَ رفاقَهُ المكفوفين المبدعين الذين عاشوا قبله أو بعده: هوميروس، جاليلو (الذي مات ضريرًا في المنفى الذي رمتهُ فيه الكنيسةُ الكاثوليكيّة)، بشّار بن برد، طٰه حسين، عبد الله البردوني... ويهرعَ قليلاً في غابة الزمكان، ليجدَ نفسه قربهم ينحني لهم ويُحيّيهم بكلِّ ودٍّ وإعجاب!...

يشعر أمينيائيل بالصداع وهو يرى إس إم إسات شاعِرِهِ الطافح تقفز بفوضويّة من «سيمفونيّة الحبِّ والموت»، إلى يوميّات مُجُونِ الشاعرِ بشّار بن برد ولياليه الساهرة، مرورًا بهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧!...

كعادتِهِ، يحوّلُ إس إم إسات سندبادهِ التائه حال وصولِها إلى مكاتب دراساته الخاصّة لِتُرتِّبها، تُقشِّرَها، تعصرَها، تهرُسَها هرسًا...

Twitter: @ketab_n

تستنفرُ هذه الإس إم إسات كلَّ أقسام ومختبرات مكاتب أمينيائيل، كلَّ مساعديهِ المتخصّصين وأعوانه. تثيرُهم وتضيئُهم وتفاجئهم كثيرًا. لكنّهم متّفقون بالإجماع: ينقصها متنٌ سرديّ، خيطٌ سيمفونيٌّ متناغم، بدايةٌ أنيقة!...

لا يعرف أمينيائيل كيف يقول لمبعوثِهِ الخاصّ: «أريد أن يكون «تقرير الهدهد» روايةً لا أكثر ولا أقلّ!»...

Twitter: @ketab_n

٢٧

نهرُ الروايات

استأنفتُ دفاعي عن أطروحتي أمام أمّي في فجر أوّل العام ٢٠١٠:

يكفي، أمّاه، أن أسمع امرأ القيس يتحدّثُ بذلك الهدوء والأناقة، لأسخرَ من حِراب وسلاسل الأستاذ عبد الحقّ، ولأتركَ للجحيم في مخيّلتي شكلاً أرستقراطيًا أنيقًا لا علاقة له بجحيم أستاذي الجليل!...

أين حرابُ الأستاذ عبد الحقّ؟ أين سلاسلهُ الملتهبة؟ أين جمراته الصغيرة التي توضعُ أسفل الإبطين، على الخصيتين، أو في فتحة الدبر؟...

من يتحدّثْ هكذا، مثل امرئ القيس، يحيَ في جنّة، حتى وإن كانت جحيمَ الآخرة!...

أشكركَ أبا العلاء! بفضلك امّحتْ صورةُ الجحيم البشعة التي غرسها الأستاذ عبد الحقّ في دماغي، وإن لَزِمَني للوصول إلى ذلك أن أُعيد، بدون ملل، بل بِكلٍّ انبساط، قراءةَ مقابلةِ الناطقِ الأدبيِّ باسمك، ابن القارح، مع امرئ القيس عدّة مرّات!...

Twitter: @ketab_n

استرسلتُ تلخيصَ قراءاتي لرواية أبي العلاء أمام حبيبتي الدكتورة نوال:

كنتُ أنطُّ بعد قراءة فصل «دخول ابن القارح الجنّة» إلى فصل «جنّة الجِنّ» الذين أسلموا. حوار ابن القارح مع الشيخ الخيثعور من بني الشيصبان، المُكنّى أبي هدرش، وقصيدة هذا الجنّي الطويلة (التي كتبها أبو العلاء بالطبع) عن أشهب السماء المحرقات التي «ترجم الجنَّ لأنّهم استرقوا السمع للملائكة»، كما يقول المصحف الكريم، كانت تُثيرني للغاية، وإن لم أفهم من تلك القصيدة العفريتيّة الباهرة شيئًا تقريبًا، كما لم أستوعب أيضًا أو أحبّ قصصَ «حروب النجوم» بين الجنّ والملائكة عند تلصّص الجنّ على الملائكة!. . .

كنتُ أفضّلُ رؤية السماء أنجمًا تتغامز وتتغازل برومانسيّة على تلك الصورة التلصّصيّة الوحشيّة التي كانت تثير قلقي ونفوري!. . .

كنتُ أنطُّ سريعًا بعد ذلك إلى «جنّة شعراء الرجز» التي صمّمها أبو العلاء، حسب مذاقهِ الأدبيّ الأرستقراطي، لِتكونَ «جنّةً صغيرةً ليس لبيوتها سموق بيوت الجنّة» لأنّ «الله يحبُّ معالي الأمور ويكره سفاسفها، وإنّ الرجز من سفساف القريض»!. . .

تصغي لي أمّي في غاية السعادة. أسترسلُ بدون فرامل، ناسٍ تمامًا أنّ كلَّ دقيقة تلفونيّة تُكلّف نصفَ يورو تقريبًا:

لكنّي، أمّاه، كنتُ أتوقّفُ طويلاً وبتلذّذٍ خاصّ عند «جنّةِ الحيوانات»: صمّم أبو العلاء، بيد فنّانٍ معماريٍّ مدهشٍ شديدِ الإنسانيّة، للحيوانات جنّةً خاصّةً محاذيةً لِجنّة البشر، وفاءً لرؤيته الفلسفيّة التي تعتبرها «أنواعًا» في نفس شجرة «الجنس الحيّ»، شأنها شأن الإنسان، وجعلها تتحاور أيضًا في قضايا الأدب، هي أيضًا، مع ابن القارح!. . .

Twitter: @ketab_n

حوارهُ مع حيّات الفردوس في «روضاتها المؤنّقة التي تلعب فيها الحيّات ويتماقلن، يتخافقن ويتاقلن»، ونقاشاته معها تسحرُ اللبّ. تُنسي القارئَ أفاعي الأستاذ عبد الحقّ حتى نهاية العُمر!...

إحداهنّ مثلاً كانت تسكنُ دار حسن البصري، ثم بيت ابن عمرو ابن العلاء ثم انتقلَتْ إلى الكوفة لتحيا في جوار حمزة بن الحبيب... ناقشَتْ ابن القارح في أمورٍ أدبيّةٍ ونحويّةٍ مختلفة، شرحتْ له قراءات بعض آيات القرآن التي سمعتها ممّن سكنَتْ في بيوتهم، انتقدَتْ بعضَ مزاعم النحويّين!...

أذهلَتْ بمعارفها ومواهبها الأدبيّة ابن القارح!... غير أنّها عندما خلعَتْ جلدَها كحيّة، وتحوّلت حوريّةً «من أحسن غواني الجنّة، ذات رضابٍ أفضل من خمر الدرياقة» هرب ابن القارح مهرولاً في الجنّة وهو يقول لنفسه: «كيف يركنُ إلى حيّةٍ شرفها السمّ؟»!...

كنت أقول لنفسي: «آه، ثمّة طباعٌ لا تتغيّر حتى في الجنّة: لا يثق ابن القارح (بِروحِ بدويٍّ شديدِ التشكّك والحذر والارتياب) حتى بالله، وكأنّه، جلّ جلاله، سيُرسِلُ له إلى الفراش حوريّات برضابٍ ختامهُ سمّ، فيما وعدَهُ بحوريّات ختام رضابهنّ مسكٌ وعسَل، يفتحْنَ له أبواب السماء الثامنة، سماء اللذّةِ القصوى!»...

ابتسمتْ أمّي وهي تسمعني أقول:

في كلِّ الأحوال، فضّلتُ حيّات أبي العلاء على حيّات الأستاذ أبو جهنّم!... حلّت الأولى في آخِرةِ دماغي محلّ الثانية، ولله الحمد، من فرط تكرار قراءاتي لِرواية الغفران!...

لم تبتسم أمّي فقط، بل أطلقتْ في الحقيقة لضحكتها العنان، ليكون لِصفعتِها التي ستوجِّهُها لي بعد قليل: «لكنّك لم تفهَم حبيبي أهمّ

Twitter: @ketab_n

شيءٍ في الرواية!» وقعًا مباغتًا وحادًّا جدًّا! . . .

* * *

استرسلتُ بكلّ حماسٍ وبراءة تلخيصي روايةَ قراءاتي لِروايةِ الغفران، كُلّيَ رغبةٌ في أن تستوعبَ أمّي كم أثّرَتْ تلك الروايةُ عليّ حقًّا . . . قلتُ لها:

أعدتُ، أمّاه، قراءةَ روايةِ الغفران في بدء المدرسة الثانويّة، أخذتُها معي للخدمة العسكريّة ذات يوم، قبل أن أغادر سوريا . . . ثم اشتريتُها من جديد من مكتبة «ابن سينا»، المجاورة لِ «معهد العالَم العربي»، بعد أن سكنتُ باريس، وأعدتُ قراءتها عدّة مرّات! . . .

أعترفُ أنّ الجنّةَ أثارَتْ شهوتي في بعض قراءاتي المراهقة المبكرة لرواية الغفران. بدتِ الجنّة فيها، انطلاقًا من صورتِها في المصحف الكريم، عالَم ملذّات ومآدب وملاهٍ أبديّة. شِعارُها السرمدي: «إنّ أصحاب الجنّة في شغلٍ فاكهون، هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متّكئون، لهم فاكهةٌ ولهم ما يدّعون!» . . .

سكّانُها مسطولون «مطنطنون» في بحبوحةٍ ونعيمٍ سرمديّ، متّكئون كملوك يكفي أن يساورهم حلمٌ ما لِيتحقّق حالاً! . . .

يمتلكون ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعَتْ: «إنّا أنشأناهنّ إنشاءً، فجعلناهنّ أبكارًا، عُرُبًا أترابًا، لأصحاب اليمين»: مصنع حور عين، مِلكات جَمالِ الأرض بالنسبة لهنّ حبّات بطاطس! . . .

أعترف أنّي قلت لنفسي مرارًا: «ماذا يريد المرء أكثر من ذلك؟» . . .

يكفي، على سبيل المثال، أن يخطر ببالِ ساكنِ الجنّة بيتُ شعرٍ غراميٌّ لأمرئ القيس (الذي يصطلي في حرمان الجحيم، في اللحظة

Twitter: @ketab_n

نفسها!) لِيجدَ الساكنُ نفسه يترندع وسط باقةٍ من ملِكات جَمالِ الجنّة، يتماقلن حوله، ولِيتنقّلَ بينهنّ بعد ذلك من ثَغرٍ لِثَغر، من فخذٍ لِفخذ، كما وجدَ ابن القارح نفسه أحيانًا يُضاجعُ أكثر من حوريّةٍ عِينٍ في الوقت نفسه!..

ثم صرتُ لاحقًا أقرأ بعض ملامح جغرافيّة الجنّة في «رواية الغفران» كما أقرأ مسلسلات «سوبرمان» والروايات العجائبيّة أو قصص الخيال العلمي: أشجارُ جنّةِ روايةِ الغفران عملاقةٌ تذهبُ جذوعُها من شرق الجنّة لِغرْبِها، الحيوانات تتكلّم في الجنّة، يستطيع الإنسان فيها أن يرى ما يبعد عنه عدّة «سنوات ضوئيّة» (استخدمَ أبو العلاء في الرواية هذا المفهوم العلمي!)...

قاطعتني أمّي:

ـ لاحظتُ ذلك أيضًا، أثارني منذ زمن!...

صرتُ أتخيّل، بالإضافةِ إلى ذلك، أنّ الإنسان في الجنّة يستطيع أيضًا أن يرى الذرّات وجسيماتها اللانهائيّة الصغر من إلكترونات وبروتونات!... يستطيع أن يرى التيّارَ الكهربائي حشدًا عشوائيًّا دافقًا من الإلكترونات السابحة في نهرٍ معدنيٍّ بسرعة الضوء، كأنّها في مسابقةٍ أولمبيّة!...

* * *

كان بودّي أن أختتم أطروحتي لأمّي بما تيسّر من البوح، لكنّي لم أتجرّأ، كي لا أدعك بعض مشاعرها لو سمعتني أقول:

لم أعد أحبُّ كثيرًا، وأنا في فرنسا، جنّةَ السماء السابعة! أنهار العسل واللبن والسمن لم تعد تُثير شهيّتي قطّ...

لا توجد في تلك الجنّة لسوء الحظّ مكتبةٌ واحدة، ورقيّةٌ أو رقميّة،

Twitter: @ketab_n

لا كتابٌ أو صحيفةٌ ورقيّةٌ أو إلكترونيّة!... لا متحفٌ، أو مقهى إنترنت أو كمبيوتر!...

صرتُ أراها «مخمارةً» بَدويّةً بحجم الكون، حفلةَ عربدةٍ ومضاجعات جماعيّة، وتنقُّلٍ غير أخلاقيٍّ من حوريّةٍ لِحوريّة...

أتنازلُ شخصيًّا لِمن يُحبّ، دون أدنى أسف، عن الحوريّات السبعين وسرب الغلمان المخلّدين الذين ينتظرونني في الجنّة منذ أربعة آلاف عامٍ قبل خلق الدنيا!...

لا أريد ذلك، شكرًا!...

تكفيني شخصيًّا لمياء واحدةٌ فقط، في حياة الدنيا والآخرة معًا!...

لِجنّتنا، لمياء وأنا، في الآخرة مثل جنّتنا في الدنيا، لونان فقط: أزرق كمياه البحر الأحمر، وأبيض كرمال شواطئه!...

جنّتُنا السماويّة جُزُرٌ وأمواج. بحارٌ دافئةٌ طوال العام، لا ألذّ من السباحة فيها في الفجر، أو تحت القمر، قبل العناق أسفل ملاءةِ نجومِها الرقيقةِ الناصعة، فوق رمالٍ لها نعومة النهود!...

هكذا بَنَيتُ لنفسي سماءً أخرى، أرقى بِـ ٧٠ سماء من السابعة: السماء ٧٧!... أنهارُها كتبُ رواياتٍ وشِعرٍ ودراسات!...

تسيلُ هذه الأنهار فيها في كلّ بستانٍ وشارع!... أمواجُها مليارات كُتبٍ تتجدَّدُ على الدوام!... يكفي أن يضع المرء طرف أصبعِهِ في نهرٍ منه، لِيمَسّ على التوّ كتابًا جديدًا يدهشهُ من أوّل كلمة، قراءةُ الفقرةِ الواحدِة فيه «أفضل من كلّ ملذّات الدنيا!»...

ثم بدأتُ أفني ما تبقّى من حياتي بالابتهال والدعاء لِربّ السمٰوات

Twitter: @ketab_n

والأرض أن لا يسكنني إلّا جنّةً يسيل فيها نهر الروايات!...

* * *

أنهيتُ تلخيصي لأمّي في تلفوننا، في هذا الفجر الثلجيّ لبدء العام ٢٠١٠، روايةَ قراءاتي لِروايةِ الغفران، وآثارها العديدة عليّ، علّها تسحب أخيرًا إهانتها الخالدة: «لعلّك، حبيبي، لم تقرأ رواية الغفران، أو بالأحرى لم تفهمها!»...

سحبَتْ أمّي نصف ما قالته فقط، وهي تعلّق على أطروحتي حول علاقتي برواية الغفران:

ـ قرأْتَها بالتأكيد حبيبي! لكنّك لم تفهمها كما يلزم، وإلّا لما استغربتَ ممّا كتبَتْهُ نور عن ابن القارح وهو يرى أبا العلاء وهِنْدَ في الجحيم يلعبان الشطرنج بقطعٍ من جمر!...

هكذا سحبَتْ أمّي نصفَ ما قالته (اعترفَتْ أنّي قرأتُ الرواية)، وإن أصبحَتْ لطمتُها بِقوّةِ لطمتين وهي تضيف: «لكنّك لم تفهمها كما يلزم!»...

أشعرُ أنّي خسرتُ هذه المعركة: لم أفهم شيئًا، أو بالأحرى فهمتُ خطأً أنّي فهمتُ الرواية!...

اللعنة!... أمّ اللعنات!... أمّ لعنةِ اللعنات!... ألم يقل يوسف دوميستر هذه العبارة التي ينبغي الانحناءُ عند سماعِها: «من لا يفهمْ، يفهمْ أفضل ممّن يفهمُ خطأً»؟...

قلت لأمّي:

ـ اعذريني أمّي! ما الذي لم أفهمه في الرواية؟ علّميني أن أفهم إذن؟... أخبريني كيف يحقّ لنور أن تتخيّل أبويها في الجحيم يلعبان

Twitter: @ketab_n

الشطرنج بِقِطَعٍ من جمر؟ كيف يلزمني أن أفهم ذلك؟...

شعرَتْ أمّي أنّي مدعوكٌ في الصميم! محَتْ كلّ صفعاتها، كعادتِها، بجملةٍ سحريّةٍ واحدة:

ـ مثلك حبيبي لم أفهم ذلك في البدء رغم قراءاتي الكثيرة لرواية الغفران!... لعلّ نور هي أوّل من فهمها حقًّا!...

مثلك حبيبي لم أستوعب شخصيًّا ما قالتهُ نور عن مباريات شطرنجِ والدَيْها في الجحيم، إلّا بعد أن قرأتُ نصوصَ تعليقاتها في هوامشِها النورانيّة، لا غير!...

كتبَتْ نور في إحدى هوامشها هذا التعليق الذي سيساعدك، مثلما ساعدني، على استيعاب ما وراء سيناريو مباراة شطرنج الجحيم، كما صمّمتهُ الملهَمةُ أبدًا، ابنة أبيها وأمّها، نور بنت أبي العلاء المعرّي:

«الجنّة مقبرة الذاكرة، والجحيم وطن المبدعين!»!...

يبدو أنّ اتّصالنا الهاتفي الذي دام حتى الآن أكثر من ٢٠ دقيقة سيستمرّ!...

(لم أسأل نفسي إذا كانت لمياء تنتظرني في السرير، أو إذا كانت تصغي لتفاصيل وأسرار هذه المكالمة غير الاعتياديّة!)...

سألتُ أمّي مرتبكًا:

ـ ماذا تقصدُ نور بهذه العبارة؟...

Twitter: @ketab_n

٢٨

بيج بونج

لا يدري أبو النزول حتى اللحظة من أين يبدأ جولتَه بشكلٍ خطّي!... «يُنتِّفُ» بعضَ شعرِ لِحيتِهِ!... تزدادُ حيرتُه ودهشتُه معًا!...

أبو نور، الذي لم يرَ الضوء في حياته الأرضيّة الأولى، يفضِّلُ أن يواصل التسكّع!... يتزحلقُ دون توقّف على جليدِ جبالِ الضوءِ من قمّةٍ لِقِمّة، يجذّفُ من موقعٍ في الزمكان لِموقع!...

كلُّ ضياءِ الكون له، في جيبهِ، مِلكُهُ، يراقصهُ ويتماوجُ معه كما يشاء!...

يرقصُ أبو نور في الفضاء الكونيّ بِسكرةٍ ونشوة. يتذكّرُ صديقَهُ نيتشه، صاحب «الإنجيل الخامس»، وهو يتحدّثُ على لسان زرادشت: «إنّي لا أؤمن إلّا بإلٰهٍ واحدٍ يكون قادرًا على الرقص!»...

يشعرُ كأنّه دفع كلَّ حياتِه الأرضيّة الأولى ضريبةً لهذه اللحظة الفريدة! غير أنّ إمبراطور قاموس لغة الضادّ (الذي قيل عنه: «ما نطقتِ العربُ بِكلمةٍ لا يعرفها أبو العلاء»!)، مِلكَ كلماتها (الذي لا يوجد

Twitter: @ketab_n

كتابٌ عربيٌّ حتى اليوم بِشدّة ثراءٍ وتجدّدِ كلمات كتابه: «رسالة الغفران»، حسب نتائج بعض برمجيّات الحاسوبات اللغويّة)، لا يستطيع التعبير عمّا يحسُّ به أحيانًا! تخونُهُ الكلمات من هولِ اللحظة، لأوّلِ مرّة!...

يا لَهولِ هولِ لحظةٍ تخونُها كلمات أبي العلاء!...

يخطر له، ليُبرمجَ فصولَ روايتِهِ ويُمنهجَ متنَها، أن يتوقّفَ عند بعض منعطفات تاريخِ الكون التي تُهمُّه، أن يسافر نحوها على متنِ الضوءِ كطائرٍ مهاجرٍ يحمل بوصلتَهُ بين عينيه، أن يتنقّلَ حسب مزاجه، بتأنٍّ وهيام، بين الهلال الخصيب والصين، بين بابل ومصر القديمة، حضارات المايا والهند، جبال القوقاز وأستراليا...

تُخامِرُهُ الرغبةُ أن يستهلَّ رحلتَهُ بالتوقّف طويلاً عند حضارة الإغريق، قبل أن يعبر العصور الوسطى بتمعّنٍ وبطء، عصرَ الانحطاط العربي الذي لم يتوقّف، عصرَ النهضة وعصرَ الأنوار الأوروبي، عصرَ العِلمِ الحديث...

يتردّد في اختياره مرّة ثانية، يتراجعُ عن كلِّ هذه الرغبات: يُفضّلُ أن يتأرجحَ طوال هذه الرحلة كعادتِه، في كلِّ غابات الزمان، بعشوائيّةٍ حرّةٍ مُطلَقة!... يجدُ في ذلك لذّةً سحريّةً تُدغدغ كلّ أليافه العصبيّة!...

يحِنُّ فجأة لِرؤيةِ رهين المحبَسين في سجنهِ في معرّة النعمان! يتمزّقُ شوقًا للبدءِ برؤيةِ هند، بالانحناءِ أمامها وهي تلعبُ معهُ مباراةَ شطرنجٍ يتمنّى أن يستسلمَ فيها اللاعِبانِ في الوقت نفسه، قبل بدايتها مباشرة!...

يعزف عن اختيارهِ لهذه البداية البالغة الخطورة كي لا تنتهي هذه

Twitter: @ketab_n

الرحلة قبل بدايتها! يؤجّل السفرَ نحو هند لأسبابٍ شخصيّةٍ خالصة!...

يفركُ يديهِ وكأنّهُ وجد الحلّ وقرّر اختيار بدايته الأنيقة التي يبحث عنها أمينيائيل، يقول: «أريدُ أن أرى بأسرعِ وقتٍ جذرَ الأسرار!»...

أي: يريدُ أن يراقبَ كيف نزح مئاتٌ من الكهنة اليهود لبابل بعد أن اجتاح نبوخذ نصّر الشامَ وأرض كنعان في القرن السادس قبل الميلاد، كيف ألّفوا التوراة للحفاظِ على أواصرِ قبيلةٍ مهدّدةٍ بالشتات والتلاشي، وكيف اخترعوا إلٰهَهم المُجرَّد: الواحد القهّار، أرهب وأقوى وأعتى زلزالٍ هزّ الفكرَ الإنساني قاطبة!...

يريدُ أن يُتابعَ كتابةَ آياتهِ آيةً آيه، أن يتمعّنَ أيضًا في تأثُّرِها بِملحمةِ جلجامش التي ألهمَتْ أساطير التوراةِ بِشخوصٍ هامّة أُعيدت صياغتها في الأديان اللاحقة، أن يدرسَ طرائق استلهامِها لِقصص التراث الكهنوتي اليهودي القديم، كيف أثّثت وطوّرتْ فضاءها الدينيَّ من جِيلٍ لِجيل، كيف اختَرَعتْ سيرات وقصصِ ملوكِها وأنبيائها (يتذكّرُ أبو النزول أحد فحولِ نجومهم: صديقَهُ العزيز الملك سليمان!)...

تنهشهُ الرغبة، في الحقيقة، في أن يُفكّكَ منذ البدءِ أسرارَ الأديان، وأن يُجلي ظلماتٍ فوقها فوق بعض تختفي في طيّاتها أكذوباتُ التاريخِ الكبرى، هو الذي اخترَقَها في حياتهِ الأرضيّةِ الأولى بدون خوف، بدون إيماء، بِضياءِ نَجْمَي الفرقدين التاليين، شديدَي السناءِ والجلاءِ والتعبيريّة:

ولا تحسبْ مقال الرُّسلِ حقًّا ولكن قولُ زُورٍ سطَّروهُ
وكان الناسُ في عيشٍ رغيدٍ فجاؤوا بالمحالِ فكدَّروهُ

أو ابنةِ عمِّهما:

أفيقوا أفيقوا يا غواةُ فإنّما دياناتكم مكرٌ من القدماءِ

Twitter: @ketab_n

يريدُ أن يُواصلَ الرحلةَ بعد ذلك إلى «مصحف عثمان» ليرى كيف تمَّ تجميعُهُ إن كان كذلك، كيف اختفى (لا يوجدُ اليوم في متحف، ولم يَقُلْ يومًا أحدٌ إنّه اختفى أو سُرِق!... أين هو؟ إلٰهي، أين هو؟...) يريدُ أن يكتشفَ أيضًا سرَّ نُسَخِهِ الخمس التي قيل إنّها بُعِثَتْ من مكّة لأنحاء الإمبراطوريّة الإسلاميّة من المغرب إلى اليمن! أين هي؟ إلٰهي، أين هي؟... متى بُعِثَتْ إذا بُعِثَتْ حقًّا؟ متى اختفتْ إذا اختفتْ حقًّا؟...

يريدُ أن يرى لحظةَ كتابةِ كلِّ سورةٍ منه، كلِّ آية... أبو النزول باحثٌ علميّ لا يقبلُ ما يُحكى له دون برهان!...

يريدُ أن يرى الأشياء بحدقَتَي عينيه الظامئتينِ لِرؤيةِ الحقيقة، هو الذي يعرفُ أكثر من غيرِه زورَ ومكرَ التاريخ واكتظاظهِ بأكاذيب كبرى وأقاويل مُخترَعة!...

قلمهُ عطشان جدًّا، ينضحُ، باندفاعٍ وإسهاب، إس إم إساته النورانيّةَ الثاقبة... يخلعُ فيها، أمام ساعي بريد الأعلى جدًّا، أقنعةَ كلِّ أكذوبات التاريخ الكبرى، لِتبدو كما هي: لا أشياء صغيرة، عبقريّة الدهاء عميقة التأثير، ألّفها بشرٌ للحفاظِ على قوّةٍ وسلطةٍ ومصالح حيويّة!...

يشرحُ فيها كيف استوطنتْ هذه الأكذوبات الكبرى، كيف تطوّرت من جيلٍ لجيل...

ثم يُقرِّرُ الشاعرُ البحّارُ أخيرًا، بعد أن رأى «بأسرعِ وقتٍ جذرَ الأسرار» وأروعَ الأكذوبات الكبرى، وبعد أن تزحلق في كلِّ أوديةِ وشعابِ الزمكان ببوهيميّةٍ مزاجيّةٍ مضطربة، العدولَ عن كلِّ هذه التسكّعات!...

Twitter: @ketab_n

يقرِّرُ البدءَ من البداية!

من أهمِّ اللحظات قاطبة: الانفجار الكوني الكبير!...

تفترسهُ أمُّ الرغباتِ، في الحقيقة، بأن يأخذ القطار من محطّة انطلاقه، لا أن «يتشعْبَطَ» في جدران عرباته وهو يهرعُ في منتصف الطريق!...

يكتبُ أبو النزول:

((لو سُمِحَ لي أن أختار غايةً أو مآلاً واحدًا فقط لهذا الإسراءِ والمعراج بالاتّجاهِ المعاكس، نحو الدنيا السافلة، لاخترتُ بلا شكّ جذرَ اللحظات، بدءَ البدايات، منبعَ الزمان والمكان: لحظةَ الانفجارِ الكونيِّ الكبير!...

لا أريد في الحقيقة أن تنقضِيَ هذه الزيارةُ الاستطلاعيّةُ في الدنيا (إذا ما استدعَتْني «القيادةُ العامّة»، وطلبَتْ منّي أن أكفَّ عن مواصلتها!) دون أن أملأ ناظريّ بمشهدِ اللحظةِ التي يسكنني الشوقُ لِرؤيتِها أكثر من أيّة لحظةٍ في تاريخِ الوجود، تلك التي تكمنُ فيها الإجابة على أهمِّ سؤالٍ أرهقَ الإنسانَ منذ أن صار إنسانًا: من أين جئتُ؟...

منذ فجر التاريخ تُقاتِلُ الأديانُ للسيطرةِ على الإجابة على هذا السؤال، ومنعِ أيّ ردٍّ عليه يُخالفُ ردَّها!... تعرفُ تمامًا أنّ بقاءَ سلطتِها على الإنسان مرتبطٌ فقط بهيمنةِ إجابتِها على هذا السؤال المركزي!...

لأنّ الإجابةَ عليه إجابةٌ غيرُ مباشرةٍ على السؤال الآخر الذي أرهب الإنسان على الدوام: أين سأذهبُ بعد الموت؟...

من يحتكرُ الإجابةَ على السؤالِ الأوّل، يمتلكُ تلقائيًا الحقَّ في

Twitter: @ketab_n

قيادةِ مسيرةِ السؤال الثاني، لِيصبحَ بالضرورةِ قبطانَ الرحْلةِ بين السؤالين. أي: قبطان رحلةِ السؤالِ الثالثِ الأكثرِ عضويّة، الأكثرِ هيمنةً على الموارد وتحديدًا للأدوارِ والسلطات ومصائر الحيوات اليوميّة: ماذا عليّ أن أعمله، كيف يلزمُ أن أعيش في هذه الأرض؟...

باختصارٍ شديدٍ عزيزي أمينيائيل: من يفرض صيغتَهُ الخياليّةَ لِرواية «كانْ يا ما كانْ، في قديم الزمان»، يفرض آليًّا سيادَتَهُ الكلّيَّةَ وقرارَهُ النافذ: «لِيكنْ ما أريدْ، في هذا الزمن الجديدْ!»...)).

يصل أبا النزول ردٌّ سريعٌ من أمينيائيل:

((حسنًا، حسنًا! أصبتَ كثيرًا عزيزي أبا النزول!...

إس إم إسٌ رائع!...

البدءُ من البداية قرارٌ حكيمٌ صائب، وبديهيٌّ جدًّا أيضًا!)).

لم يحب أبو النزول عبارة: «وبديهيٌّ جدًّا أيضًا!» التي لم تخل من لَسعةٍ صغيرة! ردّ على أمينيائيل:

((لعبارتكَ الأخيرة، عزيزي أمينيائيل، رائحةُ بلاغةِ الأبراجِ العاجيّة!... عندما يجدُ جائعٌ مثلي، منذ ألف عام، نفسَهُ أمام مائدةٍ بِسَعةِ الكون، فلن يستهلّها بمضمضةِ نبيذِ المقبّلات، بِتأنٍّ وكياسةٍ أرستقراطيّة!...

سيهجمُ على المائدةِ من كلِّ الاتّجاهات، لِيَسُدّ جوعَه. سيغرِفُ من كلِّ أطباقِها بِشراهةٍ ونهم... قبل أن يبدأ تذوّقَها بِمنهجيّة وفنّ!))...

ثم يضيفُ صاحبُ «تقرير الهدهد» لما بعثهُ قبل تعليقِ أمينيائيل:

((بين الحاضر والماضي تنسابُ لعبةُ السببِ والنتيجة! لا يُفهَمُ الحاضرُ دون السفر إلى الماضي! ذلك حال كلّ مجالات المعرفة: في

Twitter: @ketab_n

الكيمياء، الفيزياء، الرياضيّات، التاريخ، الطبّ... ترتبطُ كلّ ظاهرةٍ أو سيرورةٍ أو سلسلةِ تحوّلات بـ «ظروفِ البدء»، باللحظة الأولى، كما ترتبطُ الشجرةُ ببذرتِها!...

لذلك يُحاصرُ الظلاميّون أسئلةَ أصلِ الماضي بأسوارٍ مُلَغّمةٍ مُكهرَبة! يقاتلون من أجل احتكارِ الإجابةِ عليها. يمنعون مسَّها والاقترابَ منها! ولذلك لا هدفَ للثورةِ والعِلم أقدسُ وأهمُّ وألذُّ من إعادةِ كتابةِ الماضي بِريشةِ ضوءٍ نقيٍّ دافق يتسلّلُ داخل تلك الأسوار، يُكنِّسُ كلَّ دهاليزِها وأنفاقِها المظلمة الخفيّة!...

الثورةُ، كما قال أحدهم، إعادةُ كتابةٍ للماضي بِمفعولٍ رَجْعي! أي نسفٌ لِخطابٍ سلفِيٍّ بمفعولٍ رَجْعي!)).

ها هو رهين المحبَسين (الذي قضى دهرَهُ الأوّل ينسفُ بمفعولٍ رَجعيٍّ ماضيًا ليس في أغلبِهِ أكثر من «خطابِ زُورٍ سطَّرَهُ السلفيّون») يهرولُ بالاتّجاهِ المعاكسِ لحركةِ الزمن، نحو ماضي الماضي!...

يصل إلى شرفةٍ في أقصى ضواحي الكون، حيث تتقدّمُ أوّلُ مجرّةٍ (اسمها العلمي z6VDH) تشكّلَتْ بعد ٩٠٠ مليون سنة من الانفجار الكوني الكبير (التقطَ روّادُ الفضاء مؤخّرًا أشعّةَ الأضواءِ القادمةِ منها!)...

يتعدّى «شَيْخةَ» المجرّات سريعًا باتّجاه ما قبل ماضي الماضي، ليلحق لحظةَ بدءِ تشكُّلِ «فوتونات» الضوء بعد ٣٨٠٠٠٠ ألف عامٍ من البيج بونج!...

كتب على هامشِ مذكّراتهِ: «انفتحَ ستارُ المسرحِ الآن، وُلِدَ النور!»...

وُلِدَتْ بعد ذلك، عزيزي أبا العلاء، ابنتُكَ نورُ، جدّتي الثانية

Twitter: @ketab_n

والثلاثون، بحوالى ١٣,٣ مليار سنة تقريبًا!...

أمامه ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمِعتْ ممّا يبحثُ عنه الفيزيائيّون بهوَس: «المادّة المضادّة» التي تشكّلتْ في الوقتِ نفسه مع المادّة، عند الانفجارِ الكونيِّ الكبير قبل ١٣,٧ مليار سنة، بحجمِها نفسه (أي بحجم كونِنا المرئي نفسه!)، والتي لم تر تلسكوباتُ الإنسان أوّلَ «ضبابِها المضادّ» إلّا قُبيل سنواتٍ قلائل فقط!...

يكاد يُغشى عليه من الدوار، يتساءل: «ماذا عملتُ لِأُحظى، أنا وحدي، برؤيةِ هذا المنظرِ الفريدِ الفاتن؟»...

ها هوَ، من قضى خمسين عامًا في أصفادِ سجنهِ الثالث، يرتعُ اليومَ ويمرعُ قرب «الكواكبِ والنجومِ المضادّة» التي لم يرها تلسكوبٌ بعد، وإن تنبّأتْ بوجودِها المعادلاتُ النظريّة، مثلما استقرأتْ وجودَ «الثقوبِ السوداءِ» قبل أن ترصدَ التلسكوباتُ وجودَها الفعلي، بعد ذلك بكثير...

يصبو، في معمعان الدهشة، لِرؤيةِ أكوانِ المستقبل: أكوانِ «الحياةِ المضادّة»، «الإنسانِ المضادّ»، «أبي العلاءِ المضادّ»، «هند المضادّة»!...

يتقدّمُ أبو النزول أكثر بالاتّجاه المعاكس للزمن، يهرعُ نحو بدءِ البدايات، ليرى أخيرًا أمام عينيهِ حُلمَ أحلامهِ الكبرى، المشهدَ الجذريّ، أهمّ وأرهب وأعظم وأوْحدَ وأجلّ المشاهدِ قاطبة:

ذرّةٌ لا نهائيّةُ الكثافةِ والحرارة تنفجرُ على حين غرّة!...

بيج بونج يُطيحُ بالعدَم إلى الأبد، يَصمُّ آذان الأبديّة، يبتلعُ الخواءَ الكونيّ بأقلّ من لمحة بصر!...

يلدُ بعد ذلك كلُّ شيء: الزمان، المكان، الضوء، الحياة... (ولمياء التي طالما أغرقتُ وجهي في كتفِها العَطِرِ الأبيض!)...

Twitter: @ketab_n

٢٩

الجنّةُ مقبرةُ الذاكرة والجحيم وطنُ الأحرارِ والمبدعين!

بعد أن تنفّستْ أمّي الصعداء، وفتحتْ على مصراعيها كنوز ذاكرتها الثاقبة، ردّتْ على سؤالي حول مدلول العبارة الغامضة التي قالتها نور:

((الجنّةُ من منظور أبي العلاء: مقبرة الذاكرة، والجحيم: وطن الأحرار والمبدعين، مأوى الذاكرة!... هذا ما تقصده نور!...

اسألْ نفسك: أيمكن لأبي العلاء أن يحيا في جنَّةِ رواية الغفران؟...

اعبرْ قائمةَ كلٍّ من زارهم ابن القارحِ في الجنّة، وقارنْ بينهم وبين أبي العلاء!... ألا ترى أنّهم جميعًا يختلفون عنه تمامًا؟...

بدأتْ قائمتُهُ بالأعشى (الذي مدح الرسولَ، فشفع له. دخلَ الجنّةَ، بفضلِ ما يُشبه «غفران البقّالين»، شريطة أن لا يشرب خمرًا فيها، كعقوبةٍ على شربِهِ الخمرَ في الدنيا!...) وانتهى بتميم بن أبيّ، مرورًا بحسّان ابن ثابت والخليل وغيرهم...

Twitter: @ketab_n

لاحظَ ابن القارح أنّ معظمَ شعراء الجنّة نسوا ما قالوه من شِعرٍ في الأرض من فرط انغماسهم في ملذّات الجنّة!...

سأل مثلاً الشمّاخ بن ضرار: «لقد كان في نفسي أشياء من قصيدتك التي على الزاي، وكلِمتكَ التي على الجيم...» ردّ الشمّاخ: «لقد شغلني عنهما النعيم الدائم، فما أذكر منهما بيتًا واحدًا»!...

ردَّ ابن القارح (أو بالأحرى أبو العلاء الذي يتقمّصه): «لقد غفلتَ أيّها المؤمن وأضعت! أما علمتَ أنّ كلمتيك أنفع لك من ابنتيك؟ وإنّ القصيدة من قصائد النابغة لأنفع له من ابنته عقرب»!...

لو فتحتَ، حبيبي، مخطوطات نور، التي تنتظرك منذ أمد، لَوجدتَ أنّها كتبتْ في أشروحاتها لرواية الغفران تعليقًا عميقًا حول هذا الحوار، دمعَت عيناي عند قراءته:

((«إذا كانت ثمّة آخِرةٌ في عَيْني من قال في لزوميّاته:

لا خيلَ مثل قوافي الشعرِ جائلةً   أبقى على الدهرِ أعناقًا وآطالا

إن ينقُلِ الحتفُ عن عاداتِهِ بطلاً   فما تزالُ معانيهنّ أبطالا

فهي آخرةٌ تسكنها الكلمات، لا تسكُنها إلّا الكلمات!...

صدق أبو العلاء: «الآخِرة وطنُ الكلمات!»...)).

استرسلَتْ أمّي:

((قال ابنُ القارح لنابغة بني جعدة مثل ما قاله للشمّاخ: «أي أبا ليلى، لقد طال عهدكَ بألفاظِ الفصحاء، وشغلكَ شرابٌ ما جاءت بمثلِهِ بابل، وثنتكَ لحومُ الطير الراتعة في رياض الجنّة، فنسيتَ ما عرفتَ ولا ملامة إذا نسيت ذلك: (إنّ أصحاب الجنّة في شغلٍ فاكهون، هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متّكئون، لهم فاكهةٌ ولهم ما يدّعون!)»...

Twitter: @ketab_n

قال مثل ذلك أيضًا للخليل أثناء حفلةٍ لِرقصِ الحور كنّ يغنّين فيها أبياتًا «تهتزُّ لها أرجاء الجنّة» نسيَ الخليلُ أنّه قائلها: «أفنسيتَ يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكى العرب في عصرك؟»...

ردّ الخليل فاغر الفاهِ كمُحشّش: «إنّ عبور الصراط ينفض الخلدَ ممّا استودع!»...))

شعرتُ، أنا الذي قرأتُ رواية الغفران عدّة مرّات ولم أستوعب ذلك، بنوعٍ من الخجل!...

واصلَتْ أمّي براهينها الأنيقة:

((أتتخيّلُ أبا العلاء مسطولاً في الجنّة مع طابورِ شعرائها المدوّخين؟... أتتخيّلهُ قرب النابغة وهو يثب على الأعشى ويضربه بكوزٍ من ذهب، كما حصل بعد شجار بذيءٍ بينهما؟... أتتخيّله قرب الأصمعي وهو يقول لأبي مازن العثماني لمجرّد سؤال الأخير له عن وزن إحدى الكلمات: «إليّ تُعرِّض بهذا يا فصعل، وطالما جئت مجلسي في البصرة وأنت لا يرفعُ بك رأس؟!»...

أيمكن لهؤلاء السوقيّين أن يكونوا أنداد وجيران أمير النبلاء: أبي العلاء؟))...

لم تكتف أمّي بذلك! أرادت أن يكون برهانُها شاملاً كاملاً! استأنفَتْ:

ـ اعبر حبيبي في ذاكرتك الآن قائمةَ من رآهم ابن القارح في القطبِ الآخر من الآخرة، أقصدُ: الجحيم!...

مرّتْ خمس وثلاثون دقيقة منذ بدء مكالمتنا!... حاولتُ الاقتراب من بيت القصيد لئلّا يطول هذا الحوار المدهش، في هذه الساعة من

Twitter: @ketab_n

فجرِ رأسِ العام الجديد. . . قاطعتُها:

ـ ثمّة سؤالٌ ينهش دماغي نهشًا، أعتذر أنّي لم أسألك إيّاهُ منذ ٣٦ سنة، أعرف الآن فقط كم هو بالغُ الأهمّيّة والإثارة: كيف مرّت يوميّات لقاء نور بأبيها في مجلسهِ في المعرّة؟. . .

ردَّتْ:

ـ سأجيبُ عليه بعد دقائق، بإمكانكَ أن تصبر قليلاً، أنت الذي لم يؤرّقك عدم توجيه هذا السؤال منذ ٣٦ سنة!. . .

دعني ألَخِّصُ لك أوّلاً لقاءات ابن القارح مع شعراء جهنّم، لتعرف أين يلزم أن يقطُنَ أبو العلاء في آخرةِ ملكوتِ روايته!. . .

لاحظ ابن القارح أنّ جميعَ شعراءِ الجحيم تذكّروا أشعارَهم الأرضيّة، بعكس شعراء الجنّة. ناقشوا ابن القارح، تفاعلوا معه، وردّوا على أسئلته وآرائه بإسهابٍ رائع. . .

بدأ ببشّار بن بُرد الذي وجده قرب «أبي مرّة»، إبليس! نظرَ إلى ما نزل بهذا الشاعر من نكال لقوله حول إبليس:

النار عنصرهُ، وآدم طينةٌ والطينُ لا يسمو سموَّ النارِ

قال ابن القارح لِسجين الرأي في جهنّم، بشّار بن بُرد، هذه العبارة العميقة: «لقد أحسنتَ في مقالك، وأسأتَ في معتقدك!» التي لا يمكن ترجمتها إلّا بـ: «العقيدة تخالف الصواب» أو «العقيدة في عالَم، والصواب في عالَمٍ آخر»!. . .

يقابل ابن القارح بعد ذلك امرأ القيس الذي لم تخنهُ الذاكرة!. . . لم تخنكَ أنت أيضًا حبيبي عندما سردتَ لي قبل قليل شذرةً أنيقةً من لقائهما!. . .

Twitter: @ketab_n

يليهِ حوارٌ رفيعٌ مع فحلٍ آخر من كبار فحول الشعراء آنذاك وأشجعهم، عنترة العبسي، الذي دخل النار لِبيتينِ وصف بهما الخمر!...

لا تنس حبيبي أنّ أبا العلاء لم يرفض الخمر لِواعزٍ شرعيّ، بل لكونِهِ يمنع الرؤيةَ المجرّدة، يؤذي العقلَ ويهزُّ البصيرة، كما يقولُ في لزوميّاته:

يقول الناس إنّ الخمر تؤذي بما في الصدر من همٍّ قديم

ولولا أنّها باللبِّ تؤذي لكنتُ أخا المدامة والنديم

كذلك علقمة، وعمرو بن كلثوم، والحارث اليشكري... حوارات فنّيّة، استفسارات وانتقادات يتفاعلون معها بتمكُّنٍ وشغف!...

يليهم أيضًا طرفة بن العبد الذي يختتم حواره مع ابن القارح بهذه العبارة المدهشة التي تستحقُّ شديدَ التأمّل:

«وددتُ أنّي لم أنطق مصراعًا، وعُدمتُ في الدار الزائلة إمراعًا، ودخلتُ الجنّة مع الهمج والطغام... وكيف لي بهدوء وسكون، أركنُ إليه بعض الركون؟ (وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطبًا)...».

يليه أوس بن حجر الذي تتسلّل منه هذه العبارة: «ولقد دخل الجنّة من هو أشرُّ منّي، ولكنّ المغفرة أرزاق، كأنّها النشب (المال) في الدار العاجلة...».

يواصل ابن القارح حوارهُ مع هذه الكوكبة، لِيصلَ إلى الأخطل التغلبي، الذي يلومه ابن القارح لمعاشرتهِ يزيد بن معاوية!...

يتذكّرُ الأخطلُ بِشوقٍ ووفاء أيّامه مع يزيد، يدافع عنه: «آهٍ على أيّام يزيد!»... يشتمهُ ابن القارح إثر ذلك! يثير بذلك غضبَ أبي مرّة

Twitter: @ketab_n

(إبليس) الذي يتدخّل ويقول للزبانية: «ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك! لو أنّ فيكم صاحب نحيزة قويّة لوثبَ وثبةً حتى يلحق به (بابن القارح) فيجذبه إلى سقر!»... يردّون: «ليس لنا على أهل الجنّة سبيل!»...

اسألْ نفسَكَ هنا، حبيبي: لمن يميلُ قلبُ أبي العلاء في هذه الفقرة: للأخطل في وفائه السرمديّ لحبيبه يزيد، أم لابن القارح في شتمه السوقيّ للأخطل؟...

يواصل ابنُ القارح زيارةَ كوكبةِ شعراء جهنّم: المهلهل (الذي كانت عينا أبي العلاء تغرورقان من الحزن عند قراءة إحدى قصائده عن أخته)، المرقش الأكبر، المرقّش الأصغر، الشنفرى (الذي قال بيت شعرٍ في الأرض يتأذّبُ بسببهِ في النار مدّة الدهر!)، أو نظيره «المصطبحِ بصحن الغانية»، عمرو بن كلثوم، الذي قال:

ألا هبّي بصحنكِ فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

حول كلّ لقاءٍ وَحدَث كتبتْ نور قراءتها النقديّة العميقة. شرَحتْ، هي التي عاصرتْ تأليف أبي العلاء لرواية الغفران في مجلسه، كيف كانت قسماتُ وجههِ أثناء إملاء روايتهِ لكاتبه في هذه اللحظة أو تلك... كتبَتْ أيضًا هوامش تعليقاتها الخاصّة حول ما رأتْهُ وسمعتْه من أبيها الذي لم تكن تعرفُ أنّه أبوها!...

تنتظركَ تلك المخطوطة منذ ٣٦ سنة!...)).

صمتٌ طويل... بدّدتْهُ أمّي وهي تقول:

ـ ألا تعتقدُ أنّ موقع أبي العلاء الطبيعي، كما اختارتْهُ نور، في قائمة هذه الكوكبة من الشعراء؟...

Twitter: @ketab_n

أتعتقد أنّه سيقبل أن يسكن الجنّةَ مع ابن القارحِ والرعاعِ الذين أسماهم طرفةُ بن العبد «الهمجَ والطغام»، أم جهنّمَ مع امرئ القيس وعنترة وصفوة الأحرار والمبدعين؟...

ذلك ما تقصد نور التي كتبَتْ في إحدى تعليقاتها هذه الجملة المفاجئة والأنيقة جدًّا: «رحم الله أبا العلاء وأسكنه فسيح جهنّماته»!...

لم أدر كيف أردّ!...

الدكتورة نوال التنّوخي تكتسحني!...

نور أبي العلاء المعرّي تكتسحني!...

نور أبي العلاء المعرّي يكتسحني!...

تمتمتُ بِصوتٍ هادئٍ مبهوت، التقطتْهُ أمّي:

ـ أصابت نور تمامًا!...

ثم أضفتُ:

ـ لكن لماذا هذا العنف وتلك الساديّة؟ كيف لها أن تضع في أناملِ أبويها قِطَعًا من جمر؟...

ـ لا ساديّة ثمّة، حبيبي، ولا يحزنون!... مجرّدُ صورةٍ بلاغيّةٍ رفيعةٍ جدًّا، لا غير، محضُ استعارة!... ناهيك أنّ نور نفسها كانت ملِكَةَ ملِكات الشطرنج بامتياز!...

لعلّك تجهلُ أنّ كثيرًا من كبار الفقهاء حرّموا الشطرنج واعتبروه لعبةً وثنيّة، من الكبائر. بعضهم كان ناعمًا ليِّنًا، كما يبدو، فاعتبرَهُ مكروهًا، من الموبقات فقط!...

دخلوا غالبًا في جدَلٍ فكريٍّ فقهيٍّ شرعيّ، مثيرٍ في سَماجته، حول

Twitter: @ketab_n

من هو أسوأ: الشطرنج أم النرد (كان الشاعر الضرير ماهرًا متميّزًا فيهما معًا!)...

قالوا في شتم الشطرنج عباراتٍ بذيئة تُثير التقزّز، لا تستحقّ التذكير هنا، لكنّ «أجملها» بلاغيًّا، إذا جاز القول: «من لعبَ الشطرنجَ في الدنيا بِقِطعٍ من أزلام، لعبه في الآخرة بِقِطَعٍ من جمر!»...

صورةٌ مريعةٌ وبديعةٌ في الآن نفسه!...

أرادتْ نور استلهامَها البلاغي بعد أن فتحَتْ لوالِديها أبواب جهنّمِ الأحرار والمبدِعين: إعجابٌ مضاعفٌ بهما وسخريةٌ مركّبةٌ من جهنّم الظلاميّين!... إعجابٌ مماثلٌ بِلعبةِ الشطرنج، يصلُ حدَّ التقديس أيضًا، لا سيّما أنّ من سبَّ أبا العلاء من كبار الفقهاء حرَّمَ الشطرنجَ أيضًا، والعكس صحيح!...

منطقيٌّ ذلك جدًّا، أليس كذلك؟...

الأدهى: جعلت نورُ ابنَ القارح، في هوامشِها النورانيّة، يقابل هؤلاءِ الفقهاء في الجنّة! مدحَهُم، على سبيل المثال، على ما كتبوه حول فضائل السواك، ودخلوا بفضله جنّات الفردوس!... (ورثتْ نورُ سخريةَ أبيها بامتياز!)... ثمّة نصوصٌ طويلةٌ مثيرةٌ بهذا الخصوص...

لا يستحقُّ هؤلاء الظلاميّون إضاعةَ الوقت في الحديث عنهم في هذا الاتّصال الهاتفي الذي يبدو أنّه سيكلّفك، حبيبي، مبلغًا كبيرًا!...

لعلّ من الأفضَل بكثير أن أعود الآن، بدل الحديثِ عمّن لا يستحقّونه، لِسؤالكَ الأخير حول يوميّات نور في ملكوتِ مجلسِ أبي العلاء!...

Twitter: @ketab_n

٣٠

حلمٌ لا يمكن الخروج منه!

لو سُئلتُ في ليلةِ رأسِ السنة، عقب دردشتي مع لمياء التي انتهت بمقترحها الغريب: كتابة رواية، وقبل اتّصالي الهاتفي الطويل بأمّي في سوريا، عمّا سيحدثُ لي في الغد لَقُلتُ:

«سأصحو قبل لمياء، سأتوجّهُ لِشراءِ فطورٍ ساخن (كرواسان، خبز القرية، فطائر رأس السنة: «اجِيْنْبِيت»...)، سأتمنّى عامًا سعيدًا لِكلٍّ من أقابلُ على طريقي (الجيران، الجدران، الخبّاز، أعمدة النور، ثلج باريس...)، سأُعِدُّ قهوةَ لمياء كما تهواها، سنتناولُ الفطورَ معًا نصفَ نائمَين...

سنغفو قليْلاً بعد ذلك في أغلب الظنّ. سأصحو، سأبدأ يومًا جديدًا هادئًا هدوءَ بدءِ عطلةِ رأس السنة...

ثم سأشرعُ بالتفكير بمشروعِ الرواية التي فجّرتْ لمياءُ شرارتَها وأطلقتْ عفاريتها من معاقلِهم، حالما قالت هذه العبارة التي فتحتْ بابًا يؤدّي إلى هاوية:

Twitter: @ketab_n

ـ لماذا لا تكتبُ روايةً تعيدُ فيها أبا العلاء إلى الحياة، تجعلهُ يعيشُ هذا العصر؟... اجعلْهُ يحيا حياةً ثانيةً خياليّة على الأقلّ!...

(عبارةٌ سقطتْ عليّ مثل إعصارٍ هدّمَ جدران سجن!)...

آخرُ المستحيلاتِ التي كان لها أن تخطر ببالي:

١) أن تسقط قنبلةٌ ذرّيّةٌ على باريس قبيل الفجر،

٢) أن يسقطَ نيزكٌ هائلٌ على الأرض ترتفعُ معه درجةُ حرارتِها إلى حدٍّ يطيحُ بِجنسِ البشر. ينجو من وبائهِ ويتكيّفُ، أفضل من غيره، مع نتائجِهِ البيئيّةِ، نوعٌ بيولوجيٌّ يعيشُ في أعالي الغابات أو في كهوف أعماق البحار، أو في الأجواء البعيدة، يتطوّرُ ليصيرَ بعد عشرات ملايين السنين نوعًا بيولوجيًّا جبّارًا له مائةُ حجمِ ومقدراتِ الدماغِ البشري، له أقدامٌ وأجنحةٌ وزعانف... تبدأُ في عصرِهِ حضارةٌ عملاقةٌ خارِقةٌ جديدةٌ لا علاقة لها بحضارتنا القزمةِ المعاصرة،

٣) أن يُدمِّرَ زلزالٌ النصفَ الجنوبيَّ من أوروبا،

٤) أن أصحوَ بلا لمياء، «متشعبطًا» بفراغ، أسندُ رأسي على كتف العدَم!...

ـ أين لمياء؟ أين لمياء؟...

أين لمياء؟ أين ولّت؟...

أفتّشُ مفجوعًا: أين لمياء؟ أين لمياء؟... أتلفِنُ لِهاتفها الجوّال، أتّصِلُ يسارًا ويمينًا... لا أثر، لا أحد... لا أفهمُ شيئًا!...

فجرٌ خائن!...

لعلّ بعض مناطق دماغي اشتبَكتْ أو فقدَتْ تواصلَها؟ أأُصِبْتُ بالصرع؟ أأعيشُ هذيانَ صدمةٍ أو اضطرابٍ حادّ؟ أم لعلّي دخلتُ حلمًا

Twitter: @ketab_n

يرفض أن يتوقّف؟ . . .

أمُّ الجنّ! لا أدري إن دخلتهُ فعلاً أم لا، متى وكيف دخلتُهُ إن كان كذلك، ولماذا لا أستطيع الخروجَ منه! . . .

أحاولُ اختراقَ جدارِ الحلم بطريقةٍ أو بأخرى! أتململ، أعضُّ أظافري. . . لا يحدثُ شيء! أفقدُ صبري. . . أعبثُ بالهاتِفِ من جديد. أنادي للمرّة الألف: «لمياء! لمياء! . . .» بكلِّ طاقاتِ حبالي الصوتيّة. . .

أصرخُ مسعورًا: «أريد أن أغادر الحلم! أريد أن أغادر الحلم!» . . .

أجأرُ، أبكي، أكسّرُ زجاج النافذة، أرمي بالكؤوس على الأرض، أبعثرُ الكتب المرصوصة على الرفوف لِأحفرَ ثقبًا في جدارِ الحلم! . . . لا فائدة! . . .

أحاولُ بصعوبة تهدئةَ نفسي، وفهمَ وتحليلَ أعراضِ حالتي بعد أن أدركتُ أنّي لن أستطيعَ الخروجَ من هذا الكابوس اللعين (إذا كان حلمًا بالفعل) بهذه الطريقةِ الرعناء! . . .

أتّصلُ، بكلِّ هدوء، بهاتف لمياء الجوّال للمرّةِ العاشرة بعد المائة! . . .

للمرّةِ العاشرة بعد المائة أيضًا: لا تلفونٌ يرنّ، ولا إنسانٌ في نهاية الخطّ! . . .

أتساءلُ (وقد تذكّرتُ الحديثَ الشريفَ المثيرَ جدًّا: «الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا!!»):

«ربّما كنتُ نائمًا قبل هذه الليلة، وانتبهتُ الآن! أي أنّي متُّ! . . .

Twitter: @ketab_n

اللعنة، هل متُّ إذن؟ أهذا هو الموتُ الذي طالما أراد البشرُ معرفةَ كُنْهِهِ؟»...

أصرخُ فاقدًا أعصابي من جديد: «أريدُ أن أغادر الحلم!»... لكنّي أصرخُ في خواء!...

يعصرني الخوف هذه المرّة. لعلّي صرتُ مجنونًا منذ فجر هذا العام الجديد!...

أفتحُ النافذة، أصرخُ: «لمياء! لمياء!...» لا يردُّ أحد، لا تنفتحُ نافذةٌ أو بابٌ لإسعافي أو مواساتي! أين الجيران؟ أين العالَم؟...

ثم أفتحُ البابَ بِرعونة، أغلقُهُ بِعصبيّة، أغادرُ الشقّةَ نحو الشارع وإن كنت لا أدري أين أتَّجِهُ، ألهثُ فيه بِمحاجر مذعورة تنضحُ أنينًا داكنًا، حادَّ الرنين، يكادُ يدمِّرُ جمجمتي، لكن لا يسمعهُ أحدا!...

باريسُ فارغةٌ تمامًا من البشر. لا سيّارة تعبر الطريق، لا ابن آدم!... أضواءُ أعمدةِ المواصلات تنتقلُ من الأخضر، إلى الأصفر، ثم الأحمر، في مونولوجٍ عبثيٍّ صامت!...

على طاولات المقاهي كؤوسٌ نصفُ مشروبة. روائحُ عطورٍ جميلة في أرصفة الشوارع، لكن لا شبحَ إنسان!... مكاتبُ المؤسّسات ومرافقِ العمَل والشركاتِ مفتوحةٌ هنا وهناك، مدجَّجةٌ كالعادة بالكمبيوترات اللامعةِ الشاشات. لكن لا نفر على مقعدِ مكتبٍ أو مطعمٍ أو مقهى!...

أتّصلُ بلمياء من جديد من الشارع، مرّة وراء الأخرى!... لا ردّا!...

أهرعُ بحثًا عنها في الأماكن التي يمكننا أن نتواجد بها كعادتنا:

Twitter: @ketab_n

مطاعمنا المفضّلة، مقاهينا الأثيرة... (لماذا أتوقّعُ أنّي سأراها هناك؟ لا أعرف! أين سأجدُها ما لم؟... يكفيني أن أقابلَ نادل مقهًى أو مطعمٍ يقول إنّه رآها)!...

أتّجهُ أوّلاً لِمطعمِ لوسيليكت، في بولڤار مونبارناس، الذي اعتدنا ارتيادَهُ كثيرًا في الظهيرة: مطعمٌ ومقهى له تاريخهُ الفنّيّ والثقافي منذ ١٩٢٣، كان يرتاده بيكاسو، هيمنجواي، كوكتو، ماكس جاكوب... لا يبعدُ في كلِّ الأحوال أكثر من خمس دقائق عن شقّتِنا!...

أرقامُ مباني بولڤار مونبارناس تتقدّمُ كما ينبغي: ٩٣، ثم مقهى آتوليه في محلّه، ثم باب عمارة ٩٧، لكنّ الباب الذي يليه، ٩٩، باب المطعم غير موجود!...

مستحيلٌ ما يحدث!... مقهى الكوبول الشهير، المواجهُ تمامًا لِمطعم لوسيليكت، في موقعِهِ تمامًا!... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! ماذا وقع؟... لم يَعُدْ مطعم لُوسيليكت في محلِّه إذن؟ اختفى بكلّ صالاته وأرائكه الجذّابة، بطاولاته الخشبيّة العتيقة الداكنة، بكلّ تزيينات نواتئ سقوفه ومراياه ولوحاته الجذّابة؟ ابتلعَهُ العدَمُ؟... لا إنسان قُربي يمكنني أن أسأله تفسيرَ ذلك الحدثِ المستحيل!...

أدورُ للخلف باتّجاه شارع مونبارناس المتفرّع من البولڤار نفسه. ينبثقُ من ذلك الشارع رو دو جيتيه (شارع البهجة)، حيث يوجد مطعمان صغيران نرتادهما في الظهيرة أيضًا، بين الحين والحين...

شارع البهجة اختفى تمامًا من الوجود هو الآخر، في حين ما زالت الشوارعُ المتاخمةُ له كما كانت عندما عبرتُها البارحة لشراءِ بعضِ فواكهِ البحر لحفلةِ رأسِ السنة!...

Twitter: @ketab_n

محالٌ ما يحصل! جنون!...

ظاهرةٌ تُشبِهُ السحر: تبدو الشوارع المحيطة بشارع البهجة كما لو توسَّعتْ قليلاً لتبتلعَ مساحتَه، كما لو التهمَتْهُ بِصمتٍ أو شيءٍ من هذا القبيل. لا أفهم شيئًا! أشعرُ بِقلقٍ مخيف لأنّي لا أؤمن بالسحرِ والخرافات!...

أعودُ للخلف. أهرعُ نحو البولڤار من جديد، أعبرُهُ يسارًا باتّجاه برج مونبارناس، لا أرى باصًا أو سائحًا أو أيَّ عابرِ طريق! لم يصحُ من النومِ إنسانٌ منذ بدء العام الجديد؟ جفّتْ عيناي؟ أصابهما خللٌ غريب؟...

كلُّ المطاعم والسينمات والمقاهي العديدة التي تحاذي طريقي في هذه البؤرة المشتعلةِ عادةً بشرًا وحياة، الغارقةِ بالسيّاح والعابرين في أيّ وقتٍ من العام، فارغةٌ تمامًا...

أتقدّمُ، صمتٌ مخيف في كلِّ خطوة... لا عصافير على الأشجار ولا فراشة، لا درّاجة أو سيّارة أو عربَة حصان!...

إلٰهي!... ماذا ارتكبتُ من جريمةٍ لأحيا في الواقعِ هذه اللحظةَ الكافكاويّة الخانقة؟...

أواصل السير في البولڤار. أدور إلى اليسار لآخذ شارع سِيْڤْر!

أبكي بحرارة: إذا كان ما أحياهُ هذيانَ الصدمةِ فلماذا تأبّدَ هكذا؟ إذا كان حلمًا فلماذا طال خارج مدى الحلم؟... أحاولُ تهدئةَ نرفزتي واضطرامِ جمجمتي. لا أستطيع!...

يلتهمني يأسُ إنسانٍ بدائيٍّ عاش قبل مئات القرون، التَفّتْ عليه أشداق قطيعٍ من الذئاب تحاصره من كلّ جهة، عندما كان يتجوّلُ وحيدًا

Twitter: @ketab_n

خلف الأكمة، بِدون جِراب، لا قريب يمكن أن يغيثهُ إذا صرخ...

أصرخُ مثلهُ في فراغ، مثلما صرختُ في شقّتنا هذا الصباح... أجأرُ ملء الشارع: «أريد أن أغادر الحلم!»... أنادي: «لمياء!...» بكلّ ما تستطيع حويصلاتي الهوائيّة وحبالي الصوتيّة إفراغَهُ من صراخ!...

لا نافذة تنفتح ولا باب!... أجأرُ من جديد... عبثًا!...

أتقدّم في شارع سيفر، نصف مجنون... على يميني من بعيد برج إيفل، ثم بونتيون الأنفاليد، أمامي في نهاية الشارعِ جسرُ الميترو الهوائي...

أقتربُ من الجسر. ألهثُ صوبَ محطّة كامبرون التي يواجِهها مقهى لابلاس الذي نرتادهُ كلَّ يومٍ تقريبًا، لمياء وأنا، لِشُربِ قهوةٍ سريعة: لا يبتعد المقهى عن مختبر عملِ لمياء كثيرًا. منه أنطلق أيضًا عندما أذهب بالمترو باتّجاه «لا ديفانس» حيث تقعُ مختبرات فرعِ شركة الكمبيوتر التي أعمل بها!...

صدمةٌ جديدة: مقهى لابلاس (الذي صارَ مع مرِّ الزمن جزءًا من عالَمي الخاصّ، جزءًا منّي، والذي يتوسّط مقهى كامبرون ومقهى رويال كامبرون) اختفى من الوجودِ، هو الآخر! المقهيان الآخران في محلّهما، مفتوحان كالعادة، لكن لا نادل فيهما ولا زبون!...

أضطربُ يأسًا هذه المرّة. نفقٌ مظلمٌ بلا نهاية. انفرطَ كلُّ أمل. لم يَعُدْ هنالك بصيصُ رجاءٍ «أتشعبطُ» به!...

أشعرُ أنّي بِحالةٍ يلزمُها الإسعاف السريع: مجنونٌ؟ ميّتٌ؟ غارقٌ في حلم لا يعرف كيف يخرج منه (وإن لم يعد يعتقدُ أنّه يحلم)؟... يتهيّأ لي أنّ ثمّة مؤامرةً كونيّةً تحاصرني، تخنُقُني فعلاً، لا حلّ لها إلّا إذا

Twitter: @ketab_n

انتهى هذا الحلمُ الغامضُ الذي لن أخرج منهُ إلّا بِعمليّةٍ قيصريّةٍ عنيفة. هذا إذا لم تكن حياتي التي سبقت هذا الصباحَ الفاجرَ مجرّدَ حلم استفقتُ منه الآن، وانتبهتُ أخيرًا، كما يقول الحديثُ الشريفُ السرياليُّ الرائع!...

ثم خطر ببالي، كمَن يلهثُ وراء الأملِ الأخير، أن أتوجّهَ لِشارعٍ بعيد في الحيّ الثالث عشر، يقعُ فيه مقهًى صغيرٌ، حميميٌّ جدًّا، في شارعٍ متفرِّعٍ من «ساحة إيطاليا»، غير بعيدٍ عن أوّل شقّةٍ سكنّاها معًا، لمياء وأنا، في باريس، قبل عشرين عامًا!...

نُسمِّيهِ: «مقهى البيج بونج» لأن حبَّنَا انطلقَ منه!... لنا مع هذا المقهى ذكرياتٌ لا تُنسى!... نذهبُ إليه مرّتين أو ثلاثًا كلّ عام، بعد أن غادرنا الحيّ. نقعدُ دومًا في مقعدَين في الركن، في عتمةٍ حميميّة ألفناها كثيرًا!... نجدُ فيهِ نفس، السعادة الميتافيزيقيّة التي لا نجِدُها إلّا في مقاهي الجُزرِ النائيةِ الساحرة!...

نذهبُ إليه في لحظاتِ إرهاقِنا الكبرى، أو عندما نكون غارقَين في همومٍ حياتيّة نبحثُ لها عن حلّ، أو عند الرغبةِ بالتفكير الهادئ ببعض مشاريعنا الكبيرة!... تستفيقُ فيه كلُّ ذكرياتنا الصغيرة، تتراكضُ فيه التفاصيلُ التي يسهلُ نسيانها، نرى فيه الأشياءَ بصفاءٍ وهدوء، نثقُ فيه أنّ بطنَ لمياء لن يتأخّر عن التكوّرِ والتلويحِ الفخورِ بِطفلٍ (أو بطفلين في الوقت نفسه: بنتٍ وَولد!)، نعودُ فيه مراهقَينِ حالِمَين، كما كنّا كثيرًا في سنوات تعارفنا الأولى!...

نستعيدُ أحيانًا فيه بِقُدسيّة لحظةَ انفجارِنا الكونيّ الكبير: أوّل قبلةٍ طويلة لنا، في المقعد نفسه، عندما اندمجنا بِحُبٍّ عنيفٍ لم يتوقّف منذ عقدَين!...

Twitter: @ketab_n

نعشقُ هذا المقهى كثيرًا! كلُّ شيءٍ مُعقّدٍ يصبحُ فيه بالغَ السهولة. لا نغادرهُ عادةً إلّا سعيدَين جدًّا: لم نقرِّر بدءَ حياتنا المشتركة، قبولَ تعاقدات أعمالنا، شراءَ شقّتِنا في الحيّ الخامس عشر... إلّا فيه!... لم نخطّط لِبرامج كبيرةٍ إلّا بعد لقاءٍ ثُنائي هادئٍ فيه!... لا نذهبُ إليه إلّا معًا، لا نخرجُ منه إلّا معًا، لم يَخُنّا يومًا!...

قرّرتُ أن أتوجّهَ إليه، أن أقعدَ فيه بهدوء، في مقعدَينا التقليديّين كليهما، أن لا أغادرَهُ قبل رؤيةِ لمياء!...

أيقنتُ بِثقةٍ مطلقة أنّي إذا لم أرَها هناك، فلن أجدَها بعد اليوم في مكانٍ آخر!...

* * *

لم أتساءل، وأنا أهرعُ نحو مقهى البيج بونج، إن لم يختفِ هو الآخرُ من خارطةِ باريس التي شفطَتْ أهلَها وبعضَ شوارِعِها (من يدري؟) مجالاتٌ مغناطيسيّة تُصدِرُها كواكبُ معادية...

أو ربّما امتصّهم خرطوم فيلٍ ماردٍ عملاق يجثم بِكلكلِهِ، منذ فجر أوّلِ يومٍ في هذا العام الجديد، على الكرة الأرضيّة...

أو ربّما شفطَهم عفريتٌ من الجنّ، وحملَهُم لِنبيٍّ جديدٍ على بُعدِ آلاف الكيلومترات، يُشبِهُ النبيَّ سليمان الذي حملَ له عفريتٌ من الجنّ قصرَ ملكةِ سبأ، من اليمن إلى فلسطين في لمحةِ بصر، قبل «أن يرتدَّ للملِك طرفُه»:

«قَالَ عِفرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قالَ ٱلَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ؟»...

كلُّ ذلك بعد أن عاد هُدهدُ الملك سليمان من أرضِ صاحبةِ

Twitter: @ketab_n

«العرشِ العظيم» وسردَ للملكِ تقريرًا عن أهلِ تلك الديار وملِكتِهم الخالدة: «تقريرَ الهدهد»!...

«وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ. فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ؟»

لم أفكّر بأخذ المترو الهوائي من محطّةِ كامبرون للذهاب إلى مقهى البيج بونج، لأنّ أبوابَ المحطّات، مثل طرقِ المواصلات، مفتوحةٌ على العدَم! (باريسُ صحراءُ بيضاء، في كوكبٍ خالٍ من البشرِ تمامًا، اختفى كلُّ ناسِه منذ هذا الصباحِ المجنون)!...

ساعتان من اللهث في أرصفةٍ مُغطّاةٍ بالثلج، قبل أوّلِ المفاجآت:

المقهى موجودٌ فعلاً، لم يختفِ ككُلِّ أماكننا الأثيرة التي خرجتُ أفتّشُ عنها!...

تنفّستُ الصعداء!... دخلتُهُ مهرولاً وكأنّي لا أصدّقُ ذلك!...

المفاجآة الثانية: ثمّة بشرٌ فيه!...

داهمتني السعادة، كما لو وصَلني مدَدٌ من كوكبِ البشر، فيما كنتُ أحيا وحيدًا في كوكبٍ بعيد. سقطتِ الفرحةُ فوقي كبَرق، لِمُجرّدِ رؤيةِ أوّل إنسان!...

(الإنسانُ حيوانٌ اجتماعيٌّ حتى النخاع)، كما أدركتُ أخيرًا وأنا أتنفّسُ الصعداء! لا يُمكِنهُ أن يحيا كجزيرةٍ في أرخبيل!... ما إن يرى إنسانًا آخر، أو يسمعه فقط، إلّا وتتّصلُ بينهما جسورٌ ما، أقواسُ قزَح!...

Twitter: @ketab_n

«كي تحيا وحيدًا يلزم أن تكون إلٰهًا أو حيوانًا، أو الاثنين معًا»، كما قال أرسطو...

لستُ إلٰهًا أو حيوانًا بالتأكيد. ربّما لذلك كنتُ أبتسمُ بِعنف لكلّ من رأيتهُ في المقهى، وكأنّي أشكرهُ لمجرّدِ أنّه يحيا معي في الكوكب نفسه!)...

هدأتْ أعصابي بِشكلٍ مفاجئ وأنا أجدُني في المناخِ التقليديّ نفسه للمقهى الذي نعشقُهُ، لمياءُ وأنا. أمام النادلِ نفسه الذي طالما تحدَّثنا معه، الألوانِ والديكورِ والموسيقى نفسها التي ألفناها، ونحبُّها كثيرًا، حدّ اللجوءِ إليها عند الرغبةِ في التأمّلِ واستعادةِ الذكريات الصغيرة!...

المفاجأة الثالثة التي أربكتني بشكلٍ خاصّ:

يجلس على مقعدَينا في ركن المقهى امرأةٌ ورجُلٌ في اختلاءٍ جميلٍ، ودردشةٍ حميميّةٍ تُشبهُ دردشتَنا كثيرًا!...

هي أطول قليلاً من لمياء، بعُمرِها نفسه كما يبدو. أمامها كمبيوترٌ محمولٌ مغلقٌ معظمُ الوقت!...

هو بعمري نفسه كما أعتقد، له لِحْيةٌ بِلونِ الملح والفلفل، وشعرٌ سلسٌ طويلٌ فضّيٌّ رمادي. باسقُ الطول (يتجاوز طوليَ المعتدلَ، بِرأسٍ تقريبًا)، أهيَفُ حدّ النحافة، أمامه ورقٌ يكتب عليه بعض العبارات بين الحين والحين، بقلمِ حبرٍ فخمٍ ثمينٍ أزرق!...

ثنائيٌّ شديدُ التواطؤِ رُوحًا وجسدًا، شديدُ الجاذبيّةِ والسحر... يثرثران، يدخلان في جدَلٍ لذيذ، يضحكان أحيانًا من القلب (تخامرني رغبةٌ في أن أضحك معهما، رغم أوجاعي وقلقي الجاثم منذ اختفاء لمياء!)...

Twitter: @ketab_n

جلستُ على طاولةٍ مجاورة، أخذتُ كأسَ عصيرِ رمّان، ومكثتُ أراقبهما باختلاسٍ واهتمامٍ كبيرَين . . .

لا أسمعهما بوضوح. أشاهِدُ الرجلَ (ما أجَلّه!) يكتبُ عبارةً بين الحين والحين. المرأةُ (ما أعذبها!) تفتحُ شاشةَ كمبيوترِها دقائق، تطبعُ على لوحةِ المفاتيح أشياء صغيرة... ثم يواصلان الحديث...

ضحكةٌ خفيفةٌ هنا وهناك، قُبْلةٌ صغيرةٌ رقيقةٌ جدًّا!...

يضعُ الرجُلُ أوراقَه وقلمَهُ في حقيبةِ ظهرهِ السوداء، يُخرِجُ منها خارطةً لباريس، يُحملقُ فيها، قبل أن يودِّع حبيبتَهُ بِقُبلةٍ اندماجيّةٍ أنيقةٍ على الشفتين، طويلةٍ جدًّا، قائلاً: «إلى المساء»!...

ما إن رأيتُهُ يغادرُ المقهى وهو يتمعّنُ في الخارطة حتى توجّهتُ نحو المرأة أقولُ لها:

ـ المعذرة، أيّتها السيّدة، إذا تدخّلتُ في أمرِكما! اطلبي من رفيقكِ أن يعود!...

ـ عفوًا، لماذا تريد أن يعود؟...

ـ لا تنفعُ خارطةُ باريس اليوم!...

ـ لا أفهمُ شيئًا ممّا تقول أيّها السيّد!...

ـ لا أعرفُ كيف أشرحُ ذلك: بعضُ شوارع باريس المرسومة على الخرائط غيرُ موجودةٍ في محلِّها اليوم!...

ابتسمَتْ قليلاً، قبل أن تقول:

ـ حملَها عفريتٌ من الجنِّ لمدينةٍ أخرى؟

أردفَتْ بِعينين ضاحِكَتين لامعَتين:

ـ أنتَ في باريس ولستَ في مملكةِ سبأ في اليمن!...

Twitter: @ketab_n

ـ أعرفُ ذلك! لكنّ هذا ما شاهدتُهُ بأمِّ عينيّ قبل أن أصل المقهى!...

ـ لعلّك لم تنم جيّدًا بعد حفلة رأس السنة، أو كنتَ مُصدِّعًا جدًّا!...

ـ أؤكّدُ لكِ ذلك. إذا لم تصدِّقي، اذهبي وتأكّدي بنفسِك!... ابحثي مثلاً عن «شارعِ البهجة» أو مطعم لوسيليكت، ثم أخبريني!...

ابتسمَتْ باقتضاب!... حزرتني من جديد باستغرابٍ شديد! ثم ردّت على طلبي في أن يعود رفيقُها الذي غادر المقهى يحمل خارطة:

ـ لا تخَفْ عليه!... يعرفُ دائمًا كيف يصلُ لِمسعاه!...

ـ أهو مسؤولٌ في بلديّةِ باريس؟...

ابتسمَتْ!... (اكتسحني هدوءٌ مفاجئ وأنا أرى عذوبةَ ابتسامتِها التي لو تُرجِمَ مفعولُها عليَّ بِعبارةٍ لكانت: «يا نارُ كوني بردًا وسلامًا!»).

ردَّتْ:

ـ لا! هو كاتب!...

ـ ماذا يكتب؟

ـ لا أعرف!...

ثم استأنفَتْ:

ـ يقول إنّه في «مهمّة ميتافيزيقيّة»، يكتب فيها نصًّا لا يتوقّف، اسمه «تقرير الهدهد»!...

Twitter: @ketab_n

٣١

من قال إنّ «أمّ دفر» ذميمةٌ إلى هذا الحدّ؟

ثم بدأ الشاعرُ المعطَّرُ دردشتَه التقليديّة مع الطالبةِ الجديدة، بِنكْهَةٍ هَيْليّةٍ قُرنفليّة، وبصوتٍ مسموعٍ للجميع: وجّهَ لها، بِوُدِّه المعروف، أسئلتَهُ العامّة جدًّا التي تسعى لِتحديد مستوى طلبتِه، دون أدنى إحراجٍ لهم، بُغيةَ ضمِّهم لِدروس هذا المجلسِ المتخصّصِ أو ذاك، بجانب مجالسِ محاضراتِهِ العامّةِ المفتوحةِ للجميع!...

لاحظ أوّلاً أنّها تحفظُ أشعارَه أكثر منه، هو الذي يمتلكُ ذاكرةً يُضرَبُ بها المثل في كلِّ ديارِ أرض الإسلام!...

أدرك ثانيًا أنّها ناقدةٌ ذوّاقة، لها آراؤها الفنّيّة الشخصيّة حول كلِّ نصّ. لها، مثله، معاييرُ دقيقةٌ قاسيةٌ في تقييمِ الجَمال، والالتزامِ الصارمِ بما يلزم، وبما لا يلزم أحيانًا!...

كان يُصغِي بِنشوةٍ وسعادةٍ لِصوتِها وهي تردُّ عليه. يتعمَّدُ توجيهَ أسئلةٍ إضافيّةٍ مفاجئةٍ لِيَسبِرَ سريعًا أغوارَ بُنيَةِ دماغِها وأسسَ تفكيرِها...

أمّا هي فقد وجدَتْ أستاذَ أمِّها مثلما كانت تتخيّلهُ وهي تلعبُ

Twitter: @ketab_n

الشطرنجَ معه بالعمياء: لطيفًا، رقيقًا، يميلُ للإطراء عليها بِعطفٍ وحنان!...

يستمعُ الحاضرون مبهوتين من حوارِهما غير الاعتيادي. يُحدِّقون مشدوهين بِجَمالِ هذه الصغيرة، بقسماتِها الساحرة، بوجهِها القمري، بعينيها العسليّتين بأجفانهما الغدقة!... لها طول الشاعر نفسه، رشيقةٌ جدًا، ذات تناسقِ جسديٍّ يجعلُ من يراها يعضُّ أصابعهُ بلا وعي!...

المجلسُ عيدٌ شِعريٌّ، مهرجانٌ فكريٌّ، احتفالٌ بالجَمالِ والسحر، مُنادمةُ روحَين سامِيَينِ رفيعَين، حفلةُ فلاسفة!...

طالت نقاشاتهما أكثر من ساعةٍ مرّت كدقائق، تصاعدَ سريعًا خلالها إعجابُ وَولعُ الشاعرِ بهذه الشابّة الصغيرة، وذهوله من ملكاتِها الفريدة!... عاد أيضًا حماسُهُ وتوهُّجُه القديم، كما لاحظ الجميع بكلّ سعادةٍ وابتهاج!...

سبحان من تُحيي العظام وهي رميم!...

يتحدّثُ ويتحاورُ معها بعطفٍ خاصٍّ ونبراتٍ أبويّة. أهمل جميعَ أهلِ المجلس. لم يؤاخذه على ذلك أحد: يصغي كلُّ الحاضرين لهذا النقاش الرفيع بمنتهى البهجة والتركيز والشغف. بشيءٍ من الخشوعِ أيضًا!... يحدِّقون بنور بإعجابٍ مفرط، تتنقّلُ أنظارُهم بين وجهِها الساحر وجسدِها الباهر، تلتصقُ بهما بضراوةٍ تثيرُ خجلَها وارتباكَها الشديد... (اهتمامهُم العنيفُ بها يُدغدغُ في قرارتِها أيضًا، بشكلٍ أو بآخر، أغنوجَ سعادةٍ خفيّة، أنثويّةٍ جدًّا!)...

ثم مدحَها الشاعرَ سريعًا أمام الجميع بكلماتٍ احمرَّتْ لها وجنتاها وطار قلبُها من الدهشةِ والفرح:

ـ لا أدري ماذا جئتِ تتعلّمين في هذا المجلس يا اًبنتي! ربّما يلزم

Twitter: @ketab_n

أن نتبادل الأدوار: تقعدين في مكاني وأقعد في مكانك!...

(بكَتْ مثل أمّها، بكَتْ من فرط السعادة!... تمنَّتْ لو سمِعتْ هِنْدُ أستاذَها القديم وهو يقول ذلك لابنتِها الغالية!...).

ارتبكَتِ الصغيرةُ أمام الجميع. لم تعرف كيف تردُّ على مدحِ أبي العلاء لها، هو الذي لا يميل إلى المدحِ والإطراء!...

لم تُعلّق أو تقُلْ كلمةَ شُكرٍ صغيرة، رغم أنّها عاشت عِقْدَي حياتِها بانتظار هذه اللحظة!...

تمنَّتْ فقط أن ترتمي في أحضانه، وأن تبكي عدّة ساعات على صدره، تلفظُ خلالها، وهو يُمسّدُ شَعرَها بِحنان، كلَّ آلامِها وهمومِها دفعةً واحدة!...

* * *

ما إن لاحظ أبو العلاء أنّ الأرض لم تتّسِع لِبهجة نور، بعد ساعةٍ من الحوار الذي اقترح إثره أن يتركها تترأّس المجلس، حتى سألها:

ـ ماذا تُجيدين أيضًا عدا الشعرَ والبلاغةَ وتمحيصَ النصوص الأدبيّة بهذا الذوق الراقي، وهذه العينِ الماهرةِ الأريبة؟...

ـ لا أُجيد شيئًا في الحياة سيّدي!... لكنّي لا أجهلُ العزفَ بالناي والقيثارة، أميلُ للغناء، وأحبُّ الشطرنج!...

تيّارٌ كهربائيٌّ مبارَك يعبرُ جسدَ حكيم المعرّة... ماذا يريدُ في الحياة أكثر من معاشرةِ ملاكٍ صغيرٍ كهذا، والإصغاءِ له، والتفاعلِ معه؟...

ها هو يقابل أخيرًا إنسانًا كما يهوى!...

يشعرُ أنّه يولَدُ من جديد!... يلزم أن تعود غرفتُه منظّمةً بدقّة كما كانت في عصر أمّه. سيطلبُ من هذه الصغيرة أن تقعد بجانبهِ في

Twitter: @ketab_n

المجلس كلّ مرّة. سيحتاجُ لكثيرٍ من العطر. سيطلبُ أن يُحفَظ في عُلبةٍ معدنيّة صغيرة، بدلاً من قنّينة زجاج. سيحتاجُ لِكثيرٍ من الهيلِ والقرنفل!...

من قال إنّ «أمّ دفر» قبيحةٌ إلى هذا الحدّ؟...

ردّ على نور:

ـ سأتعلّمُ منكِ كلَّ ذلك في هذا المجلس... إلّا الشطرنجَ الذي يقال إنّي غير غبيٍّ فيه، والله أعلم!...

عادت طراوةُ وتألّقُ ردودِه كما كانت في ذروةِ عصرِها الذهبي، عصرِ هند!... تفجّرتْ من جديد، بتلقائيّةٍ وحماس، رغبتهُ في النقاش والابتسامة!...

هامس نور دون أن يسمعهُ أحد:

ـ تمتلكينَ يا ابنتي أيضًا أهمَّ ما أبحثُ عنه: الروحَ النقديّة الدائمة، منهجَ الشكّ، كما أهواهما!... كلُّ من حولنا من طلبة هذا المجلس عكسكِ تمامًا: آلاتُ يقينٍ وتلقين، يأتون لمجلسي لِتعلُّم الإجاباتِ النهائيّة، للإصغاء لآراءٍ قاطعةٍ ولوكِها كالبقر، فيما لا أسعى إلّا لِتعليمهم منهجَ الشكّ واكتشاف الخطأ، عقليّةَ الرفضِ والقطيعة!...

علّقتْ على حديثه:

ـ ألم تقل لهم يومًا حول ذلك:

ويعتري النفسَ إنكارٌ ومعرفةٌ وكلُّ معنًى له نفيٌ وإثباتُ

أو هذا البيت الذي يأسرني أسرًا:

إذا قلتُ المحالَ رفعتُ صوتي وإن قلتُ اليقينَ أطلتُ همسي

* * *

Twitter: @ketab_n

ـ آه، نسيتُ أن أسألكِ ما اسمكِ؟ قال لها أبو العلاء وهي تتأهّبُ لِمغادرةِ المجلس!...

ـ نور!...

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!... تساءلَ الشاعرُ الضريرُ إن لم يكن يحلم!...

بينه وبين اسم «نور» علاقةٌ ميتافيزيقيّةٌ لا تعرفها إلّا هند!... ثمّة لغزٌ كُلّيٌّ يحيط بهذه الفتاة، يزدادُ غموضًا دقيقةً بعد أخرى: نبراتُها، ثقافتُها النيّرةُ الغدِقة، طرائقُ تفكيرِها، شخصيّتُها، تربيتُها، اسمُها، علاقتُها به...

تساءل: كيف يمكنُ لها أن تمتلك، في الآن نفسه، ألمعيّة هند نفسها، حِسَّها النقديّ نفسه، قدراتِها نفسها، ونبراتِها ولمساتِها نفسها أيضًا، وأن يكون اسمها «نور» في الوقت نفسه؟...

أمّا هي فلم تتوقّف طوال ساعات أوّل يومٍ لها في المجلس عن التأمّلِ فيه!... تذكَّرتْ حوارَها ذات يوم مع أمّها:

ـ كيف كان شكلُ أبي؟...

ـ كان سامقًا، جميلاً، رشيقًا، رخيم الصوت، نيّر الجبين، له شَعْرٌ فضّيٌّ طويل!... ردّتْ حينها هند!...

هامستْ نورُ نفسَها منذ أوّل دقائق وصولِها: «إلٰهي، كم يُشبِهُ هذا الشاعرُ أبي! ألِذلكَ لي بعضُ ملامحه نفسها، هيئةُ أنفه نفسها تقريبًا؟... لكن كيف استطاعتْ أمّي أن ترى شَعرَهُ الفضّيّ الطويلَ أسفل العمامة؟»...

راودَتْها أسئلةٌ إضافيّةٌ غامضة: لماذا كانت أوّلُ أسئلتهِ لي: ما اسم

Twitter: @ketab_n

أمّك؟... لماذا طلبتْ أمّي أن أخفي عليه هويّتها؟... لماذا تبكي أمّي لِمجرّدِ ذِكرِ هذا الرجُل؟... لماذا غادر المجلسَ واختفى طويلاً بعد وصولي مباشرة؟... لماذا يجذبني بمغناطيسيّةٍ عاتيةٍ لا أستطيع وصفها؟...

ما إن شَعرَ حكيمُ المعرّة أنّ نور تنوي مغادرةَ المجلس إلّا وقال لها، لِيؤخِّر مغادرتها قليلاً:

ـ قلتِ إنّكِ تُجيدين الشطرنج! لم ألعبهُ منذ دهر! هل لي أن أمتحن مستواكِ قليلاً فيه؟...

ـ نعم، سيّدي!...

ـ اختاري أحد شطرنجات ذلك الدولاب، ولنبدأ المباراة بعد ذلك!...

لم تقل له إنّها تجيد اللعبَ بالعمياء أيضًا. ربّما لأنّها تشعرُ مسبقًا أنّها لن تستطيع مجابهته بالعمياء ذات يوم. وربّما لأنّها أرادتْ أن ترى ذلك الألبومَ المدهشَ الذي حدّثتْها أمُّها عنه!...

رأته بتأمّلٍ وإعجابٍ خالص!...

بحثَتْ فيه عن شطرنجِ الرخامِ الفلسطيني وشطرنجِ البخورِ اليمني. اختارت الأوّل، لأنّ الثاني بدأ يشيخُ وينهارُ قليلاً، إن لم يكن قد تآكلَ وتقزّم بما فيه الكفاية، وصار قابَ قوسين أو أدنى من أن يتجندل مثل سدِّ مأرب!...

نظّفتْ قِطعَ الرخام الجميلة من طبقاتِ غبارِها. تذكّرتْ أمَّها التي كانت تحبُّ لمسَ هذه القطع نفَسها والتحديقَ بها، هنا، في موقِعها نفسه، قبل ولادتِها بقليل!...

Twitter: @ketab_n

لحظاتٌ سحريّة!...

وضعَتْ نورُ قطعَ الرخام قطعةً قطعةً بِعنايةٍ ورقّةٍ على رقعة الشطرنج، وقالت للحكيم: أنا مستعدّةٌ لِبدءِ المباراة سيّدي!...

سألها:

ـ ماذا اخترتِ من شطرنج؟...

ردّتْ وهي تحملقُ في قسماتِ وجهِه بتركيزٍ خاصّ لا يخلو من بعض تلصّص:

ـ تردّدتُ بين شطرنجِ الرخام وشطرنجِ البخور، ثم اخترتُ الأوّل!...

مفاجأةٌ مباغتةٌ جديدةٌ لِحكيمِ المعرّة الذي أقصى، منذُ غيابِ هند، هذين الشطرنجين عن متناول الجميع!... نهى عن استخدامِهما لِسببٍ ظلَّ مجهولاً لمن يعرفُ طقوسَ المجلس!... ثم كفّ الجميع عن الرغبة باللعب بهما لأنّ أحدهما أمسى رثًّا هشًّا يوشك أن يتفتّت بين لحظةٍ وأخرى، والثاني مُترِبًا يُغلِّفهُ منذ عقدين غشاءٌ سيمكٌ من خيوط العنكبوت!...

لم يستوعب بعضُ روّادِ المجلس لماذا لم تختر نور إلّا هذين الشطرنجين المُهمّشين في ضواحي الألبوم، وكيف سمح لها أبو العلاء اليوم، بكلِّ بساطة، باللعبِ بأحدِهما!...

أبو العلاء، الذي يَهزِمُ عادةً خصومَه بدقائق، يحشدُ الآن كلّ طاقاتِه لهذه المباراة، يواجهُ مفاجآت لم يتوقّعها...

يبدو على سيمائه بعض الانقباض!... لا يتحدّث، هو الذي يميل للثرثرة عند لعب الشطرنج، كأنّه يريد أن يستعرض للحاضرين امتلاكَهُ عدّة أدمغةٍ بجانب أعينِهِ الأربع!...

Twitter: @ketab_n

يلجأُ أيضًا لِخصلةٍ صغيرةٍ من شَعرهِ الفضّيّ أخرجَ طرفَها بِسرّيّةٍ من تحت عمامته، يُديرُها، يُقلِّبُها بأطراف سبّابتِهِ وإبهامه، بتركيزٍ لا يخلو من نرفزةٍ ما وبعضِ قلق...

يداعبُها، يُمسِّدُها، يصغي لِفحيح احتكاكها قرب أذنه، كي تنبثقَ من أغوار جمجمتهِ ومضةُ فكرةٍ قد تُغيِّرُ موازينَ قوى هذه المباراة الغامضة...

لا فائدة!...

Twitter: @ketab_n

٣٢

في الطريق إلى «مجرّةِ القبيلة»

يسجِّلُ أبو النزول في كرّاستهِ الإلكترونيّة، وهو يرتجفُ هلَعًا في شُرفتهِ في أطراف الكون: «انفجارُ قنبلةِ هيروشيما، بالمقارنةِ بهذا الانفجار الكونيّ، لا يتجاوزُ انفجارَ فقّاعةِ ماء!»...

حساءٌ كونيٌّ هائلٌ من الشظايا اللانهائيّةِ الصغَر تتلاطم، تتعانق، تتوحّد، تنصهر بعضها ببعض...

استنتج العِلمُ الحديثُ سيرةَ تشكُّلاتِها وتطوُّراتِها ثانيةً ثانية، بُرهةً بُرهة، منذ انقضاء هُنيهةٍ طول الثانيةِ بالنسبة لها أكبر من طول عمر الكونِ بالنسبة للثانية بما لا يخطر ببال!...

هنيهةٌ مدّتها رقمٌ يكفي سماعهُ لِيخرّ المرءُ مغشيًّا عليه من الدهشة (١٠ أُس ـ ٣٤ من الثانية!) اسمه العلميّ «جدار بلانك»!...

ماذا حدث في تلك الهنيهةِ التي سبقتْ جدار بلانك؟... لغزُ الألغاز التي لا يستطيعُ العِلم الإجابة عليها!...

Twitter: @ketab_n

ألا تفتحُ إجابةُ العِلمِ أسئلةً جديدة على الدوام؟ كما قال أبو العلاء:

تسيرُ بنا هذي الليالي كأنّها سفائنُ بَحْرٍ ما لهنّ مراسي

أبو النزول لا يشاهد كلَّ ذلك في كتب الفيزياء، أو على شاشةٍ مُسطَّحة، أو بنظّارةٍ ثلاثيّةِ الأبعاد!... يراهُ بأمِّ عينيه يسيلُ نقيًّا طازجًا من رحم الأبديّة!...

ثم يتقدّمُ الشاعر الضرير بعد ذلك «بالهداوة»، باتّجاه حركة الزمن هذه المرّة! يتابعُ تَشكُّلَ المجرّاتِ خطوةً خطوة!...

يلاحظُ أنّ الكونَ يتمدَّدُ باستمرار منذ البيج بونج، يمتدّ، ينتفخُ كَبالونه، تتباعدُ مجرّاته، تتقدَّمُ باتّجاه المالانهاية، تخترقُ العدَمَ تمامًا مثل الزمن الذي يخترقُ ويُوسِّعُ التاريخ وهو يمتدُّ حتى هذه اللحظة التي أكتبُ فيها هذه الكلمة على صفحتِيَ البيضاء، قبل أن يواصلَ هرولَتَهُ المجنونة باتّجاه أبدِ الآبِدين!...

* * *

حوارٌ قديمٌ جدًّا مع لمياء ونحن مضطجعان فوق رملِ سيناء، ذات مساءٍ صيفيٍّ متلألِئِ الأنجم. تقولُ لمياء:

ـ لا شيء يُدوِّخ بي أكثر من تصوُّرِ أنّ هذه الصحراءَ الكونيّةَ اللانهائيّةَ الكِبَر انبثقتْ ذات يوم من ذرَّةٍ لا نهائيّةِ الصِغر!...

ـ أووه، اتركي هذه المواضيع الآن! مللتُ الحديثَ عن الفلكِ وتاريخِ الدنيا.

أضيفُ (كما تحبُّ لمياء، وإن تظاهرَتْ بِعدمِ اكتراثٍ ما):

ـ لا شيء يُدوِّخُ بي أكثر من رؤيةِ بريقِ عينيكِ تحت القمر!...

تُهملُ تغزُّلي... ثمّة بشرٌ يكفيهم أن يروا سماءً مترعَةً بالنجوم

Twitter: @ketab_n

ليغيبوا بعيدًا، في أسرار البدايات!. . . تقول:

ـ في رأيي، يبدأُ العصرُ الحديث يوم اكتشاف البيج بونج، أو بالأحرى يوم اكتشافِ نظريّة النسبيّة التي قادت إليه!. . .

ـ ليست هناك علاقة بين البيج بونج ونظريّة النسبيّة، حسب ما أعرف!. . .

ـ بالعكس!. . .

تشرحُ عاشقةُ النجوم، لعاشِقِ جَمالِ عينيها، كيف استنتج عالِمُ الفيزياء الراهبُ الكاثوليكي جاك لوميتر، في مقالٍ علميٍّ شهير، أنّ الكون في تمدُّدٍ دائم، بفضلِ تطبيقِ نتائجِ هذه النظريّة على البُنيةِ الهندسيّة للكون!. . .

(لا أصغي لِشيء، أهيم في عينيها المتألّقتين تحت ضياء نجوم سيناء، أعشقهما عِشقًا مرَضيًّا لا شفاء منه!. . .).

تُغَنّي حبيبتي قرب أصمّ!: تشرحُ لي كيف استنتج لوميتر من ذلك أنّ الكون انطلق ذات يوم من لحظة بداية، من كتلةٍ صغيرة!. . . ثم كيف برهنَ عالِم الفلك الفيزيائي هوبل ذلك عمليًّا بعد سنين، قبل رؤيةِ دلائلِ ذلك بجلاء في العقود الأخيرة، بفضل تلسكوب يحملُ اسم هوبل!. . .

«وأنا ما لِي؟»، أردِّدُ بيني وبيني!. . .

أردُّ عليها كمن يُغازِلُ معشوقةً صمّاء (أو تتظاهرُ بأنّها كذلك):

ـ العصرُ الحديثُ يبدأُ بعد قُبلتِنا الأولى في مقهى البيج بونج!. . .

قبل أن أدخل في نعاسٍ لذيذٍ تتخلّلهُ:

١) أصداءٌ بعيدةٌ لأوبرا روبرتو آلاجْنا، (وهو يُغنّي لويس ماريانو، كما أظنّ)، تنسابُ من مُسجِّلَةِ سائحَينِ يتوسّدان بحميميّةٍ رملَ الشاطئ!. . .

Twitter: @ketab_n

٢) كلبٌ وحيدٌ يعوي جوعَهُ في سفحِ جَبَلٍ مُقابل. آلهةٌ ساخرةٌ تُصغي لهُ بِعدَمِ اكتراث!...

٣) مجرّاتٌ تُولد، وأخرى تموت! «إشعاعٌ عجوزٌ» يصلُ إلى تلسكوبٍ من كوكبٍ بعيدٍ انقرضَ قبل ملايين السنين، يحملُ رسائلَ عن ماضي ذلك الكوكب، عن واقعِ حياته قبل مليارات السنين، نشاهدها أمامنا كما لو كنّا نحياها الآن!...

٤) أشهُبٌ مارِقة «ترجُمُ الجنَّ بكواكب محرقات!»، لأنّهم «استرقوا السمعَ للملائكة!»، كما يقول المصحف الكريم!...

لمياءُ ممتدّةٌ على الرملِ تُغنّي في دجى سيناء النوراني: «سكنَ الليل!»...

آه، ليلُ جبران خليل جبران!... «ليل الأشباحِ والأرواحِ والأخيلة. ذلك الماردُ الواقفُ بين أقزامِ غيومِ المغربِ وعرائسِ الفجر، الناظرُ بِألْفِ عينٍ وعين لأنّةِ الموتِ والعدَم»!...

آه، ليلُ لمياء!... لا تحبُّ لمياءُ ممارسةَ العشقِ مثلما تحبُّهُ فوق الرمل، في ليلِ سيناء الذي يحوِّلُ الإنسان شاعرًا أو مجنونًا أو نبيًّا، أي: عاشقًا حتى الثمالة!... كم تمنّتْ مثلي أن ينجح تلاقحنا البيولوجي هنا فوق رملِ سيناء، أجمل موقعٍ في الكون لِعناقِ حيوانٍ وبيضةٍ مَنَويّين، لِتصميمِ أنجحِ بذرةِ طفل!...

الكونُ الذي يتمدّدُ منذ ١٣,٧ مليار سنة، وهذا الرملُ الذي لا يُجيدُ غير مخاتلة الأحلام، لا يوليان لأمنياتنا، لسوءِ الحظّ، مثقالَ ذرّةٍ من الانتباه!...

* * *

فجرٌ أزرق!...

Twitter: @ketab_n

يُحلّقُ أبو النزول فوق كوكبٍ رماديٍّ ذي غلافٍ جوّيٍّ أرجوانيٍّ وأنهارٍ بنفسجيّة. تعلوه شمسان، إحداهما نقيّةُ اللازورديّة تمامًا والأخرى رقيقةُ الاخضرار!... لم يعد يثيرُهُ شيء، يشعرُ بالضياع وهو يتسكّعُ في أصقاعٍ طولُها مليارات السنين الضوئيّة!

يشعرُ بِحنينٍ ما وبكثيرٍ من الهلع!...

يتساءلُ بِسَأم: ماذا أعملُ هنا؟...

يهربُ باتّجاه «مجرّة القبيلة»: درب اللبّانة. يشاهد فيها مجموعتَنا الشمسيّة تتشكّلُ طازجةً أمام عينيه (مرّ حوالى ثلثي عمر الكون، أكثر من تسعة مليارات عامٍ، قبل أن تولَدَ أخيرًا هذه المجموعة!)...

يقتربُ من الكرة الأرضيّة، «القرية» كما تُسمّيها شلّةُ «مقهى الكوكبة»، وهي تترنّحُ على بساط الأبديّة كطفلةٍ صغيرةٍ في أشهر حياتها الأولى!...

يسقطُ أبو النزول عليها كمنفيٍّ من جنّات عدْن، جريمتُهُ المقدّسة أنّه تقاسم مع شابّةٍ جميلةٍ تفّاحَةَ المعرفةِ والعِلمِ المحرّمة التي مدحَتْها لهما حيّةٌ في فردوس!...

يكادُ أبو النزول أن يخرَّ مغشيًّا عليه من شدّةِ السعادة، دون أن يفهمَ لماذا:

يحطُّ في الحقيقة في كوكبٍ صغيرٍ أجرد قاحل، بلا حياة، بلا أوكسجين تقريبًا (خرج هذا الغازُ، مؤخّرًا جدًّا، من التمثّلات الضوئيّة للبكتيريا، ومن زفير الأشجار)...

خيبةٌ كثيفة!...

يتساءل إذا كان لا يلزمه أن يُغادرَ هذا الكوكبَ الموحشَ التافه الذي وصلهُ لِتوّه (مقبرة الكربون والجرانيت، كما يُسمّيه)، ويرحلَ نحو مجرّاتٍ متلألئةٍ سعيدةٍ ساحرة!...

Twitter: @ketab_n

٣٣

ن. س. في مهمّةٍ ميتافيزيقيّة

تتحدّثُ المرأة التي تواجهني في مقهى البيج بونج بدون حواجز، بِطلاقة، كأنّها تعرفني منذ سنين! لها وجهٌ ساحرٌ خُلِق للقُبَلِ والعبادة. رائحةٌ عطريّةٌ لم أستنشقْ رائحةً بأناقتِها وثرائها. فستانٌ حريريٌّ أحمر خالص، يسيلُ على كلّ ملّيمترٍ من جسدِها الفخورِ بمقاييسهِ الرشيقةِ، الشديدةِ العذوبة...

عرفتُ حياتَها في دقائق: فرنسيّةٌ جزائريّة (من جبال جرجرة بأرض القبائل، في الجزائر) تعملُ مصمِّمةً لِدورِ أناقة!... تَبتكرُ فساتين لفنّاناتٍ وثريّاتٍ وأميرات!... لها شقّةٌ في الحيّ اللاتيني في باريس، وطِفلةٌ من زواجٍ قديم!...

تَحيا مع كاتبِها كما يبدو. يسافرُ غالبًا، «في مهامَّ ميتافيزيقيّة»، كما قالت دون أدنى تردّد، أو دون أن تحكَّ رأسها على الأقلّ!...

تُحبُّهُ «حدَّ الموت، وهو أيضًا» كما تقول بِثِقة!...

تُحبُّ العطورَ الراقيةَ جدًّا، كثيرًا أيضًا، كما أعتقد!...

Twitter: @ketab_n

يسافران معًا أحيانًا عديدة: لها شققٌ تحجزُها عبر إنترنت (تُفضّلُ استئجارها طوال العام لأنّ ذلك أرخص وأسهل من استئجارها لفتراتٍ متقطّعة) في مونتينيجرو، جنوب البرتغال، اليونان، جنوب إيطاليا، وشقّةٌ شاسعةٌ في «ساحة البلدةِ القديمة»، في قلبِ براغ، قُربَ الساعة الفلكيّة!...

يرتادان بين الحين والحين فنادق راقية في فينيزيا، نيويورك، القاهرة، طوكيو، عمّان، لندن، بيروت، وشواطئ الجزائر لا سيّما بيجاية، حيث يأخذان الشقّة نفسها، في فندق لوتاييس، في قريةٍ صغيرةٍ على بعد ٢٥ كليومترًا من بيجاية، يُطلّان منها على البحر مباشرة، أمامهما صخورٌ بَحْريَّةٌ اختارتها الطيورُ المهاجرةُ مرفأً ومرقصًا لها في الوقت نفسه...

يغادرُ الكاتبُ لوحدِهِ كثيرًا إلى الشرق الأوسط وبلاد العرب والمسلمين، من موريتانيا إلى إيران وأفغانستان!... يتنقّلُ في كلِّ الدول العربيّة، يعودُ منها كلّ مرّة أكثر قهرًا وقلقًا ويأسًا وخيبات!...

قاطعْتُها:

ـ قلتِ إنّ كاتبكِ في «مهمّةٍ ميتافيزيقيّة»! أهو نبيٌّ؟ مهووسٌ قليلاً؟...

ابتسمَتْ، ضحكَتْ بصوتٍ مسموعٍ مفاجئ (سعدتُ به في الحقيقة، رغم أنّي أهرولُ في هاوية، منذ صباح هذا العام الجديد الذي بدأ بدونِ لمياء)...

ـ لا، هو عقلانيٌّ جدًّا، ماديٌّ حتى العظم!... أحبُّ شطحاته مع ذلك إن كانت فعلاً شطحات!...

Twitter: @ketab_n

وأنتَ، ألم تقل قبل قليل إنّ بعض شوارع باريس اختفت هذا الصباح؟ أليس في ذلك مسٌّ من «خِفّةِ العقل» (لو سمحتَ لي أن أستخدم هذا المصطلح)! أأنت متأكّدٌ أنّك صحوتَ من حفلة رأس السنة بكامل ملَكاتِك الذهنيّة؟...

ـ ليس لديّ أيّ تفسيرٍ علميٍّ لاختفاءِ بعضِ الشوارع!... لو سمعتُ قبل اليوم أحدًا يدّعي ما يُشبِهُ ذلك، لقلتُ مثلكِ إنّه لا يخلو من «هفّة» في الدماغ. لكنّ الأمر يختلفُ اليوم تمامًا! بإمكانكِ أن تتأكّدي من ذلك لوحدِكِ حالاً، إذا أردتِ، كما قلتُ سابقًا!...

اذهبي بنفسك لو سمحتِ، وابحثي عن «شارع البهجة»، مقهى لابلاس، مطعم لوسيليكت... ثم أخبريني!...

تحزُرني بِتركيزٍ بالغ، وهدوءٍ مغيظ!...

أهتزُّ، أشعرُ بالخربطةِ والضياع!... أسترسلُ:

ـ لا أدري، في الحقيقة، ما حصل لهذه الأماكن!... أو ما حصل لي شخصيًا ربّما! (لعلّي كنتُ مضطربًا تحت وطأةِ صدمة، جرّاء اختفاءِ أهمِّ إنسانٍ في حياتي)...

انقلبتْ حياتي رأسًا على عقب، تلخبطتْ تمامًا!...

أشعرُ الآن أنّي أقلُّ اضطرابًا، منذ وصولي هذا المقهى، منذ الحديث معك بالذات!... ربّما بدأتُ أستعيدُ الوعيَ الآن فقط!... لا أعرف، لا أعرف!...

أخفيتُ وجهي في راحة يديّ بحركةٍ لاواعية! رغبةٌ مفاجئةٌ بالبكاء من جديد!... ثم أضفتُ مترنِّحَ الكلمات، وإن كنتُ أقلَّ لخبطةً من قبل:

Twitter: @ketab_n

ـ لا أعرف حتى الآن في الحقيقة لِماذا وقعتُ بين ليلةٍ وضحاها في داهية، أنا الذي كانت حياتي أشبهَ بِدربٍ مفروشٍ بالورود. وأين اختفتْ، منذ هذا الصباح، تلك التي فرشَتْهُ بالورود، أهمُّ إنسانةٍ في حياتي: لمياء!...

تصغي لي بصمتٍ، دون تعليق! أتنهّدُ بعمق، أضيف:

ـ لكنّي أعرف فقط أنّ هذه «المهمّة الميتافيزيقيّة»، الموكلة لِرجُلٍ قلتِ إنّه «مادّيٌّ حتى العظم»، أمرٌ خارق يتجاوزني قليلاً، حتى لا أقول بصراحة: يسخرُ من عقلي بكلّ بساطة!...

ـ يعجبني حقًّا عندما يُلمِّحُ بذلك! صدِّقْهُ أو لا تصدِّق، أنت حرّ! أصدِّقُهُ شخصيًّا في كلّ شيء بالجملة، كما قلتُ لك. أموتُ فيه!... (ابنتي الصغيرة أيضًا تحبُّه كثيرًا)!...

ـ أهو مثلك فرنسيٌّ ـ جزائريّ من أرض القبائل؟ ما اسمه؟...

ـ لا، هو سوريٌّ ـ سوريّ، اسمه ن. س. هكذا يُفضّلُ أن يسمّيه الآخرون! وأنتَ؟...

ـ سوريٌّ ـ سوريّ أيضًا! اسمي نبيل بدر سليمان التنّوخيّ!... لا أحبُّ، أنا، اختزالَ الأسماءِ، كما تلاحظين!... وأنتِ ما اسمكِ؟...

ـ ل. هـ.، صرتُ أُفَضِّلُ أيضًا اختزالَ اسمي، مثله!...

ـ تتبعينه في كلّ شيء؟

ـ حدّ العبادة!...

ـ اعذريني لكثرة أسئلتي: ماذا يكتبُ ن. س. في «تقرير الهدهد»؟...

ـ لا أعرف!... يتقدّمُ فيه سريعًا «منذ بدء حياتنا المشتركة»، كما يقول!...

Twitter: @ketab_n

ثم أردفَتْ:

ـ لا أعرف شيئًا آخر عن حياته الخاصّة عدا ما قلتهُ لك! لا يعرف شيئًا عن حياتي الخاصّة عدا ما قلتهُ لكَ أيضًا!... ألديهِ علاقاتٌ أخرى؟ لا أعرف!... أخشى أن تكون له علاقاتٌ أنثويّةٌ أخرى (يمنعني ذلك من النوم أحيانًا)، لكنّي لا أتجرّأ أن أسألهُ ذلك، ولا أجعلهُ يشعرُ بِقَلقي من قريبٍ أو بعيد!...

يُسافرُ كثيرًا جدًّا، لا أدري كيف! يتّصل بي أحيانًا من ثلاث مدنٍ في اليوم نفسه، أرى أرقامَ مفاتيحها على تلفوني، وكأنّ له طائرةً خاصّة تسير بِسرعةٍ فوق طبيعيّة، تحطُّ به حيثما يحبّ!...

صدِّقْ ذلك أو لا تصدّقْ أيضًا، أنت حرّ: اتّصل بي قبل أسبوع صباحًا وهو برفقة نفرٍ من الأمازيغيّين في جبال الأوراس بالجزائر! اتّصل بي في الليل من جبال أربيل بِكردستان العراق، واتّصل بي بينهما عصرًا من بيروت!...

تعليقاتُهُ مهذَّبةٌ جدًّا دائمًا، لم يقل يومًا شيئًا واحدًا لم يأسرْني! يجذبُني، يُثيرُني أكثر فأكثر! علاقتُنا مترعةٌ بالحرّيّة الحقيقيّة، لذلك أتعلّق به كلّ يومٍ أكثر من قبل، بوعيٍ وبلا وعيٍ في الوقت نفسه، بإرادةٍ شخصيّة ورغمًا عنّي أيضًا! هذا الرّجلُ واحدٌ أحد، فردٌ صمد!...

ـ اتّجاهاتهُ السياحيّة غريبةٌ قليلاً! ما الذي يجمع أمازيغيّي شرق الأطلس بالجزائر، بأكرادِ جبال أربيل مثلاً؟ ولماذا بيروت بينهما؟...

ـ من منظورٍ جغرافيٍّ أو بيئيٍّ أو إثْنِيّ: لا يجمعهما شيء تقريبًا! يتحدّثُ سكّانُهما لُغتَينِ مختلفَتين تمامًا، بأصلينِ متباعدين: الأولى ساميّة، والثانية هنديّةٌ ـ أوروبيّة!...

قد يبدو لك تباعدُ أهلِ هاتين المنطقتين بِنفسِ تباعدِ فلّاحٍ من منطقةٍ

Twitter: @ketab_n

النورماندي الفرنسيّة عن ڤيتناميٍّ من مقاتلي الفيتكونج، أو بِنفس تباعدِ مقاتلٍ حوْثِيٍّ يَمَنِيٍّ عن مواطنٍ إسكندنافيّ. . .

يجمعهم مع ذلك كلُّ شيءٍ تقريبًا: المشاعر نفسها، الحلال والحرام نفسهما، الخطوط الحمراء في الدماغ نفسها، نفس استفحالِ ثقافةِ الغيبِ التي تقتلُ الثقافةَ العلميّة، القيَم والممارسات الأخلاقيّة نفسها، الخضوع والهزائم نفسها، الحاكم نفسه، ساعات ظُهرِ الجمعة التي تتطابقُ تمامًا في شوارعِ المنطقتين نفسها!. . .

يجمعهم أكثرُ ممّا تتصوّر: يركعون بالاتّجاه نفسه، يموتون بالطريقة نفسها تقريبًا، أكان ذلك في «حرب الأنفال» في كردستان العراق، أو في «السنين السوداء» التي عرفتها الجزائر!. . .

ـ ولماذا بيروت بينهما؟

ـ يحبُّ لبنانَ كثيرًا! يتساءل غالبًا: لماذا لم تعرف بقيّةُ بلدان العرب غير القمع والاستبداد والديكتاتوريّة، فيما عَرَفَ لبنانُ في فترةٍ ما على الأقلّ، شيئًا من حرّيّة التعبير والديموقراطيّة، وحدًّا ما من جودةِ التعليم أيضًا؟. . .

ـ عجيبٌ جدًّا كلُّ ذلك: ماذا يفعلُ ن. س. في كلِّ زياراته؟. . .

ـ أأنتَ ضابطُ استخبارات؟

ابتسمتُ (لأوّل مرّة منذ اندلاع آلامي إثر اختفاء لمياء، أنا الذي كنتُ أجأرُ وأبكي آلامي قبل قليل ملء الشوارع الفارغة!. . . قلَّ توتّرُ أعصابي بشكلٍ ملحوظ). . . أجبتُ:

ـ لا، طبعًا!. . .يُذهِلُني كاتبُكِ في الحقيقة بشدّة، ربّما أكثر ممّا يُذهِلُكِ بكثير!. . .

Twitter: @ketab_n

ـ زياراته دوليّةٌ وعربيّة، بِمهمامَّ ميتافيزيقيّةٍ مختلفةٍ تمامًا في الحالتين. يعيشُ في كلا العالَمين بطريقتينِ متغايرتين، بِهمومٍ لا علاقة بينها تقريبًا!...

(يبدو أنّ ل. هـ. لم تَمَلّ أسئلتي. بالعكس، تجدُ متعةً بالردِّ عليها!... لم ألاحظْ عذوبةَ صوتِها وجمالَه وانتظامَ سيولتِهِ اللذيذة إلّا مؤخّرًا جدًّا، بسببِ هوَسي في التفكير في اختفاء لمياء!...

ما أسحرَ صوتها! لعلّها من فرطِ جمالِه تهوى أن تتكلّمَ دون توقّف!...

تعبُرُني عند سماعهِ، من نخاعي الشوكي حتى أطراف أطرافي، إلكتروناتٌ وموجاتٌ لذيذة رائقة تسري على إيقاعهِ ببطء!...).

ـ آه، ما زلتِ مُصرّةً على حكاية المهامّ الميتافيزيقيّة!... أخبريني في البدءِ، لو سمحتِ: ماذا يعملُ ن. س. في زياراتهِ العربيّة؟...

ـ لا أدري ما يفعل! يثيرُ أسئلةً في كلٍّ مكان، يبحثُ عن إجابات (مثلكَ وأنتَ تمطرني بكلٍّ هذه الأسئلة)!...

طأطأتُ رأسي خجلاً!... أردفَتْ:

ـ عندما كنتُ معه في الجزائر مؤخّرًا، كان يسألُ دون توقّف بشرَ «الكتيبةِ الخرساء» (كما يسمّي معظمَ سكّان الدول العربيّة) في التاكسيّات والمقاهي والشوارع:

ـ ما سبب «السنوات السوداء»؟

ـ لُغز، لا يعلم بأسراره إلّا الله!

ـ ٢٠٠ ألف مذبوحٍ بِطريقةٍ همجيّة، الجثثُ ملأتِ الطرق، ولم يُحاكم أو يُتّهم أحدٌ بذلك؟

Twitter: @ketab_n

ـ قُلنا لك يا سِيدي، الله يرضى عليك: هذا لُغز، لُغز!...

ـ من قرّر الجريمة؟ من نفّذها؟ من المسؤول عنها؟...

ـ قلنا لك يا أخي، الله يسامح والديك: هذا لُغز، لُغز، لُغز!...

ـ كيف يمكنُ لهذه البشاعةِ أن تحدث في مجتمعٍ ما؟

ـ لُغز، لغز، لغز، لُغز، لُغز!... يبدو أنّك حمار، لا تفهم شيئًا يا عاصي والِديه!...

في البلدان العربيّة والإسلاميّة يقضي ن. س. كثيرًا من وقتهِ يحلُّ ألغازًا في المقاهي، الباصات، أركان الشوارع، المساجد، أنحاء المدارس... يقرأُ الصحف، الكتب... يحضرُ أو يتابعُ المؤتمرات الأدبيّة، السياسيّة، الاجتماعيّة...

يراقبُ حركةَ الأشياء، يشاهدُ الحدَث بمئةِ عين، بمئةِ مرآة... يُشرِّحُ كلَّ ما يراهُ، يُحلِّل كلَّ ما يسمعهُ، يفحصُ كلَّ صغيرةٍ وكبيرة بميكروسكوبٍ ذرّيٍّ يشرئبُّ في مركزِ جمجمتِه!...

يلجأُ للإنترنت كثيرًا أيضًا. يفتحُ فيهِ مواقعَ استفتاءٍ للعامّة (يهمُّهُ الإحصاءُ كثيرًا):

لِسؤال: (هل تعتقد أنّ عفريت النبيّ سليمان حملَ، فعلاً وليس مجازًا، قصرَ ملكة سبأ إلى فلسطين «قبل أن يرتدَّ طرفُ الملكِ سليمان»؟) كانت الإجابة: ٩٨,٣٧ في المائة نعم، والبقيّة تتأرجحُ بين «لا» و «الله أعلم»!...

لِسؤال: (هل تعتقد أنّه يمكن إذا أراد الله أن يوجد مثلّثًا قائمَ الزاوية، على سطحٍ أفقيٍّ، لا يساوي مربّعُ وترِهِ مجموعَ مربّعي الضلعين الآخرين، حسب نظريّة فيثاغورس؟) كانت الإجابة: ٩٩,٥٤ في المائة نعم، والبقيّة تهيمُ بين «لا» و«الله أعلم»!...

Twitter: @ketab_n

يقضي ساعات يوميًا، حيثما كان، في التفاعلِ مع إيميلات جماعيّة، أو في منتديات خاصّة في «شبكات التواصل الاجتماعي» على إنترنت يؤسِّسها ممّن يتعرَّفُ عليهم في أنحاء العالَم (يسمِّيها أصدقاؤه: «سقيفةُ ن. س.»، أو «مقهى ن. س.»...) يتحدَّثُ فيها الجميعُ بِحُرّيّة، بدون رقابة، بِلغةٍ لا علاقة لها باللغة اليوميّة الخشبيّة!...

يهمُّهُ ذلك كثيرًا! يُفجِّرُ ن. س. في سقائفهِ مواضيع وأسئلةً مفاجئة، فخاخًا... يمتِّعُ أصدقاءه بِحواراته، يجدون أنفسهم يتفاعلون معه بلا وعي، بشدّة. يَجرُّهم أيضًا بمهارة للتعليق والتعبير والحوار الذي يتحوّلُ غالبًا جدًّا، بسرعةٍ تستحقُّ الدراسة، شتمًا أو عدمَ إصغاء!...

تسترسلُ ل. هـ.:

ـ لا ينجو هو نفسه من هجاءِ بعضِهم له، لِمُجرَّدِ أن يمدحَ العَقلَ فقط! (يعرفُ الظلاميّون غريمَهمُ النورانيّ، بِفروسيّةٍ مذهلة. يعرفونه من بَسْمَلَةِ خطابِه، من أوّلِ حرفٍ يقوله!...).

يجرحهُ شتمُهم!... يقول لي حينها إنّه يحنُّ لِ «مقهى الكوكبة» لِيهربَ من هذا المستنقع!...

أسأله: «أين يوجد هذا المقهى؟»...

يردُّ بإجاباتٍ لا أفهمهما! تسيلُ أسماء عظماء: داروين، آينشتاين، كارل ماركس، فرويد، الخيّام، نيتشه، ماري كوري، أرسطو، هيجل، أنديرا غاندي، ابن سينا، دانتي، ابن المقفّع... يتحدّثُ عنهم كما لو كان يعيش معهم حاليًا في مكانٍ ما!...

ينبشُ، أثناء هذه الدردشات الجماعيّة على إنترنت، في أراضٍ ممنوعة، يُسلِّطُ أشعةَ إكس نظرهِ نحو مركزِ أدمغة أصدقائه، لرؤيةِ بنيان

Twitter: @ketab_n

تفكيرهم وشخصيّتهم... يحاول أن يكشف الأقنعةَ، العوائقَ، السرَّ، الآراء الخفيّة، المجهول!...

هوَسُهُ: رؤيةُ ما يُسمِّيهِ «ميسم الكتيبة الخرساء» المطبوعَ في عصبونات أدمغةِ جنودِها!...

يردُّ، يسألُ، يحلِّلُ، ويصغي باهتمام خاصّ للإجابات الساخنة المباشرة!... يؤرشف ردود كلِّ «أعضاءِ» سقائفه، يتابعُ تطوّراتها، يُقلِّبُها من مختلف الزوايا وبكلِّ المناهج!... يُعلِّقُ على كلِّ ذلك، يبلوره، ويرسله تقارير بالإس إم إس!...

ـ لمن يرسل إس إم إساته؟

ـ للسماء ٧٧!...

ـ آه، هذا «الماديّ حتى العظم»، علّقتُ بسخرية!... ثم أضفتُ كاتِمًا نصفَ ضحكة:

ـ ما حاجة السماء ٧٧ لذلك؟

ابتسمتْ بِعدمِ اكتراث! ردّت:

ـ لا يجدُ ن. س.، ابن بلاد العرب والمسلمين، أحيانًا منطقًا لفهمِ ما يدور في شِعاب وأوديةِ البلدان العربيّة، فكيف بمن يعيشون في أبراجِ السماء ٧٧ العاجيّة جدًّا؟...

يجوبُ مثلاً طوابير الانتخابات في العراق، المنظَّمَةِ تحتَ سلطةِ احتلالِ أجنبي! يراودُهُ استغرابٌ لا يخلو من إعجابٍ ما برؤيةِ الازدحامِ فيها تحت القذائف!...

يتجوَّلُ أيضًا في طوابير الانتخابات (الخاليةِ من القذائفِ وسلطة الاحتلالِ الأجنبي) مثل تونس ومصر وسوريا واليمن، حيث النتائجُ

Twitter: @ketab_n

معروفةٌ دومًا مسبقًا، وحيثُ «الكتيبة الخرساء» أخرس دائمًا من أيّ وقتٍ مضى، إلّا عندما تسخرُ من نفسِها وحياتِها حدّ الاحتقار، بِنُكتٍ أسفلتيّة ممتعة، قبل أن تصوّتَ لِجلّادِها بدون تردّد: العبدُ الحقيقيّ لا يُصوّتُ إلّا لِجلّادِهِ!...

يحومُ في بقيّةِ الدول الأخرى (التي لا تقلُّ ديكتاتوريّةً واستبدادًا وسياسات توريثٍ للحكم، واحتلالاً عائليًّا داخليًّا أعتى وأكثر تأبّدًا من الاحتلال الخارجي) حيث لا انتخابات بِمسارح أو بدونِ مسارِح، وحيث لا صوت يعلو فوق صوتِ الكتيبةِ الخرساء نفسها!...

يُعلِّق أبو النزول على كلِّ ذلك: «معادلةٌ باذخةٌ صمّاء، بدون حلّ!»...

ثم استأنفتْ ل. هـ.:

ـ لا يكتفي ن. س. بمحاولة استيعاب آليّة سلوكِ من يسمّيها «الكتيبة الخرساء»، أو برثاء «عقليّة العبيد»، لكنّهُ يحاول أن يتعلّمَ كيف يواجِهُها بهدوءٍ وذكاء، كيف يُفجّرُ عبوات ديناميتاتٍ أنيقةً ناسفةً في فضائها الميّت، كيف يوجّهُ أشعّةَ ليزر كلماتِه نحو هيئةِ أركانِ بؤرِها السرطانيّةِ الفاعلة، كيف يجعلُها تستيقظ، تُصارع، تتعلّم... مهمّةٌ مستحيلةٌ تقريبًا، لكنّه يحاولُ أن يتعلّم!...

يُحلِّلُ كلَّ ما يعيشه من «موادَّ خامٍ يوميّة» كما يقول، ويرسلها تقارير يوميّة بالإس إم إس!...

ـ ماذا يقول فيها؟

ـ لا أعرف التفاصيل! لا أتابعُ فقط إلّا مواضيع شغفِهِ في هذه اللحظة أو تلك، بشكلٍ هلاميٍّ عامٍّ لا أكثر، عندما يكون لديّ الوقت!...

Twitter: @ketab_n

ـ ما هي مواضيعه الأثيرة حاليًا؟

ـ قال لي قبل مغادرته المقهى إنّه بعث تعليقًا لإحدى سقائفه فحواه أنّ العربَ أضاعوا ألف سنة، حتى الآن: كان لديهم قبلها مشروعٌ حضاريٌّ طليعيٌّ جدًّا لم يُستَثْمر، لم يلتفِت إليه أحدٌ تقريبًا منذ ذلك الوقت! . . .

ـ عن أيّ مشروعٍ يَتحدّث؟

ـ مشروعُ أبي العلاء! . . .

مصادفةٌ لم أتوقّعها من قريبٍ أو بعيد أن يحطّ هذا الاسمُ (المنسيُّ عمدًا منذ قرون في بلاد العرب، المُهملُ بشكلٍ متعمّدٍ أو غير طبيعيّ في الغرب) كجلمودِ صخرٍ على مقهى البيج بونج في الحيّ الثالث عشر من باريس! . . . سألتُها:

ـ هل يقرأُ ن. س. أبا العلاء؟ . . .

ـ يقرأهُ كثيرًا، يعرفُهُ أكثر من اللازم، كما يبدو! . . .

ـ لا أفهم، ماذا تقصدين؟ . . .

ـ يقول لي إنّه كان، هو نفسه، أبا العلاء في حياةٍ سابقة! . . .

ـ لو سمعَ أبو العلاء ذلك لنهضَ من قبره!

ـ لعلّه قد خرجَ فعلاً! . . .

أربكتني مفاجأةُ دخولِ أبي العلاء على الخطّ! . . . ندمتُ أنّي لم أتجرّأ أن أخبر لمياء، حتى الآن، بأنّي حفيدُ أبي العلاء، حفاظًا على عهدي لِأمّي بأن أكتمَ السرّ! وإن كنت لا أرى حتى اليوم أدنى داعٍ لكتمان ذلك! . . .

راودتْني مع ذلك البارحة رغبةٌ آثمة في أن أبوحَهُ لها، عندما

Twitter: @ketab_n

هرْوَلتْ بي من رأس جَبلٍ إلى هاوية، وهي تقول:

ـ لماذا لا تكتب روايةً تُعيدُ فيها أبا العلاء إلى الحياة، تجعلهُ يعيش هذا العصر؟... اجعلْهُ يحيا حياةً ثانيةً خياليّةً على الأقلّ!...

سألتُ ل. هـ.:

ـ كاتبُكِ غريبٌ جدًّا، يُذهلني ما قاله بشكلٍ لا يمكن أن يخطر بِبالك!... ماذا يقصدُ بِمشروعِ أبي العلاء؟...

Twitter: @ketab_n

٣٤

منضدةٌ رخاميّةٌ تطفو في لجِّ بحر، يرقصُ فوقها أخطبوطٌ جميل!

يصلُ أبو النزول كوكبَنا الأجرد الذي لم يرهُ في دهرهِ الأوّل، لِيراهُ الآن في دهرهِ الثاني وهو يخرجُ عاريًا من بطنِ «درب اللبّانة»!... يجدُ نفسَهُ ضائعًا مبهوتًا في كوكبٍ أكمد منطفئٍ ضئيل، دون أدنى أهمّيّة، قرّر تحالفُ الضرورةِ والصدفةِ أن يَكونَ، بعد حوالى مليار عامٍ فقط من تشكُّلِهِ، مسرحًا لمعجزةِ معجزات الكونِ والأبديّة: الحياة!...

يلاحظُ الشاعرُ المبهوت أنّ كوكبَنا الوليدَ انتظر مليارَ عامٍ في الحقيقةِ قبل أن تدخلَ عناصرُه الأوّليّةُ حينذاك: هيدروجين، كربون، نيتروجين، ميثان، بخار ماء... في تفاعلاتٍ كيماويّة داخل مياهٍ كانت في أوجِ لظاها (إثر نيازك سقطَتْ عليها من الأعالي، أو جرّاء غليانها عند احتكاكها بصخور البازلت في أعماق المحيطات) لِيتمخّضَ من لهيب ذلك الحساءِ عشرون «حمضًا أمينيًّا»، هم طوباتُ بنيةِ الخلايا العضويّة لكلِّ الكائنات الحيّة، أساس الحياة!...

Twitter: @ketab_n

يغرقُ في تأمّلٍ طويل وهو يكتشفُ أنّ الحياة نشأتْ وتطوّرتْ بادئ ذي بدء في البحار والبيئات المائيّة فقط، طوال معظم عمرِها تقريبًا، قبل أن تنزاحَ باتّجاهِ اليابسةِ والفضاء في المليار الرابع لا غير!...

* * *

يكفيني أن أسمع كلمة «البحر» لأتذكّرَ جمالَ وسلاسةَ ومهنيّةَ جسدِ من أفتقدُها حدّ الموت، إلٰهةِ الماء: لمياء، وهي تنسابُ وتتلوّى بسعادةٍ مائيّةٍ شفّافةٍ رقراقة في أعماق حقول شُعَب المرجان في البحر الأحمر وخليج عدَن! ثمّةَ سِحْرٌ في عومِها الراقص، في تماوجِها الموسيقيّ، في علاقتِها العضويّة بالأمواج والأعماق والبحار!...

أتذكّرُها وهي تخرجُ ذات صباحٍ مشرقٍ قديم من عمقِ أحد شواطئِ البحرِ الأحمرِ في اليمن، قربَ خَوخَة، حاملةً شُعبَةً مرجانيّة أسْمَتْها: «حُسْن»، وسائلاً برتقاليًا لزِجًا أخذتْ عيّنةً منه من أحد الأجرافِ البحريّة الملتصقة بالشاطئ!...

قالت حال خروجِها وهي ترتجفُ من فرطِ السعادة:

ـ شُعبَةٌ مرجانيّة نادرة، من نوعٍ يوشكُ على الاختفاء من بحار الأرض!...

ـ وما هذا السائل الذي يُشبِهُ صفارَ بيضةٍ قديمة؟...

ـ لا أدري! لعلّه يُشبِهُ، شكلاً على الأقلّ، سائلَ ميلر!...

ـ ميلر! من هو هذا العصفور الجديد الذي أسمع اسمه لأوّل مرّة؟...

ـ عالِمٌ شابّ برهن في عام ١٩٥٣ إمكانيّةَ تَشكُّلِ الحياة من الموادّ الجامدة، بتجربةٍ تاريخيّةٍ هزّت علوم الكيمياء العضويّة (وكلّ العلم الحديث) مثل «بيج بونج» مفاجئ.

Twitter: @ketab_n

أجرى تفاعلات داخل حساء من الموادّ الأوليّة نفسها التي كانت على الأرض قبل أربع مليارات سنة، أجَّجهُ بِشحنات كهربائيّة تقومُ مقامَ النيازك!... بعد أسبوع من التفاعلات برز فجأة سائلٌ برتقاليٌّ لزج يحوي كلّ الأحماض الأمينيّة العشرين التي تتشكّلُ منها خلايا الكائنات الحيّة!...

ثم أردفت هذه العبارة التي ستطنُّ في جمجمتي بعد قليل:

«أعاد العلمُ تجربةَ ميلر الشهيرة مئات المرّات ليقتنعَ أنّ المادّةَ العضويّةَ الحيّة انبثقتْ فعلاً من الجماد!...».

تخرجُ لمياءُ من العوم دومًا طازجةً جدًا، في أوجِ تألُّقِها، كأنّها وُلِدتْ من جديد!... تخلعُ بذلتَها الخاصّة بالغوص، تنزعُ مختبرَها الإلكترونيَّ المتجوّلَ الصغير وكشّافتَها الضوئيّة، الملتصقَين ببذلتِها!...

تذهبُ لِسيّارتِنا قرب الشاطئ لِترتيبِ عُدَدِها، وأرشفةِ نتائجِ غوصِها. تعودُ بكأسَينِ من الماء المثلّج، وبِحُسْن التي تُقَلِّبُها بِإعجابٍ وَوَله، لا تريد فراقها...

الفضاءُ ساخنٌ كثيفُ الرطوبة!... لمياءُ في أوجِ غبطتِها بحُسْن! تضطجعُ على الرملِ قربي وهي تتأمّلها بحنان!...

أضعُ رأسي على كتفِها لأقتربَ من نهدَيها، أتأمّلهما بغرام!... أبدأُ السفرَ في عينيها...

أسترجعُ بلا وعي، وأنا أتوهُ في صفائهما، ما قالتهُ عن تجربة ميلر، وعبارتها الأخيرة: «أعاد العِلم تجربة ميلر الشهيرة مئات المرّات ليقتَنِعَ أنّ المادّة العضويّة الحيّة إنبثَقَتْ فعلاً من الجماد»... أو «استُحدِثت» من الجماد، كما قال أبو البلاغةِ والعلاء!...

Twitter: @ketab_n

تطنُّ هذه العبارة في رأسي، تحاصرني من كلِّ جهة!... أتساءل بصمت (وأنا أبحثُ عن الهروبِ منها بالغرق في عمق عينَي حبيبتي) أسئلةً عنودةً شاردةً مشاكسةً «تخرجُ عن النصّ» تمامًا، لا علاقة لها بصفاء تلكما العينين:

لماذا أراد العِلم أن يقتنع بأنّ الحياةَ استُحدِثَتْ من الجماد؟ أيّ إعجازٍ في ذلك؟ كيف يمكنُ للحياةِ أن لا تكون إلّا كذلك: ابنةَ المادّة؟ لماذا احتاج العِلمُ لأن يُكرِّرَ تجربةَ ميلر مئات المرّات كي يقتنعَ ويقهقهَ من سكرةِ الجذل وفرحةِ النصر؟...

يصلني من عمقِ أعماقِ صفاءِ عينَيْ لمياء هذا الردُّ المهذّب:

((لعلَّ وساويسَ كهنةِ أشباح الظلمات، حول «الحياة التي اندلعت من نفخةٍ ميتافيزيقيّة»، أَسَرَت العلماء أيضًا، بشكلٍ أو بآخر، كادت توقعهم في مطبّاتها تمامًا!...

ما أشقّ مسعى «الأخ الأصغر» الذي وصل متأخِّرًا جدًّا وقد اجتاح تفسيرُ أخيه الأكبر للكونِ والحياة دماغَ البشرِ جيلاً بعد جيل!...)).

أهربُ من كلِّ هذه المواضيع العويصة بهذه الحكمة البليدة الخالدة: «وأنا ما لي؟»...

أراقبُ لمياء: سعادتُها بِطفلتِها الأخيرة، حُسْن، جليَّةٌ عارِمة!...

أغرقُ في جراحاتي: إلٰهي، ماذا لو كانت لنا طفلةٌ من نوعِنا البيولوجي نفسه أيضًا، نحن اللذين يمتلئ قلْبانا بِجنّاتٍ من رياضِ الحبِّ تكفي لاحتضان كلِّ أطفال الكرة الأرضيّة؟...

يلزمني أن أبوح (وقد شجاني ما شجاني وأنا أرى تعلّقَ نظرات لمياء بِحُسن):

Twitter: @ketab_n

جُلُّ أحلامي في هذه الحياة طفلٌ على الأقلّ يخرجُ من ترائب لمياء، وحياةٌ معهما في منزلٍ على شواطئ ساحرةٍ كهذه، على رملٍ أبيض كهذا، يغتسلُ بِشمسٍ باهرةٍ كهذه، لا تحجبها إلّا أسراب نوارس!...

لا أحلم بأكثر من حياةٍ أضطجعُ خلالها كلّ يومٍ فوق رملٍ دافئ، أمام بَحرٍ مفتوحٍ على الأفق، أعومُ خلالها ساعاتٍ تحت سماءٍ مضيئة، كلّها سفَرٌ من مرفأٍ لِمرفأ، من جزيرةٍ لجزيرة، من بلكونةِ مطعمٍ يواجهُ البحر إلى نافذة مقهى في جزيرةٍ نائية!...

أشعر أحيانًا أنّي سأُصاب بالجنون من فرطِ انتظار حلمٍ كلّ ما عداه أضغاث حياة!...

يلزمني أن أعترف أيضًا: للهروبِ من مأساةِ حلم التهمَهُ الغبار ألجأ لِمشاريع مهنيّة نصف مجنونة، آخرها: «عينا أبي العلاء»!...

أعرفُ مع ذلك أنّه ليس ثمّة جهازٌ في الجسدِ والكونِ بتعقيدِ العينِ البشريّة: هذا الحاسوب البيولوجي الذي تطوّر خلال ملايين السنين، لِيرتبطَ بِخمسين منطقةً في الدماغ تشتغلُ معهُ وله، ناهيك أنّ خلايا العين نفسها جزءٌ لا يتجزّأ من عصبونات الدماغ!...

لِأقُلْ دون قناع: لا يبحثُ عن تبديدِ حياتهم في مشروعٍ انتحاريٍّ في مجالات «الأعين الاصطناعيّة» إلّا مغامرون فدائيّون مثلي يهربون بهِ (بنجاحٍ مذهل!) من فشلِهم في تحقيق أحلام حياتهم البسيطة جدًّا!...

ـ بماذا تفكّر؟... بِطفلِنا الذي لم يولد بعد؟... تسألني لمياء!

ـ لا!

ـ بماذا إذن؟...

Twitter: @ketab_n

ـ بتجربة ميلر! بالحياة التي اندلعتْ من الجماد!...

* * *

ما أبدعَ هذه الحياة التي اندلعتْ من الجماد (أو «استُحدِثتْ» كما يقول بطريرك الكلمات)!...

يهرعُ أبو النزول نحوها بكلِّ شغفٍ واندفاع!...

«إلى الحياة سِرْ، إلى الحياة سِرْ، إلى الحياة سِرْ!...»، يُردِّدُ العقيد أبو النزول!...

تبسطُ أوديسةُ الحياةِ على كوكبِنا سجّادتَها أمام عينيه: ها هو يبدأ رحلةً جديدةً، تُفجِّرُ شغَفَهُ تمامًا مثل رحلته الأولى لرؤيةِ لحظةِ البيج بونج وولادةِ الكون، يقرّرُ أن يعبرَ فيها السيرةَ الذاتيّة لِلحياةِ على الأرض من لحظةِ تشكُّلِ «الأحماضِ الأمينيّة»، إلى لحظةِ تشكُّلِ عيني لمياء العسليّتين الواسعتَين الساحرتَين!...

يتأهّبُ لخوضِ وعثاء هذه الرحلة الشاعرُ الفيلسوفُ الشجاع الذي تجرّأ في حياتِه الأولى خوضَ رحلةِ السنةِ والسبعةِ الأشهرِ بعينين مطموستين!...

يكتب أبو النزول:

((عزيزي أمينيائيل، أشعرُ الآن، وأنا أشاهدُ الحياةَ تخرجُ من صلبِ وترائب المادّة لِتنموَ وتزدهرَ في وسط البحار، بِرهبةٍ وخشوعِ رؤيةِ البيج بونج نفسها!... لعلّ تلك النيازك، التي سقطَتْ على الأرض لِـ «تطبخَ» الحياةَ داخل البحار، هي ما سمّتْها الأساطيرُ مجازًا «النفخة الربّانيّة» التي فجّرت الحياة في صلصال الأرض!...

ربّما لذلك اعتبرَتْ بعضُ الأساطيرِ أنّ هطولَ رذاذِ الثلجِ الشتائي

Twitter: @ketab_n

الأبيض على أعطافِ اليابسة، أو ما سمّتْهُ «الحيوانات المنويّة الربّانيّة»، هو سببُ نشوءِ الحياةِ في رحِمِ الأرض!...

ماذا أريد أكثر من رؤيةِ كلِّ هذا؟

الحياةُ في مخاضِها الآن أمامي!...

المحيطاتُ والبحارُ أمواجٌ منويّةٌ ربّانيّة!...

جزيءٌ عضويٌّ صغير (اسمهُ العلميّ لوكا، LUCA، جذرُ كلِّ الكائنات الحيّة في شجرة الحياة) يتطوّرُ ببطءٍ في البيئات المائيّة، ليتفرّعَ، بعد دهرٍ دام ملايين السنين، إلى إمبراطوريّاتٍ من الخلايا البكتيريّة!...

سيمفونيّةُ الحياة تنسابُ بطيئةً جدًّا على إيقاعِ رقصِ هذه البكتيريا الإلٰهيّة:

مرَّ، عزيزي أمينيائيل، نصفُ تاريخِ الحياةِ على الكوكب (مليارا سنة من تطوّرِ شجرةِ الأنواعِ الحيّة) للوصولِ إلى لحظةٍ جذريّة أعتبِرُها أمَّ المنعطفاتِ في تاريخ أحد جذوعِ تلك الشجرة الذي يضمُّ الحيوانات والنباتات:

ميلادُ خليّةٍ ذات نواة انكتبَ في طيّات صفحاتِ نواتِها كلُّ تاريخِها وبُنيتِها وشفرتِها الجينيّة!...

تمتلكُ لذلك خصوصيّةً واحدةً إحدى: تستطيعُ إعادةَ خلقِ نفسها، والتطوّرَ المتفاعل مع بيئتها!...

أحيّيك من القلب جدّتنا لوكا!...

أحيّيك من القلب.أمّنا الخليّة النوويّة التي تُعيدُ إنتاجَ نفسِها، ويَسعُ لذلك كرسيُّها السموات والأرض!...

Twitter: @ketab_n

ينفتحُ ستارُ الحياةِ على مصراعيه الآن!

موسيقى!...

أشعرُ برغبةٍ عنيفةٍ بالرقص!

أشتاقُ لِهِنْدَ بِجنون!

شطرنج!...)).

ها هو يطوفُ الآن ثلاثة مليارات سنة من الحياة التي مرّت في لجِّ المحيطات والبحار والبيئات البرمائيّة فقط، قبل تسلُّلِها نحو اليابسة في المليار الرابع لا غير!...

يُحدِّق بإمبراطوريّات الأسماك والطحالب والرخويّات والقشريّات والشُّعبِ المرجانيّة، تنمو وتتطوّر وتتنوّع...

البحار والمحيطات حوض أكواريوم يتجوّلُ فيه أبو النزول بمتعةٍ خالصة!...

أخطبوطٌ جميلٌ يرقص أمامه، كأنّهُ يُحيّيه!...

يبعث دون توقّف إس إم إساتِهِ المندهشة عن صِبا الحياةِ المائي الساحر!...

الفيلمُ يخرجُ بعد ذلك من البحار لِيغزو اليابسة. الأرضُ تتلفّعُ بالحياة. المعمورةُ مفعمةٌ بالجَمال!...

ينحني أبو النزول مجدّدًا أمام أمجاد الكربونِ والجرانيت، أمام أمجادِ البكتيريا الإلٰهيّة...

قبل أن يشرعَ السفرَ لِمحطّةٍ جديدة من رحلته الخالدة!...

مهمّتُهُ العاجلة الآن: السياحةُ ببطء على سطحِ اليابسة التي تتدثّرُ

Twitter: @ketab_n

بالغابات والمروج، بالينابيع والشلّالات، بالحركةِ والألوانِ والجَمالِ الدافق. . . والتي ستكون بعد ما يقارب مليار عام مسرحَ حياةِ كائنٍ صغيرٍ «حارتِ البريّة فيه» شرَّحَهُ أبو النزول وفحصَهُ بالميكروسكوب خلال عدّةِ عقودٍ من حياتهِ الأولى التي كان يرى خلالها في الوقت نفسه:

ناطحاتِ سحابِ الأكذوبات الكبرى،

وتلابيبَ وأخاديدَ الحقائقِ الصغيرةِ الخفيّة،

بأربع أعين،

بأربع أعين،

بأربع أعين!. . .

Twitter: @ketab_n

٣٥

الشاعرُ المتقاعدُ يولدُ من جديد

ساعةٌ كاملةٌ من حربٍ ضروس أنيقةٍ جدًّا!...

بدأت المباراةُ بافتتاحيّةٍ تقليديّةٍ حذِرةٍ شديدةِ المهنيّة، ثم عمّ الغموضُ والقلقُ في أوساطِ الجيشين!...

لاحظ حكيمُ المعرّة منذ البدءِ أنّه لا يلعبُ الشطرنج مع هاويةٍ مبتدئة!...

لم يقابل يومًا بهذه الألمعيّة، وهذا المستوى المهنيّ الرفيع، إلّا شابّةً صغيرةً، هند، تسكنُ حاليًّا كلَّ عصبونات دماغه. تحوّلَ لعبُ الشطرنجِ بعدها في نظرِهِ، لا سيّما نهاياتُه، أقدسَ سيمفونيّةٍ في الوجود!...

بل لعلّ هذه الشابّةَ الصغيرة الجديدة، التي حطَّتْ على مجلسِه من علياء عِلّيّين السابعة والسبعين، أكثر تمرّسًا من الشابّةِ الصغيرة القديمة، أكثر خطورة، أكثر تصميمًا على اكتساحِه!...

نسيَ الشاعرُ أنّه صار كهلاً بين مجيء هاتين الشابّتين!...

Twitter: @ketab_n

بعد نقلات الاستهلال التقليديّة، انفتحَ الباب لكلِّ الاستراتيجيّات والمناورات، احتدمتِ الحرب واختلط الحابل بالنابل!...

كشّرَتْ أنيابُ كلِّ القطعِ دفعةً واحدة. عنفٌ وتهديدٌ ومناورات في كلِّ مربّع!...

تراقبُ نورُ قسماتِ وجهِ خصمِها بين ثانيةٍ وأخرى، تشعرُ أنّها لن تملّ رؤيتَهُ مدى الحياة!... إلهٌ أعمى يرى أفضل من كلِّ بصير!...

هو قلقٌ يفكِّرُ ويفكِّر! يخشى أن ينهزم هو الذي لم ينهزم من أحد، منذ بضعة عقود!... سينتشرُ خبرُ هزيمته في أرجاء ديارِ العرب والمسلمين بسرعة البرق!...

يشعرُ أنّ نور تقرأ كلَّ نواياه وخططِه. دفاعُها، ضدّ كلِّ هجومٍ يشنُّه، متينٌ لا يمكنُ اختراقه. ردعُها، لأيّ حصارٍ يحاولُ أن يقومَ به، ماهرٌ صلبٌ منيع!...

لماذا لا تريد أن تهاجم؟...

لماذا تكتفي بإطفاء هجومه بهدوءٍ وثقة؟...

يفكِّرُ بمناورةٍ جديدةٍ أكثر مغامرةً وجرأة. يبحثُ عن قطعةٍ انتحاريّة، عن أضحيةٍ ماكرة، عن حصانِ طروادة... يحاول أن يرسم خطّةً عبقريّةً لم تخطر ببالِ هذه الصغيرة. يريد أن يُلقّنَها درسًا لن تنساهُ مدى العمر، أن يربِكَها، أن يجعلها تنحني أمام عبقريّته التي لا تُقاوَم!...

يتنرفزُ قليلاً، يجتاحُهُ شيءٌ ما يُشبِهُ غضبَ الآلهة!...

هي هادئةٌ تمامًا، سعيدةٌ كما لم تكن يومًا، تحملقُ بِقسماتِهِ بكلِّ حبِّ الدنيا!...

تحمدُ الله، لا أكثر أو أقلّ، على تحقيقِ هذا الحلم الذي انتظرَتْهُ كلَّ عمرِها!...

Twitter: @ketab_n

يهاجمُ، تدافعُ بهدوء... تكتشفُ خبايا خطّتِهِ الأخطبوطيّة، تلجأُ بابتسامةٍ شيطانيّة جميلة لِعرقلتِها عبر «تكسيرٍ» إجباريٍّ جريءٍ مفاجئ لم يتوقّعْهُ جلالتُه، لأنّهُ يبدو في أوّل وهلةٍ تكسيرًا ليس لِصالحِها...

أرغمتْهُ فعلاً على تكسيرٍ أنيقٍ انتهى بتكافؤٍ كاملٍ في قيمةِ القطعِ التي خسرها الطرفان!...

شعر أنّها ابتسمتْ! لم ير ابتسامةَ هذه الأيقونة، لكنّهُ تخيّلَها، رآها إذَن، وأكثر بقليل!...

تسقطُ رؤوسٌ كثيرة من كِلا الجيشين بالأهمِّيّة نفسها. يخفُّ عددُ القطعِ على رقعة الشطرنج لكنّ المعركةَ حاميةُ الوطيس، أشدُّ التهابًا وخطورةً ورهبةً وصداميّةً والتحاميّةً من أيّ وقتٍ مضى!...

دخلتْ كلُّ قطعةٍ شطرنج معمعان المعركة بفعاليّة. تعقيدٌ مركّبٌ في سيرورةِ المباراة، في آفاقِها، في كلِّ خطوطِها وأجنحتِها... مطبّاتٌ في كلِّ ركنٍ وجانب!...

لكلِّ قطعةٍ أدوارٌ ومهمّاتٌ وجبهاتٌ عديدةٌ متداخلة... أمّ الجنّ!... لم يتذكّر حكيمُ المعرّة أنّه انكشح يومًا في كومةِ عُقَدٍ كهذه، وتعثَّرَ في فخاخٍ نَوعيّةٍ من هذا الطراز...

رعبٌ في كلِّ مُربّع!...

جسدان رقيقان يلعبان الشطرنج كَمُلاكِمَين من العيار الثقيل، كجبابرة!...

الأدهى: وضعُهُما متكافئٌ تمامًا بعد ساعةٍ من صراعٍ لا رقّة أو هوادة فيه!...

تعتذرُ نور: عليها المغادرة الآن، لتعودَ للبيتِ قبيل المغرب!...

Twitter: @ketab_n

لاحظ الشاعر الضرير أنّها كانت عجولةً إلى حدٍّ ما في نقلتِها الأخيرة بسبب حاجتها للمغادرة بلا شكّ!...

تعِدُ بِمواصلة المباراة عند رجوعِها للمجلسِ في المرّة القادمة، أو «متى يريدُ سيّدي، فيلسوفُ الشعراءِ وشاعرُ الفلاسفة»، كما قالتْ هذه الشابّة الصغيرة التي اخترعتْ هذا المصطلح الشهير، وهي تغادر المجلس!...

ابتسمتْ بخفّةٍ وخجل!

لم ير الشاعرُ الضريرُ ابتسامتَها بالطبع. لكنّه أحسَّها تمامًا، سمعها، تنفَّسَها، ذاقَها، تمضمضَها، شربها...

لم ير ابتسامتَها بالطبع، لكنّ سهمًا ذهبيًا مارقًا ثخينًا اخترق ضلعَهُ في تلك اللحظة!...

* * *

ما إن غادرت نورُ المجلسَ حتى شعرَ سيّدُ المعرّة أنّه، بعد عدّة عقودٍ من ظلماتٍ بعضُها فوق بعض، كان كمن يفتحُ عينيه على قوسِ قزح!...

لم ينم تلك الليلة. هي أيضًا...

استعاد تفاصيلَ إطلالةِ هذه الصغيرة على مجلسهِ دقيقةً دقيقة... فكّر طوال الليل!... تقلّبَ على فراشِه كأنّهُ شرب عشرة فناجين قهوةٍ مركّزة قبيل النوم!...

كم كان سعيدًا عندما كان يخاطبُها: «يا ابنتي!»... تأمّلَ طويلاً في كلِّ التفاصيل والمفاجآت: أيقنَ أنّ هناك سِرًّا يربطهما معًا، سينكشفُ ذات يوم!...

Twitter: @ketab_n

هي أيضًا أيقنتْ منذ أن رأته أنّ قوّةً مغناطيسيّةً تربطها بهذا الرجل، لا تعرفُ كيف تستوعبُها. ناهيك أنّ لهما بعض الملامح نفسَها، الانقباض الجنائزي نفسه أثناء التركيز، الرقصة الولهانة أثناء الابتسامة نفسها!...

أثارتهُ ملَكاتها الذوقيّةُ والنقديّةُ في كلٍّ مجالات الشعر والكلمة، أكثر ممّا أثارهُ حفظُها لقصائدِهِ بتلك الدقّة، رغم استغرابِه، بل ذهولِهِ من ذلك...

ذوقُها راقٍ جدًّا، عميقٌ كُلّي، يجذبه بشكلٍ خاصّ، هو الذي يعتبر أنّ الإنسان يُعرَفُ بِذوقِه، وأنّ «قيمةَ الإنسان ذوقُهُ، لا غير!»...

ثمّة دماغٌ في جمجمة هذه الصغيرة يمارسُ ملَكاته بمقدراتٍ فريدة!... المجلسُ بوجودها انتصارٌ للذوق، احتفالٌ بالعقلِ والمواهب والذكاء!...

والجَمالِ أيضًا! (لا يعرفُ ذلك سيّد المعرّة: لم تعد قربهُ أمٌّ أبي العلاء لِتحدِّثهُ عن جمالِ البنات!...

يعرفُ ذلك كلُّ الحاضرين في المجلس: هو سببُ تفانيهم بالركض لِلحضور في مجالس أبي العلاء هذه الأيّام، وإن كان بِاسمِ الانكباب على الأدبِ والحكمةِ والعِلمِ والمعرفةِ!...

يكفي أن تقول نورُ كلمةً صغيرة ليستغلّ قطيعُ رجال المجلس ذلك لِلتحديق بها بأعين خاشعةٍ أحيانًا، شديدة الوَلهِ أحيانًا أخرى... تخترقها غالبًا، تربِكُها وتزعجها تمامًا!)...

أثارتْهُ ملَكاتها في لعبِ الشطرنج أيضًا. مباراتُها حدثٌ لن ينساه الحكيم أبدًا!...

حلّلَ نقلاته نقلةً نقلةً: كانت عبقريّةً مذهلة! ثمّة ألمعيّةٌ من طرازٍ لم يره يومًا بعد!...

Twitter: @ketab_n

لا يتذكَّرُ منذ عقدين أنّه شَعَر بِلذّةٍ وقلقٍ أثناء مباراة شطرنج، كما شعر بهما هذه المرّة!...

ماذا لو أدرك الشاعر الضرير أيضًا أنّ هذه الشابّةَ الصغيرةَ العبقريّةَ، الجميلةَ بشكلٍ لا يخطر ببال، الخارقةَ الجمال كما لا يتصوّر: نورُ حياتِه، فلذّةُ كبِدِه، ابنةُ عشقِه الكبيرِ الأوحد؟...

* * *

تتفجّرُ طاقاته من جديد، كأنّهُ يخرج من سباتٍ شتويٍّ دام عقدين!... ينتظر من الآن موعدَ عودتِها للمجلس!...

كان الشيخُ يعتبرُ نفسَهُ شاعرًا وحكيمًا متقاعدًا (قضى حياتَهُ ينتظر منذ أكثر من عقدين عزرائيلاً لا يحترم من ينتظرونهُ بِلوعة، من يريدونهُ بعنف). أمّا الآن فهو يفكّر بمشروعٍ جديد!...

مشروعٌ لم يخطر ببال أحدٍ ذات يوم، يختلف عن كلِّ ما أنتجتْهُ قرائحُ وعقول معاصريه ومن سبقوه!...

كأنّهُ بذلك يريد تحقيقَ ما قاله في عزِّ مراهقته:

وإنّـي وإن كـنـتُ الأخـيـر زمـانـه لآتٍ بـمـا لـم تـسـتـطِـعـهُ الأوائل!

يريد أن يبهر نورَ بمشروعِهِ الجديد، مثلما يريد أن تعيشَهُ معه، أن يتفاعلا معًا أثناءه، وأن تكون فاعلةً خلاله! يريد شيخُ الكلمات أن يقول لهذه الصغيرة: «أهلاً بكِ في النادي! نادي عشّاق الكلمة ومغامرة الفكر! نادي الخلقِ والإبداع!»...

مشروعٌ بمستواها!...

هكذا، يعود الشاعرُ المتقاعدُ مراهقًا من جديد، أي شيخًا في ذروةِ عطائه وعبقريّته!...

Twitter: @ketab_n

تذكّرَ آخرَ أعمالِه: كان قد استلمَ قبل فترةٍ طويلة رسالةً من الشيخ ابن القارح: فقيهٌ يمارس الشعرَ لِمدح الأمراء والنافذين (أي: ما يمقته أبو العلاء بامتياز!)، شكا فيها حاله، وعرض آراءه الأدبيّة لأبي العلاء!...

أكمل أبو العلاء قُبيل أيّام الردّ على هذه الرسالة، برسالةٍ أدبيّة شهيرة، طويلةٍ جدًّا. تأخّر كثيرًا في ردِّهِ بسبب غياب كاتِبِه، وعدم استطاعته العثور على كاتبٍ آخر يتناغمُ وإيقاعه... لم يكن متحمّسًا أيضًا للردّ على ابن القارح، لكنّه اعتاد التفاعل مع رسائل مُحبِّيه ومحاورِيه...

خطر بباله الآن مشروعُهُ الجديدُ الملهم:

سيرفق هذه الرسالة بنصٍّ سرديٍّ فريد، كلّه تخييلٌ في عوالم عجائبيّة مثيرة، يكونُ بطلُهُ المسكينُ ابن القارح!... نصٍّ «يكتبُهُ» أبو العلاء كلمةً كلمة في حضرة نور، أمام مسمعِها!...

سيجعلُ أبو العلاء ابنَ القارح يزور في مشروعهِ السرديّ هذا: الجنّةَ، النارَ، المحشرَ... سيقابل كثيرًا من أروع رجالات الأدب، شخصيّات ميثولوجيّة إسلاميّة شهيرة...

سيخترعُ في مشروعِهِ عوالم جديدة، أحداثًا مثيرة، محورًا سرديًّا قصصيًّا طويلَ النَفس، بدايةً مثيرة، نهايةً رهيبة...

(سيُطلِقُ بشرُ الأجيال القادمة على هذا النوع الأدبي اسمًا يسجدُ الجميع عند سماعه: رواية!... سيَطُمُّ كلَّ الأنواع الأدبيّة، بعد قرون!...).

يتجلّى مشروعُ أبي العلاء أكثر فأكثر مع تقَدُّم الليل (الذي لا يختلفُ في ناظريهِ عن النهار، إلّا بشيءٍ واحد: تلتهمهُ حاجةٌ ماسّة مع

Twitter: @ketab_n

اقترابِ المساء بإملاءِ ليلِ دماغِهِ بكلِّ نجومِ الكون التي يعرفُها عن ظهر قلب!... يضعهُا بيدهِ، كفنّانٍ تشكيليٍّ، في مواقعها الرسميّة في سماوات ليلِهِ الافتراضيّ. يعبرُها في كلِّ الاتّجاهات. يجول نظره في كلّ سُدُمِها ومجرّاتِها حالِمًا أن يتسكّع فيها ذات يوم بعينين مفتوحتين!).

يتحدَّدُ المشروعُ الأدبيّ الجديد لِلشاعرِ أكثر فأكثر:

سيرسلُ أبو العلاء، كإلٰه، إلى جنّةِ روايتِهِ من يريد من البشر، وإلى جهنّمَ من يريدُ أيضًا!... أليس للروائي سلطة الإلٰه؟ أو بالأحرى: أليس للإلٰهِ سلطةُ الروائي؟... سيسردُ أبو العلاء عبر واجهتِهِ، ابنِ القارح، آراءَه النقديّةَ حول أعمال كثيرٍ من الشعراء ورجال الأدب، سيتحاور معهم في الجنّة والجحيم...

سيؤثّثُ فردوسَ وجحيمَ ملكوتِ روايتِه كما يهوى!... سيخلقُ جنّةً للحيوانات، أخرى «لِلجنّ الذين أسلموا»، أخرى لشعراء الرجز... (أبو العلاء مهندسٌ معماريٌّ للجنّة والجحيم بامتياز! لِ «جنّةِ العبيد وجحيمِ الأحرار»، كما ستقول ابنتُهُ نور ذات يوم!)...

سيستثمر مواردَ الميثولوجيا الدينيّة الشعبيّة كما لم يستثمرها أحدٌ. سيفكِّكُ مفاهيمها الجوهريّة: الغفران، القدرة الإلٰهيّة... سينقشُ معالِمَها بِريشة فنّانٍ خلّاق، سيقدِّمها أحيانًا كثيرة بكاريكاتوريّة فنّيّةٍ مُتْرَعةٍ بالذكاءِ والمتعة...

لا تهمُّهُ كثيرًا مقاصلُ الكهنة: يكفيه، عندما يشعرُ أنّهم سيتنشّقون هرطقةً متمرّدة أو روائح غير أرثوذكسيّة في هذه اللوحة الكاريكاتوريّة أو تلك، أن لا ينسى أن يُعطّرَ تلك اللوحة بشذرات آياتٍ من المصحف الكريم، ليخرسوا بعد ذلك إلى الأبد!...

يواصلُ الشاعرُ تصميم خارطةِ مشروعِه الجديد:

Twitter: @ketab_n

سيكشفُ فيه، عبر ألسنةِ سارديه، الأشعارَ المنتحلة. سيُعرّي ويسخرُ من الأكذوبات الكبرى... سيُعيدُ صياغةَ الكون في نصّهِ هذا كإله! (صدق من قال: لكلٍّ مقامٍ مقال!)...

سيخرِجُ في مشروعِهِ الجديد كلَّ تأمّلاته الفلسفيّة، بواسطة أصابعِ التخييل الساحرة، في نصٍّ جديد لم تعرف لغة الضاد نصًّا بذكائه وأناقتِه وروعتِه وثراءِ كلماتِه!...

سعادةٌ هائلةٌ تداهمُ أبا العلاء، وهو ينسج في دماغه الخطوط العامّة لمشروعه الجديد الذي لم ير النور إلّا بفضل إطلالة نور!...

سيطلبُ منها أن تواكب هذا المشروع، لا كمتفرِّجة، لكن كفاعلة، كناقدة، ككاتبةٍ لنصٍّ موازٍ يواكبُ نصَّه، يُعلِّقُ عليه، يُحلِّلُه!...

يتفجّر الشاعر الحزين فرحًا بهذا المشروع الجديد، وهذه الحياة الجديدة التي تنفتح أمامه!...

* * *

بعد أن أكملَ الشاعرُ رسمَ خارطة مشروعهِ استعاد من جديد سيرورة مباراة العصر في الشطرنج مع نور، حلّل نقلاتها نقلةً نقلة!... كانت بلا شكّ أقوى المباريات التي لعبها في حياته. لم يرتعش قبل ذلك غير مرّتين في مباراتين بهذا المستوى، لعبهما مع معشوقتِهِ هند قبل أكثر من عقدين...

أقلقهُ شيءٌ ما: كانت نور أسرع منه في أداء النقلات بشكلٍ عامّ!...

لاحظ أنّ نقلتَها الأخيرة كانت عجولةً لاقترابِ موعدِ مغادرتِها!...

Twitter: @ketab_n

حاول تمثُّلَ واستشرافَ كلّ النهايات الممكنة التي تواصل هذه المباراة من حيث توقّفَتْ: أيقن أنّه سينتصرُ بفضلِ نقلتها الأخيرة، لا غير! ما كان له ذلك، كما أدركَ، لولا عجل نور لِمغادرة المجلس!...

أيمكنُ اعتبار ذلك نصرًا مشرِّفًا، أو حتى مجرّد نصر؟...

حتمًا: لا!...

يتساءل: كيف ستمرُّ مبارياتهما القادمة إذا كان خصمُهُ بهذا المستوى، في هذه السنّ، وبهذه السرعة التي تتجاوزه؟...

سِتْرِكَ يا ربّ!...

يقتربُ الفجر من أبي العلاء الذي لم يغمض عينًا!...

كان سعيدًا تلك الليلة، سعيدًا جدًّا، بعد عقدين من الشقاء!...

ها هو يولدُ حقًّا من جديد!... ينتظر من الآن عودة نور للمجلس، بعد يومين، على أحرّ من الجمر!...

بإمكانِ عزرائيل أن يتأخّر الآن بضعةَ عقودٍ إضافيّة، عدّةَ عقودٍ جديدة إذا أراد (مع جزيل الشكر والتقدير!)...

يعدهُ أنّه سيموتُ في كلِّ الأحوال شهيدًا!...

ألم يقل سيّدُ عشّاقِ الأنبياء: «من عشق ومات فهو شهيد!»؟...

Twitter: @ketab_n

٣٦

آدمٌ ابن آدم

تنتزعُ عيني أبي النزول من محاورها إمبراطوريّاتٌ بيولوجيّةٌ غفيرة (لم ير معظمَها إنسان) تُغادر بعضها الماء، لِتحيا في سياقات برمائيّة. تزحفُ رويدًا رويدًا في أدغال اليابسة، تقفزُ بعضها أفضل فأفضل، قبل أن تغزو الفضاء!...

يكتبُ أبو النزول وهو يُشاهدُ الحياةَ تستعمِرُ اليابسة:

((لم تتسلّل الحياةُ خارج الماء إلّا مؤخّرًا جدًّا، عندما اندمجت معظم القارّات وتشظَّتْ محيطاتُها وبِحارُها في أعطاف اليابسة! احتاجت الخليّة النوويّة التي تشكّلت في أعماق البحار خلال ملياري عامٍ إلى مليار عامٍ إضافيٍّ لتؤول إلى إمبراطوريّاتِ أنواعٍ بيولوجيّةٍ متنوّعةٍ من الأسماك والأفاعي، ترقصُ في الماءِ وتتمخطرُ في اليابسة!...

لا شيء بِجمالِ الحياة!... أراها تتفجّرُ على اليابسةِ أمامي لأوّل مرّة!...

ما أزهى الحياة وأروعها!...

Twitter: @ketab_n

كوكبُ الأرضِ بِدونِها حجارةٌ جرداء تافهة. كوكبُ الأرضِ بِها أبدعُ لوحةٍ فنيّة ديناميكيّةٍ في الكون، تتحرّكُ وتتغيّرُ باستمرار!...

كلُّ جَمالِ صحاري الكوكبِ الأحمر، المرّيخ، الذي طالما تسكّعتُ فيها بِوَلَه، باهتٌ طفيفٌ جدًّا في منظوري (رغم أشكالِها وألوانِها المذهلة) لأنّها بدونِ واحات، بدونِ جِمال، بِدونِ حياة!...

المجدُ للجِمال، المجدُ للجَمال، المجدُ للحياة!...)).

ينسى أبو النزول صديقَهُ أمينيائيل، وهو يواكبُ زحفَ الحياة في اليابسة! لا يبعثُ له حرفًا صغيرًا واحدًا!...

ـ تقريرُ الهُدهد! تقريرُ الهدهد! تقريرُ الهدهد!...

ـ ما هو تقريرُ الهدهد؟...

ـ تقرير الهُدهد! ألا تتذكّرُ أمينيائيل؟...

ـ آه، تقريرُ الهدهد! نعَم، تقريرُ الهدهد! عفوًا، نعَم، نعَم... أمينيائيل، صديقي أمينيائيل؟ ساعي بريدِ الأعلى جدًّا؟... آه، نعَم، أتذكّرُه!... بالتأكيد، بالتأكيد...

ثم يشعرُ أبو النزولِ فجأةً بالاختناق، بالرعبِ والحزنِ أيضًا، وهو يشاهدُ أمَّ الكوارث: «الانطفاءَ الأوّل» الذي ضرب الأرض قبل ٤٤٠ مليون سنة، لِيُبيدَ هذه الإمبراطوريّات ويطيحَ بـ ٩٥ في المائة من كائناتها!...

يصبحُ الكوكبُ بعد ذلك جنّةً لِبعضِ كائنات البحار فقط، وجهنّمَ لأفاعيها!... قبل أن يتحوّلَ من جديد (بعد ٣٠ مليون عام من ذلك، إثر كارثةٍ كوكبيّةٍ أخرى) إلى جهنّم بالنسبة لتلك الكائنات البحريّة، وإلى جنّةٍ لأفاعي الأرض!...

Twitter: @ketab_n

يبلعُ أبو النزول ريقَهُ بالكاد!...

يبدأُ حينها «زمنُ الأفاعي» الذي يشدُّ أعصابَ أبي النزول أيّما شدّ: يسودُ فيه نوعٌ من ثدييّات الأفاعي (لِبُنيةِ جماجِمِها صفاتٌ مشتركةٌ مع جماجم البشر) قبل أن يدمِّرَهُ انطفاءٌ آخر، قبل ٢١٠ ملايين عام، خلق ظروفًا بيئيّةً ملائمةً كثيرًا لنوعٍ بيولوجيٍّ آخر: الديناصور!...

يكتب أبو النزول على هامش مذكّراته وهو يتأوّهُ من قعر خياشيمه: «أووووف، الطبيعةُ أوركسترا فوضى وكوارث، قائدُ معزوفتِها ضريرٌ يلعبُ النرد، يُسقِطُ صواعقَهُ العمياء على طاولةِ جماجم الكائنات التي لا يُحالِفُها الحظُّ عند سقوطِ النردِ على الطاولة!»...

يُدوِّخُ بأبي النزول تعدُّدُ أشكال الدناصير وتنوّعاتها وعنفوان مقدراتها الفيزيائيّة!... يكتب لأمينيائيل: «أجلسُ حاليًّا تحت شجرةٍ في وادٍ ذي زرع (يواجِهُ دَغلاً تتمخطرُ فيه الدناصير) في ظلِّ ديناصورٍ هائلٍ حطَّ قربي على ربوةٍ تحاذي الشجرة!»...

ثُم، بِضربةٍ واحدة، يصفعُ أبو النزولِ رأسَ صديقِهِ أمينيائيل بِفصلٍ كاملٍ من تقريره، عنوانه: «زمن الجبابرة»، يبدأهُ بِ:

((ما أرهب رقص الدناصير! ما أعجب منظر الأرض عندما كانت تُغطّي سماءَها أسرابُ الدناصير! لو حطَّ أحدهم فقط في مدينةٍ حديثةٍ لملأَ فيها شارعًا! أتخيّلهم أحيانًا يهيمون في أرصفةِ وسقوفِ وأجواءِ مُدنِ اليوم: بكّين، القاهرة، نيويورك، باريس، اسطنبول، داكار، موسكو، روما، طهران، ريو دو جينيرو... الأرضُ بدونهم تفتقرُ كائنًا رئيسًا!...

يسودُ هذا الملِكُ الجبّارُ الغبيُّ الأرضَ ردحًا من الزمن. كلّ العشبِ البيولوجيّةِ في الأرض والسماء والأعماق مِلكُهُ لا شريك له،

Twitter: @ketab_n

قبل أن يقضي عليه الانطفاءُ الخامسُ كلّيّةً، قبل ٦٥ مليون عام، جرّاء نيزكٍ هائلٍ سقط على خليج المكسيك (قطرُه ١٥ كيلومترا، وشُحنتُهُ أكبر من قنبلة هيروشيما ألف مرّة)، في الوقت نفسه الذي كانت تتفجّرُ فيه على الأرض براكين وفيضانات موازية!...

اعلمْ، عزيزي أمينيائيل، (سجِّلْ ما سأقولهُ الآن في مكانٍ خاصٍّ في أرشيفك، وَضعْ تحتهُ عدّة خطوط!):

لولا هذا النيزك الهائل والظروف البيئيّة التي عرفتها الأرض قبل وبعد سقوطه لما انقرضت الدناصير، ولما وُلِدَ الإنسانُ بعد فنائها بحوالى ستّين مليون عام، كما سأشرحُ لك الآن!...)).

يسترسلُ أبو النزول وهو يميطُ اللثام عن مقدّمات ولادةِ الإنسان:

((ارتفعتْ سخونةُ الأرضِ كثيرًا إثر ذلك النيزكِ الهائلِ الذي سقطَ على خليج المكسيك لِدرجةٍ أطاحت بالديناصور، مَلِك الأرض الأبله! تكيّفَ معها، أفضل من تكيّف، نوعٌ من الثدييّات البهلوانيّة التي كانت تحيا في أعالي أشجار الغابات، حيث تطيبُ الحرارةُ وتحلو الرطوبة!...

تفرَّعَ من هذا النوعِ البيولوجي، بعد عشرات ملايين السنين من التطوّر، «كبارُ القردة» الذين بدأ عصرُهم الذهبيُّ شيئًا فشيئًا... قبل أن ينحدر منهم «الذي حارتِ البريّةُ فيه»، الإنسانُ، وأخوهُ الحميمُ قردُ الشمبانزي!...

باي باي زمن الدناصير!...

إليك، عزيزي أمينيائيل، فرضيّةً صغيرةً، ارمِ بها في سلّةِ المهملات إن أحببتَ:

Twitter: @ketab_n

ربّما وُلِدَ مفهومُ التنّينات والجنّ والعفاريت من أطلالِ ذكرياتِ رفاتِهم البائد، في لا وعيٍ بائد للثدييّات البهلوانيّة التي عاصرت الدناصير، وانسلَّ منها بعد ملايين السنين كبارُ القردة، ثم الإنسان!...)).

يهرعُ أبو النزول باتّجاهِ المستقبل الآن. هدفهُ الأسمى أن يرى كبارَ القردة وهم يهبطون من أشجار الغابات لِيعيشوا على الأرض! لا يدري لماذا تُهمُّهُ هذه اللحظة المحوريّة بشكلٍ خاصٍّ جدًّا!...

في طريقِهِ إليها، يهيمُ بِسعادة في أرجاء عالمِ الحيوان الذي وهبَهُ كلَّ رِفقِهِ وعطفِهِ وحنانِهِ في حياتهِ الأرضيّة الأولى، وغازلهُ بودٍّ أحيانًا في لزوميّاته، هو الذي كان نباتيًّا طوال حياته، والذي امتنع عن أكل الحيوانات والأسماك ومشتقّاتِها من بيضٍ وزبدة... لأسبابٍ أخلاقيّةٍ وذوقيّةٍ وفلسفيّةٍ عميقةٍ، شخصيّةٍ جدًّا!...

يجولُ الشاعرُ النباتيُّ الشهير بِهيامٍ خالص كلَّ عشٍّ وممالكِ الحيوان في كلِّ الغابات والصحاري والجِبال، يُعاينُها كشاعر، كأخ، كباحثٍ بيولوجي، كفيلسوفٍ تربطهُ علاقةٌ حميمةٌ بِهذه الكائنات... يطوفُها بشغفٍ واندغام، كما كانت لمياء تطوفُ حقولَ الشعَبِ المرجانيّة في البحر الأحمر، وكما طاف صاحبُ كتاب «رحلةُ عالِمِ أحياء حول العالَم» جُزُرَ وأرخبيلات وغابات وقفارَ الأرض، خلال رحلته التاريخيّة على سفينة بيجل لمدّة خمس سنوات!...

كذلك كان أبو النزول أيضًا، لكنّه لم يكتب حرفًا لأمينائيل! نسي تمامًا من فرطِ اندماجِهِ في ازدهارِ شجرةِ الأنواع البيولوجيّة داخل الماءِ وعلى اليابسة أنّ عليه أن يبعث انطباعاته وأفكاره لأمينائيل!...

ـ من هو أمينائيل؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا أدري!...

ـ أمينيائيل؟ ألا تذكُرُه؟...

ـ أمينيائل؟... اسمٌ غريبٌ يُذكِّرني بِشيءٍ ما! لا أتذكّرهُ بِدقّة مع ذلك!... آه، عفوًا! أمينيائيل، ساعي بريدِ الأعلى جدًّا!... أتذكّره، صديقي العزيز!...

لم يتذكَّر أبو النزول فعلاً صديقَهُ العزيز إلّا عندما استلم إس إم إسًا منه يحوي علامةً واحدة: «؟». ثم آخر بعلامتين: «؟؟»... ثم ثلاث علامات!...

لم يردّ!... ليس له مزاج! هو ليس بائعَ إس إم إساتٍ أو مُخبِرًا أو هدهدًا أو مُراسلاً صحافيًا لأحد!...

استغرقَ في هيامِه وتأمّلاتِه!...

ثم توقّفَ عن المتابعةِ المتأنّية، والتنقُّلِ بين ماضي الماضي، ومستقبلِ الحاضر!... شعرَ بالإرهاق، راودَهُ السأم!... يحتاج أن يحيا ملايين السنين لِيُتابعَ تفاصيل أوديسة تطوّرات الأنواع!...

استذكَرَ أخيرًا صديقَه المشتاقَ لإس إم إساته، الذي يعاكسُهُ بها من السماء ٧٧. آخرُها («فين الغيبة؟» أي: «أين الغياب؟») يُشبهُ إس إم إسَ فتاةٍ لعاشقِها القديم الذي اختفى عن مراسلتِها بضعةَ أيّام!...

فضفضَ لهُ انطباعاته الطازجة:

((عزيزي أمينيائيل: أشعرُ بالدوار! ثمّة فوضى كونيّةٌ لا تخطر ببال! هذه الأرض التي تبدو جامدةً هادئة هي، في الحقيقة، عكسُ ذلك تمامًا!... لم تعرف يومًا السكون! تاريخُها براكينُ وأعاصيرُ وفيضانات وزلازل لا تتوقّف.

Twitter: @ketab_n

عصورٌ جليديّةٌ تغمرُها أحيانًا لتحوِّلَها كرةً بيضاء ناصعة... نيازك هائلة تسقط عليها أحيانًا وتطيحُ بكلّ شيء... تغيّراتٌ وتقلُّباتٌ مناخيّةٌ دائمة تُكنِّسُها من الطرف إلى الطرف: مرّت عصورٌ كان كوكبُنا خلالها كرةً ثلجيّةً بيضاء، وأخرى بساطًا من جمر!...

لم تتوقّف القارّات من التنقُّلِ التائهِ في أفياء محيطات هذا الكوكب، قبل أن يلتصق معظمُها أخيرًا في موضعِهِ الحالي (الموقّتِ بالطبع)، قبل بضعة ملايين السنين لا غير!... هل تُصدِّق ذلك؟...

سِرُّ أسرارِ هذه الحياة، عزيزي الغالي أمينيائيل، شديدُ البساطةِ والبداهَة:

التغيُّرُ الدائمُ سُنّةُ الحياة!... أودُّ أن أنحنيَ هنا أمام هيراكليت، أبي الديالكتيك، الذي قال: «لا يدخل المرءُ النهرَ مرّتين!»... لا مُطلقَ في هذه الدنيا غير التغيّر الدائم!...

الكائناتُ تتطوّرُ متفاعلةً مع بيئةٍ تتغيّرُ على الدوام. ليست ثمّة فرصٌ أكبر للحياة على الأرض إلّا لمن يتناسب ويتكيّف أفضل من غيره مع كلّ ظرفٍ بيئيٍّ جديد!...

الأنسبُ ليس الأقوى، أو الأذكى، أو الأطول أو الأصغر، بالضرورة! هو من يلائمُ ظروف البيئة، من يتموسقُ ويتأقلمُ بيولوجيًّا أفضل من غيره مع عوائقها وقيودِها وتقلُّباتها الدائمة!...

لعلّي لم أقلْ جديدًا بالطبع، عزيزي أمينيائيل! لم أقلْ أكثر من ألف باء عِلمِ الحياةِ الحديث الذي يرفده كلّ يوم عشرات آلاف الباحثين المتخصصّين في مختبرات الغرب.

اختزلتُ ما يعرفُه الجميع: «قانون الانتقاء الطبيعي»، روح الحياة، سيّد نشوءِ وتطوُّرِ الكائنات على الأرض!...

Twitter: @ketab_n

ليس ثمّة غير هذا القانون الأصمّ الذي يحكمُ مصائر الكائنات في غابةِ هذه الحياة التي يقودُ أوركستراها موسيقارٌ ضريرٌ يعزفُ سيمفونيّةَ الفوضى على إيقاعِ لُعبةِ النرد، والتي يتصارعُ الجميعُ للاستيلاء على مواردِها المحدودة والتهامها. يُقضّون كلّ حياتهم تقريبًا مهووسين بذلك! . . .

أودُّ أن أنحني قليلاً، عزيزي أمينيائيل، أمام صديقي الغالي الحبيب: داروين، مكتشفِ هذا المبدأ، وراسمِ شجرةِ الأنواعِ الحيّة، وإنِ استشعرَ صديقُكَ الشاعرُ الأعمى، قبل ثمانية قرونٍ منه، بأنّ كلّ الأنواع البيولوجيّة تشكِّلُ شجرةً واحدةً، عندما قال في لزوميّاتِه:

أرى الحيَّ جنسًا ظلّ يشملُ عالمي بأنواعِهِ، لا بوركَ النوعُ والجِنس!

وأن أنحني أيضًا أمام صديقي الحبيب الشاعر وعالِم الرياضيّات العظيم الخالد عمر الخيام (كم أحبّه!) الذي أدركَ أنّ الحياة رقصةٌ أبديّةٌ حرّةٌ حائرة على إيقاعِ سيمفونيّةِ الصدفةِ والضرورة، لا معنى لأيّ اتّجاهٍ مخطّطٍ لها بشكلٍ مسبق، ولا لِقَدَرٍ أو غيوب، عندما قال:

لَبستُ ثوبَ العيش لم أُستشَر وحرتُ فيه بين شتّى الفِكَر

وسوفَ أنضو الثوب عنّي ولم أُدرك لماذا جئتُ، أينَ المقرّ

وإن لم يختلف ما قاله كثيرًا عمّا قاله صديقُكَ الشاعر الأعمى، ساعي بريدك المفضّل، غفر الله ما تقدّم من ذنوبه وما تأخّر:

خُلقنا لشيءٍ غير بادٍ، وإنّما نعيشُ قليلاً ثم يدركنا العلكُ

كخيلٍ صيامٍ تألكُ الدهرُ لجمَها بغيظٍ، فقد أدمى نواجذَها الهلكُ))

ثم ينطُّ أبو النزول حوالى ستّين مليون عام (بعد موت الدناصير) باتّجاهِ مستقبلِ الماضي. . .

Twitter: @ketab_n

باتّجاهِ الذي حارت البريّة فيه، الإنسان!...

في طريقهِ إليه، يرسلُ أبو النزول استدراكًا، أو «لحقة» كما يقول، لإس إم إسهِ الأخير (يحبُّ أمينيائيل «لحقات» إس إم إسات أبي النزول، تسكرهُ أحيانًا حدّ الثمالة!):

((لا يفوقُ عددَ الباحثين في مختبرات علومِ أحياءٍ وحفريّاتِ الغرب، عزيزي أمينيائيل، إلّا عددُ الكهنةِ والمُفتين في منابرِ وشاشاتِ تلفازِ ومواقعِ إنترنت بلادِ العرب، المتخصّصين بحياةٍ أخرى مختلفةٍ تمامًا:

بدأتْ هذه الحياة بِشابٍّ لطيفٍ أسمر، وُلِد من نفخةٍ في صلصال!...

خرجتْ من كتفهِ ذات يومٍ حسناءُ كحلاءُ، فاحمةُ الشعرِ، أسيلةُ الجسد!...

عاشا معًا في الفردوس، يتحدّثان باللغة العربيّة (لا حاجة هنا لأيّ معاجم إيثيمولوجيّة، لأنّ كلمات اللغة العربيّة موجودةٌ هكذا منذ الأزل! ليس لها تاريخ أو سياق!)...

انسابتْ أيّامهما الفردوسيّة سعيدةً مُثلى، حتى تلك الليلةِ الليلاءِ الشنيعةِ اللعينةِ التي وسوسَتْ لهما فيها حيّةٌ مُرقّطةٌ ماكرةٌ بِقطفِ تُفّاحةٍ عسليّةِ الطعم، سمينةٍ مُحرّمة!...

وقع العاشقَانِ في الفخّ!... طُرِدا، كعقوبةٍ على عصيانهما، من الفردوسِ إلى الأرض!...

قصّةٌ حزينة!...

تدهورَتْ حياتهما في أرض البوار رأسًا على عقب: بولٌ، برازٌ... ولغةٌ جديدة: السريانيّة، قرّرَ أن يتحدّثا بها بدلاً من اللغة العربيّة!...

Twitter: @ketab_n

يتناسلُ من هذا الثنائيِّ الشهيرِ بشرٌ له بُنيَةُ أبويهِ البيولوجيّة نفسها، بنية بشرِ اليوم التي لم تتغيَّر نفسها!... (لا حاجة هنا لأيّة مختبراتٍ تدرسُ تاريخَهم التطوّري وعلاقتَهُ الجينيّة بالفروع الأخرى من أغصان شجرة الأنواع!)...

تبدأ هكذا حياةُ الإنسان على الأرض: فيلمٌ أُعِدَّ سيناريوهُ مسبقًا في اللوحِ المحفوظ، روايةِ الروايات!...

ينتهي الفيلم بعد أن يظهر المسيحُ الدجّال في الأرض...

يهبطُ حينها المسيحُ من الفردوس لِيطعنَه بِرُمْح، ويُصلّي بالناسِ صلاةَ الجمعة!...

ثم مسكُ الختام العاصف: يوم النفخ في الصور، والبعث والنشور. الجنّة والنار...

يا للعجب!...)).

تقود هذه «اللحقة» أمينائيل لتذكُّرِ هذا المقطع من «رسالة الغفران» الذي يلتقي فيه ساردُ أبي العلاء، ابن القارح، بآدم في الجنّة!... يُجيد فيه «قاتلُ الأكذوبات الكبرى» استخدامَ أدواتِه التقليديّة: المنطق، التفكيك والتحليل اللغوي، ضرب الميتافيزيقيا بالميتافيزيقيا:

((...فيلقى آدمَ، عليه السلام، في الطريق فيقول: يا أبانا، صلّى الله عليك، قد رُوِيَ عنك شِعرٌ منه قولك:

نحن بنو الأرضِ وسكّانُها ... منها خُلِقنا وإليها نعُودْ

والسّعدُ لا يبقى لأصحابِهِ ... والنحسُ تمحوهُ ليالي السعودْ

فيقول: إنّ هذا القول حقّ، وما نطقهُ إلّا بعضُ الحكماء، ولكنّي لم أسمع بِهِ حتى الساعة!...

Twitter: @ketab_n

فيقول: لعلّك يا أبانا قلتَهُ ثم نسيت! فقد علمتُ أنّ النسيان متسرّعٌ إليك، وحسبكَ شهيدًا على ذلك الآية المتلوّة في فرقانِ محمّد، صلّى اللهُ عليه: «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي، ولم نجد له عزمًا!»...

يقول آدم، صلّى اللهُ عليه وسلّم: «أبيتم إلّا عقوقًا وأذيّة، إنّما كنتُ أتكلّمُ العربيّة وأنا في الجنّة، فلّما هبطتُ إلى الأرض نُقِلَ لِساني إلى السريانيّة، فلم أنطق بغيرِها إلى أن هلكتُ، فلمّا ردّني الله، سبحانه وتعالى، إلى الجنّة عادت عليّ العربيّة!...

فأيّ حينٍ نظمتُ هذا الشعر: في العاجلة أو الآجلة؟... والذي قال ذلك يجبُ أن يكون قاله في الدار الماكرة، ألا ترى قوله: «منها خُلِقنا وإليها نعود»؟ فكيف أقول ذلك ولساني سرياني؟...

وأمّا الجنّة، قبل أن أخرجَ منها، لم أكن أدري بالموت فيها. وأمّا بعد رجوعي إليها فلا معنى لقولي: «وإليها نعود» لأنّه كذبٌ لا محالة، ونحن معشر أهلِ الجنّة خالدون مخلّدون!...)).

ينطُّ أبو النزول أخيرًا باتّجاه «كبار القردة» وهي تهبط من أشجار غابات شرق أفريقيا إلى أديم السافانا الذي حلّ محلّ تلك الغابات رويدًا رويدًا، إثر جفافٍ لحق عصرًا جليديًّا عمّ المعمورة!...

يراقبُ أبو النزولِ ببطءٍ وأعين ثاقبةٍ أحد جذوع «كبارِ القردة» في «شجرة الأنواع» الداروينيّة، يتابعهُ وهو يتفرّعُ بدورهِ، يتأنسنُ أكثر فأكثر خلال ملايين السنين، لِيُكوّنَ شجرةَ الجنس البشري (التي استقرأ أبو العلاء بِحَدسٍ عبقريٍّ، في حياته الأولى، تعدُّدَ مراحلها، وتطوّرَها، عندما أطلق صيغتَهُ الحلزونيّة الذكيّة: «آدم ابن آدم»):

يصلُ أبو النزولِ واحتَهُ المفضّلة في كلِّ هذه الرحلة، تلك التي تستحوذ عليه كلّ الاستحواذ (لا يعرفُ سرَّ تعلّقِهِ المفتونِ بها):

Twitter: @ketab_n

يبدأ «شقيقُ الشمبانزي»، أمام عيني أبي النزول التي تُدمِّعُ من جلالِ وقدسيّة هذه اللحظة، المشيَ أفضل فأفضل على قَدَمين فقط، بِفضلِ تلاؤمِ بُنيانِ وميكانيكا مفاصلِهِ وجسدِهِ مع بيئتهِ الجديدة، أكثر من غيره! . . .

ينتصبُ ظهرُه رويدًا رويدًا، خلال بضعة ملايين سنة. يحتلُّ دماغُهُ العموديُّ على جسدِهِ موضعًا متميّزًا مؤهّلاً لأن تنموَ فيه مساحاتٌ وملَكاتٌ جديدة، تتواصلُ وتتضامّ. (أبو النزول يحبُّ الانتصابَ كثيرًا. الانتصابَ والضمّ! . . . لا يحبُّ السكونَ والانكسار إطلاقًا . . . ناهيك عن التحَلْزُن!) . . .

يُجيدُ هذا الإنسانُ الأوّليُّ استخدامَ الحجارةِ كآلةٍ وسلاح. تتطوّرُ وتتعقّدُ وسائلُ تعبيرِه، نبراتُ صوتِه، نواةُ لُغَتِه، خطابُه، وعلاقاتُهُ الاجتماعيّة الثريّة التي كانت أقرب لِنمطِ إنسانِ اليوم، منها من بقيّة الحيوانات . . .

يُدمِنُ اللغةَ، يُسكِرُهُ سحرُها شيئًا فشيئًا مع تطوّرِ وتعقيدِ وتوسُّعِ حياتِه وبُنيةِ دماغه. تتحوَّلُ وطنَهُ الأوحد. تتداخلُ وتنمو وتتفاعل كلُّ أبعادِ حياتِه في كلِّ الاتّجاهات بشكلٍ يفوق كلّ خيال! . . .

يبكي أبو النزول، عاشقُ الكلمات، من جلالِ المشهد! . . .

يبعثُ لأمينيائيل هذا التعليق الساخن:

((ولِدَ الإنسانُ من قطيعة! وُلِد عندما طردَتْهُ التغيّراتُ البيئيّة من «جنَّتِهِ» السماويّة في أعالي الأشجار، إلى الأرض، ليمشيَ فيها بقدَمينِ عموديّين، بِعمودٍ فقريٍّ وجُمجمةٍ يتّجِهان صوب الأنجم، وبِعينينِ مُصوَّبتَين باتّجاه الأفقِ المفتوح! . . .

«الذي حارتِ البريّةُ فيه»، عزيزي أمينيائيل، لا يختلفُ عن كلِّ

Twitter: @ketab_n

الكائنات الحيّة: هو محضُ ضرورةٍ لا غير!)).

يشاهدُ أبو النزول بكلِّ شغفِ حواسّهِ الخمس (أو ربّما بأكثر من ذلك!) كلَّ تطوّراتِ آدم ابن آدم، ويرسل أثناء ذلك أحلى الإس إم إسات التي تُسكِرُ أمينيائيل!...

يتأنسنُ أمامه أخو القردِ أكثر فأكثر، ينتقلُ عبر ملايين السنين من نوعٍ بيولوجيٍّ إلى نوع (أو من آدمٍ إلى آدم):

١) حفيدُ كبار القردة، هومو إيبيليس: الإنسان الحاذق، الذي استخدم الحجارة كآلات بدائيّة، قبل حوالى مليوني عام.

٢) هومو أرجاستير، الإنسان الحرفيّ، الذي صنع الفؤوس.

٣) ثم هومو نارانس، الإنسان الحاكي، الذي بدأ يسردُ ويخترعُ أوّل القصص بعد أن تطوّرَتْ وتوسَّعَتْ مناطقُ اللغة في عصبونات دماغه!... لعلّهُ سلفُ شهرزاد الذي اخترع الصيغة السحريّة الخالدة: «كان يا ما كان» وأخواتها...

(يحاولُ أبو النزولِ في إس إم إساته أن يرسم ما يبحث عنه أمينيائيل أكثرَ من أيّ شيءٍ آخر: تشكُّلَ ملامحِ «الطبيعة الإنسانيّة» في سيرورتها التطوّريّة، ونشوءَ قوانينِ فيزيائها وميكانيكا حركتِها المعقّدةِ جدًّا... لا يوجدُ مفهومٌ يعصي فكُّ طلاسمهِ على أمينيائيل، ويجعلهُ يُنتِّفُ شعرَهُ بكمّيّاتٍ خياليّة، أكثر من «الطبيعة الإنسانيّة»، لغزِ الألغاز وسرِّ الأسرار بالنسبة له!...

الذي حارتِ البريّة فيه لا يُحيّر، في الحقيقة، إلّا المغلوبَ على أمره، أمينيائيل الحبيب!...).

قبل الوصولِ إلى بيت القصيد، قبل خمسين ألف عامٍ:

Twitter: @ketab_n

٤) هومو سابيانس، الإنسان الحديث، الذي يُتوِّجُ رأسَهُ دماغُ إنسان اليوم نفسه، بِجغرافيّةِ عصبوناته نفسها، بكلِّ ملَكاتهِ التخيُّلِيّةِ واللغويّة الراقيّة، بكلِّ قلقهِ الوجوديِّ وتفكيرهِ المحموم، بكلِّ هوسهِ باختراع ألفِ سيناريو وسيناريو تُفسِّرُ بدايةَ الحياةِ على الأرض ومآلَ الإنسان بعد الموت، بكلِّ عذوبةِ منحنياتِ وتكوّراتِ نهودِ وخاصراتِ إناثه! . . .

يشاهدُ أبو النزول بواكير أجداد الإنسان الحديث الجليلة، على الطبيعةِ أمامه، وهم يعيشون ويتعاضدون ويتصارعون ويتناكحون ويهاجرون من أرضٍ لأرض. يسافرون كثيرًا، بعيدًا جدًّا عن أفريقيا، يرحلون في كلِّ بقاع الأرض، على الدوام. . .

انحنتِ البشريّةُ ذهولاً وإجلالاً، قبل بضع سنين فقط، عندما تمّ اكتشاف حفريّات أورورِان وتوماي ولوسي وكثيرٍ غيرهم من أجداد الإنسان الذين عاشوا قبل بضعة ملايين السنين في شرق أفريقيا. . . أين هيَ من حظِّ أبي النزول اليوم وهو يرى آلافَهُمُ المؤلّفةَ على الطبيعةِ مباشرة، ومن حظِّ أمينيائيل وهو يستلمُ أروعَ وأدقَّ التقارير التي تكشف لهُ بُنيةَ وجذورَ الطبيعةِ الإنسانيّة وتطوّراتها؟ . . . مثلَ هذا الإس إم إس الذي سقطَ أمام عيني أمينيائيل كستارٍ من رماد (تململَ ساعي بريد الأعلى جدًّا عند قراءته، تنهّد ملء السماء ٧٧، وهو يدرك أنّه حشر نفسهُ في شؤون نوعٍ بيولوجي حلّتْ عليه لَعنتا أبي العلاء ونيتشه معًا!):

((الإنسان، «حفيدُ آدم ابن آدم»، كائنٌ يخفي في جوانحهِ ماردًا خنّاسًا، عزيزي أمينيائيل، مجبولاً على الأذيّات والأدناس! حياتهُ مسرحُ فجائع، أبطالُها سِباعٌ مُقنَّعة، كما قلتُ في حياتي السابقة:

شرُّ أشجارٍ علمتُ بها شجرات أنبتتْ ناسا

Twitter: @ketab_n

حملَتْ بيضًا وأغربَةً وأتت بالقومِ أجناسا
كلّهم أخفتْ جوانحهُ ماردًا في الصدر خنّاسا
لم تسقِ عذبًا ولا أرجًا بل أذيّاتٍ وأدناسا
تعبٌ ما نحنُ فيه، وهل يجلبُ الإيحاشُ إيناسا؟
خذْ حسامًا، سعدُ، أو قلمًا وخذي يا دعدُ عرناسا!

ألم يردِّد زرادشت نيتشه أصداءَ هذه الأبيات وهو يخاطب الشعْبَ في السوق؟:

«لقد سلكتم الطريق الطويلة من الدودة إلى الإنسان لكنّكم تحملون الكثير من الدودة في داخلكم. كنتم قِردةً ذات يوم، وإلى الآن ما يزال الإنسانُ أكثر قرديّةً من أيّ قرد!». . .)).

ثم يتلخبطُ أبو النزول قليلاً، يتوهُ، يتأرجح، تُخامرهُ رغباتٌ مُتضارِبة! . . .

يُراوحُ في لحظاتٍ زمنيّةٍ مُحدّدةٍ يدورُ حولها كخذروف، ثم يعودُ منها القهقرى نحو أزمنةٍ عتيقة، ثم يتقدَّمُ إلى الأمام من جديد، يعودُ إلى الخلف مرّةً أخرى، يتقدّمُ. . .

لم يفهم أمينيائيل شيئًا وهو يقرأ تعليقات شاعرِهِ المضطربة أثناء عدوِهِ الزجزاجي في أصقاع الزمن. شعر بالقلق. قال لنفسه:

((أعوذ بالأعلى جدًّا من سرطان الرجيم! عمّاذا يبحث أبو النزول؟ هل اختلَّ عقلُه؟ . . .

لا ينقص إلّا أن يكون كاتبُ «تقرير الهدهد» مسطولاً الآن! ماذا سيقولُ الأعلى جدًّا عن اختياري لهذا الهدهد الغريب (أعمى في حياتهِ الأولى، مجنونٌ في حياته الثانية)؟

Twitter: @ketab_n

بِأيّ وجهٍ سأقابلُ الأجلَّ جدًّا بعد هذه «الهفوة» التاريخيّة؟

أخاف أن يحِنَّ الأعظمُ جدًّا لتلك الأيّام السحيقة التي كان لهُ فيها قائدٌ آخر لِجيشِ الملائكة!...

أعوذ بالأعلى جدًّا منه، سرطان الرجيم!...

هو وحدهُ من مسَّ عقل أبي النزول وأغواه، لِيُحرِقني أمام الأجلِّ جدًّا، لِيُزعزِعَ صواب اختياراتي في ناظريه، ولِيجعلَهُ يستخفُّ بِحكمة مقترحاتي وآرائي الاستشاريّة!...

لعنةُ الأعلى جدًّا عليهِ إلى أبدِ الآبدين!)).

استوعب أمينيائيل في آخر المطاف (رغم ألمعيّتهِ وفراستهِ الأسطوريّتين) ما يختلجُ في رغباتِ أبي النزول، وما يعتملُ في ذهنه!...

تنفَّس الصعداء أخيرًا:

يبحثُ الشاعر الفيلسوف حتمًا عن لحظةٍ محدّدةٍ جدًّا (عن يومٍ؟ ساعةٍ؟ دقيقةٍ؟ ثانية؟) يقول فيها: «بدأ الإنسان الآن!»...

بحثٌ عابثٌ كعَبثِ إشكاليّة هذا السؤال: في أيّ لحظةٍ محدّدة يتحوّلُ الفتى إلى شابّ؟...

ثم ابتسم أمينيائيل قائلاً:

((يبحث أبو النزول عن آدم، آدم الأخير!...

«آدمُ الأخير»! ما أروعَ هذا المصطلح!...

ما أغباني!... كان الأحرى بي أن أتساءل: أيمكنُ لِصاحبِ صيغةِ «آدم ابن آدم» أن ينُطَّ فوق فصل «آدمَ الأخير» وهو يكتبُ روايته؟)).

Twitter: @ketab_n

٣٧

سفائنُ بَحْرٍ ما لهنَّ مراسي

ردّتْ ل. هـ. (حول سؤالي عن مشروعِ أبي العلاء كما يراهُ ن .س.):

ـ يقصدُ: مفهومَ العقل عند أبي العلاء ودورَه، رؤيتَهُ لِممارسةِ القِيَمِ الأخلاقيّة في الحياة الخاصّة والعامّة، آراءَهُ عن الدِّين، الإنسان، الحياة. . .

ـ ماذا يقول عن كلّ ذلك؟

ـ أشياءَ كثيرة جدًّا! هذه مواضيعهُ الأثيرة في كلِّ الأحوال! يكفي أن أفتحَها أحيانًا لِيدخلَ في تفاصيل واستشهادات و. . .

ـ ماذا يقول باختصار؟

ـ يقول إنّ «نظريّةَ» العقلِ عند أبي العلاء كانت متقدِّمةً عن الفكر الإنساني بِسبعةِ قرون! لم تظهر أشباهُها في أوروبا إلّا ابتداءً من القرن السابع عشر، ثم عصر التنوير والعصر الحديث!. . .

Twitter: @ketab_n

لم أستطع أن أكتم نرفزةَ استعجالٍ لِمعرفةِ فحوى ما تقوله! خانتني هذه الكلمات المارقة:

ـ لِنترُك، عزيزتي، هذه المقدِّمات التفخيميّة العامّة، غير الضروريّة جدًّا في تقديري! ماذا يقصدُ ن. س. بالتحديد؟...

أخذَتْ رشفةً من فنجان الشوكولاتة الساخن! تنفَّسَتْ بِعمق، رتَّبَتْ أفكارَها قليلاً بعد سؤالي العجول الفظّ!...

ابتسمَتْ بهدوء (تُشبِهُ في سلوكِها هذا لمياءَ، عندما أواجِهُها بسؤال عجولٍ فظّ، في بعض نقاشاتنا التي نختلفُ فيها أحيانًا!)...

اخترقتْ سكرتي، وأنا أصغي لها وهي تُلخِّصُ ن. س. (وهو يُلخِّصُ أبا العلاء)، نفحةٌ عطريّةٌ عبِقةٌ رقيقةٌ، تماوجتْ مع انسيابِ فستانِها الحريريِّ وهي ترتشفُ فنجانَها...

(سكْرةٌ عطرِيّةٌ ناعمة، داخل سكْرةٍ فِكْريّة سنيّة!...

سكراتٌ بعضها فوق بعض! أدغالُ سكرات! تُنعِمُ ل. هـ. بِسكراتِها من تشاء!...).

ثم ردّتْ:

ـ رأى فلاسفة العصر العبّاسي، قبل أبي العلاء وبعده، أنّ العقل والدِّين كرتان، أو شمسان بالأحرى، يلزم ضمُّ إحداهما للأخرى كمُلحقٍ يدور في فلكِها:

أراد السلفيّون دومًا أن تبتلعَ شمسُ الدِّينِ شمسَ العقل على الدوام، أي أن يَقضيَ العلمُ وقتَهُ يشتغلُ ماسحَ أحذيةٍ للخطابِ الديني، بهلوانًا صغيرًا يتبعهُ حيثما يريد، يُقسمُ (برأسِ الفيزياءِ والرياضيّاتِ والتاريخ) بِصحّةِ أطروحاته و«إعجازاته العلميّة»!...

Twitter: @ketab_n

ومن جهةٍ أخرى أراد المعتزلةُ مثلاً (ظهروا قبل أبي العلاء بأكثر من قَرْن) العكسَ تمامًا. أي: تأميمَ الدينِ وتوظيفَهُ لِصالحِ العقل، ولَيَّ رقبتِهِ ليكون خادمًا له!...

تضليلٌ في الحالتين معًا!...

من جانبه، رأى ابن رشد (وُلِدَ بعد أبي العلاء بأكثر من قرن) أنّ الشمسَين مستقلّتان، لا تقاطع بينهما! لكلٍّ منهما مجالُها الفيزيائي، إشعاعُها الخاصّ، وطريقتُها في إنتاج المعارف!...

خطابٌ توفيقيٌّ خالص يناظرُ، بشكلٍ أو بآخر، بين كينونتَين لا يجمعهما جامع!... خطأٌ منهجيّ رغم أهمّيّةِ وجلالِ ذلك الخطاب، وطليعيّتِهِ في تلك الفترة!...

رؤيةُ أبي العلاء لِدورِ العقل تختلفُ عن كلّ ذلك. تنسجمُ مع العصرِ الحديث، مع نظريّةِ عصرِ العلمانيّة!... لكنّها وُلِدتْ بشكلٍ مبكّرٍ جدًّا، في وادٍ غير ذي زرع!...

قاطعتُها بلهفة، لأصِلَ عموديًا لبيتِ القصيد:

ـ كيف رأى أبو العلاء (من وجهةِ نظرِ ن. س.) العلاقةَ بين الكُرتين، أو الشمسَين؟...

ـ من منظور أبي العلاء، ليست هناك غير شمس واحدة: العقل، هو الذي قال: «لا إمام سوى العقل!»، أو:

أيّها الغرّ إن خُصصتَ بِعقلٍ فاسألنه، فكلٌّ عقلٍ نبي

ثم أضافت بعد لحيظات صغيرة هذه العبارة التي بدت لي غامضةً تمامًا، غير منطقيّة إطلاقًا:

ـ لكنّه كان مؤمنًا بالله مع ذلك!...

ارتبكتُ، قلتُ:

Twitter: @ketab_n

ـ لا أفهم شيئًا، عزيزتي!...

* * *

«لا أفهم شيئًا، عزيزتي!»، قلتُ لِمَنْ تُضيءُ عقلي منذ ساعةٍ ونصف في مقهى البيج بونج الخالد، وهي تُحدِّثني عن إيمانِ أبي العلاء بالله...

تداهمني في الحقيقة مشاعرُ غريبة وأنا أُصغي لِمَنْ كلماتُها شلّالاتٌ تغسلُ دماغي، أدغالُ عصافير:

أعرفُ أنّ لمياء تملأُ كلّ ذرّةٍ من حياتي، أعشقُها وحدَها فقط!... لكنّ هذه التي تسكبُ أمامي استشهاداتٍ شعريّةً عسليَّةً ترجُّ روحي وجسدي رجًّا، صاحبةَ الفستان الحريريّ الأحمر والعطرِ العبقِ الثري والعينينِ العسليّتينِ، تُحرّكُ فيَّ عواطف جديدة، عميقةً، غامضةً جدًّا... أشعر بشيءٍ ما يُشبِهُ الخجل وأنا أعترف بذلك!...

تردُّ ل. هـ. على استغرابي من قولِها بأنّ أبا العلاء كان مؤمنًا بالله:

ـ فعلاً، كان أبو العلاء مؤمنًا بالله!... صحيحٌ أنّ أبا العلاء رفض جليًّا المؤسّسةَ الدينيّة الرسميّة. اعتبرَها مصنعَ أكذوبات، تتحالفُ مع الحاكم لاستغلال البشر وجني السلطةِ والمال، تخلقُ الفتنَ وتبرِّرُ النهبَ والعدوانيّة («دياناتهم مكرٌ من القدماءِ، أرادوا بها جمعَ الحُطامِ») هو الذي قال:

إنّ الشرائع ألقت بيننا مِحَنًا — وأورثَتْنا أفانينَ العداواتِ

وهل أبيحتْ نساءُ الرّومِ عن عُرُضٍ للعُربِ، إلّا بأحكام النبوّاتِ

(قاصدًا هنا الحديثَ الشريف المرعبَ جدًّا من وجهة نظرٍ إنسانيّة: «اغزوا، تغنموا بناتِ الأصفر!»، أي: بنات الروم الشقراوات!).

Twitter: @ketab_n

صحيحٌ أيضًا أنّ الأديانَ زرعَتْ في حياة البشريّة، من منظور أبي العلاء، كثيرًا من الوبال والحروب والخرائب، كرَّسَت الكراهيةَ والحقدَ والاستغلال، كدّرتْ وخرّبتْ حياةَ البشر، ومارست عداءً منتظمًا للعقلِ والعِلم، كما قال بدون خوفٍ أو مراوغة، في هذين البيتين اللذين يلزم التأمّلُ بهما طويلاً طويلاً:

ولا تحسبْ مقال الرُّسلِ حقًّا ولكن قولُ زُورٍ سطَّروهُ

وكان الناسُ في عيشٍ رغيدٍ فجاؤوا بالمحالِ فكدَّروهُ

أو هذين العميقين جدًّا أيضًا:

هفتِ الحنيفةُ والنصارى ما اهتدتْ ويهودُ حارتْ والمجوسُ مُضَلَّله

إثنان أهلُ الأرضِ: ذو عقلٍ بلا دِينٍ، وآخرُ دَيِّنٌ لا عقلَ له

لكنَّ رفضَ أبي العلاء للدينِ الرسمي لم يكن رفضًا إلحاديًّا، أو عداءً لِعقيدة!... هو رفضٌ لِمضغِ عَلَفِ الديانات الرسميّة، لِلسكوتِ على تحالفِ الكهنةِ والحُكّام من أجلِ تدجينِ العقلِ وتنويمهِ وتحويلهِ كتلةً من صديد، أو دُهنًا رغويًّا لا يُسمنُ أو يُغني من جوع، في أفضلِ الأحوال... هو رفضٌ لِينابيع التخلّفِ المتأبّد في واقعنا العربي والإسلامي!...

لأنّ أبا العلاء، كما قلتُ لك، كان مؤمنًا بالله!...

ـ كان مؤمنًا بالله، مع ذلك؟

ـ نعم، بشكلٍ عميقٍ جدًّا!...

(قالتها بثقة! رمقَتْني لتتأكّد أنّي لا أعتبرُ أنا أيضًا أنّ ذلك تلفيقٌ ومراوغة من أبي العلاء هدفُهما «مغالطةُ العدوّ»، والهروبُ من الرقابة، والنجاةُ من القتل!).

Twitter: @ketab_n

ـ كيف يُعقَلُ ذلك؟ سألتُ بكلّ بساطة! . . .

تنفَّسَتْ بعمق! رتّبَتْ أفكارَها من جديد. رشفةٌ أخرى. نسمةٌ عطريّةٌ صغيرةٌ مُسكِرة. (ما ألذّ طبقات السكرات!). . .

نظرَتْ لِشاشةِ كمبيوترها كأنّها تنتظرُ رسالةً إلكترونيّةً ما، ثم لِتلفونِها! . . .

لعلّها تنتظرُ اتّصالاً من ن. س. الذي تمنّيتُ أن يعودَ للمقهى سريعًا كي أتحدّث معه في المقهى، بدون وسيط، وجهًا لِوجه (وإن كنت لا أتمنّى أن تبتعدَ عنّي ل. هـ. ثانيةً واحدة!). . .

تساءلتُ أكثر من مرّة: إذا كانت من تَرْوي أفكارَهُ بهذه الألمعيّة والجاذبيّة والمقدرة على الاستشهادات الأدبيّة البديعة، فكيف هو؟ . . .

ثم أجابتْ وهي تنظرُ نحوي بعينيها العسليّتين الواسعتين (أغرق بهما مشدوهًا):

ـ في نظريّةِ أبي العلاء هناك فعلاً شمسٌ واحدة: العقل، شمسٌ تتمدّدُ يومًا بعد يوم، تكبرُ دون توقّف، مثلُ هذا الكون منذ البيج بونج! . . .

لكن ثمّة، خارج هذه الكرة، فضاءٌ لا نهائيٌّ اسمهُ المجهول، يحوي كلَّ الأسئلة المفتوحةِ التي لم يجب عليها العِلمُ بعد، أو تلك الأسئلة الجديدة التي تولدُ من صلبِ إجابات العِلم. ألا تفتحُ إجابةُ العِلمِ على أيّ سؤالٍ، في كلّ العلوم النظريّة والتطبيقيّة، أسئلةً جديدة على الدوام؟ كما قال أبو العلاء:

تسيرُ بنا هذي الليالي كأنّها سفائنُ بَحْرٍ ما لهنّ مراسي

فضاءٌ لا نهائيٌّ يَسكنُهُ أهمُّ الألغاز قاطبة: لغزُ الحياةِ التي تبدأُ من

Twitter: @ketab_n

عدَم، وتنتهي بعدَم، بينهما جسرٌ عَدَمٌ عبُورِهِ مستحيل، وعبورُهُ يؤولُ إلى الهاوية، كما قال أيضًا:

حياةٌ كجَسرٍ بين موتين: أوّلٌ وثانٍ، وفُقدُ الشخصِ أن يُعبَرَ الجسرُ

أي: الحياةُ جُملةٌ بين قوسين!...

فضاءٌ يجثو فيه القلقُ الوجوديُّ من حتميّةِ الهاوية، وانتصارِ الخراب. يُعربِدُ فيه الخوف من المجهول، من المستقبل، من «القدَر»!...

فضاءٌ ترتعُ وتمرعُ فيه الأسئلة الميتافيزيقيّة الكبرى التي دوّخت حياة الإنسان منذ الأزل، والتي لا يمتلكُ العقلُ ردًّا لها (ولن يمتلِكهُ ربّما، حتى أبدِ الآبدين)، مثل:

لماذا هناك كونٌ بدلاً من عدَم، لماذا هناك شيءٌ بدلاً من لا شيء؟...

روعةُ «نظريّةِ» أبي العلاء، من منظورِ ن. س.، تكمنُ في أنّ بإمكان المرءِ إملاءَ هذا الفضاء كما يريد، بِحُرِّيّة، بِقرارٍ شخصي!... بالأحلام، بالميثولوجيا، أو باللاشيء!...

ملأهُ أبو العلاء بالله!...

لا ينبعُ إيمانُهُ بالله من «حَدسٍ» صُوفي، أبو العلاء يسخرُ من ذلك. لا ينبعُ بسبب أنّ التمعُّنَ في الكونِ يُفضِي بالضرورة إلى الإيمان بالخالق. أبو العلاء يعتقد عكس ذلك تمامًا: لو تمعَّنَ الإنسانُ في الكونِ المجبولِ على الشرّ والفساد لاعتقد أنّ «خالقَهُ» شرّيرٌ فاسد:

جبلّةٌ بالفساد واشجةٌ إن لامها المرءُ لام جابلَها

مارس أبو العلاء علاقتَهُ بالله بطريقتِهِ الخاصّةِ المتجرِّدَةِ من تأثير كلِّ

Twitter: @ketab_n

أكذوبات المنجّمين من البشر، المتخصّصين في الحديث باسمه. نسفَ أطروحاتهم بِشطْرِ بيتِ شعرٍ كثيفٍ رادع: «وما درى بشؤونِ اللهِ إنسانُ» يتردَّدُ صداهُ أيضًا في بيتهِ:

أمّـا الإلٰـهُ فـأمـرٌ لـسـتُ مـدرِكَـهُ   فاحذرْ لِجيلِكَ، فوق الأرضِ، إسخاطا

اختار أبو العلاء الإيمان بهذا الإلٰه الحكيم كَرِهانٍ شخصيٍّ حرّ:

أثـبِـتُ لـي خـالـقًـا حـكـيـمًـا   ولـسـتُ مـن مـعـشـرٍ نُـفـاةِ

عبادتُهُ لإلٰهه هذا عبادةُ إنسانٍ حرٍّ، لا ينحني أو يقدّس إنسانًا. يرفضُ أبو العلاء أيّ تشريعٍ للعبادة، ينادي بالتحرّرِ من سلطةِ الشريعة، وباستخدام العقلِ والقياس (مشروعٌ عصريٌّ باكر لِحضارةٍ مدنيَّة، لم يصغِ لهُ أحدٌ في بلاد العرب منذ عشرة قرون!)... يقول:

كُـنْ عـابـدًا للهِ دون عـبـيـدِهِ   فـالـشـرعُ يُـعـبِّـدُ والـقـيـاسُ يُـحـرِّرُ!

سخرَ أبو العلاء من أداء المناسك كالحجّ، اعتبرَ ممارستها عادات وثنيّة!... إلٰههُ أرقى من أن يحتاج لِمناسك: هو ضميرُ الكونِ النابض ونموذجُهُ الأخلاقيُّ الأرقى!... لذلك كان أبو العلاء (من وحيِ إيمانِهِ الراقي بإلٰههِ الحكيم) نموذجًا إنسانيًّا رفيعًا في سلوكهِ الأخلاقيّ الشخصيّ ومواقفِهِ الحياتيّة اليوميّة!...

صمتَتْ طويلاً... لعَلَّها تشعرُ بإرهاقٍ طارئ!...

ـ لكن لماذا ملأ أبو العلاء فضاءَه (الذي يُحيطُ بِشمس العقل) باللهِ تحديدًا؟، سألتُها، متوسّلاً في أعماقي ألّا تتوقّفَ عن الحديث!...

ـ ينبعُ ذلك من قرارٍ شخصيٍّ خالص: إذ لا يحتاج الإنسانُ، كما يقول ن. س.، لِلعقلِ فقط، لكن للحلمِ، للأسطورةِ، للفنتازيا... للميثولوجيا!

Twitter: @ketab_n

يحتاجُها للهروبِ من مآزقِه وجراحِه وقلقِهِ الغامض. بها يُوسِّعُ أبعاد هذا العالَم «الضيّق». هي رافدٌ رئيسٌ للفنّ والأدب. (لولاها أيضًا لما كتب أبو العلاء، بِلذَّةٍ خالصة، «رسالة الغفران»).

هي، قبل هذا وذاك، إسْمنتُ علاقات الإنسان بالناس وبمحيطه!...

لو حقَّ لِ ن. س. (وهو يلخِّصُ مشروعَ أبي العلاء، ويتحدّثُ عن جذور «رهانِهِ الشخصيّ» بوجود الله) أن يُضيفَ تعريفًا جديدًا للإنسان لقال: «الإنسانُ حيوانٌ تُهيمنُ عليه سلطةُ الميثولوجيا أكثر من سلطةِ الواقع»، يُضحّي بحياتهِ غالبًا من أجلها بسهولةٍ مثيرة!...

لا يوجد إنسانٌ يُضحّي بحياتهِ من أجل قانونٍ في الكيمياء أو الرياضيّات أو الفيزياء أو نظريّة علميّة، لكنْ ثمّة ملايين تبحثُ عن الموتِ أو الاستشهادِ من أجلِ عقيدةٍ دينيّة، من أجلِ سفرجلِ أشجارِ الحورِ العين التي وصفها أبو العلاء أذكى وصفٍ في «رسالة الغفران»...

استرسلتْ، بعد ثوانٍ من الصمت الذي تخلّلتهُ نسماتٌ عطريّة أسكرتني من جديد:

ـ لا يحتاج الإنسانُ لِلعقلِ فقط، لكن يحتاجُ لِضميرٍ رادعٍ أيضًا (حثّ أبو العلاء على تنقيتِهِ من كلِّ رغبات الانتقامِ والحقد) يكبحُ به جماح أنانيّتِهِ الجذريّة!...

ليسَ ثمّة مثلُ نسغِ الميثولوجيا (آه، نسغُها الربيعيُّ الدائم!) بقادرٍ على رفدِ الضميرِ برغبةِ تجاوزِ الذات، وعلى تغذيتِهِ بإرادةِ النقاءِ والنموذجيّةِ والبطولة، وعلى قيادتِهِ للالتزامِ الطوعيِّ الصارمِ بالأخلاقِ النبيلةِ الفاضلة، وحثِّهِ على العطاءِ والتضحية من أجل الآخرين، على الالتزامِ أحيانًا بما لا يلزم أيضًا!...

Twitter: @ketab_n

صمتٌ طويل استغللتهُ لأسجِّلَ على ورقةِ الأفكارَ الكبرى لِنظريّة أبي العلاء عن العقل، وعلاقتهِ الشخصيّة بالله، حتى لا أنساها!...

ثم كسرْتُهُ بهذا السؤال اللولبيّ:

ـ من هو إلٰهه؟...

جلجلَ صمتٌ كثيف (ذكّرني بصمتِ لمياء عندما تكون في أوج تفكيرها)، قبل أن تضيف بهمساتٍ مرتبكة، كمن تكشف سرًّا رهيبًا عميقَ الأغوار:

ـ إلٰههُ: الأعلى جدًّا!...

صمتٌ مُدَوٍّ مريعٌ يتواصل ببطء!...

تمرُّ الثواني والدقائق، أحاولُ أن أفهم!...

قبل أن تُضيف:

ـ يُقدِّسهُ كلَّ تقديس!... يعتقدُ أنّه لو وُجِدَ إلٰهٌ فعلاً، فلن يكونَ إلّا بروعةِ وعظمةِ الأعلى جدًّا، ضميرِ الكونِ الأسمى!...

استرسلَتْ بِصوتٍ غير خجول:

ـ لِساعي بريدِهِ، أمينيائيل، يبعثُ ن. س. إس إم إساته اليوميّة!...

ـ «عادت حليمة لِعادتها القديمة»، كما يُقال!... أأنتِ متأكّدةٌ أنّ ن. س. يعيشُ بكامل حواسّه، «ماديٌّ حتى العظم»، عندما يتحدّثُ عن هذا التواصل مع السماء ٧٧؟

ـ جدًّا!... صدِّقْ ذلك أو لا تُصدِّقْ، كما قلتُ لك!...

الأهمُّ في كلِّ ذلك أنّ نموذجَ أبي العلاء (شمسٌ واحدة: العقل،

Twitter: @ketab_n

يُحيطُها، خارج مداها الفيزيائي، فضاءٌ ميثولوجيٌّ يمكنُ إملاؤهُ أو عدمُ إملائهِ بالإيمانِ الشخصيِّ الحرّ) هو أساسُ التعاقدِ، في العصر الحديث، بين العِلمِ والدّين في المجتمعات المتطوّرة:

في هذا التعاقدِ العصريّ الراقي، لا يتدخّلُ الدينيُّ بالدنيَويّ: لا يتدخّلُ العِلمُ بفضاءِ الإيمان الحرّ، أي بأمورِ الدين وعقائدِه، لا يقحمُ نفسَه بقضايا الخيرِ والشرِّ والقيمِ الأخلاقيّة. ومن جانبهِ لا يمسُّ الدينُ شؤونَ المدرسةِ والعِلمِ، وتفسيرَ الكونِ والحياة، لا يحشرُ نفسَهُ في السياسةِ والاقتصادِ وإدارةِ الحياة المدنيّة اليوميّة...

(تبتعدُ صاحبةُ العينين العسليّتين والفستان الحريري الأحمر والعطر الثري الآسر، لسوءِ حظّي، عن موضوعِ أبي العلاء وهي تتطرّقُ لِميثاق العلاقةِ بين الدين والعِلم في الدولِ المتطوّرة!...)، تسترسلُ:

ـ مثالٌ بسيط: القولُ بإمكانيّةِ أو عدم إمكانيّةِ استنساخِ هذا الكائنِ البيولوجي أو ذاك من اختصاصِ العِلم وحده. لكن لا يحقُّ له إعطاءُ رأيٍ أخلاقيٍّ يُحلّلُ أو يمنعُ ذلك. يتجاوزُ بذلك مؤهّلاته ومجالَه، يحشرُ نفسَه فيما لا يعنيه، يضعُها في الدائرةِ الخاصّةِ لِمُشرِّعِي الأخلاقِ من مفكّرين وفلاسفة (بمختلف اتّجاهاتهم الدينيّة واللادينيّة)!...

سألتُها مقاطعًا قليلاً، رغم أهمّيّةِ ما كانت تقوله وصوابِهِ الرفيع:

ـ لِنعُدْ لأبي العلاء لو سمحتِ!... يُهمُّني شخصيًّا ما يقوله ن .س. عنه! ماذا يقول أيضًا؟...

Twitter: @ketab_n

٣٨

كلُّ شيءٍ معقولٌ في الجنّة، بما في ذلك المُحال!

ما إن عادت نور ثانيةً لِمجلسِ حكيم المعرّة حتى حيَّتْهُ، وقال لها بحفاوةٍ وهدوء: «اقعدي قربي يا ابنتي!»...

لم ينادِ عداها أحدًا نداءً أبويًّا كهذا، ولم يطلب يومًا من أحدٍ أن يجلس جواره!...

تُقرفصُ نور على يمينه، مثل المرّة الماضية، مسندةً ظهرها للجدار، متّكئةً على مخدّةٍ تفصلها عن الشاعر، بيدها كرّاسٌ وأمامها محبرة...

يتنفّسُ الحاضرون الصعداء وهم يُحدِّقون من جديد بهذه الصغيرة، الجميلةِ جدًّا، التي لا يُمكِنُها إلّا أن تستولي على لبِّ كلٍّ من يرى قسمات وجهها الساحر!...

كان منظرُهُما في أعين الحاضرين منسجِمًا تمامًا. خُلِقا ليكونا متجاورَين على الدوام. ناهيك أنّ قسمات وجهَيهما المتناغمَين وطلعتَهما الرشيقة الباسقة تعطي للّوحة جمالاً فاتنًا استثنائيًّا جدًّا، دون الحديث عن روحَيهما النيّرتين الساميتين!...

Twitter: @ketab_n

أيقونتان لا تَخلُقُ الحياةُ مثلهما إلّا مرّةً كلّ عدّة قرون!...

لاحظ الجميع: لم يكتف أبو العلاء بندائها «يا ابنتي» فقط. كان يبدو متعطّشًا لأن تمسّ أطرافُ أصابعه يدَها بين الحين والحين. توّاقًا لأن يحتكّ بها قليلاً، كما يميل الأب لِمسّ يد طفله. يميلُ لأن يستنشقَها أيضًا، وكأنّه يبحثُ على ضفافِها، فيما يبحث، عن شذراتٍ من روائح هند!...

لِلمشهدِ جلالٌ يجعلُ كلَّ حاضرٍ في المجلس يتمنّى أن يكون في موضع أبي العلاء، حتى لو اقتضى الأمرُ أن يفقد بعض حواسّهِ الخمس ضريبةً لذلك!...

ينحني وجهُ الحكيم باتّجاهِ نور مرارًا، يُهامسُها بين الحين والحين... يتساءلُ الجميع: ماذا يُفضي لها، ولوحدِها، هي التي وصلت المعرّة لأوّل مرّة قُبيل ٣ أيّام فقط؟...

لاحظ الملأ هذا الاندفاعَ البريء لِشيخِ المعرّة، وهذه الرقّة والعطف اللذين يخصّصهما لِنور، كما لو كانت ابنَتَهُ حقًّا!...

ثمّة سحرٌ في لقائهما، لا شكّ!...

لا يتفجّرُ سيماءُ الشاعر بهجةً عند إطلالة نور على المجلس فقط، بل يبدو كمن يطير من الفرح!...

ثم لاحظ الجميع في كلِّ مجالس الأسابيع والأشهر القادمة: ما إن تغادر نور المجلس، حتى تنتعشَ قسماتهُ الجنائزيّةُ لِتسيطر على الوضع من جديد، قبل أن تقبض بيدٍ من حديد على زمام الأمور! ثم، يكفي أن تصل نور إلى مجلسِ الشاعر لتضيء في محيّاه السعادة، وكأنّه لم يرَ نور منذ سنين!...

Twitter: @ketab_n

بعدما قَعَدتْ نور بجانب سيّد المعرّة، طلب منهما الحاضرون مواصلة بقيّة المباراة الأخيرة. لم تقبل نور، فضّلتْ استسلامَها مسبقًا، لأنّها درستْ منذ يومين آفاق المباراة، واكتشفتْ أنها لو واصلتْها ستكون «خاسرةً لا محالة، خاسرةً في كلِّ الأحوال»، كما قالت!...

لم تبدُ على أبي العلاء علاماتُ فخرٍ أو انتشاء. بالعكس، شعر بكثيرٍ من الإحراج، وبنوعٍ من الانتصارِ الزائف!...

قال للملأِ مباشرة: «لم تتغيّر موازين القوى في المباراة إلّا بسبب النقلة الأخيرة لِنور. اتّخذتْها بِعجلٍ دون أدنى شكّ، لِتُغادر المجلس سريعًا قُبيل المغرب. ذلك وحدَه السبب... يعلم الله كيف كانت ستنتهي هذه المباراة لولا تلك النقلة!»...

ثم أضاف مهامسًا نور (لم يسمعهُ أحد): «وإن لا أعرف إذا كان البارئ عزّ وجل يهتمُّ كثيرًا بنهايات مباريات الشطرنج، أو إذا كان يجيدُ لعبَهُ على الأقلّ!»...

لاحظتْ نور كم يعطف الشاعرُ عليها بِحنانٍ خالص، ويشجّعها بقوّة. يُدلّلها كما يدلّلُ الأب ابنتَهُ الصغيرة، هي التي لم تعرفْ تدليل أب!...

كان بوُدِّها أن تشكرَهُ بِعُنف، أن تحتضنَهُ بِشدّة!...

طلب الجمعُ منهما خوضَ مباراة أخرى قبل بدء محاضرةِ اليوم لا سيّما وأنّ العصر في مستهلِّهِ، والمجلسَ لم يكتمل بعد!...

وافقتْ نورُ بحماس. قبلَ الشاعر بتردّد. أخذتْ نورُ من جديد شطرنج الرخام الفلسطيني!...

ها هما يخوضان بعد ذلك مباراةً جديدةً لا تقلُّ تكهربًا وتعقيدًا وشراسةً عن مباراتهما الأولى!...

Twitter: @ketab_n

عمَّ الحاضرين الذهول لرؤية شيخ المعرّة ينهي مباراةً لا يكتسحُ فيها خصمَه كعادتِهِ بدقائق، ولا حتى خلال ساعةٍ كاملة!... يتعادل معه فيها بعد ساعتين ونصف من حربٍ عاصفةٍ وأنيقةٍ جدًّا، يخرجُ منها مهشّمًا، شديدَ الإعياء!...

مَنْ مِن الحاضرين توقّعَ أنّ التعادلَ سيكون يومًا حصّةَ هذا الفارس الذي يضربُ خصمَهُ كبرق؟...

كانت نور في منتهى السعادة بعد هذه المباراة: لحظاتٌ كثيفة، ممتعةٌ وطاحنة. تجاوَرَ دماغاهما خلالها، تبارزا وتعانقا وتقاتلا وتلصَّصَ كلُّ واحدٍ على الآخر مليون مرّة. لم يوجد في الكون خلال ساعتين ونصف إلّا هما فقط!...

تمنّت بعد ذلك أن تضعَ رأسَها دقيقةً واحدة فقط على كتفِ جارِها (الذي تشعرُ نحوهُ، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بجاذبيّةٍ لا تُقاوم)، لِتقولَ له إنّ مباراة الشطرنج قد انتهت، ولم تعد خصمَه الآن!...

قضى الحاضرون بعد ذلك وقتًا طويلاً في هرجٍ ومرج، يتحدّثون عن هذه المباراة، يتناقشون حول بعض منعطفاتها، يُحلّلُ بعضُهم هذه النقلة أو تلك...

طلب أبو العلاء من كاتبه أن يقرأ بعض فقراتٍ من رسالة ردِّه على ابن القارح، تتحدّث عن المتنبّي، ينوي الشاعر أن يستهلّ محاضرةَ اليوم بها...

لا فائدة!... المجلسُ نادٍ للشطرنج: ثرثراتٌ جانبيّة عن هذه المباراة التاريخيّة التي امتزجَ فيها العنف بالرقّة، القصفُ بالحنان، القنصُ والسفحُ والمؤامرات بابتساماتِ حبٍّ يتبادلها على الدوام شيخٌ وفتاةٌ يفصلهما ٣٥ عامًا، ويجمعهما كلُّ شيء عدا ذلك!...

Twitter: @ketab_n

أسرّ أبو العلاء لِنور، أثناء ثرثرات المجلس وصخبِه، بمشروعهِ السرديّ الجديد: «رواية الغفران» التي ينوي إضافتها لرسالة الغفران. رسم أمامها الخطوط العريضة لِلَوحة روايته. . .

تصغي نور له وكأنّها لا تصدِّق ما تسمع!. . .

حدّثها عمّا يقترحهُ لها من دورٍ فاعل. شعرَ من تنفّساتِها ونبراتِها أنّهُ فجّرَ حماسَها وأشعلَ رغباتها. حدّد لها المواعيد التي يريد تكريسها لهذه الرواية. قال إنّه سيسمحُ لها وحدها، بالإضافةِ إلى كاتبهِ، بالتواجد معه أثناء مجالس كتابة «رواية الغفران». . .

شعرتْ نور أنّه يريد أن يهبها متعةً لا تساويها في الحياةِ متعة، أن يجعلها تستوعب جوهرَ تفكيرِه أكثر من أيّ إنسانٍ آخر، أن يُعلِّمَها أبجديّةَ التخييل: أسمى ملكات الإنسان، وأن يجعلَها تفجِّرُ ملكاتها النقديّة وهي تتفاعل معه لا كمتلقّية لكن كمؤثّرة، ككاتبة!. . .

بكت نور من فرطِ السعادة!. . .

* * *

عندما تصلُ نور إلى مجالس رواية الغفران تجدُ حكيمَ المعرّة مثل لاعبِ كُرةٍ قدَم أنهى تسخينَه، مستعدٌّ لدخول الملعب، متلهِّفٍ للانقضاض على الكرة، لتسجيل الأهداف. تجدُهُ مثل ملاكم يرقص في طرف الحلبة، بانتظار رنّةِ الجرس لِيبدأ معركة انتصار الإبداع على الظلمات بالضربة القاضية. أي تجدُ الحكيمَ في «حالة كتابة»: دماغٌ لَدُنيٌّ يرى كلَّ شيء بأعينِهِ الأربع، في اتّصالٍ مباشرٍ مع الماضي، الحاضر، المستقبل، كلِّ أرجاء الكون، أغوار العدَم، وما وراء العدَم من جنّةٍ وجحيمٍ وشياطين وآلهة!. . .

Twitter: @ketab_n

على يمينهِ كوزُ الماء. يعلوهُ فنجانٌ معدنيٌّ ورديٌّ يُغلِّفهُ ستارٌ رهيفٌ من الندى. بجانب الكوز عمامتُه التي يخلعها أثناء سردِه، وكأنّهُ يخافُ ألّا تنطلقَ كلماتُه في أفياء دماغهِ بدون عقال!...

نوافذ بيتهِ ونوافذ دماغهِ مفتوحةٌ على الدوام!...

شَعرُه الفضّيُّ السلسُ ينتهي بدوائر جميلة، يميل الشاعر لمداعبتها معظم الوقت، لا سيّما عند التفكير والتركيز... تتمنّى نور لمسَ منحنيات هذه الخصلات قليلاً جدًّا، بأطرافِ أصابِعها الرهيفة، مرّةً واحدة أو مرّتين فقط!...

أمامهُ كاتبهُ يفركُ يديه، يُعِدُّ أوراقَهُ البيضاء، علبةَ الحبر... يُبَسمِلُ، يُقلِّبُ ويُرتِّبُ أوراقَهُ القديمة إذا ما طلب منه حكيمُ المعرّة أن يعيد قراءة مقطعٍ سابق...

يعرف كاتبُ أبي العلاء أنّ مواكبةَ هذا المارد والتفاعلَ مع ماكينتهِ الشعريّة السرديّة الفلسفيّة ليست إجازةً مُسلّية: يلزمه أن يكون سريعًا في كتابته وفهمه والتقاطه، مركّزًا، حاذقًا، دقيقًا، نابضَ الذاكرة، ماهرًا في الإصغاءِ والتفاعلِ مع جبّارٍ له ثلاثة أدمغة!...

يلزم أن يكون لِكاتبِ أبي العلاء أكثر من يدين، أكثر من أذنين، ودماغٌ ونصف على الأقلّ!... لذلك كان الكُتّابُ يتهرّبون من العمل في بيت أبي العلاء، أمّا المغامرون منهم فكانوا يوافقون شريطة استلامِ ضعفِ الراتب على الأقلّ!...

تُحدِّق نور في المنظر لأنّها الوحيدة في هذا الكون التي ستصفهُ للأجيال القادمة بكلماتٍ تُشبِهُ هذه الكلمات:

«يمتدُّ مضطجعًا، متّكئًا على أحدِ مرفقيه، شاعرٌ بَاسقُ الطول،

Twitter: @ketab_n

رشيقُ الجسد، وسيمُ الوجه، شَعرُهُ الفضّيّ يسيلُ على كتفيه ببوهيميّة، يمدُّ رجليه بهدوء، لا إمام له سوى العقل!...».

ثم تدقُّ ساعةُ الصفر:

يسردُ الشاعرُ نصَّهُ من حيث توقّفَ المرّة الماضية، على الإيقاع والنَّفَس كليهما!...

تنسابُ حينها الكلماتُ الرخيمةُ من فمِهِ كنهر، دون ازدحامٍ أو تردّد. سيلٌ نقيٌّ رقراق... يلفظُ نصًّا خطّيًّا، طازجًا، في صيغتِهِ الأخيرةِ مباشرة، قابلاً للكتابة كما هو تمامًا، دون تنميقٍ أو تنظيف، دون تشذيبٍ أو «تمليسٍ» أو تنسيق، دون صقلٍ أو إعادةِ ترتيب!...

تصغي نور بتركيزٍ كلّي: نَصٌّ لا رجوع فيه إلى الخلف، أو تذبذب! لا شخطات أو خربطات! لا أدنى ارتجاجٍ أو اعوجاجٍ أو ارتباك!... كأنّهُ يقرأُ من كتاب!...

تكتبُ من جديد: «كأنّهُ يقرأ من كتاب!»...

سحرٌ خالص!...

ترتجفُ نور من هولِ وعظمةِ وتفرُّدِ واستثنائيّةِ المشهد!...

يحتاج الحكيمُ أحيانًا لأن يقف ويمشي متّكئًا على عصاه، لِتنشيطِ دورتِهِ الدمويّة وترطيبِ تصلُّبِ مفاصِلِه وعظامِه!... يدورُ حينها في الصالة حول الرباعيّ الصامد: كوز الماء وكاتبه ونور والعمامة... وهو يواصل سردَهُ في الوقت نفسه.

لا يحتاجُ للعصا وهو يدور، لأنّه يعرف خارطةَ الصالة، يراها بِدقّة (كما كانت تدركُ أمُّه ذلك، أكثر من أيٍّ كان). ولأنّه بحاجةٍ لِتحريكِ يديه أحيانًا وهو يسردُ روايتَه، كممثّلٍ في مسرح!...

Twitter: @ketab_n

لا تملُّ نور التحديقَ به وهي تلاحظُ للمرّة المليون، فاغرةَ الفم، أنّه يُملِي لِكاتبِهِ نصًّا نقيًّا، كأنّهُ يقرأهُ من كتابٍ مفتوح!...

تشعرُ نورُ بالدوار: تعرف كم يَقضي كُتّابُ السردِ والشعر أيّامَهم يَغْرَقون على أوراقِهم البيضاء، يبدأون بمسودّاتٍ، تليها مسودّاتٌ ومسودّات، شطبٌ ومسح هنا وهناك. تقديمٌ وتأخير... عراكٌ مع النصِّ لا ينتهي قبل إعادةِ كتابتِهِ عشرات المرّات... فيما هذا الشيخ الذي لا يقرأ ما يكتب، الذي لا يرى عرجنات كلماته ولا يتخيّلُ شكلَها بالتأكيد، الذي لا يُعيدُ قراءتَها لِيربطَ بينها ويواصلَها، يَسطرُ أمام عينيها نصًّا خطّيًّا نفّاثًا، صيغتهُ الأولى هي صيغته الأخيرة التي لا يستطيع سطرَها أيُّ بصيرٍ في الكون!...

لو كان لِنور أن تسجد أمام حكيم المعرّة لسجدَتْ من جلال تلك اللحظة!... تكرّرُ في هوامِشها من تجهلُ أنّها بمعيّة أبيها: «ثمّة إعجازٌ واحدٌ أحد. سحرٌ لا يُمكنُ إلّا الركوع أمامه!»...

تضيف: «لا يوجدُ نصٌّ بثراءِ كلمات هذا النصّ!»...

صدقَتْ نور!

لم تُبرهَنْ مقولةُ نور علميًّا إلّا مؤخّرًا جدًّا، عندما أثبتتْ بعض برمجيّات الحاسوبيّات في أحد مراكز الأبحاث في الحاسوبيّات اللغويّة في لندن، أنّ «رواية الغفران» تحتلُّ المركزَ الأوّل في مقدارِ ثرائها اللغوي، بين كلّ ما كُتِب بالعربيّة!...

يكفي، في الحقيقة، لِمعرفةِ مقدارِ الثراءِ اللغويّ لِكتاب، قسمةُ عدد الكلمات المستخدمة فيه على مجموعِ عدد ذكر كلِّ كلمةٍ فيه!...

Twitter: @ketab_n

برهنتْ تلك البرمجيّات أنّ مقدارَ الثراءِ اللغوي لِهذه الرواية يفوق ثراء كلِّ كتب التراث العربي، بما فيها القرآن الكريم، بكثير... ناهيك عن كُتبِ كثيرٍ من المعاصرين الذين يمتلكون أحيانًا موهبةَ لَوْكِ قاموسٍ من ثلاثمائة كلمة فقط، لإصدار كتاب!...

تصمتُ نور، تصغي بأذنٍ تعلَّمت استنطاقَ موسيقى الكلمات منذ الطفولة. تلاحظُ أنّها تُصغي لِنصٍّ ساحرٍ ينساب من ثغرِ شاعرٍ حكيمٍ لا يتكرّر!...

تكتبُ نور ملاحظات وتعليقات في هوامشها، في كلِّ لقاء...

يكفي أن تسمعَ نورُ أبا العلاء يسردُ قصّةَ الإوزّة التي تقول لابن القارح: «إنّي أمْنى بذبحك لي من قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف عام!»... لِتذوب إعجابًا أمام تعبير «الأربعة آلاف عام قبل خلق الدنيا»، ولِتصرخ في هوامشها: (يا للعجب!... إلٰهي، كيف كان يُحسَبُ الزمانُ قبل خلق الدنيا؟)... أو (ما أمتع «علوم حساب» الإوزّ وهي تنطُّ هكذا فوق المجاز لِتغتالَ الزمان وتُرديهِ قتيلاً)!...

يكفي أن تلاحظ نور، وهي تسمع سردَ أبي العلاء، أنّ الثمار والطيور تتحوّلُ في جنّةِ روايةِ الغفران، بمجرّد رغبة أهلِها، إلى حور عِينٍ كواعب أترابٍ، تُناقِشُ في الأدب وتستشهدُ بأشعار العرب!... وأنّه يمكن أيضًا، حسب رغبةِ ساكنِ الجنّة، تغييرُ مقاييسِ أعضاءِ جسدِها حسب هواه، كما فعل ابن القارح بين سجدتين وهو يطلبُ من البارئ عزّ وجل بأن يُصغِّرَ حجمَ دبر الحوريّة «سنتمترًا سنتمترًا» حتى يصلَ إلى المقياس الرشيق النموذجيّ الذي يناسب مزاج ابن القارح... لِتكتبَ نورُ حينها على هامش مذكّراتِها التعليقَ التالي:

«من يدري، لعلَّ لِنملِ الجنّة أجنحةُ نسور! لعلّ الاثنين في الجنّة

Twitter: @ketab_n

أكثرُ من الثلاثة! لعلّ ساكنَ الجنّة يستطيعُ أن يُخرِجَ جَمَلاً من عمامته وليس أرنبًا فقط!...

كلُّ شيءٍ معقولٌ في الجنّة، بما في ذلك المُحال!...».

يكفي أن تسمعَ مثلاً أنّه يكفي أن يرى المحتفلون في مآدب الجنّة طاووسًا، أو إوزّةً يحلمون بأكلها، كلّ واحدٍ على طريقته، لِتصلَ مطبوخةً إثر ذلك مباشرةً، في نُسخٍ مكرّرة في اللحظة نفسها، لكلِّ صحنٍ كما حلم بها صاحبه، ثم لِتتجمّعَ عظامُها من جديد وتعودَ لِنسختها الأصليّة الأولى... لِتكتبَ نور على هامش مذكّراتِها: تنهار هكذا «علوم الحساب» ومفهوم الأرقام وخصائصها في الجنّة رأسًا على عقب!...

يكفي أن تسمعَ أنّه يكفي أن يخطر ببال ساكن الجنّة ذكر الفقاع (البيرة) لتتفجّر أمام أقدامه أنهارٌ من البيرة، «الجرعة منها أفضل من كلِّ ملذّات الدنيا!»... لِتكتبَ نور مبهوتةً على هامش نصوصها تعليقات مركّزة شديدة التعبيريّة!...

يزدادُ ذهولُ الشاعر عندما تكشفُ نور وتُكثّف في هوامشها أسرار نصِّه بعباراتٍ مثل: «موت العقلِ في الجنّة»، أو «الجنّة مقبرة الذاكرة، والجحيم وطن الأحرار والمبدعين»، أو «الآخرَةُ وطن الكلمات»... أو عندما تحاكي نصَّهُ وتضيف، هي نفسها، لقاءات جديدة لابن القارح في الجنّة والنار مع شخصيّاتٍ شهيرةٍ أخرى!...

تضع نورُ غالبًا، وبكلّ سرور، من سبَّ أبا العلاء من الفقهاء في الجنّة!... تؤلّف حوارًا خاصًا بين ابن القارح وهذا الفقيه أو ذاك. يمدحُ الأوّلُ الثاني أحيانًا على إبداعِهِ في وصف السواك، الذي جعلَ الملائكة تنحني عند وصولِه أبواب الفردوس!

Twitter: @ketab_n

يمدحُ آخر على مسبحتِهِ التي لم تفارق يديه، ورفعت مقامَهُ لذلك في علّيّين!...

* * *

عندما يريد الشاعرُ أن يتنفّسَ ويستعيدَ هدوءَه للبدء بِكَرَّةٍ جديدة من نصّه، يطلب من نور أن تعزف وتغنّي قليلاً!... يُشجيهِ عزفُها وغناؤها حتى الذوبان...

يمدحها حينها كما لم يُمدح يومًا أحد (تحبُّ كثيرًا مدح سيّدِها)! تصلُ إثر ذلك لِقمّةِ سعادتِها. تشكرُ في سريرتها من جديد الجنرالة رقيّة بنت عبد الملك!...

لكنّ نور لا تقترحُ لوحدِها أن تعزفَ وتُغنّي في استراحات رواية الغفران، لأنّها لاحظت أنّ مشاعر كثيفةً، معقّدةً جدًّا وحزينةً أحيانًا، تجتاحُ الشاعر!...

قال لها ذات يوم إنّه لو لم يكن ضريرًا لقضى حياته شاعرًا جوّالاً يعزف ويغنّي في المدن والقرى!... استغربت نور في البدء: ظنّت أنّ ذلك حلم كلّ ضرير، أو أنّه يفضي لها بشذراتٍ من استيهامات وأحلامِ السجن الثالث!...

قلّ استغرابُها أكثر وهي تلاحظه مهووسًا دومًا بإيقاعِ الكلمات، يرقصُ بشكلٍ أو بآخر وهو يسردُ نصّ رواية الغفران ويطوف الغرفة!...

ثم عرفتْ لاحقًا أنّه حلمٌ عتيقٌ راوده منذ فجر طفولته: اعترف الشاعرُ لها أنّه حاولَ عزف الموسيقى مرارًا، لكنّه فشل!...

بإمكانه، كما قال لها، أن يلعب الشطرنج بالعمياء، أن ينظُمَ الشعر بالعمياء، لكنّه جريحٌ في عمقِ أعماقِه، لأنّه عجز عن عزفِ الموسيقى

Twitter: @ketab_n

بالعمياء. . . (مثل كلِّ موسيقيٍّ فاشلٍ حقيقيٍّ جدًّا، صار شاعرًا كبيرًا جدًّا!). . .

باح لها بذلك ذات يوم، بعد إحدى معزوفاتها. كان مسكونًا بالحزن وهو يكشفُ لها كم ضربَهُ العمى في صلبِ كبريائه!. . .

* * *

لِتنفيذِ رغبتِه حاوَلتْ نور أن تعزف وتُغنّي أفضل ما في أرشيفِها الفنّيّ، مدّة استراحةٍ استرخائيّة يبدأُ بعدها جولةً جديدةً من نصِّه!. . .

عزفتْ لذلك وغنّتْ أمامه أغنيةَ هِنْدَ المفضّلة:

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتكَ الصبرُ   أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ

لم تكن تعرف نور أنّ هذه الأغنية بالذات ستُطِيح به، سترمي به في هاويةِ ذكرياتٍ نامتْ منذ عقدَين، ستعبرُهُ كتيّارٍ كهربائي، هي التي لم تكن تريد إلّا أن تشرحَ صدرَهُ بأحلى أغانيها. . .

لم يكن عصيَّ الدمعِ شيمتهُ الصبرُ: انفجر بكاءً كطفل بعد أن أكملتْ نور غناءها!. . .

ما أحزن منظرَ رؤيةِ شيخٍ يبكي، لا سيّما إذا كان شيخًا جليلاً، ناهيك إذا كان سيّد المعرّة!. . .

لم تعرف كيف تُخفِّفُ وطءَ شجونِه الحادّة وحزنَه المدلهِمّ المداهم!. . . (تذكّرتْ بكاءَ أُمِّها عندما طلبتْ منها أن تسردَ لها نقلات آخر مبارياتها في الشطرنج مع الشاعر! تذكّرتْ نور أنّها لم تفهم سرّ بكاء أمِّها، عند نقلةِ استسلامِها في مباراةٍ كانت متفوّقةً فيها!). . .

حزّ في نفسِها بكاؤه الآن، مثلما حزّ فيها بكاء هِنْدَ آنذاك. لم تَسَعِ الدنيا ارتباكها وحزنها اليوم أيضًا!. . .

Twitter: @ketab_n

ثم، بعد أن استعاد الحكيم بعض جأشه، أعاد أوّلَ سؤالٍ وجّههُ لها عندما وصلت المجلس قبل عدّة أشهر:

ـ ما اسم أمّك؟

ـ فاطمة!

ـ أأنتِ متأكّدةٌ من ذلك؟ ألم يكن لها اسمٌ آخر قبل ولادتِكِ؟...

ـ ...

Twitter: @ketab_n

٣٩

آدمُ الأخير

يشاهدُ أبو النزول (وهو يتخبّطُ بحثًا عن اللحظةِ التي يقول فيها «بدأ الإنسانُ الآن!») عاشقًا وعاشقةً جالسَين قرب ينبوعٍ ماء، يعومان فيه معًا بسَدَرٍ ممتع، تحت ضوء القمر. نسماتٌ ليليّةٌ رقيقة. يتعانقان عناقَ شابّينِ في أوجِ الصبا وسعيرِ الرغبة!...

ينظرُ الشابّ لِلقمرِ مشدوهًا بجمالِهِ ورقَّتِه وكأنّهُ يراهُ لأوّل مرّة، رغم أنّه يعبدهُ ويُصلّي له كلَّ ليلةٍ في هيكل القرية!...

يخطرُ ببالِهِ أن يقولَ لِمعشوقتِه: «أنتِ القمر، أنتِ قمري!»...

تفتحُ عينيها مندهشةً، لم تسمع يومًا عبارةً مثيرةً جميلةً كهذه!... تتساءل: «أيقصدُ: أنتِ إلٰهي؟»... تحاول أن تفهم، عبثًا!... ثم تشعر بِنشوةٍ رقيقةٍ سرّيّةٍ ممتعة تسري في جسدِها وغُدَدِها لأوّل مرّة!...

يُدوّيُ أبو النزول فرحًا: «وُلِدَت الاستعارة، إذن وُلِدَ الإنسان!»...

* * *

Twitter: @ketab_n

ثم يعودُ الشاعرُ البحّارُ إلى الخلف، واثقًا أنّه «وُلِدَ» قبل ذلك. . . يرى شابًّا كسولاً فضّلَ أن يجلس في المغارة في حين خرج رفاقُهُ بِحِرابِهم للصيد. يحاولُ النوم، لا يستطيع! . . .

تراودُهُ فكرةٌ مثيرةٌ ورغبةٌ غريبةٌ في الآن نفسه! . . . يأخذ خضابًا أحمر، ينقش به على جدار المغارة، بانفعالٍ كبيرٍ، ردفًا دائريًّا يعلوهُ خصرٌ بمنحنياتٍ غير ضاوية، يعلوه نهدان ثريّان! . . . لم ينقشْ قبل ذلك اليوم إلّا خطوطًا تقريبيّةً تشبهُ حيواناتٍ ضارية، حرابًا وأدوات صيد، سباعًا كاميريائيّة تثير كلَّ إعجابِ وتقديسِ قبيلته! . . .

لِرفاقهِ همٌّ آخر أقلُّ أرستقراطيّة: يختبئون بصمت في السهل المجاور بانتظار حيوانٍ يسقط في فخٍّ أعدّوهُ بمهارة! . . .

يُحدِّقُ الشابُّ بِالوركِ الذي رسمهُ وقتًا طويلاً. يكتنفه الفخرُ، ونشوةٌ لم تجتحْه من قبل! يشعرُ بهدوءٍ غير اعتياديّ، بنوعٍ من اللذّة! . . .

ثم يضطجعُ مثبّتًا عينيه على منحنيات الردف، تراودهُ أحاسيس جديدة، موجةٌ عاتيةٌ تَسري في قضيبهِ الذي ينتصبُ فجأة، يتصلّبُ بِشدّة، بِتوتّر! . . .

تداهمهُ رعشةٌ غير أليفة، يغفو، يغرق في نومٍ عميقٍ، لذيذٍ جدًّا! . . .

يعودُ رفاقُهُ بِغزال، يضرمون شعلةً لِشوائها قرب باب المغارة. يلمحُون، مع ارتعاش وهجِ ألْسِنةِ النار ورقصِ ظلالِها على جدران المغارة، شيئًا غريبًا يتلألأ على أحد الجدران! . . .

يلاحظون في الحقيقة نقشًا جديدًا يُشبهُ: خاصرة؟ نهدين؟ وركًا؟ . . .

Twitter: @ketab_n

صخبٌ، فرحٌ ومرح... فوضى بريئة!...

نسوا الغزال يضطرمُ ويتفحّمُ خارج المغارة وهم يحدّقونَ في الجدار، مستغرقين بالمقارنة بين نقشِ الخاصرةِ وخاصرات بنات القبيلة!...

يتقاسمون ما تيسّر من لحمٍ غير محروقٍ جدًّا. ضحكٌ يملأُ المغارة، قهقهةٌ وشدٌّ وجذب!...

ذاكرةُ أوراكٍ ونهود فتيات القبيلة ترقصُ في كلّ رأس! مقارناتٌ ضاحكة، رغباتٌ آسرةٌ جديدة... ثم هدوءٌ وتأمّل!...

نسغُ «الليبدو» يسري بحرارة في كلِّ جذوعِ القبيلة التي هيّجها هذا النقش الجديد!...

غبطةٌ وسعادةٌ ومتعةٌ تمتزجُ بنخيرِ «بيكاسو القرية» الذي تُحلِّقُ أحلامُهُ في سماءِ الألوانِ والمنحنياتِ الساحرة! لو يدري أنّه بعد أن يستيقظ، سيصيرُ نجمَ القرية، فنّانَها الأعظم، ساحرَها الأكبر!...

يقول أبو النزول، وهو يتنفَّسُ الصعداء: «كلاّ، وُلِدَ عشقُ المنحنياتِ الجميلة، وُلِدَ الإنسان الآن فقط، عزيزي أمينائيل!»...

* * *

يرجع أبو النزول إلى الخلف من جديد. يرى شيخًا قابعًا فوق أكمةٍ صغيرة، ينظرُ فجأةً باتّجاهِ شجرةٍ في أطرافِ الغابة المواجهة.

يقرعُ قلبُهُ خوفًا: ثمّة ضبعان خلف الشجرة لا يراقبانه بودّ. يسمع وراءهُ أيضًا حركةً مثيرةً تزحفُ بين الأعشاب، مجهولةَ المصدر، تتقدّمُ نحوه ببطءٍ وانتظام، بانتظامٍ قاتل، يُريعه أكثر فأكثر!...

اللعنة، في أيّ اتّجاهٍ يهرب؟... يشزرُ السماءَ بنظرةٍ خاطفة. كالعادةِ: لا ردّ!...

Twitter: @ketab_n

لا وقت أمامه: أعين الضبعين تتسمّرُ باتّجاهه، تهرع لتمزيقه. شوكةُ أنياب شدقِ الثعبان تتدلّى، تنتصب، تُرفرِفُ نحوه بِتذبذبِ محمومٍ مسعور!...

يشعرُ الشيخُ فجأة بالقرَفِ من هذه الحياة المضنية: خرج بحثًا عن لُقمةٍ لأطفاله الصغار، أم خرج ليصبح هو ذاته لقمةً لوحوشٍ كاسرةٍ لا تميلُ للتفاوضِ عند الجوعِ أو الشعورِ بالخطر؟...

تغادرُهُ دمعتان! يبكي ضُعفَهُ الجذريّ بحرارة، يبكي بسرعةٍ تفوقُ سرعةَ جَرْيِهِ!...

يرسلُ أبو النزول إس إم إسه: «وُلِدَ الحزن، وُلِدَ الإنسان الآن!»...

* * *

ثم يتقدّمُ الشاعر البوهيميّ في الزمن من جديد، يُلاحظُ أُمًّا يعثو بِها الحزنُ، تبكي بعنف!... ينام بين يديها طفلٌ صغيرٌ توقّفَتْ أنفاسه! (وَقِيْدُ نارٍ قريبٌ منها انطفأ قبل ذلكَ بدقائق)...

لماذا تشتعلُ النارُ عندما «يُنفَخُ» فيها، و«تنطفئُ» في الثقب المسدود؟ لماذا «أنطفأ» طفلُها؟ ماذا غادر جسدَهُ كي يفقد بعد ذلك مقدرتَهُ على التنفُّسِ والحياة؟...

أيقنَتِ الأمُّ أنّ «نفخةً» تُشعِلُ الحياةَ كانت تسكنُ جسدَ طفلِها، غادرَتْهُ لسببٍ مجهولٍ، وطارتْ نحو «بلاد النفخات» في أعالي السماء!...

تنظرُ الأمُّ المنكوبةُ إلى السماء بِعينَين مستجديتين، تبحث فيها عن «نفخة»، عن شيءٍ ما يُشبِهُ خيطَ دخانٍ بلا لون، آخرَ أنفاسِ طفلِها!...

Twitter: @ketab_n

في معمعان هذيانها مكثتِ الأمُّ تصرخُ صيغاتٍ تُشبِهُ الأدعية. تنادي فيها «نفخات» الأجداد التي تقطنُ «بلاد النفخات» السعيدة... تتوسَّلهم رعايةَ «نفخةِ» جثمانِ ابنِها التي هاجرتْ نحو ديارهم!...

يصرخُ أبو النزول من جديد: «وُلِدَ مفهومُ الروح! وُلِدَ الإنسانُ الآن!»...

يحكُّ أمينيائيل رأسه!...

يتابعُ أبو النزول عبر الزمن خيطَ هذه القصّة التي ستقلبُ حياة البشر رأسًا على عقب!...

يعتبرها جذر الجذر!... يعرف أنّ كلَّ أطروحات ومسلّماتِ وجنّاتِ وجهنّماتِ وجنٍّ وعفاريتِ وآلهةِ «الأخ الأكبر» تأسّستْ على فرضيّةِ وجودِ هذه النفخة الميتافيزيقيّة، لا غير!...

يتوجّهُ أبو النزول، وهو يغوصُ في الأعماق، نحو أمينيائيل قائلاً:

((رويدًا رويدًا تحوّلت أدعية «أمّ القرية» إلى طقوسٍ تمارَسُ بعد الموت... تتوارثُها الأجيال، تتفاعلُ بها مع «عالم النفخات» الفردوسيّ، العادلِ والرائعِ بالضرورة، تُخفِّفُ بها قليلاً من بعضِ قلقِها الوجودي، تُحيِي بها رميمَ أحلامِها اليائسة!... قبل أن يحشر الناسُ أنوفَهم في جغرافيّةِ «عالَمِ النفخات» ونظامِهِ الاجتماعي، ويؤثّثوهُ كما يحلو لِتوقّعاتهم الحدسيّة:

نصّبوا في صهوةِ عليائه ملِكًا حاكمًا لا نهائيَّ القدرات، تخرجُ من جيبِهِ العواصفُ والبروق... (لا شيء أكثر منطقيّةً من ذلك!)...

نصّبوهُ نافخَ النفخات!... أيمكنُ غير ذلك و«الكلُّ نفخةٍ نافخ» كما يقول حدسُهم البدائي؟...

Twitter: @ketab_n

توارثتِ الأجيالُ مفهومَ هذا الحاكم، تطوّرتْ صورتُهُ وملَكاتُهُ من جيلٍ لِجيل، من دِينٍ لِدِين، بِمقدرات قُدسيّةٍ أكبر فأكبر... قبل أن يَمتلكَ أخيرًا كلَّ القدرات التي تجعلهُ يستحوذ على كلِّ عصبونات منظوماتِ الدماغِ الاستنباطيّة، ويهيمن على كلِّ حركاتها وسكناتها:

يعلمُ السرّ وأخفى، بيدِهِ مفتاحُ الحياةِ والموت، هو صانعُ المصائر، غافر الذنوب، علّام الغيوب... قبل أن يُغنّوا له شيئًا ما يُشبِهُ: «آمين، يا ربّ العالمين!»...

ها هي اليوم، عزيزي أمينيائيل، آخر مراحلِ «أمجاد النفخة»:

معابد في كلِّ حيٍّ وشارع يُصلّي، يتهجّدُ، ويحجُّ فيها الملايين، يتقاتلون من أجلها ويموتون بالملايين، يكتظّون بالملايين لِلمسِ رموزِها الوثنيّة (صليبٍ مفقود، ضريحٍ لِرَمِيم جثّةٍ مباركة، هيكلٍ بناهُ نبيٌّ وهميٌّ، حجَرٍ أسود هبطَ عموديًا من الجنّة، كأسٍ استخدَمها نبيٌّ في عشائه الأخير، أيقونةٍ أو مياهٍ لها أسرارٌ ومعجزات، شَعرةٍ مقدَّسة...) بحثًا من نافخ النفخات عن حسنِ الحظّ والخيرِ والبركاتِ والسِّتْرِ والغفران...

يدوسون بعضُهم بعضًا عند ازدحامهم، بالمئات أحيانًا، ويموتون!...

يموتون نفخاتٍ تدوسُ نفخات!...

نفخاتٍ بعضُها فوق بعض!...

لن تعرف هذه الأمُّ المسكينة يومًا حجمَ الكسورِ التي تركَتْها نفختُها في حياةِ بني الإنسان!...

ربّما لذلك يجدُ «الأخُ الأصغر» متعةً خاصّة في «نفخِها» بِهدوء وهو

Twitter: @ketab_n

يشرحُ اليوم في محاضراتهِ أنّ كلَّ النشاطات الفكريّة والحسّيّة والروحيّة للإنسان (اللغة، التفكير، الحبّ، القلق، الذاكرة، الابتسامة، الضحك، البكاء، الحسّ، سراديب اللاوعي وخزائنه الموصدة...) مقرّها الدماغ وليس هذه «النفخة» العزيزة الغالية!...

يجدُ هذا الأخُ الموهوبُ في الحقيقةِ لذّةً ماكرةً وهو يكشفُ النقابَ في تلك المحاضرات عن جغرافيّةِ مناطقِ الدماغ، وكيف يتموضعُ ويتجسّدُ فيها هذا النشاطُ الروحيّ أو ذاك...

لا يستطيعُ إخفاءَ لذّةٍ صامتة، مُسكِرةٍ جدًّا، عندما يُلوِّحُ في تلك المحاضرات بِصُورِ سكانيرِ الدماغ التي تُجلي «وَهجَ» بعض مناطقِه أثناء التفكيرِ، المشاعرِ، الأحلام...

أو عندما يبوح بأجلِّ وأقدسِ مشاريعه: قراءة أبجديّةِ الروحِ وكشف أسرار آليّاته!... أو ما يُسمّيه: برامج أبحاثِ دراسة التيّاراتِ الكهروكيماويّة بين شبكاتِ المنظومات الاستنباطيّةِ المتخصّصةِ في الدماغ!... أو عندما يردّد بهدوء: «الإنسان جسدٌ لا غير، روحُهُ دماغُه!»...

تصلُ هذه الصورُ والمشاريع لِجُمجمةِ «الأخِ الأكبر» مثل ضرباتِ مطارق!...

تهتزُّ جدرانُ آخرِ معاقِله وخطوطهِ الحمراء، هو الذي يقول: «يُمنَعُ التساؤلُ حول الروح!... هي، مثل تفّاحةِ الفردوس الشهيرة، خطٌّ أحمر، موضوعٌ مُحرّمٌ لا يعلمُ أسرارَهُ إلّا نافخُ النفخات!»...)).

* * *

لم يناسب أبو النزول كلَّ ذلك!... أراد أن يرى حدَثًا فريدًا يجعلهُ يقول، دون تردُّد: «وُلِد الإنسانُ الآن لا غير!»...

Twitter: @ketab_n

رأى، وهو يتأرجحُ في سفوحِ الزمكان، شابًّا وفتاةً يرسمان على الأرض مُربَّعًا تتّصلُ أركانُ زواياه بخطوطٍ قُطْرِيّة. يضعان في رؤوسِ زواياه ثلاثة حجارةٍ صغيرة، الأولى بعد الأخرى. (يلعبان لُعبةً اخترعاها انطلاقًا من لُعبةٍ أقلَّ تعقيدًا وأكثر بدائيّة). . .

ثم يحرِّكُ كلٌّ واحدٍ منهما حصاهُ بين أركان المربّع ومركزِه ونقاطِ في منتصفِ أضلاعِه!. . .

يفكّران، يدفع أحدهما الآخر بِرقَّةٍ، يُقهقهان، يُثبّتان نظرَهما في اللعبة!. . . يتخالسان النظرات بابتسامةٍ ماكرةٍ تُخْفي محاولةً تلصُّصيّةً لاستقراءِ ما ينوي الآخرُ لعبَهُ في النقلة القادمة (يُعجبُ كلٌّ واحدٍ منهما بِلمعةِ عيني الآخر)!. . .

هما في غايةِ الإثارة والمتعة! نشوةٌ جديدة!. . .

تنتصرُ الفتاةُ في الأخير (ترصُّ كلّ حجارتِها على الخطّ نفسه في المربّع)!. . . تُدوّي ضحكتُها المنتصرة من سهول السافانا المجاورة حتى بُحيرة مانيارا!. . .

يرمقُها رفيقُها باستغرابٍ وإعجابٍ وغِيرة: أيُّ إلٰهٍ ساعدَها، جعلَها تُحرِّكُ حصاها كما يلزم، ومنحَها قوّةً سِحريّةً خفيّة!. . .

آه، القوّة!. . . لهُ، هو أيضًا، إلٰههُ الذي منحهُ قوّةً ثُعبانيَّةً تتدلّى، أسفل البطن!. . .

يدفعُ الشابُّ فتاتَهُ إلى الأمام بقوّة، وكأنّهُ يريدُ أن ينتصرَ بِطريقته!. . .

تسقطُ على الأرض، رجّةٌ كهربائيّةٌ عذْبةٌ تتماوجُ في ورَكِها الكرويِّ الشابّ. أمواجٌ إلكترونيّةٌ رقيقةٌ تعبرُ جسدَها البلاستيكيّ الطازج!. . .

Twitter: @ketab_n

تُقاومهُ لِتضاعفَ إثارته، تسخرُ منه جهرًا: «هزمتُكَ!»، تقولُها رافعةً ذراعيها!...

تزدادُ، في الوقت نفسه، رغبةً واستثارةً بهذا الشدّ والجذب!...

تنتصبُ حلمتا نهديها المكتنزين بشكلٍ غير معقول!...

يَحُطُّ عليها، يلثمُ فاها بضراوةٍ تتحوّلُ لطفًا ورقّة، تُلامسُ أطرافُ أصابِعهِ بِنعومةٍ بدائيّةٍ بريئة تكوّراتِها السلسةَ، حلمتيها المتكوّرتين بِشبَق... (لم يتجرّأ وهو يرى شموخ تكوّرِهما إلّا أنْ يكونَ شديدَ الرقّة والنعومة، كما لم يكنه يومًا)...

تستسلمُ الفتاة بتلذّذ!...

تمصُّ لِسانه، يمصُّ لسانها، يجدان لذّةً شديدةً في ذلك، مشاعر جديدة! رعشةُ تيّارٍ كثيفٍ محمومٍ يعتريهما معًا، في الآن نفسه! الغددُ في أوجِ تفتُّحِها وعطائها! لهيب. نسْغُ الشهوةِ يتصاعدُ من كروموزوماتِ كلٍّ خليّة!...

ضحكٌ طفوليٌّ مشترك، غبطةٌ عارمة!... تنطُّ الفتاةُ نحو مصدرِ قوّتِهِ الثعبانيّة، تغمرهُ قُبَلاً!...

تجدُ لذّةً مفاجئة بِمصّهِ بِرقّةٍ واكتساح، بهبوطٍ عميقٍ وصعودٍ منهجيّ!... تعيث بأرجائه قُبَلاً ومداعبات...

تبتسمُ بِعينَين فضوليّتَين بين كرٍّ وفرّ، بين تمرُّغينِ في أنحاء الخصيتين، لِمن هزَمتْهُ في المباراة قبل قليل!...

يشعرُ أنّها هي من تعزفُ إيقاع حركاته وسكناته من جديد، تمغنِطه تمامًا، تنتصرُ عليه مرّةً أخرى!...

ينتزعُها من انهماكِها القاتل بِثُعبانه، يتحرّرُ بأسف من حصارها اللذيذِ له!...

Twitter: @ketab_n

يريدها أن تكون تحته أوّلاً، أن يحتضنَ ظهرَها ثانيًا، أن يعودَ بِها أسفله من جديد. أن يُقلِّبها في كلِّ الاتّجاهات، أن يُقبِّلها في كلِّ الاتّجاهات!... يريد أن يسودها قليلاً! يريدها أن تُؤمن أنّه ليس ثمّة أقوى وألذّ من لحظةِ دخولهِ جسدَها، وتوغُّلِهِ بحرّيّة!...

يدخلها بمنهجيّةٍ ورغبةٍ في السيادة!... يشعرُ أنّه ينتصر عليها أخيرًا، فيما هي لا تُفكّر قطّ بِلُغةِ الهزائم والانتصارات!...

يتحرّكُ داخلها بنشاط، يريدُ به إثبات وجوده. فيما تشعرُ أنّها هي التي تحتويهِ بجدارةٍ وخصوبةٍ وتألّق!... نشاطٌ محتدم، مرموقٌ جدًّا!... يريدُ فعلاً أن يثبتَ لها أنّه قائدُ الأوركسترا، بطلُ هذه اللعبة!...

تُدرِكُ فحوى همومهِ الصبيانيّة. تسخرُ منها بِصمت. لا يُهمّ، لأنّها تنقادُ له بِرغبةٍ عنيفة، بِتلذّذٍ طوعيٍّ خالص! تجدُ لذّةً في أن تكون قبطانَهُ ومطيّتَهُ في الوقت نفسه!...

تفضّلُ التحديقَ بِلمعةِ عينيه، تبتسمُ نظراتها لهُ بِشهوةٍ تُثيرهُ حدّ الجنون!... يحدّقُ بنظراتِها بِخشوع...

يَعْقُل، يخضعُ لإيقاعِها، يستسلمُ لرغباتِها!...

تنتصرُ من جديد قائدةٌ قائدِ الأوركسترا!...

يدركُ ذلك، يحاول أن يُطلقَ عنان ثعبانِه بجموحٍ من جديد، لِيُهيمنَ عليها... يتراجع، يشعرُ أنّه يتبعثرُ عبثًا!...

تملُّ هذه المسرحيّة: تريدهُ عاشقًا لا ثورًا، بحّارًا لا مُناطِحًا!...

يُخفّفُ الوطء، يتناغم معها بتكافؤٍ وانسجام!...

تسيلُ بعد ذلك المعزوفةُ بتلقائيّةٍ وبراءةٍ خالصة، بدون قائد، بدون قائدة، بدون قيود!...

Twitter: @ketab_n

يتوحّدان تحت السماء دون خوفٍ أو حواجز، غير بعيدٍ من مرأى القبيلة التي لا تكترثُ كثيرًا بتفاصيل سيناريوهات هذه الطقوس البيولوجيّة الأليفة التي تضمنُ للقبيلةِ التناسلَ والبقاءَ على الأرض!...

يرسلُ أبو النزول لِرفيقِهِ الغالي: ((البشريّة تحيا سعادةً نقيّةً مستحيلةً في عالم اليوم، تحتفلُ بِغرائزها ببراءة، دون منعٍ أو رقابة!...)).

أذهلَ أبا النزول هذا المنظرُ وهو ينتقلُ من لعبةِ الحصى إلى لعبةِ الجسد. من النظرات التلصُّصيّةِ أثناء المباراة، حتى الاندماجِ الجسديِّ الذي تأرجحَ بين العنفِ الرقيق، والرقّةِ العنيفة... مرورًا بانتصارِ الفتاةِ وهي تكشفُ أسنانًا ناصعةً بيضاء، كما يُحبُّها أبو النزول، وشهقةَ نصرٍ نقيّةً مُدَوِّيَةً كما يُحبُّها أيضًا، هو الذي علّمتهُ الحياة، في عمرِهِ الأوّل، كيف يصغي لأصواتِ الصمت ويُعرّي أقنعةَ الأصوات!...

كلّما انتهى من رؤيةِ هذا المنظر الذي أيقظ فيه مشاعر مكبوتةً منذ ألف عام، هرعَ لِيلحقَهُ من جديد، لِيُشاهدَهُ عدّة مرّات!...

ينحني أبو النزول أمام آدمِهِ الأخير، وحوّائه الساحرة، قبل أن يضيف لأمينيائيل مسكَ الختام، هاتين الكلمتين الكثيفتين:

«وُلِدَ الإنسانُ!»...

يضيف لها هذه «اللحقة» المُكثَّفة: «بدأت الآن السنة: صفر!»...

يتذكّرُ بعنفوانيّةٍ معشوقتَه هند، مبارياتهما في الشطرنج ونهاياتها المحمومة، تاركًا أنّةَ شوقٍ عارم محموم، قرب الشابّين وهما يمتزجان بعشقٍ وضراوة... تنسابُ أنّةُ أبي النزول ببطءٍ في حقول سافانا سرينجيتي، قبل أن تشفطها بهدوء سفوح جبال نجورونجورو الصمّاء المجاورة!...

Twitter: @ketab_n

يهمسُ أبو النزولِ اسمَ هند بِصوتٍ متحشرج، يُناجيها شِعْرًا (نسيَ ابن بطّوطة الزمكان أنّه شاعرٌ أوّلاً وأخيرًا)، ينظم لها أبيات شعرٍ مُضرَّجةً بالوَجدِ، لا يبعثُها لأمينيائيل!...

أخطأ تمامًا: أمينيائيل (الذي يحيا وحيدًا كحيوان) كان سيفضّلُ ذلك على كلِّ إس إم إساتِ «تقريرِ الهدهد»!...

تتفجّرُ في أبي النزول رغبةٌ (تفترسُهُ منذ عشرة قرون في الحقيقة، لكن لا يُمكنُ تأجيلُها الآن) لأن يرى هِنْدَ ويُقبِّلها طويلاً، لأن يُقبِّل كلَّ مليمترٍ من جسدِها الملائكي الناعم، لأن يحتضنها بكلِّ أشواق عشرةِ قرون، بعد مباراة شطرنج يستسلمان فيها معًا قبل بدايتِها!...

يدركُ أنّ كلَّ ما رآه منذ بدءِ هذه الرحلة يوميّاتٌ تافهة، زخارفُ وزركشاتٌ أدبيّة صغيرة، مقارنة بما سيحدثُ له الآن!...

يتساءل إن لم يكن قد تأخّرَ عمدًا عن الذهابِ إلى هند، لأنّه واثقٌ أنّه بعد رؤيتِها لن يغادرها أبدًا!...

سقط أبو النزول أخيرًا صريع رغبتهِ الأزليّة العنيفة برؤية هند، لم يعد يستطيعُ التأخّر أو المقاومةَ، قفزَ حوالى خمسين ألف عام بعد أن «بدأ الإنسان»، باتّجاه معرّة النعمان.

معرّة هند!...

Twitter: @ketab_n

٤٠

أخلاق الإنسان الأعلى، وأخلاق البقّالين

ردّتْ صاحبةُ العينينِ العسليّتين على سؤالي الذي أردتُ بهِ أن نعود بِحديثنا إلى رحابِ أبي العلاء:

ـ يقولُ ن. س. عن أبي العلاء أشياء كثيرةً جدًّا!...

مشروعُ أبي العلاء الأخلاقي مثلاً كان طليعيًّا جدًّا أيضًا، من وجهة نظرِ ن. س.!... كان أبو العلاء يعتبرُ الفضيلةَ غايةً بحدِّ ذاتها، يسخرُ من ممارستِها لِجني ثوابٍ وحسنات، بِعقليّةٍ نفعيّةٍ بِدائيّة، كما تحثُّ عليه أديان البقّالين...

يسخرُ أيضًا من فكرةِ العفوِ عن الرذيلةِ والإثم باللجوء إلى مناسك حجٍّ أو صيامٍ وصلوات، لأنّ ذلك يجعلُ الإلٰهَ شريكًا في ارتكابهما، أو بقّالاً في أفضلِ الحالات!...

يقولُ حكيمُ المعرّة إنّ الفضيلةَ تُمارَسُ لِجمالِها، وليس بحثًا عن جزاءٍ وثواب:

توَخَّيْ جميلاً، وافعليهِ لِحُسنِهِ ولا تحكمي إنّ المَلِيكَ به يجزي

Twitter: @ketab_n

ألا يلزم أن يكون هذا البيتُ حليبَ تربيةِ المواطن؟...

أو هذا البيت، قرين السابق:

فلتفعلِ النفسُ الجميلَ لأنّهُ خيرٌ وأحسنُ، لا لأجلِ ثوابِها!

ألا يلزم أن يكون هذا البيتُ أيضًا منارَ السلوكِ اليوميّ للإنسان الحديث؟...

يُفضّلُ أبو العلاء من يتركُ الصلاةَ على من يلجأُ لها نفاقًا وتضليلاً:

إذا رام كيدًا بالصلاة مُقيمُها فتاركُها عمدًا إلى الله أقربُ

يتلخّصُ الدِّينُ المثالي، أو الفضيلة، في فكرِ حكيمِ المعرّة، بكلمتين: إنصافُ الجميعِ دون تمييز، الالتزامُ بالحقِّ والقانون:

الدينُ إنصافُكَ الأقوامَ كلّهمُ وأيُّ دِينٍ لآبي الحقِّ إن وجبا؟

كلُّ ما عدا ذلك زمزمةُ ذباب، طلفسات، «لا أشياء صغيرة» حسبَ تعبير شكسبير!...

كان أبو العلاء يرفضُ ويُدِينُ الانتقامَ والحقدَ والكراهية. يعتبرُ العقوبةَ على الجريمةِ ظلمًا وجريمةً بحدِّ ذاتها، ينهى عن الاستسلام لِلحقد والضغينة:

إذا كان من فعلَ الجريمة مُجبَرًا فعقابُهُ ظلمٌ على ما يفعلُ

لا تمسِ في نار الضميرِ فراشةً فضغائنُ الصدرِ الحريقُ المُشعَلُ))

لاحظتُ: يُحلّقُ أبو العلاء في قِمم أخلاقيّةٍ تتجاوزُ بِسنين ضوئيّةٍ قممَ أخلاق البقّالين، أخلاق ضغائن وانتقامات العبيد!...

استأنَفتْ:

((كان، باختصارٍ شديد، ضدَّ ثقافة «الإبل الجُرب» التي تلتقي في

Twitter: @ketab_n

صلاة الجمعة في سوق تجارة الحسناتِ الجماعي:

يقولون: هل تشهدُ الجُمَعَ التي رجونا بها عفوًا من الله أو قُربا؟

وهل لي خيرٌ في الحضور، وإنّما أزاحمُ من أخيارهم إبلاً جُربا!

كان مع المساواة، والتوزيع العادل للثروة... الحديثُ عن كلِّ ذلك سيطولُ كثيرًا! ثمّة عددٌ من أجمل الاستشهادات الشعريّة حول نظريّة الأخلاق عند أبي العلاء، لو بدأتُها فلن أتوقّف!...)).

نظرَتْ لِساعتِها، كما لو كانت تنتظرُ عودةَ ن. س.!... ردّدتُ بيني وبيني: «لا تتوقّفي ل. هـ.، فديْتُكِ بِعُمري!... تحدّثي حتى يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها!»...

لم تنظر لِشاشةِ الكمبيوتر غير مرّة أو مرّتين، ردّت خلالهما على رسالةٍ إلكترونيّةٍ ما، كما يبدو، بكلمتين سريعتين!...

أردَفَتْ بهدوء، بابتسامةٍ مُهذّبةٍ خفيفةٍ بين الحين والحين، ترُجُّني كالعادةِ رجًّا (ابتساماتها أدغالٌ من الهواء الطلق):

ـ لكنّ أكثر ما يُدوِّخُ بي شخصيًّا في ن. س.، أكثر ما أحبّه، هو عندما يتحدّثُ عن «الكتيبة الخرساء»، حسب مصطلح أبي العلاء!...

ـ قبل أن أسألكِ عزيزتي: «ما هي هذه الكتيبة؟ من هم جنودها؟» أودُّ أن أعرف كيف يَقضي أبو النزول زياراته خارج بلاد العرب والمسلمين؟...

أجابت:

((لهُ في هذه الزيارات مآرب أخرى، تختلفُ كلّيّةً عن زياراتِه لِبلاد العرب والمسلمين!...

يتابعُ خلالها بدقّةٍ أهمّ نشاطات العِلم والفكرِ والفلْسفة! لا يمرّ

Twitter: @ketab_n

حدثٌ هامٌّ على هذه الأصعدة دون أن يحضره!... ينتقلُ من متحفٍ لِمتحف، من مسرحٍ لمسرح، من أوبرا لأوبرا!...

يتابعُ بِشغفٍ أيضًا تطوّرات الأبحاث الجديدة، لا سيّما تلك التي تمسُّ «الطبيعةَ الإنسانيّة»، التاريخَ، الفلسفةَ، الميديولوجيا!... يلخِّصها لأمينائيل، ويستلهمُ منها أفكارًا كثيرة لإغناء تقريره!...

يتابعُ كلَّ الأزماتِ البيئيّة والماليّة، الحروبِ الروحيّة الخفيّة، باهتمامٍ خاصٍّ جدًّا، ويُعلِّقُ عليها بإسهاب... لكنّهُ قبل هذا وذاك ممحونٌ بالكلمات، بالأدب!...

عندما يكون خارج بقاع العرب والمسلمين يفكِّرُ كثيرًا...

يأخذ أحيانًا (وحيدًا، كما أتمنّى!) سفينتَهُ الصغيرة للتجوّلِ في البحار والمحيطات خلال أسابيع... يكتبُ خلالها شذراتٍ طويلةً من «تقرير الهدهد»!...

يمشي طويلاً (وحيدًا، كما أتمنّى!) في أعالي الهملايا والألب والقممِ الأفريقيّة الشاهقة، حيث يمكث للنقاهة عدّة أيّام... لا يحملُ معهُ غيرَ فصولِهِ الأخيرةِ من «تقرير الهدهد» للتنقيح والاسترسال!...

يتنقّلُ بكلّ سهولة (وحيدًا، كما أتمنّى!) من المحيطات الثلجيّة المتجمّدة إلى أقصى الهند والصين واليابان وغرب الأميركيّتين، مرورًا بِعمقِ أفريقيا، بكلِّ سهولة وسعادة... حقيبةُ ظهرهِ السوداءُ مشحونةٌ بالكتب، وبِمسوّداتٍ لِفصولٍ طازجة من تقريرهِ الشهير!...

يحتاجُ ن. س. للعومِ باستمرار، وللمشي طويلاً كلّ يوم. دونهما يشعرُ بالتخثّر، بالاختناق!... يعرف خرائط شوارعِ المدنِ الكبرى بِدقّةٍ مذهلة من فرطِ جوبهِ لها مشيًا ساعاتٍ وساعات!... يدخلُ فيها في نقاشاتٍ وثرثراتٍ حيّةٍ دائمة مع بشرٍ من كلِّ الأطيافِ الاجتماعيّة!...

Twitter: @ketab_n

يحتاج للخلوةِ (وحيدًا، كما أتمنّى!): لهُ في الكرة الأرضيّة قائمةٌ طويلةٌ من الأماكن الخاصّة التي تتناثرُ هنا وهناك: قرًى جبليّة شاهقة، جُزرٌ نائية، غاباتٌ وواحاتٌ وأدغال له فيها ذكرياتٌ وطقوسٌ وشجون!... لا يجدُ سعادتَهُ إلّا في الاختلاء فيها (وحيدًا، كما أتمنّى!) بين الحين والحين!...

عندما يكون خارج بقاع العرب والمسلمين يفكّرُ ن. س. ويكتبُ كثيرًا!...

ربّما نتحدّثُ في هذه المواضيع الطويلةِ جدًّا مرّة أخرى!... (نظرتْ بِقلق لِساعتِها من جديد! لعلّها مستغربةٌ من تأخّر اتّصال ن. س. بها!)...

سألتُها:

ـ لِنعُدْ للكتيبةِ الآن، لو سمحتِ: ما هي هذه الكتيبة الخرساء؟ من هم جنودُها؟...

Twitter: @ketab_n

٤١

نداء الثمرات

يسألُ أبو العلاء نورَ بين الحين والحين عمّا كتبَتْهُ في هوامشِها حول روايته. تقرأُ له بعضَ ملاحظاتها وتتركُ البعضَ الآخر لها وحدَها. . .

يقول لها:

ـ لن يفهم نَصّي هذا مثلكِ أحدٌ في هذا الجيل، أو ربّما في الأجيال القادمة! . . .

يزيد يقينُهُ من ذلك عندما تُجلِي له نورُ «ما وراءَ نصّه» الذي لا يُدركهُ هو نفسه ربّما! . . . تقول له مثلاً:

ـ لعلّك سيّدي تسردُ نصًا فريدًا لا مثيل له، يتناولُ أهمَّ المعتقدات الغيبيّة والمفاهيم الأخلاقيّة كما لم يستطع مسَّها أحد: بإمكان مدلولِ نصّكَ أن يثير إعجابَ «ذي الدين» و«ذي العقل» في الوقت نفسه، أن يستولي عليهما معًا بالقوّة نفسها! . . .

تستخدمُ لإثارة إعجابِ الأوّلِ مبدأَهُ المفضّل: «البرهان عبر الآيات القرآنيّة»، وللثاني مبدأَهُ المنطقيَّ المفضَّل: «البرهان عبر المحال»:

Twitter: @ketab_n

تفترضُ صحيحًا عكسَ ما هو مطلوبٌ إثباته. يسيلُ النصُّ بعد ذلك لِتتفجَّرَ في أعطافِ كلماتِهِ، جرّاءَ تلك الفرضيّة، تناقضاتٌ طبيعيّة تقودُ إلى المحال. النتيجةُ المنطقيّةُ الحتميّةُ لِذلك (التي لا تقولُها مباشرةً): الفرضيّةُ الأولى خاطئةٌ في آخر التحليل!...

لذلك لِنصِّكَ، سيّدي، خاصّيّةٌ وحيدةٌ إحدى: يُسِيلُ لعابَ «ذي الدين» وهو يقرأ فيه كلَّ ما برمجَ له البارئ في الآخرة من ملاهٍ وملذّاتٍ وبحبوحةٍ سرمدِيّة. تزدادُ رغبتُهُ شوقًا ولهفةً لِمسبَحةِ أهداها له عزّ وجل، حبّاتُها سبعون حورًا عينًا، كواعب أترابًا، ينتظرنهُ منذ أربعة آلاف عام قبل خلقِ الدنيا، لتَسقيهِ، كلّ واحدةٍ منهنّ، كأسًا دهاقًا بَلّلَتْ هي نفسَها حافّتَها برضابٍ ختامهُ مسك!...

وسيقرأهُ «ذو العقل» بِلذَّةٍ خالصةٍ أيضًا، سيضحكُ، سيتساءلُ حول فحوى مسلّمَات هذه العقائد، سيرتبكُ، سيصطدم... سيتساءلُ كيف يمكنُ الإيمان بترّهاتٍ من العيار الثقيل كهذه!...

سيُجلي تخييلُك وسردُك له بأناقةٍ وذكاء تناقضاتٍ جوهريّة، مُحالاً كلّيًّا يطغى على مفاهيم الفضاء العقائديّ الدينيّ...

نعم سيّدي، يمتلئ نصُّكَ بما يثير إعجاب الأوّل: تلك «القدرة الإلٰهيّة» التي تُشبِهُ الخاتمَ السحريّ الذي يكفي فركُهُ ليتحقَّقَ أيُّ حلم، حتى وإن كان محالاً. وبما يفجّر في الوقتِ نفسه إعجابَ الثاني الذي يسخرُ بطبيعة الحال من ذلك الخاتم السحريّ العتيق نفسه، لا سيّما عندما يرى أنّه ألِفُ وياءُ حياةِ الآخِرة (أو «قانونُ جاذبيّتِها الفيزيائي»، كما كانت ستقولُ نورُ لو كان لها أن تولدَ بعد نيوتن!)...

سينحني الثاني أمام نصِّكَ الذي يسردُ له، أروعَ سرد، يوميّات موت العقل في الآخرة!... سيسخرُ طوال النصّ من مفاهيم غفران

Twitter: @ketab_n

«أخلاق البقّالين» التي تسودُ كلَّ علاقات أهلِ الجنّةِ ومصائرهم...

سيقولُ بدون تردُّد: «أسألكَ اللهمّ فسيح جهنّماتك!»، عندما يكتشفُ أنّ مدّاحًا كابن القارح نصيبُهُ نعيم الجنّة، وأنّ قممًا إنسانيّةً جليلةً مشرئبّة كامرئ القيس وعنترة العبسي مصيرُهم عذاب السعير!...

لعلّك تريد في كلّ ذلك، لا غير، برهنةَ بيتِكَ الشهير:

إثنانُ أهلُ الأرضِ: ذو عَقلٍ بلا دِينٍ، وآخرُ ديِّنٌ لا عقلَ له

يصمتُ أبو العلاء بإجلال لمن استوعبتْ بُنيةَ تفكيرِه أفضل منه. يقول لها:

ـ بمن فيهم صاحبُ النصّ!...

لم تفهم نور ما يقصد بِنصفِ الجملةِ الأخيرة!...

قالت:

ـ لم أفهم سيّدي!...

فنّد ذلك:

ـ أقصد: لن يفهم نصّي هذا مثلك أحد، بمن فيهم صاحبُ النصّ، أبو العلاء!...

من جانبِها تذوبُ نور أكثر فأكثر مع تقدّمِ نصِّ «رواية الغفران»، مع بُنيتها السرديّة، مع عبقريّةِ أبي العلاء وهو يتركُ سارديهِ يبرهنون هم أنفسهم أفكارَه، عبر حوارٍ منطقيٍّ حيويٍّ ممتع، أثناء لقاءاتهم مع ابن القارح!...

أثارها مثلاً، بشكلٍ خاصّ، حوارٌ فنّيٌّ ممتع بين آدم وابن القارح، دحضَ الأوّلُ فيه ببراعةٍ حصيفة ما اُفتُرِيَ باسمه من شِعر!...

* * *

Twitter: @ketab_n

لم تتمالك نورُ نفسَها ذات يوم، بعد عدّة أشهر من مجالس رواية الغفران، عندما وصل أبو العلاء إلى سردِ عودةِ ابن القارح من رحلته في الجحيم إلى قصرهِ في دار الخلود، وهو يسمعُ نداءَ الثمرات له: «هل لك يا أبا الحسن، هل لك!»...

كان يُملي حينها لِكاتبِه:

((ويتّكئ ابن القارح على مفرشٍ من السندس، ويأمرُ الحورَ العين أن يحملن المفرش فيضعنهُ على سرير من سرر أهل الجنّة، وإنّما هو زبرجدٌ أو عسجد. ويكوّنُ البارئ فيه حلقًا من الذهب تطيف به من كلّ الأشراء، حتى يأخذ كلّ واحدٍ من الغلمان المخلّدين، وكلّ واحدةٍ من الجواري المشبّهة بالجمان، واحدةً من تلك الحلق.

فيُحمَلُ على تلك الحال إلى محلّه المشيّد بدار الخلود، فكلّما مرّ بشجرة نضحتهُ أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور، وبمسكٍ ما جُني من دماء الفور، بل هو بتقدير الله الكريم.

وتناديه الثمرات من كلّ أوبٍ وهو مستلقٍ على الظهر: «هل لك يا أبا الحسن، هل لك!»... فإذا أراد عنقودًا من العنب أو غيره انقضب من الشجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة إلى فيه، وأهل الجنّة يلقونه بأصناف التحيّة... لا يزال كذلك أبدًا سرمدًا، ناعمًا في الوقتِ المتطاولِ منعّمًا، لا تجدُ الغِيَرُ فيه مزعمًا...)).

ما إن سمعتْ نورُ أبا العلاء يسرد هذه الفقرات التي أسْمَتْها مقطع «موتُ العقل في الجنّة» حتى انفجرتْ ضحكًا!...

(كان الشاعر حينها يحوم بعصاه حول الرباعيّ الصامد: كوز الماء، وكاتبه، وعمامته ونور... ويردّد نداءَ الثمرات، رافعًا يديه إلى السماء، مرفرفًا بهما كأنّه يمثّلُ في مسرحٍ على الهواء الطلق: «هل لك يا أبا الحسن، هل لك!»).

Twitter: @ketab_n

لم تستطع نورُ أن تمسكَ قهقهتها بعد هذا المقطع. . . انفجر الشاعرُ ضحكًا على إيقاعها. لم يقدر على كبحِ جماحِه. لم يتمكّن أحدٌ منهما إطفاء نوبةِ ضحكِه. . .

يضحكان كطفلين، بدون فرامل! . . .

كلّما حاولت نورُ كتمَ ضحكِها، انفجرتْ أكثر! . . . أجملُ ثغرٍ في الكون يصدحُ بضحكِه، يُغنّيه، يعزِفُه، يرتّلهُ ترتيلاً! . . .

الشاعرُ كذلك: ستّةُ عقودٍ من الضحك تتفجّرُ في فمهِ بمفعولٍ رَجعي! . . . زلزالٌ من الضحك يهدِّمُ خرائب كلِّ كآبات الكون! . . .

امتزج ضحكُهما في سكرةِ ضحكٍ واحدة تعزِفُها نور والشاعرُ معًا على إيقاعِ نداءِ الثمرات: «هل لك يا أبا الحسن، هل لك!». . .

ثم تنسى نور نفسَها وهي في معمعان الضحك. . . تنهضُ، تذهبُ لِتقبيلِ جبينِ الشاعر، إعجابًا بِجَمالِ وروعةِ وعبقريّةِ سردِه. تُعانقُهُ بلا وعي (تتمنّى ذلك منذ أمد)، تحتضنُه، يحتضنُها بشدّة. يتحوّلُ الضحكُ بكاءً، ثم ضحكًا. يتنقّلُ بعد ذلك بين البكاء والضحك، والضحكِ والبكاء. . .

لا يفهم كاتبُ أبي العلاء ما يدور وهو يشاهد شيخًا يناهز الستّين، وشابّةً أكملت العشرين قبل ثلاث سنين، متعانقَين بحميميّة، يُقبّلان بعضهما بعضًا في العُنق والشَّعر والخدّ والأكتاف والجبين بحبٍّ عنيف، يبكيان حينًا، ويضحكان كطفلين حينًا آخر، ثم يُقبّلان بعضهما بعضًا من جديد، يحتضنُ كلُّ واحدٍ الآخر بعنفٍ ورقّةٍ في الوقت نفسه! . . .

لم يكتشف كاتبُه المسكين بَعدُ خيوطَ ألغاز رسائل «صاحبة التكرارين» لِيجدَ نفسه أمام بداية خيوطِ لغزٍ جديد! . . .

* * *

Twitter: @ketab_n

لم تَعُدْ تُهمُّ أبا العلاء مجالسُه الجماعيّة إلّا لأنّ عليه الوفاء لالتزاماته العامّة، لا سيّما وأنّ طلبةً يأتونها من أماكن وبلدان بعيدة!...

قلبُ الشاعر، مثل قلبِ نور، لا ينبضان في هذه المجالس. يرفرفان في مجالس أخرى، ثلاثيّةٍ فقط، حميميّةٍ جدًّا، يتشكّلُ فيها أروع نصٍّ كُتِب بالعربيّة لا محالة!...

يطلبُ أبو العلاء أحيانًا من كاتِبِهِ أن يقرأ شذراتٍ من رواية الغفران في المجالس العامّة. يلاحظ أنّ الملأ لا يميلُ لِهذا النوع الأدبي، لا يستوعبُ من قريبٍ أو بعيدٍ، فحوى نصِّه!...

يواصل الشاعر محاضراته العامّةَ التقليديّةَ بِعدم حماس... لا تُلهبُ جمهورَ مجلسهِ، منذ أن وصلتْ نور، إلّا مبارياتُ الشطرنج التي يتبادلُ الناسُ أخِبارَها، ويتناقل الراسخون في علوم الشطرنج تفاصيلَ نقلاتها وجديدَ استراتيجيّاتِها!...

* * *

هزم الشاعرُ نورَ ذات مرّة، ثم هزمتهُ بعد ذلك بثلاثة أيّام!... اشتهر الخبر في كلِّ أنحاء المعرّة قبل أن يطير في كلِّ البقاع!... «انهزم الحكيم!»، ردّد الناس!...

قال أحدهم للشاعر: «هزيمة أبي العلاء في الشطرنج من علامات الساعة!»... ابتسم الحكيم، عقّبَ أنّه سعيدٌ بهزيمته، مضيفًا «لولاها لما سمعتُ هذا التعليقَ الممتع»!...

تنتهي معظمُ مبارياتِهما منذ عدّة أشهر بالتعادل. أمّا هزائم كلّ واحدٍ منهما فتساوي عددَ هزائم الآخر تقريبًا!...

الجميعُ يقولُ ذلك دون أدنى اهتمامٍ بكلمة «تقريبًا»... تؤرّق هذه الكلمة أبا العلاء الذي يعرفُ أنّه هزم نور ٧ مرّات فقط (بما فيها المباراة

Twitter: @ketab_n

الأولى التي لا يعتبرها هزيمة)، فيما هزمتْهُ ٩ هزائم نقيّة!...

لم يستطع عبقريٌّ زمانِه، كما يبدو، أن يهضمَ ذلك بسهولة، وإن كان يشعرُ بِسعادةٍ خفيّة لكلِّ انتصارٍ لِنور!...

أمّا هي فلم تضع انتصاراتها في كفّة ميزان. لم تحبّ بالتأكيد تعكيرَ متعةِ مبارزتِهِ بالشطرنج، التي لا تضاهيها متعة، ببيعِها في سوق بورصةٍ ومسابقات! لا تعيشُ مبارياتهما كانتصاراتٍ وهزائم، لكن كلحظات سعادةٍ لا سعادةَ مثلها في الحياة!... وإن كانت من السرور والفخر بمكان، بِتألّقِها عند كلّ انتصار أو تعادل!...

ثم لحقتْ هزيمةَ أبي العلاء التاسعةَ هزيمةٌ عاشرة، دون أيّ تعادلٍ بين الهزيمتين!... لعلّهُ شعرَ حينها فقط أنّ نور تجاوزتهُ في الشطرنج!...

بدأت نورُ تحسُّ، عندما طلب منهما أهلُ المجلس أن يلعبا مباراةَ شطرنجٍ جديدة بعد أيّامٍ من انتصارها العاشر، أنّ الحكيم لا يهضمُ هزائمه بسهولة.

قال لها الشاعر (من باب روح الفكاهة المُقنَّعة!):

ـ أتسمحين لي أن ألعبَ معكِ بالعمياء؟...

ضحكَ الحاضرون... ابتسمَتْ نورُ بهدوء.

أدركتْ واستوعبت أخيرًا أنّ هزيمتين متتاليتين ضربَتا نرجسيّة سيِّدها في الصميم!...

انهزم إذن! انهزم فعلاً وإلّا لما ذكَّرَها أنّه يلعبُ بالعمياء؟...

كان ردُّها قاصفًا (تفاجأت هي نفسُها من تقسيطهِ في نقلتَين، خفيفةٍ ثم عاتية):

Twitter: @ketab_n

ـ بالتأكيد سيّدي، أسمحُ لكَ ذلك!... قالت بصوتٍ خجولٍ مُتقطّع!

ثم أضافتْ بصوتٍ مُسطَّحٍ جَليّ، بدون وعي، لتبهرَ خصمها، أو ربّما لِترديهِ صريع المفاجأة:

ـ أتسمحُ لي، أنا أيضًا، أن ألعبَ معك هذه المباراة بالعمياء!...

Twitter: @ketab_n

٤٢

الكتيبة الخرساء

ـ ما هي هذه الكتيبة الخرساء؟ من هم جنودُها؟ سألتُ من تُحرِّكُ في وجداني كتيبةً من العشقِ الصارخ، عمّا قالت إنّه موضوع ن. س. الأثير!...

أجابت ل. هـ.:

((بشرُ بلدانِنا الذين أضحى أغلبهم اليوم عبيدًا سعداءَ بِعبوديّتهم، بِسببِ ثقافةِ الاستهلاك والخضوعِ والانسحاقِ السائدة التي يرضعونها منذ المهد؛ ثم المدرسةِ التي تُعلِّمُهم كيف لا يتعلّمون، وكيف يفقدون المقدرةَ على التساؤلِ والنقدِ والرفض؛ ثم الأسرةِ التي تكرِّسُ قولاً وعملاً تلك الثقافةَ في البيت نفسه؛ ثم قمعِ الطاغية وجهازِهِ الأمنيِّ والعسكريِّ المستعينِ بِجهازِ إعلام خبيرٍ في إلهائهم وتتويههم وجلدهم الذاتيّ، يُسانِدهُ جهاز فقهاء متمرِّسٍ في السيطرةِ على أرواحِهم وتهديدِ من خرج عن السرب بالكفر والهرطقة!...

منظومةٌ كاملةٌ لها أيقوناتٌ مؤثّرةٌ فاعلةٌ متكاملة (المسجد، أجهزة

Twitter: @ketab_n

الإعلام، العادات والتقاليد، الصيغ اللغويّة المتداولة...) تجيدُ بمهارة تحويلَ عصبونات أدمغتِهم إلى عصبوناتٍ كسيحةٍ مشلولة، غير قادرة على اختراقِ العصر أو التفاهم معه، ينطبعُ عليها مع مرِّ السنين مَيْسَمٌ خالد: «عضوٌ رسميٌّ دائمٌ في الكتيبة الخرساء»!... بدلاً من أن يكون مشروع تلك المنظومة إطلاقَ أجنحةِ هذه العصبونات، وتعليمَها الجرأةَ والحرّيّةَ والتجديدَ واختراقَ الزمن!...

لخّصَ ذلك أبو العلاء أفضلَ تلخيص:

عاشوا، كما عاشَ أباءٌ لهم سلفوا   وأورثوا الدِّينَ تقليدًا، كما وجدوا

فما يُراعون ما قالوا، وما سمعوا   ولا يُبالون، من غيٍّ، لِمن سجدوا

والعُدمُ أروحُ ممّا فيه عالَمُهم   وهو التكلُّفُ، إن هبّوا وإن هجدوا

هكذا «يُفَرمَتُ» هؤلاء الجنود الخُرس لِيصبحوا في نهاية الأمر أشبه بِـ «الحيوانات التي يأكلُها أهلُ الجنّة»، كما صوّرها حكيمُ المعرّة في «رسالة الغفران» وهي تنظرُ بأعين ناعمةٍ سعيدةٍ لِساكنِ الجنّة عندما يذبحُها ليلتهمَها في مآدبهِ العامرة:

مثل خرافِ الجنّة، تبتسمُ الجنود الخرس لِحاكمِها الجلّاد، تردِّدُ أمامه كالقردة: «بالروح، بالدم، نفديك يا...»، تُصوِّتُ له في الانتخابات بحبّ، تشاركُهُ تلذُّذَهُ وسعادتَهُ باضطهادِها وقمعِها، بِتمريغِها بالوحل!... تقول له مثلما تقول له حوريّات العِين، على لسان صاحب «رسالة الغفران»، بابتسامةٍ خَروفِيّةٍ وديعة: «إنّي أُمْنى بِذبحِكَ لي، من الوريد إلى الوريد، من قبل أن يخلق اللهُ الدنيا بأربعةِ آلافِ سنة!»...)).

ها هي ل. هـ. تحفرُ في جذرِ الجذر، في الأعماق!... تضعُ أصابِعها في القاع، تحفر، تحفر... إلهي، كم أعشق جمالَ هذه الأصابع!...

Twitter: @ketab_n

تواصل ل. هـ.:

((يُردِّدُ ن. س. كثيرًا أنّ الكتيبةَ الخرساء، بعد ألف عامٍ من أبي العلاء، صارت أخرس من أيّ وقتٍ مضى! نجح الكهنةُ والحكّامُ (نجاحًا تاريخيًّا لا نظير له) في تحصينِ أدمغتِها ضدّ رفضِ القمعِ والاستبداد، ضدّ التفكيرِ والديموقراطيّة، ضدّ الحرّيّة!...

نجحوا أن يقتلعوا منها بصيصَ روحِ الرفضِ والتحرّر (الغائرةِ، مع ذلك، في نفْسِ كلّ كائنٍ بشريٍّ، منذ الأزل، والتي تؤدّي إلى سقوط الظالمِ والمستبدِّ، في أيّ مجتمعٍ كان، في آخرِ المطافِ لا محالة) كأنّهم علماءُ في مختبراتِ علومٍ جينيّة، نجحوا بتوليدِ بَقَرٍ اقتُلِعَتْ منها جينات القرون!...

صارت الكتيبةُ الخرساء نوعًا جديدًا من البقَر: «بَقرًا بلا قرون»!...)).

نظرتُ لِمن قالت: «كتيبةُ بَقرٍ بلا قرون» بابتسامةٍ خرجتْ فجأة من كلِّ أعماقي، لم أستطع السيطرةَ عليها!...

أحدِّقُ فيها وهي تتحدّثُ كمن يُحدِّقُ بحبيبةٍ مقدّسة!...

أشعر أنّي لن أتأخّر عن إعلان إعجابي الشديدِ بها، عن التغزُّلِ بها، وربّما أكثر من ذلك!... يستحيلُ أن أتأخّر، سأنفجر ما لم!...

أتساءل: أيُمكنُني ألّا أحبّها؟... حبٌّ مختلِفٌ بالطبع عن عشقي للمياء، لكنّهُ جارفٌ أيضًا، أسقطُ فيه بعنف، أهرولُ نحوه بدون فرامل!...

لِأكُنْ صادقًا مع نفسي: أيُمكنني أن لا أعشقها فعلاً؟...

واصلَتْ ل. هـ. بنغماتِها المُعطّرَة نفسها، الناقدةِ المتمرِّدةِ الرافضة

Twitter: @ketab_n

أيضًا، بكلِّ ما تحملهُ كلماتُ النقدِ والتمرُّدِ والرفضِ من أسمى وأبهى المعاني:

((نجحَ علماء هذه المختبرات الجينيّة في خلقِ وإعادةِ خلقِ كتائبَ خرساء بلا قرون، مثلما نجحوا في توريثِ الحُكم لأبنائهم والقرفصة المتأبّدَة على رقاب شعوبِهم بالوراثة!...

تعلّموا في الحقيقة كيف يتّجهون، مثل الڤيروسات، إلى مراكز عصبوناتِ دماغِ كتيبةِ الرعاعِ الخرسِ مباشرة: لم تعُدْ تُهمُّهم الآن صناعةُ العبوديّة، بقدرِ ما تُهمُّهم صناعةُ إرادةِ العبوديّة!... لم تعد تُهمُّهم السيطرةُ على هذه العصبونات، بقدرِ ما يُهمُّهم أن تريدَ ذلك هي نفسها، وتقاتلَ من أجلِه!...

يبثُّون لذلك في عصبونات الدماغ مباشرة، بمهارةٍ لا توصف، تاريخًا مُلفّقًا. يضخُّونها بجُرَعٍ فعّالةٍ من الصُوَرِ المشوَّهةِ عن العالَم الخارجيّ... يغرسون فيها بِخِبرةٍ فذّةٍ إرادةَ العبوديّة، ثقافةَ العبيدِ السعداءِ بِعبوديّتهم.

يُقحِمونَ أسسَ ثقافةِ عشقِ العبوديّة بذكاء في كلِّ الرموز الحياتيّة المرئيّة وغير المرئيّة، في صيغِ الخطابِ اليوميّ التي يطغى فيها الغيبُ والخضوعُ أمام مشيئته!... كلّ ذلك وسط أمّيّةٍ وتعتيمٍ وقهرٍ وتخويفٍ وإهانةٍ ومذلّات وضعفٍ في التنمية وبؤسٍ وتجويعٍ!...

النتيجة: لا تجد عصبونات كتيبة الرعاعِ الخرس سعادتها إلّا في الظلمات!... تُشبهُ بذلك بعض أنواع البكتيريا التي تعتبر الأوكسجين مادّةً خطيرةً سامّة، تموت إذا تعرّضتْ له!...)).

طلبتُ من ل. هـ. (التي يزدادُ صوتُها عسليّةً، أو لعلّي أزدادُ

Twitter: @ketab_n

غرامًا. . .) أن تتوقّفَ لحيظات، لِأسجّلَ عباراتها الأخيرة، حتى لا أنساها!. . .

كنتُ أحلم أن أحتضِنها إعجابًا بما تقوله، أن أقبِّلَ جبينها، أن أستغرقَ في تقبيله. . .

تنحنَحتْ قليلاً. رشفةُ ماء. بريقٌ في العينين!. . .

ثم سألتُها:

ـ قلتِ إنّ ن. س. يحبُّ الإحصاء! كم عددُ السكّان الذين تجتاحُ أدمغتَهم تلك الفيروسات، ويُسمِّمُهم غسيلُها الثقافي؟ أقصدُ، كم، في تقديرِهِ، نسبةُ عددِ جنودِ الكتيبةِ الخرساء في مجتمعاتنا اليوم؟

أجابتْ:

((المتوسّط العامّ: ٩٦ في المائة تقريبًا ممّن تجاوز سنّ الشباب من سكّان مجتمعاتنا، في ضوء حسابات ن. س. التي لا يعلم أسرارها إلّا هو وكمبيوتراتُه!. . . لكنّ هذه النسبة تقلُّ كثيرًا في أوساط الأجيال الشابّة التي اندمجت بعوالم أنترنت وانفتحت على ثقافة التكنولوجيا الحديثة ولغة العصر، كما يقول أيضًا!. . .

معظم من تبقّى (ثلاثةٌ في المائة تقريبًا) يشتريهِ الحاكمُ بفسادِه، أو يجعلهُ يشارك مباشرة، بدرجةٍ أو بأخرى، في الغنيمة، كما يقول ن .س. هم غالبًا من المثقّفين أو النافذين الذين يتأرجحون بين التطبيل للحاكم أو السكوت عن جرائمه.

أمّا ما يتبقّى من نسبةٍ ضئيلةٍ جدًّا لا تتجاوزُ الواحدَ في المائة، فهم من المتمرّدين الرافضين والمعارضين الصادقين، الذين يستطيعُ الحاكمُ إطفاءَ شوكَتِهم، أو حصارَهم بالقمعِ والإبادةِ والتشريد: يُسيطرُ على لُقمةِ

Twitter: @ketab_n

عيشِهم، يسجنهم، يُعذِّبهم، يقتلهم إذا أراد، يُهدِّدُهم بمسِّ حياةِ أطفالهم وذويهم، يتفنّنُ في تتويهِهم وملاحقتهم وتخويفِهم وتطويقِهم على الدوام!...

لا تسألني كيف توصّلَ ن. س. لذلك! يُقضّي وقتَهُ باستخدام صِيغٍ رياضيّة معقّدة للوصول إلى نتائجه. لهُ أيضًا مواقع إحصاء على إنترنت يضع فيها أسئلةً مفتوحةً للعامّة، كما أخبرتك!...)).

تعودُ ل. هـ. بعد دقيقةٍ (تفقّدتْ خلالها شَاشَتَي كمبيوترِها وهاتِفِها بقلق، دون جديد) لِتسترسلَ في ما كانت تقولهُ قبل سؤالي:

((صارت الكتيبةُ الخرساء، بِفعلِ كلِّ ذلك، تُريدُ عبوديّتَها بصرامة، تعيشُها بغرام!... تُقدِّسُ انحناءَها وركوعَها وخضوعَها المطلقَ للطاغية وصُنّاعِ العبوديّة تقديسًا!...

تتواشجُ نفسيّةُ ذلك الخضوعِ لدى هؤلاء «الإبل الجرب» بِشكلٍ طبيعيٍّ مع نفسيّةِ الحقدِ والرغبةِ في الانتقام والعدوانيّة، كما تتواشجُ قوّةُ الضغط مع ارتفاع السخونة في علومِ الفيزياء!...

على من يمارسون عدوانيّتهم وانتقامَهم؟... ليس على مُستعبِدِيهم بالطبع! (القطُّ يحبُّ خانِقَهُ، كما يُقال)، لكن على رفاقِهم في الكتيبةِ الخرساء!

أليست تلك عقليّةُ العبيدِ بامتياز؟...

انظرْ حولك في كلِّ مكان، ستراهم يُبدِّدون آلامَهم الأرضيّةَ بِضغينةٍ لا حدّ لها ضدّ بعضهم البعض. لا يتجرّأون مثلاً على استنكار سجنِ أو تعذيبِ أو اغتيالِ أشباهِهم من الخراف، بل يُصفِّقون لذلك غالبًا، أو يصمتون في أفضلِ الأحوال!...

Twitter: @ketab_n

«صمتُهُم أفضلُ من استنكارهم!» كتب ن. س. لأمينيائيل ذات يوم وهو يسمع أحد كوادر الكتيبة الخرساء يقول بالحرفِ الواحد «مستنكرًا» حاكمًا يُعذِّبُ معارضين سلمِيّين في وضح النهار: «قدَرتَ على المتطاولِين عليك، فاصفحْ عنهم! إن تعذِّبْهم فإنّهم مواطنوك، وإن تغفرْ لهم فإنّك أنت العزيزُ الحكيم!»...

يُطأطئون رؤوسَهم أمام الجلّاد ويماهون، بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، بينه وبين الله، لكنّهم يمتلكون أقصى الشجاعة في شتم واحتقارِ رفاقِهم البسطاء والنيلِ منهم، وفي الدخولِ معهم في معارك علنيّةٍ دائمة، في افتعالِها واختِلاقِها... يحتاجون لذلك بشراسة!...

يجدون رغبةً ولذّةً غير اعتياديّة في خوضِ هذه المعارك وإشعالِها في دقائق!...

لعلّي أخطأتُ عندما قلتُ العبارةَ التي أعجبتك: «بقرُ الكتيبة الخرساء صارت بلا قرون!»...

كلّا!... لها، في الحقيقةِ، قرونٌ عاتيةٌ شامخة، لكنّها لسوءِ الحظّ تنمو في الاتّجاهِ المعاكس، تملأُ الجمجمة، تشرئبُّ نحو الأسفل، باتجّاهِ الجوفِ والنخاعِ الشوكيّ والألياف العصبيّة!...)).

كان بودّي أن أحتضنَ وأقبّلَ هذه الفتاة إعجابًا بكلِّ ما أسمعه منها، أن ألتهِمَها!...

استرسلَتْ:

((لاحظَ ن. س.، هو نفسه، ذلك في سقائفه على الإنترنت، كما قلتُ لك:

لِمجرّدِ أن يمدحَ فيها العقلَ وينادي باستخدامه، يصبُّ عليه البعض

Twitter: @ketab_n

بسرعةٍ تُثير انتباهَه أعاصيرَ شتائم: «زنديقٌ ملحدٌ كافرٌ حقير»، «كلبٌ علمانيّ»، «وغدٌ مصيرهُ حطب جهنّم»...

يقذفونه بأسوأ الكلمات، فيما «لا يستحقّون أن يبولَ ن. س. فوقَهم»!...)).

استغربتُ كثيرًا من هذا التعبير «المثَانِيّ» غير الرفيعِ جدًّا على لسان ل. هـ.، ذي التركيزِ الجليّ والأنيقِ جدًّا مع ذلك!... استغربتُ أكثر أنّها قالتهُ بكلّ هدوءٍ وإخلاص!... أحبُّ مفاجآت هذه الإسقاطات اللغويّة المباركة المُنعشة!...

تتنفّسُ ل. هـ. بعمق، تضيف:

((طوبى لهم الشقاء والخراب! هنيئًا لهم الهاوية!... هم من خاطبهم أبو العلاء عندما قال:

مساجدُكم ومواخيرُكم سواءٌ، فبُعدًا لكم من بشرْ!

فما أنتمُ بِالنباتِ الحَميد ولا بالنخيلِ، ولا بِالعُشَرْ

ولكن قَتادٌ عديمُ الجَناةِ كثيرُ الأذاةِ، أبى غير شرْ))

ثم تستأنفُ بعد برهةٍ بدت لي طويلةً جدًّا، أسرَني خلالها إيقاعُ ومدلولُ هذه الكلمات الراقصة «قَتادٌ عديمُ الجَناةِ، كثيرُ الأذاةِ، أبى غير شرْ!»:

((بسبب نجاح مختبراتِ عباقرة تصنيع إرادةِ العبوديّة، صار العبدُ السعيدُ يمارسُ أحيانًا لِوحدِهِ ما لا يتجرّأُ الكاهنُ طلبَهُ منه!...

مثالٌ بسيط: تعلمُ أنّ كهنةَ الإسلام، قد زجُّوا، منذ أمد، ملائكتَهم الجدد (الذين، كما لاحظ حكيم المعرّة مستغرِبًا، لهم أسماء عربيّة، بِعكسِ الملائكةِ السابقين: جبريل، عزرائيل، ميكائيل، إسْرافيل...)

Twitter: @ketab_n

في قرارةِ نفس العبد، لدرجة أنّ اثنين منهم، رقيبٌ وعتيد، يلتصقانِ بِميمنةِ الإنسانِ وميسرَتِه!...

دون الحديث عن الملاكَين منكر ونكير المتخصّصَين بمحاكماتِ القبر، اللذَين تساءلَ صاحب صيغة «لا إمام سوى العقل» حولَهما: كيف يمكنهما محاكمة هنديٍّ يتمُّ إحراقُهُ بعد الموت؟

إذا حرَّقَ الهنديُّ بالنارِ نفسَهُ فلم يبقَ نحضٌ للترابِ ولا عظمُ

فهل هو خاشٍ من نكيرٍ ومنكرٍ وضغطةِ قبرٍ لا يقومُ لها نظمُ؟»

رنّة هاتف!...

توقّفتْ ل. هـ. قبل أن تكملَ ما كانت تقوله. «مكالمة بالخطأ»، كما يبدو، لسوء الحظّ!...

استغلَّتْ ذلك لتتّصل هي نفسَها بِ ن. س...

لا ردّ!...

بدا عليها مثلُ استغرابٍ مُلبّد!...

ـ اعذرني، سأبعث إس إم إسًا لِ ن. س.!...

ـ ما أسعدهُ وهو يستلمُ إس إم إساتِهِ من السماءِ الثامنةِ والسبعين الآن!...

إلٰهي، غازلتُها أخيرًا، تجرّأتُ على مغازلتها!... ما أصعب مغازلة إلٰهةٍ إغريقيّة!...

ابتسمَتْ!...

يكفيني ذلك... ما أسعدني!...

كتبتْ إس إم إسًا بأطرافِ أصابِعها، بسرعةٍ مذهلة دون أن تنظر

Twitter: @ketab_n

لِشاشة التلفون أو لوحةِ مفاتيحه، بعثَتْهُ كما يبدو لِحبيبها الغائب!...

ثم استأنَفتْ (دون أن ألحظَ أثرًا ما أو تداعياتٍ لطيفةً لِمغازلتي لها، وتسميتِها: إلٰهة السماء ٧٨!... ويحي!... نسيتُ ذلك، كما يبدو، كُلِّيَّةً):

((تعلمُ بالتأكيد أنّهم ألصقوا ملائكتهم الجدد في أنفاس العبدِ وكريّات دمهِ. لكن ما لا تعرفه ربّما: لم يتوقّع هؤلاء الكهنة أنّ العبدَ الفخورَ بعبوديّته سيتَّخِذُ لِوَحدِه أحيانًا «مواقفَ شجاعة» تتجاوزُ ما يحلمون:

بعثَ ن. س. إس إم إسًا ذات يوم للسماء ٧٧ من داخل مسجد، عندما رأى بعضَ المصلّين يختتمون صلاتهم بإدارة رؤوسهم لليمين فقط وهم يقولون «السلام عليكم ورحمة الله» في نهاية تلاوةِ «التحيّات المباركات»، لِتحيّةِ رقيب، راصد الحسنات، فيما لا يديرونها لليسار بعد ذلك لِيُحيّوا بالمثل راصدَ السيّئات، عتيد!...)).

قاطعتُها:

ـ ما زلتِ تُصرّين، عزيزتي، على هذه الإس إم إسات الموجّهة للسماء ٧٧؟ ما اسمُ شركةِ التلفون التي يستخدمُها ن. س.؟...

لم تُعلِّق! استرسلتْ دون اكتراث:

((يجدُ ن. س. أنّ الإس إم إسات التي يبعثها من المعابد والصومعات لها طعمٌ خاصٌّ جدًّا، لذيذٌ خالص. طعمها «حالِي»، كما يقول!...

قال ن. س. في إس إم إسه الذي بعثهُ من المسجد:

«لعلّهم يثأرون من السيّد العزيز عتيد بالتأكيد، لاسيّما أنهم

Twitter: @ketab_n

يدركون أنّ حياته قربهم ليست إجازة هادئة! ينهكونهُ حتمًا ليلَ نهار. يقضي عتيد المسكين وقتَهُ معهم يرصد أطنانًا من السيّئات، دون توقّف... سيّئاتُ أحقادِهم وركوعِهم وضُعفِهم واستسلامِهم وكراهيّتِهم بعضهم لبعضِهم الآخر تُسَوِّدُ دفاترَه التي ينسخها بالمليارات كلّ ثانية!...».

اختتم ن. س. إس إم إسه بهذه السخرية السوداء:

«أرثيهِ كثيرًا هذا الملاكَ اليساريَّ المظلوم، ضحيّةَ ثأرِ الكتيبةِ الخرساء ومقاطعتِها الصامتة «الشجاعة»!...)).

صمتٌ عميق! لم أدر ما أقول!...

تماوجتْ في دماغي وزَغردتْ من جديد هذه الكلمات العميقة جدًا، ذات الإيقاع العذب الرائق: «قَتادٌ عديمُ الجَناةِ، كثيرُ الأذاةِ، أبى غير شرْ»...

خطر ببالي أن أسأل ل. هـ. متى سيعودُ ن. س. لكنّي حَجمْتُ عن ذلك لئلّا تظنَّ أنّي مللتُ سماعها!...

لِحسنِ الحظّ أنّها أخرجَتْني من متاهتي وهي تحاولُ أن تُلخِّصَ، أو تستعرضَ استشهاداتٍ جديدة لأبي العلاء (عادت لذاكرتها فجأة) تُطعِّمُ وتُحلّي ما قالتْهُ سابقًا، وكأنّها لم تستشهد بما فيه الكفاية بأحلى شَهْدٍ يَسري ڤيتاميناتٍ وهرموناتٍ مباركةً جبّارة في جسدي وروحي الآن!...

ارتشفتْ قطراتٍ أخيرةً من كأسِ الماء، ثم استأنَفتْ:

((باختصار، يدركُ حكيمُ المعرّة جذرَ آلام الكتيبة الخرساء: تحالفُ السلطات الفاسدة المستبدّة مع المؤسّسات الظلاميّة، ودخول معظم المثقّفين في اللعبة أو قبولها بصمت. صار هذا التحالف يهيمن على كلِّ مجالاتِ ورموزِ الحياةِ اليوميّة!...

Twitter: @ketab_n

تحالفٌ سحيقٌ نجح اليوم أفضل من أيّ وقتٍ مضى (بعد «تطوّرٍ وانتقاءٍ» لا نظير لهما في خطابِ وآليّات تكريسِ إرادةِ العبوديّة وثقافةِ الاستبداد) في اغتيالِ «الإمام الأوحد»، العقل، الذي:

فـإذا مـا أطـعـتـهُ جـلـبَ الرحـمـةَ عـنـد الـمـسـيرِ والإسـراءِ
إنّـمـا هـذه الـمـذاهـبُ أسـبـابٌ لـجـذبِ الـدنـيـا إلـى الـرؤسـاءِ
غـرضُ الـقـومِ مـتـعـةٌ، لا يـرِقّـونَ لِـدمـعِ الـشـمّـاءِ والـخـنـسـاءِ

بعد اغتيال هذا الإمام الأوحد أضحتِ الكتيبةُ الخرساء، كما قال أبو العلاء: بلا بوصلة، مثل أفعوانٍ كفيف، مثل أسدٍ هزبْرٍ بلا أعين، مثل أشجعَي العرب في الجاهليّة (عمرو بن مكرب الزبيدي وعامر بن طفيل) وقد طمسَ الوهجُ حدقات أعينهم:

إذا كُـفَّ صِـلٌّ أفـعـوانٌ، فـمـا لـهُ سوى بيتِهِ، يقتاتُ ما عَمَر التُّربا
ولـو ذهـبـتْ عـيـنـا هِـزبْـرٍ مـسـاورٍ لما راع ضأنًا، في المراتعِ، أو سربا
أو الـتُـمِـعـتْ أنـوار عـمـرو وعـامـرٌ لما حملا رُمحًا، ولا شهدا حربا))

صمتٌ كُلّي... طمسَ الوهجُ عينيّ، أنا أيضًا!...

لم أعد أمتلكُ الجرأةَ (كأنّي أمام إله) لِلنظرِ في ل. هـ. التي تتحدّثُ مع ذلك بكلّ هدوء، بكلّ بساطة، بسلاسةٍ أسكرَتني!...

ـ أفهم ممّا تقولينه أنّ ن. س. لا يرى أملاً في الأفق! كلُّ خلاصٍ في بلاد العرب مستحيلٌ من وجهة نظر «تقرير الهدهد» الذي يكتبه!...

ـ نعم، في تقريره كلُّ الأبواب تبدو مغلقةً تمامًا!...

ثم أضافت بعد بضع ثوانٍ طويلة:

ـ إلّا بابًا واحدًا!...

ـ أيّ باب؟ سألتها بكلّ لهفة!...

Twitter: @ketab_n

ـ ألم أقل لك قبل قليل إنّ ن. س. (الذي يَقضي كثيرًا من وقتهِ في الصولِ والجول في مواقع إنترنت وشبكات تواصله الاجتماعي) ليس متشائمًا من الأجيال الشابّة عندما يراها تدمن التكنولوجيا الحديثة وتتعلّمُ لغة العصر...

من باب أنترنت (الذي لا تستطيع السلطات الحاكمة السيطرة عليه) يخرج نفقٌ سيقود هذه الأجيال الجديدة إلى عالم الضوء والحرِّيّة، سيغسلها بعاصفةٍ عبقريّةٍ من الضوء والحرِّيّة:

بفضل موتورات البحث على أنترنت تستطيع هذه الأجيال الوصول بسهولة إلى المعرفة، واكتشاف أكذوبات الإعلام الرسمي وهراء الثقافة السائدة... بفضل مواقع الصور والڤيديو على أنترنت تتعلّم كيف تكشف وتنشر صور وأفلام القمع والتعذيب والتضليل الذي تعيشه شعوبها، ليراها الملأ في كلِّ أنحاء العالم... بفضل شبكات التواصل الاجتماعي تتفاعلُ كثيرًا، تدردشُ كثيرًا، تبتعدُ عن ثقافة القطيع، تتعلّم كيف تتنظّمُ وتنمو، كيف تكسرُ جدارَ الخوف من البعبع الجاثم على حياتها الروحيّة والمادِّيّة...

كلّ ذلك بمنأى عن أعين البعبع الذي لا يعرف كيف يتعامل مع هذه النوافذ العصريّة الجديدة، يجهل وجودها أحيانًا، لا يستطيع إغلاقها في كلِّ الأحوال!...

إذا كان هناك أملٌ وحيد، كما يقول ن. س.، في ثورة بلاد العرب على منظومتها السياسيّة والثقافيّة السحيقة وخروجها من مأساة حياتها المتأبّدة، فهو في بعض شباب الأجيال الجديدة الذي اكتشف أخيرًا في لغة «لا إمام سوى العقل»، لغة العصر، نافذةَ الخلاص من بعبعٍ متسلِّطٍ جاثمٍ منذ قرون!...

Twitter: @ketab_n

أملي الوحيد، أنا: رؤية ن. س.!...

ـ متى سيعودُ ن. س.؟ سألتُ...

ـ لا أعرف، أنتظرُ أخبارَه بفارغِ الصبر!...

ـ أين ذهب حاملاً خارطة باريس؟ لماذا تأخّر؟ عمّاذا يبحث؟...

ـ ذهب إلى الحيّ الخامس عشر يبحثُ، كما قال، عن سليلهِ الثالثِ والثلاثين الذي يسكن هناك!...

ـ عفوًا، ماذا قلتِ؟...

كرّرتْ عبارتها الأخيرة بالحرف الواحد، بكلِّ هدوء!...

ـ اعذريني عزيزتي! أيُمكِنُكِ أن تُكرِّري ذلك لِلمرّة الثالثة، لا أصدِّقُ ما أسمعه!...

ـ ذهب إلى الحيّ الخامس عشر يبحث، كما قال، عن سليلهِ الثالثِ والثلاثين الذي يسكن هناك!...

صدمةُ الصدمات!...

أخذتُ معطفي سريعًا، اعتذرتُ قائلاً إنّ عليّ الذهاب لِأهمِّ وأخطرِ موعدٍ في حياتي!...

غادرتُ المقهى، أهرعُ باتّجاه شُقّتي، فوق ثلجِ باريس الرهيف، غير مصدِّقٍ أنّي سأقابل ن. س. فعلاً!...

Twitter: @ketab_n

٤٣

أبو النزولِ في حضرةِ أبي العلاء

يهرعُ أبو النزول، بِلَوعةِ واضطرامِ ألفِ عامٍ من الشوق، باتّجاه معرّةِ حبيبته. يتوجّهُ نحو مجلسِ حكيمها، في عقرِ دارِه!...

لا يواجهُ أبو النزول أبا العلاء كما يواجهُ رجلٌ مستنسَخَهُ البيولوجي، أو كما يواجهُ صورتَهُ في المرآة، لكن كما يواجهُ المرءُ جسدَه أمامه!...

يصفُ أبو النزول لأمينيائيل كلَّ ذلك بِنفسِه، بإس إم إسٍ محمومٍ وكلماتٍ مكهربة:

((ها أنا ذا أواجهُ نفسي وجهًا لِوجه!...

كم نعرف بعضنا بعضًا تمامًا، أنا وأنا!...

ها هو أبو العلاء أمامي جالسٌ في محرابِ غرفتِه كأنّهُ إلهٌ إغريقيٌّ يحتضنُ بيدِهِ اليُمنى النصفَ الأعلى من مَسلّةٍ مصريّةٍ مكسورة، ويتّكئُ بِيدِهِ اليسرى على النصفِ الأسفل من المسلّة. رأسهُ منحنٍ نحو اليمين، يلامسُ حربةَ علياءِ المسلّة بحزنٍ صامت!...

Twitter: @ketab_n

تنهمرُ دموعي بغزارةٍ وأنا أراهُ أمامي. قلبي يرتعشُ مثل جفني!...

أعرف كلَّ ما كان يخطر ببالهِ في هذه اللحظة، كلّ أحاسيسه، أعيش الآن أحزانه مثله، أنا الذي كنتُ أبتسمُ في أطراف السماوات قُبيل دقائق!...

أتفحّصهُ بالميكروسكوب! لا أمَلُّ النظر والتحديق به، لأنّي أرى نفسي لأوّل مرّة!...

لو لم يفصلنا ألف عام لعانقتُهُ بِحرارة، لاحتضنتُهُ بالتحامٍ يلصقني به، أي يلصقُني بنفسي إلى الأبد!... إلٰهي، كم ترتعدُ فرائصي من هولِ اللحظة!)).

كم ترتعدُ فرائصي، أنا أيضًا، وأنا أنقلُ محضرَ ذلك في هذه السطور!...

ها هو أبو النزولِ يرى أبا العلاء على بُعدِ ذراع (يرتجفُ كما لم يرتجفْ يومًا)، يقابلهُ وجهًا لِوجه بعد عودتهِ من رحلةِ السنة والسبعة الأشهر، وبدءِ حياتِهِ الزاهدةِ الكئيبة في سجنه الثالث!...

يرى نفسهُ متربّعًا في واجهةِ الحُجرة، قرب عصاه التي لا تفارقهُ لحظةً واحدة. كلُّ أدواتهِ الصغيرة في أماكنها الثابتة التي يتذكَّرُها عن ظهر قلب، بعد ألف سنة. لم يكن يطيق أن يمسَّها أحدٌ، أو يُغيِّرَ أماكنَها المحدَّدة...

كلُّ نوافذِ وأبوابِ حجرتهِ مفتوحةٌ كما كان يُصرُّ أن تكون. لم يكن يطيق البقاء لحظةً واحدةً في حجرةٍ مغلقةِ النوافذ. يشعرُ حينها بالاختناق!...

يحتاج دومًا أن تتنفّسَ رئتاهُ الضوءَ، أن تمتلئ بِهِ حويصلاته

Twitter: @ketab_n

الهوائيّة، أن تعتجنَ به كريّات دمهِ الحمراء... لِينسابَ الضوءُ بعد ذلك من مسامّاتِ كلماتِه، من زفيرِها الدافق، من حيواناتِها المنويّة...

(هو مثل النبات، لا يؤمنُ إلّا بالضوء!)...

يسترسلُ الشاعرُ الذي يرتجفُ من رهبةِ اللقاء:

((لا أصدِّق عينيّ! أرى الآن يوميّات كلِّ مسرحيّةِ حياتي، بمفعولٍ رجعيٍّ، بعد ألف سنة!...

كنتُ قد نسيتُ تفاصيلَ حياتي في معرّة النعمان كلِّيّةً، أو بالأحرى كنتُ أجهَلُها تمامًا!...

يا لَهولِ ما أرى!...

-أرى أمامي الآن، لِأوّلِ مرّة، كوزَ الماءِ المشروخ الذي كان يقبعُ قُربي في المجلس، شمعةً حزينةً بجانب مقعدي عوجاءَ قليلاً، خيوطَ العنكبوت في بعض أطراف زوايا سقف الغرفة، عصاي التي لم تفارقني لحظةً واحدة، بابَ الحُجرةِ التي كنتُ أختلي فيها لوحدي!...

أمامي رفوف مكتبةٍ مكتظّةٍ بالمخطوطات السميكة تملأ الجدران الأربعة، ودولابٌ، كان والدي، قاضي المعرّة عبد الله التنّوخي، يستخدمُهُ كلّ يومٍ طوال حياته. يضجُّ بالأوراق، تمتلئ رفوفُهُ بِقنّيناتِ حبرٍ وماءٍ وردٍ وعطور...

على أحدِ رفوفهِ حزمةٌ من اليراعات والمحابر (كان قاضي المعرّة، الذي غادرني في صباي الباكر، يهوى كثيرًا جمعَ اليراعات الجميلة بمختلف أشكالِها وأنواعِها، كما قيل لي حينذاك)!...

ما أبهى أُلْبُوم يراعاته!... أرى في زاويةٍ منها يراعات جدّي، قاضي المعرّة أيضًا، الذي أشعل في ابنهِ كما يبدو شغفَ اليراعات!...

Twitter: @ketab_n

أرى لأوّل مرّة أمامي طاقم الشطرنجات الذي طالما مدحَ تنوّعَهُ وجمالَهُ زوّاري!... أبحثُ في تخومِهِ عن شطرنجين يَهمّانني أقصى أهمّيّة: شطرنجُ البخور اليمني، وشطرنج الرخام الفلسطيني!...

لي معهما ذكرياتٌ حميميّةٌ مُقدّسة!...

أحدّق بهما طويلاً، وإن كنتُ أتوهُ بعيدًا وأنا أسترجعُ مبارياتٍ لعبتها عليهما مع معشوقتي هند، وتلك الفتاة الصغيرة الباهرة التي أضاءت حياتي عندما وصلتْ المجلس: نور!...

في رفٍّ آخر مكْحلةٌ أثارت انتباهي كثيرًا (مكحلةٌ في دولاب ضرير!... ثمّة بالتأكيد من سخرَ منّي ذات يوم، قبل ألف عامٍ، بسبب هذه المكحلة!)...

ماذا أرى أيضًا؟... قنّينةَ زعفرانٍ سائل لا أعرف كم عمره، قليلاً من التمر والنباتات المجفّفة، قيثارةً مكسورة، هدايا كثيرة كنتُ أستلمُها من طلبتي وزوّاري من مصر وبلاد الرافدين والمغرب والهند واليمن والهلال الخصيب!...)).

استوعبَ أبو النزول أخيرًا إشكاليّةَ الفيلسوفِ الصيني الذي حلم ذات يوم أنّه فراشة، ثم تساءل عندما استيقظ من حلمه إن كان قد حلم فعلاً أنّه فراشة، أو إذا كان هو نفسهُ فراشةً تحلمُ حاليًّا أنّها فيلسوف!...

لا يدري هو كذلك، وهو يرى نفسَهُ أمامه، هل يحلمُ الآن أنّه كان في الماضي ضريرًا يقطنُ المعرّة، أو أنّه فعلاً شاعرٌ ضريرٌ يسكنُ معرّة النعمان، يحلمُ أنّه رحّالةٌ يطوفُ الكون والتاريخ في كلِّ الاتّجاهات لإنجاز مهمّة إعداد «تقرير الهدهد» للرفيق أمينيائيل!...

يتساءل من جَمالِ حيرتِه: هل هذا الكون مجرّدُ حلمٍ في دماغِ إله،

Twitter: @ketab_n

أم الإلهُ مجرّدُ حلمٍ في أدمغة الكائنات؟. . .

يسترسلُ أبو النزول وهو يواجه أبا العلاء:

((ها أنا أواجهُ طلبتِي وزوّارِي. لم أتخيّلهم يومًا بذلك التنوّع، أرمقُ لونَ أسنانِهم، ألمحُ نظراتهم المعجبة بي، أنا الذي قضيتُ حياتي قلِقًا (كم كنتُ مفرط الحساسيّة!) من أن تسخر منّي نظرات طلّابي أو منادِميّ، جهرًا دون اكتراث، مستغِلّةً أنّي لا أراها!. . .

أرى على ملامحهم ما يُشبِهُ الشعورَ بالذنب لأنّي أعمى!. . . إذا كان ثمّة من عليهم الشعورُ بالذنب، فَهُم ميكروباتُ مرضِ الجدري الذي أصابني قُبيل الرابعة من العمر، وأطبّاءُ القرن العاشر الذين لم يكتشفوا لقاح الجدري حينذاك!. . .

أحدّقُ مليًّا في هيئةِ كاتبي الذي كان يرافقني ويقرأُ لي ما أريد (الكسولِ كثيرًا، كما كنتُ أعتبرهُ في حياتي الأرضيّة الأولى. لم يكن كذلك في الحقيقة: يلزم لأبي العلاء فريقٌ من الكتّاب والقرّاء وطاقمٌ من الكمبيوترات والطابعات الإلكترونيّة!). . . أترحّمُ له الآن! كنتُ قاسيًا معه وأنا أطلبُ منه أن تكون له عشرُ أيدٍ وثلاثةُ أدمغة!. . .

أحزر كلَّ التفاصيل. يقرعُ قلبي بتسارع. لا أستطيع أن أصف أحاسيسي!. . .

لا أمَلُّ النظر في هذا المحبسِ الذي سَجنتُ نفسي في أصفادِهِ خمسين عامًا بمشيئتي، وإن كنتُ أصرُّ دومًا أن يكون مفتوحَ النوافذِ على الدوام!. . .)).

كان أبو النزول منذ طفولته لا يحبُّ النوافذ المغلقة. يشعرُ بين جدرانها بالتخثّر. لا يَقَرُّ له سريرٌ أو مقعدٌ في غرفةٍ مغلقة النوافذ! (نوافذُهُ مفتوحةٌ على الأبديّة). . .

Twitter: @ketab_n

يستأنف أبو النزول:

((كم تشاجرتُ مع أقاربي منذ صغري بسبب إصراري على أن تكون النوافذ مفتوحةً دائمًا، وكأنّي كنتُ أريد، بلا وعي، أن تخرج منها الأضواء، لأرى نفسي أمامي بعد ألف سنة!...

لِحسنِ حظّي أيضًا أنّ أوضاع بلاد العرب استعصتْ على فهمِ الأقدسِ جدًّا! لولا ذلك لما بعَثَني في مهمّةٍ استكشافيّةٍ أشاهدُ خلالها كلَّ ما أراهُ الآن!...

لو كان ثمّة عدلٌ في السماء لقرّرت أن يعودَ كلُّ المكفوفين من الموتى إلى الأرض، في مهمّاتٍ استكشافيّة من هذا القبيل!...)).

يفركُ أمينيائيل يديهِ في السماء ٧٧ فرحًا بانفعالات الشاعر. ينتظرُ إس إم إسات دهشاتِهِ بفارغِ الصبر، يتوقّعها ساخنةً كما يُحبّ!...

هو مثل أبي النزول يعيش لحظةً فريدةً لا تُماثِلُها لحظة. تتأرجحُ أحاسيسه على إيقاع انطباعات ساعي بريدِه الحبيب!...

يسترسلُ الشاعر المبهوت: «أريدُ رؤيةَ أمّي الآن!»... أمّه التي كانت بالنسبة له، مثل هند، أكبر من مجرّدِ كلمة!...

يعودُ لذلك سنتين إلى الخلف، قبل بضعةِ أشهر من رحلتهِ بحثًا عن هند!... يتوجّهُ مباشرةً إلى حُجرةِ والدتهِ لِيراها تُعِدُّ لأبي العلاء، الذي كان حينها في المجلس، إبريقًا من الشاي وصحنًا من التمرِ والسفرجل!...

يراها تتفقّدُ أدواته الصغيرة في أرجاء الحجرة!...

يسترسلُ أبو النزول وهو يتخبّطُ من مفاجأةٍ إلى مفاجأة:

((ها هي أمامي من تعلّقتُ بها دومًا كطفل! تُرتِّبُ حاجاتي الصغيرة بانتظار غليان إبريق الشاي!...

Twitter: @ketab_n

كانت، رحمها الله، تحرصُ أن تظلّ كلّ أشيائي الصغيرة في مواضعها التي أتذكَّرُها عن ظهر قلب، لأتنقّلَ في المنزل كبصير، دون حاجةٍ لأحد! تعرف كم كان يُتعبُ أعصابي أن يغيّر أحدٌ مواضع أشيائي الصغيرة، أو أن يمسّها فقط! . . .

آه، كنتُ قد تذكَّرْتُ أمّي قُبيل لحظات فقط، عندما كنتُ أطوف المجرّات: التقطتُ لها طاقمًا (أسميتُهُ «باقةً من ورود المجرّات») من أجمل الحصى الملوّنة التي كانت تمرُّ قربي في الفضاء الكونيّ الطليق.

حَجَرةٌ واحدةٌ صغيرةٌ منها تكفي لإثارةِ بهجةِ وضجيجِ كلِّ علماءِ الكرةِ الأرضيّة اليوم، لأنّها تحملُ في طيّاتها كلَّ رسائل ماضي الكون السحيق! . . .)).

كان بودِّ أبي النزول، بالتأكيد، إهداءُ باقتِهِ الملوّنة لِصاحبةِ «سورة الألوان» التي جاهدتْ لتشرحَ لهُ في طفولتهِ هيئاتِ الألوان وأسرارها! . . .

أتساءلُ أحيانًا: كيف يمكنُ تعريفُ الألوان لِضرير؟ أيمكنُه أن يكون فنّانًا تشكيليًا مثلاً، (أي شاعرًا أيضًا، أبجديّتهُ الألوان وانزياحات الخطوط)؟ . . .

يسترسلُ الشاعرُ الذي يرى أمَّهُ بعد ألف عام:

((أقتربُ منها حدَّ الالتصاق! . . . ما أرطب وأنقى بشرتَها السنِيَّة! ما أزكى رائحتَها! أتذكّرُ هذه الرائحة منذ أن كنتُ أرضعُ حليبَها، أو ربّما قبل ذلك! أشتاق لها منذ ألف عام. . . من لم يكنْ ضريرًا في حياتِهِ الأولى فلن يفهمَ يومًا لغةَ الروائح! . . .

أقبّلُ جبينَها دون أن تشعرَ بي، يا لأسفي! . . . أحتضنُها طويلاً وبقوّة. لا تشعرُ بي، اللعنة! . . . تدمعُ عيناي بصمت! . . .

Twitter: @ketab_n

كان بِوُدّي أن أقول لها: «أمّاه، صرتُ أعرفُ الآن لونَ العسل الذي طالما جاهدتِ لِوصفِهِ لي في صباي!»...)).

انفعلَ بِشدّة، اكتسحتْهُ الرهبة! تَمنّى أن يرتشفَ معها ذلك الشاي بالقرنفل والزنجبيل، الذي طالما أحبّه!...

يعرف أنّها كانت تناضل لِيشعرَ بالمتعة والسعادة، وكأنّها بذلك تنتقمُ من ظلم القدر الذي نهبهُ ناظريه!...

ثم عاد لِلمجلس ليشاهدَ نفسهُ من جديد، ويتابعَ يوميّاته، وكأنّه يريد أن يُعوِّضَ، بعد ألف عام، كلَّ الزمن المفقود!...

ينظرُ أبو النزولِ لِعمامتِهِ بتركيز!... لم يكن يعرف أنّه كان ماهرًا إلى هذا الحدّ بربطِ عمامته بأناقة!...

لم يخطر له أنّه بهذا الوقار والأبّهة، وبهذا التواضع أيضًا، هو الذي وصفَ في لزوميّاتِه هذه المجالس بروحٍ زاهدةٍ صادقة، وتواضعٍ نبيل:

يزورني القومُ، هذا أرضهُ يمَنٌ   من البلادِ، وهذا دارهُ الطّبسُ
قالوا: سمِعنا حديثًا عنك، قلتُ لهم: لا يُبعِدُ اللهُ إلّا معشرًا لَبَسوا
يبغون مِنّيَ مَينًا لستُ أحسنُهُ   فإن صدقتُ، عرتْهُم أوجهٌ عُبسُ
ماذا تريدون؟ لا مالٌ تيسّرَ لي   فيُستماحُ، ولا عِلمٌ فيُقتَبَسُ
أتسألون جهولاً أن يُفيدكمُ   وتحلبون سفيًا، ضرعها يبسُ؟

قبل أن يقول:

ساعاتُنا كذئابِ الختل، إن غُبستْ   في الليل، فالذئبُ في ألوانِه الغُبسُ!

أي: الساعةُ التي تمرّ تُشبِهُ لونَ جلدِ ذئبٍ عند الغروب، يزدادُ غبسًا كلّما راحت الشمس تنأى عنه!...

Twitter: @ketab_n

ما أبصر هذا الشاعر الضرير الذي استوعب «سورة الألوان» أيّما استيعاب! . . .

ما أوسمه أيضًا! . . . لِلِحيتهِ لونُ الملح والفلفل! ما أبهاهُ وهو يجلسُ القرفصاء أمام طلبته ومُحبّيه! . . . لو لم يُطمَس نظرُهُ لقطّعتْ حسناواتُ العصر العبّاسي أيديهنّ عند رؤيتِه، مثل امرأة العزيز التي اقتلع جمالُ يوسف قلبَها، لِدرجةِ أنّها «قدَّتْ قميصَهُ من دبر» (كما يقولُ المصحف الكريم) لاغتصابهِ من فرط جمالِه، بعد أن حاول مغادرةَ بيتِها هربًا من الاغتصاب، وإن كنت لا أدري حتى الآن كيف يمكن لامرأةٍ أن تغتصبَ رَجُلاً إذا كان يرفضُ ذلك! . . .

يستأنفُ أبو النزول:

((ثم رجّتْ عظامي رجّةُ الرجّات! . . .

أسألُكَ الرحمةَ أيّها الأعلى جدًّا، الأجلّ جدًّا، الأعظم جدًّا! . . .

تكهربَتْ شراييني وألياقي العصبيّة! . . .

رأيتُ أمام أبي العلاء، بين تلاميذِ مجلسِه، تلك التي كانت تذوبُ سعادةً وهي تتركُ أصابعها تحومُ كَظَبْيٍ في بستان لِحْيَتي، تلك التي كنتُ أذوبُ سعادةً وأنا أتركُ أطرافَ أصابعي تحومُ بِرقَّةٍ في ملكوتِ صدرِها ومنحدرات خاصرَتِها، حبيبتِي هند التي سافرتُ بِعينين مطموسَتَين سنةً وسبعة أشهر أبحثُ عن رائحَتِها من أرضٍ لِأرض! . . .

ها هي في مجلسي من جديد، على مقربةٍ منّي، تُحاجِجُني دون هوادة أمام بقيّة طلّابي حول هذا البيت من الشعر أو ذاك، تدخلُ معي في جدَلٍ بَلاغِيٍّ أو ذَوقِيٍّ حول هذه الكلمةِ أو تلك، هذا الحرفِ أو ذاك، تختلفُ معي في تقييمِ تجربةِ المعتزلة (التي انتقدَها أبو العلاء)،

Twitter: @ketab_n

تجربةِ الصوفيّة (التي انتقدها أبو العلاء)، الأشعريّة (التي انتقدها أبو العلاء). . .)).

كان صاحبُ «لا إمام سوى العقل!» يحيا في عصر الأنوار، متقدِّمًا عصرَه أكثر من سبعة قرون!. . .

يسترسلُ الشاعرُ الذي يرتعشُ نخاعُهُ الشوكيّ من حميميّة اللحظة:

((ثم ها هي أمامي بعد المجلس في حجرتي المجاورة، هناك حيث نتَّفِقُ على كلّ شيء، حيث تتطابقُ وجهاتُ نظرِنا وتتوحّد، حيث الشهقاتُ فضاءٌ والفضاءُ شهقات، لا سيّما عندما تذهبُ أمّي للصلاة في الغرفة المجاورة!. . .

تسيلُ دموعي، أبكي بِلَوعةٍ وسعادةٍ ومرارةٍ وحرقةٍ في الوقت نفسه، كما لم أبكِ يومًا، وكما لن أبكي يومًا بالتأكيد!. . .

إلٰهي، لو تعرفُ طالبتي وأستاذتي أيضًا (معشوقتي الأبديّةُ قبل هذا وذاك) كم أشتاقُ لها، منذ ألف عام!. . .

لو تعرفُ كم أشتاق عرَقَ مسامّاتِها (عطرَ العطر، عرَق الآلهة)، كم أعتبرُها مِلْكي أنا وحدي، جزءًا من كياني البيولوجي!. . .

لو تعرفُ أنّ حياتي الأرضيّة لا تتلخّصُ إلّا في لحظاتِ لقائها. كلُّ ما عدا تلك اللحظات غثاء سيل، أسًى وكروبًا وتأمّلاتٍ حزينة!. . .

لو تعرف معبودتي الصغيرة أنّي لم أقل حرفًا دون أن أهديهِ لها. أدينُ لها بكلّ شيءٍ جميلٍ في حياتي!. . .

دون حبيبتي هند لستُ أكثر من لا شيءٍ صغيرٍ جدًّا!. . .)).

يعودُ بضعة أيّام إلى الخلف لِيُشاهدَ نفسَهُ يلعبُ الشطرنجَ معها.

يُراقبُ، وهو يرتجفُ من شدّةِ حميميّةِ المشهد، نهايةَ المباراة!. . .

Twitter: @ketab_n

أي: بداية مباراةٍ أخرى!...

يعترفُ لأمينيائيل بكلماتٍ يذوب ساعي بريد الأعلى جدًّا أمام صدقِها ونقائها:

((أتساءلُ، صديقي أمينيائيل، وأنا أرى خشوعَ تشنُّجات قسماتِ وجهِ حبيبتي أثناء رفرفةِ شهقاتها الصغيرة، إن لم تتجاوز إحدى توحّداتنا الجامحة «جدارَ الضوء»!... لِأنّا كنّا معًا نفضِّلُ الكرّ على الفرّ. نتكاسلُ حتى آخر اللحظات عن الخروج من التحامِنا!...

أخشى حتى الآن، بعد عشرة قرونٍ من ذلك، أن نكون قد ارتكبنا آنذاك هفوةً توحّديّةً طائشة!...)).

ينحني أمينيائيل خشوعًا أمام تلقائيّةِ وبراءةِ أبي النزول!...

ثم يُقهقهُ بِصمت، يُردِّدُ: «لكلِّ فارسٍ هفوة، ولِكلِّ جوادٍ كبوة!»، وهو يتابعُ ضاحكًا اكتشافات أبي النزولِ «زلّاتِ» حياتِه الماضية!...

يسترسلُ أبو النزول وهو في أوج رعشته:

((أرتعشُ من جديد من قدسيّة اللحظة وسنائها!...

أرى أيضًا ومضات تشنُّجات وجهِي، أنا نفسي!

حتى لو كنتُ حينها بصيرًا فما كان لي أن أشاهد ذلك!...

شيءٌ لا يخطر ببال ما أراهُ الآن!...

لو طَلبَ منّي أحدٌ نصيحةً صغيرةً فسأقولُ له: «افتحْ نوافذك على الدوام كي يصلها ويغادرها الضوء! من يدري، ربّما ستلحقُ ذلك الضوء، ذات يومٍ بعد ألف سنة!»...

أحدّقُ بِهِنْدَ بِوَلهٍ لا وَلَهَ بِمقامه!... أيقنتُ بفضلِ مشهدِ قسمات وجهَينا أنّ الدنيا الفانية تستحقُّ الحياةَ أطول ما يمكن، تستحقُّ الخلودَ،

Twitter: @ketab_n

وأكثر من الخلودِ بقليل، لِرؤيةِ هذا المشهد على الأقلّ، هذا المشهدِ لا غير!...

تَفجّرَ فيّ حبُّ الحياة في عمريَ الثاني، أنا الذي قضيتُ عمريَ الأوّلَ أنتظرُ الموتَ بِفارغ الصبر، منذ هذه اللحظة بالذات التي رأيتُ فيها تناغمَ قسماتِ وجهِ هِنْدَ مع قسماتي ونحنُ نتشاطرُ اللّذّة نفسها!...)).

يشاركهُ أمينائيل مشاعرَه وشجونَه المحمومة!... يُعيدُ أكثر من مرّة قراءةَ هذا الإس إم إس الذي هزّهُ في الصميم. ينتظرُ بِلوعةٍ وعدمِ صبر إس إم إسات شاعرِه التي توقّفتْ بعد غرقِهِ في ومضات رعشاتهِ العتيقة!...

يقلقُ أمينائيل كثيرًا، ثم يهدأ بالُهُ عندما يفاجئهُ هذا الإس إم إس الغريب النكهة:

ـ لي طلبٌ، عزيزي أمينائيل، لا أتجرّأ على الإفصاح به!

ـ تفضّلْ، أرجوك!...

ـ أودُّ أن أسمّيكَ أحيانًا، بكلٍّ بساطة: أمين، بدلاً من أمينائيل التي تبدو لي ثقيلةً في بعض السياقات!... أيمكنُ ذلك؟

ـ يسعدني ذلك، منك شخصيًّا، أكثر ممّا تتصوّر، عزيزي أبا النزول!...

يسترسلُ أبو النزول:

((ها أنا أعيشُ اللحظات الأخيرة لِمغادرةِ هِنْدَ المعرّة، أرافقُها وهي تسافرُ لِسببٍ غامضٍ إلى بيت خالتِها السيّدة رُقيّة بنت عبد الملك... لم أفهم إلّا متأخّرًا جدًّا علاقةَ سفرِها بِتكوُّرِ بطْنِها... قبل

Twitter: @ketab_n

أن أشاهدَ بِأمِّ عينيّ اللحظةَ الصاعقةَ، أمَّ اللحظات التي لم أتوقّعها قطّ حتى الآن:

لحظة أجملِ الجنايات وأثمرِ الجَنْي،

أجملُ هفوةٍ وأقدسُ كبوة،

لحظة ولادةِ النور، ابنتي نور!

نور حياتي التي جاءت لزيارتي بعد عقدين من سفرِ هند!... حبيبتي نور التي لم أتوقّف منذ وصولِها المعرّة عن التساؤل: ماذا لو كانت هذه البنت فلذة كبدي؟ أيمكنُها ألّا تكون ابنتي؟...

هكذا وَفَتْ صاحبةُ «حديث التكرارين» بِعهدِها، بطريقةٍ خاصّةٍ جدًّا!...)).

يفركُ أمينيائيل يديهِ!...

يتنهّدُ أبو النزول، تغمرهُ سعادةٌ كونيّة!... يمتلئُ رأسهُ ألعابًا ناريّةً و«ألعابًا ناريّةً مضادّة»!...

يستأنف أبو النزول بعد أن أوشك أن يسقط صريعًا من هولِ المفاجأة:

((كان بودّي، عزيزي أمين، أن آخذ نور وهي تضطجعُ فوق بطن هند (نورٌ على نور)، أن أقصَّ أنا نفسي حبلَ سُرّتِها، أن أحتضنَ طفلتَنا الموشّحةَ بِدم حبيبتي الطاهر، أن أغسلَها في الحوضِ المجاورِ لِهند، أن أناديها مثل كلِّ أبٍ، بكلِّ بساطة: «حبيبتي نور!»، أن أقبّلها، أن أقبّلها كثيرًا!...

لا أستطيع: يفصلني عنهما سورٌ فولاذيٌّ غير مرئي، سُمكُهُ ألفُ سنة!...

أشعرُ بغيظٍ دفينٍ من طعنةِ الزمن وجورِه!...)).

Twitter: @ketab_n

يعصرهُ الأسى، لم يعد أبو النزول يكتفي الآن بِمُجَرّد مشاهدةِ حبيبتِهِ وطفلتِهِ في أشعّةِ الأضواءِ القادمةِ من الماضي!... تكتسحهُ أشواقٌ ميتافيزيقيّةٌ عارمةٌ غامضة، تسيلُ من عينيه دموعٌ أثيريّةٌ حزينة!...

تمرّ الأيّام الأرضيّة وهو بقربِ هند ونور، لا يتزحزح! لا يريد الابتعاد عنهما، مهما كانت النتيجة!...

يقضي ساعاتٍ طوالاً في التحديق بمعشوقتِهِ هند، في عناقِها دون أن تشعر... في تقبيلِ صغيرته نور، في اللعب معها دون أن تلاحظ شيئًا!... يُغنّي لها، يُغنّي لها دون توقّف...

يندمُ أنّه لم يعش هذه اللحظات قبل عشرة قرونٍ قرب معشوقتِهِ الأبديّة، لِيستنشقها باستمرار، لئلّا يفارقها لحظةً واحدة!...

يبوح أبو النزول لأمينيائيل بما يدور في طيّاتهِ بكلّ براءةٍ وحبّ. يدمّعُ أمينيائيل من فرطِ إعجابِهِ بِصدقِ لوعةِ كلمات شاعرهِ الأبديّ (الذي يُجيدُ اختيارَ اللحظةِ التي يُناديهِ فيها بِاسْمِ: أمين)!:

((تكتنفني، عزيزي أمين، رغبةٌ جسديّةٌ عارمة في أن تراني معشوقتي الآن كما أراها، في أن تتفجّرَ في أحضاني على أرض الواقع المعاصر، قبل أن نخوض مباراةَ شطرنج حقيقيّة، بيولوجيّةً جدًّا!...)).

يستعيدُ أبو النزول منظرَ شابٍّ وفتاةٍ سهول سرينجيتي، آدمِهِ وحوّاه، وهما يلعبان بالحصى على الأرض، قبل أن يرسل حينذاك لأمينيائيل قراره النهائي الفاصل: «وُلِدَ الإنسان!»...

يُريدُ أن يولدَ، هو أيضًا، في أحضان هند من جديد!... يلعنُ من جديد سهمَ الزمن الذي لا يقهرُهُ قاهر، ويشتُم حركتَهُ الخطّيّةَ العمياءَ الظالمة!...

Twitter: @ketab_n

٤٤

أمينيائيل يتنرفزُ قليلاً

نسي أبو النزول (وهو يرتعُ ويمرعُ في ظلال حبيبته) صديقَهُ أمينيائيل! لم تَعُدْ تُهمُّهُ الآن مواصلةُ كتابةِ «تقرير الهدهد»، من قريبٍ أو بعيد!...

بإمكان صديقهِ الحميم أن ينتظر كثيرًا هذه المرّة، أن يلتهمَ كلَّ أظافرهِ القُدسيَّةِ السَّنيّةِ من فرط الانتظار!...

يشعرُ أمينيائيل أنّ أبا النزول «خرج عن النصّ»!... يستعجلُهُ بتوتّر، هو الذي كاد يتوقّف قلبه من فرط إعجابه بإس إم إس أبي النزول الأخير!...

ينتظر إس إم إساته بِلَوعةِ مُدمِنِ مخدّرات...

لا كلمة!...

يبعثُ له إس إم إسًا بعلامة استفهام: «؟»، يَلحَقُه، بعد حُفنة دقائق فقط، آخر باثنتين: «؟؟»، ثم ثلاث: «؟؟؟»...

لا ردّ!...

Twitter: @ketab_n

يَلِيهم إس إم إسٌ أطوَل، يرجوهُ فيه أن يغادرَ المعرّة حالاً لِيواصل العمل. يذكِّرُهُ، بدبلوماسيّةٍ ومهنيّةٍ راقيةٍ مهذّبة، أنّ عليهِ أن يتسكَّعَ دون توقّف في أرجاء الكون، وأن لا يكُفَّ عن التنقّلِ الزجزاجي في متاهات الزمان، أن يبعثَ كلّ ما يخطرُ ببالهِ وما لا يخطر إذا أراد، حول كلٍّ شيء ولا شيء، لا سيّما حول أحوال بلاد العرب!...

لا تعليق!...

يلحقهُ إس إم إسٌ آخر أقلّ كياسة، أكثر غضبًا وديكتاتوريّة:

((عزيزي أبا النزول! يكفيك الآن نومُ أهلِ الكهف! لم أستلم منك شيئًا منذ أسابيع!... لا تنسَ أنّ مهمّةَ رحلتِكَ: السياحةُ الزمكانيّة وكتابةُ «تقرير الهدهد»، وليست «تبنين» وتربية أطفال!...

تذكّرْ أنّك لم تُبعَث إلى «الفانية» لِتراوح بين نور وهند، بل لِتسرحَ وتمرح في ملكوت الزمكان!)).

لم يُحبّ أبو النزول إس إم إس صديقه إطلاقًا!... وجد فيه أوامر وعجرفةً ولهجةً لا يطيقها قطّ!...

تغلغلَتْ سبّابةُ وإبهامُ الشاعرِ في لحيَتِه، في تخوم البلعوم. تململتا في كلِّ الاتّجاهات. شدٌّ وجذب. تأمّلٌ، ارتباك...

يلزمهُ أن يردّ، لكن كيف؟...

* * *

خطر له أن يُهَدِّئ غضبَ أمينيائيل بفكاهةٍ سمينةٍ مُدَوّية، مثل تلك التي اخترعها هدهدُ سليمان عندما استعرضَ مِلِكُهُ الجبّارُ ذات يوم جنودَه من بشرٍ وطيورٍ ونمل، ولم يرَ بينهم هدهدَه الغالي الذي غاب عنهُ طويلاً دون خبر!...

اشتعلَ المِلِكُ غضبًا، نوى تمزيقَ هُدهدِهِ إربًا إربًا!... دمدمَ:

Twitter: @ketab_n

«سأذبحنَّهُ، أو سأعذِّبنَّهُ عذابًا شديدًا» إذا لم يُبرِّزْ سببَ غيابِه!...

عندما عاد الهدهدُ كان المِلكُ وجيشُهُ العرمرم في انتظارهِ قرب شاطئ البحر!... حالما رأى الطائرُ المِلكَ يرمقُهُ بأعين جمريّة بِسببِ غيابهِ الطويل عن حاشيته، أدركَ أنّ أجلَهُ قد حان لا محالة، إذا لم يُطفئ غضبَ جلالتِهِ بِنُكتةٍ طريفة!...

«مكثَ غير بعيدٍ» من المِلك، ثم دار حول جلالتِهِ سبع مرّات، مُرفرِفًا جناحيه بخشوع. كتب خلال طيرانه (كأنّهُ قلمٌ يخطُّ على صفحة هذه العبارة:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أعظم ملوك الإنس والجان!» (كتبَها بخطٍّ لا جمالَ كجمالِه، بِلُغةِ الضادّ، لغةِ «منكر ونكير»، العربيّة الفصحى، التي يُجيدُها الملكُ سليمان أيضًا، مثل إجادتِهِ لُغات الحيوانات والطيور والحشرات والحجارة)، قبل أن يُفجِّرَ هذه المفاجأة:

ـ سيّدي المِلك الأعظم! قبل أن أنبئَك عمّا رأيتهُ في غيابي («أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ»!)، أودُّ أن أستضيفَ جلالتكَ أنت وجيشك العظيم لمأدبةِ غداء أعدّها لكم أنا نفسي!...

ظنّ المِلكُ أنّ هدهدَهُ الحبيب يسخرُ منه بوقاحة، أو أنّه عاد مخبولاً من رحلتهِ لمملكةِ سبأ التي تُمغنِطُ العقول، تأسرُ اللبّ، وتُجنِّنُ بالجنِّ والإنس والطيور وسائر الكائنات، الأحياءِ منهم والأموات!...

سألهُ: «عن أيّ مأدبةٍ تتحدّثُ أيّها المتمرّدُ الشقيّ الذي سأصبُّ عليه حالاً جامَ غيظي؟»...

توجّهَ الهدهدُ لُحيظات إلى شجرةٍ على ربوةٍ مجاورةٍ للشاطئ، خطفَ بمنقارهِ جرادةً كانت تُحلِّقُ بهدوء قرب الشجرة، اقتلعَ وابتلع رأسَها بلمحة بصر، عادَ مُتمخطرًا بجثمانِها إلى الشاطئِ الذي يدمدمُ فيه

Twitter: @ketab_n

مِلِكٌ رابضٌ فوقَ عرشٍ شاهق، تحملهُ كوكبةٌ من أجملِ وأقوى الجنِّ والعفاريت، وترقص أسرابٌ ملوّنةٌ من الطيور فوق رأسهِ رقصاتٍ باليه لا تتوقّف ليل نهار! . . .

ثم طار الهدهدُ بِجرادتِهِ المبقورة إلى عرض البحر، رمى بها في لُجّهِ اللازورديّ المتلألئ أمام نظرات المِلِك الجَمْرِيّة، قائلاً لِلحشدِ العسكريّ المهيب:

«هنيئًا مريئًا لكم وجبةُ الحساءِ باللحم!»، مشيرًا إلى حساءِ البحرِ ولحمِ الجرادة، مضيفًا (وهو ينحني سبع مرّات باتّجاهِ جلالة المِلِك):

«اللحمُ لك أيّها الملك المعظّم، والحساءُ لِجيشكَ المغوار!». . .

انفجر المِلِكُ ضحكًا، تماوجَ البحرُ على إيقاعِ قهقهتِهِ، وتذبذبَ الأفق! . . .

سامح هُدهدَهُ على غيابه الطويل، صفح له ما تقدّمَ من غيابهِ وما تأخّر، ثم بدأ يستمعُ لِتقريرهِ التاريخيّ عن أحوالِ وأموالِ مملكةِ العطورِ السعيدة، وملكتِها المذهلةِ الجمالِ والسناء. . . إلى نهاية القصّة التي يُمكنُ تلخيصُها بالتالي:

«أمام عنفِ الحاكمِ اسجدْ، اركعْ، أهْدِهِ جسدَكَ وروحكَ معًا!».

أصغى الملكُ باهتمامٍ خاصٍّ جدًّا لِآخر فقرات تقرير الهدهد عن سفَرِ المِلِكة (الآنسةِ بلقيس، كما تسمّيها الأساطير) لِتُهدي نفسَها لِجلالَتِه، بِروحٍ استسلاميّةٍ قصوى، بعد أن برّرتْ ذلك، ببرودةٍ وركوعٍ أسطوريّين: ﴿إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلِهاَ أذِلّة!﴾ أمام أهلِ مملكتِها الميمونة الذين أبدوا قبل ذلك استعدادَهم لِحماية أرضِهم بِثقةٍ وبسالة، لا سيّما وأنّهم ذوو بأسٍ شديد، كما قالوا! . . .

Twitter: @ketab_n

يصعبُ تعليمُ الخنوعِ وروحِ الهزيمة بأفضلِ من تلك الكلمات! . . .

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ. قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ. قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ.

قال الهدهد:

((مولاي جلالة ملِك الإنس والجنّ والنمل والطيور والحجارة:

الملكةُ قادمةٌ على رأس قافلةٍ ملكيّةٍ تاريخيّةٍ لتنحنيَ أمامك، حاملةً أبهى لآلئ الأرض ومرجانها، أشذى عطورها وبخورها، هدايا لِجلالتك! . . .

ناهيك عن عطرِ العطرِ وبخورِ البخور: جسدِها الأسطوريِّ الفريدِ ذي العبقِ الزكيِّ الأوحد! . . .)).

* * *

لم يستحسن أبو النزول اللجوءَ إلى هذا النمطِ من الفكاهةِ لإطفاءِ غضبِ أمينيائيل! لا لِعدَم إعجابِهِ بظرافةِ حكايةِ مأدبةِ الجرادة التي ابتكرَها الهُدهد، في هذه الأسطورةِ اليمنيّةِ القديمة المحكيّةِ على هامشِ أسطورَةِ التلمود الشهيرة، والتي طرّزتها الميثولوجيا الإسلاميّة بالعفريتين، وتبّلَتها ببهاراتٍ جديدة! . . .

بالعكس: تُثيرهُ كثيرًا هذه الخرافة ذات العيار الثقيل، ويذوبُ وَلَهًا وإعجابًا بعنوان «تقرير الهدهد» الذي اقترحه أمينيائيل من وحي هذه القصّة الممتعة! . . .

لكنّه يحبُّ كلّ ذلك كنصٍّ سرديّ! . . . كمجازٍ فقط! . . .

Twitter: @ketab_n

كمجازٍ لا غير!... هو الذي قال:

نقولُ على المجازِ وقد علِمنا بأنّ الأمرَ ليس كما نقولُ!

لم يلجأ أبو النزول في الحقيقة لِتهدئةِ غضبِ أمينيائيل بِنُكْتةٍ تستلهمُ روحَ هذه الفكاهة، حتى لا يظُنَّ أمينيائيل أنّه ينتصُّ شخصيًّا في موقعِ الملِكِ سليمان، وأنّ أبا النزول بِمثابةِ هُدهُدِه الخاصّ، لا أكثر!...

(أبو النزول مثقّفٌ حرّ، حريصٌ على حرّيّته، يرفضُ، أكثر ما يرفض، عقليّةَ العبيد!...).

قرّر بدلَ ذلك أن يردّ على أمينيائيل بإس إم إس صوتيٍّ يُغنّي فيه الأنشودةَ الصغيرة ذات اللحن الطفوليّ السادر، المفعمِ بالهدوء والفرح:

تُغرّدُ الطيورْ فرحانةً بالنورْ

تقولُ في سرورْ: «ما أجملَ الضياءْ!»

«ما أجملَ الضياءْ!»...

لعلّهُ أراد أن يُنرفِزَ قليلاً صديقَه الحميم، ويُشعرَهُ أنّه لا يعطي اهتمامًا كبيرًا للأوامر الفوقيّة، لا يخضعُ لأحد، مثلما كان في حياتهِ الأرضيّةِ الأولى التي أرسى فيها حاجزًا بينهُ وبين السلطَة: لم يمدحْ حاكمًا، لم يتوسّلْ أو يُصفّقْ أو يتقرّبْ لسلطان، لم يَحْيَ في ظلِّ أميرٍ أو والٍ، لم يعشْ ذَيْلاً لأحد!...

هو أكبر من شِعرِ المديحِ والهجاءِ والرثاءِ وبقيّةِ الترّهاتِ والخزعبلاتِ والسفاسف الصغيرة!...

هو: خُرررررررر!...

مارس دورَهُ، كما يُقالُ بِلُغةِ اليوم، كمثقّفٍ مُستقِلٍّ عن السلطة!...

Twitter: @ketab_n

كم كان طليعيًا في كلِّ شيءٍ ذلك الشاعرُ الضرير!...

ثم بعث له بعد ذلك بقليل إس إم إسًا آخر، أكثر جدّيّةً وودّيّة، عنوانه: «بالهداوة حبيبي أمينيائيل!»، سعى فيه للتفاوض مع ساعي البريد الإلٰهي العظيم، وإقناعهِ بشكلٍ مهذب بأن يتركَهُ يُنفِّذُ مهمّتَهُ حسب مزاجه:

((عزيزي أمينيائيل! تعرفُ تمامًا أنّي كنتُ في دهري الأوّل أمقتُ الحياة، لا أتمنّى إلّا أن «يزورني عزرائيل» في أقرب وقت! انتظرتهُ طوال عمري تقريبًا...

ألم أقلْ فيما قلتُ: «فيا موت زرْ إنّ الحياةَ ذميمةٌ»؟... تعرفُ كم تردّدتُ طويلاً عن أداء هذه المهمّة!...

لم أوافقْ إلّا عندما قلتَ لي إنّها ستسمحُ لي بإجلاء سرٍّ في حياتي أجهلُهُ تمامًا. ها أنا أحيا هذا السرّ، أعظم الأسرار! اتركني أعشْهُ الآن بهدوء!...

ثم اعلمْ أنّي تغيّرتُ كثيرًا: كنتُ أكرهُ حياةَ الأرض في دهري الأوّل! أمّا الآن فلا أرى أجمل منها، أعشقُها عِشقًا!... كلُّ هذه الأجرام والمجرّات، كلّ هذه الممالك والإمبراطوريّات، لا تساوي لذَّةَ استنشاقِ رائحةِ هِنْدَ وهي تتماوجُ نائمةً على فراشها، لا تساوي رؤية الابتسامة الراقصة في أعين صغيرتي نور، تلك التي ستهزمني بالشطرنج ذات يوم!...

تلك التي تعلّمَتْ كيف تلعب الشطرنج بالعمياء أيضًا، لتبهر أباها، لِتلِجَ عالَمَه!...

بهرتني كما لم يبهرني إنسانٌ في هذا الوجود!...

Twitter: @ketab_n

نورٌ نورٌ على نور!...

سامحني حبيبي أمينيائيل! لا أودُّ الآن مغادرةَ هِنْدَ ونور لأيّ سببٍ كان!... لا تنس أنّي اشترطتُ عليك أن أبرمج هذه الرحلة كيفما أشاء بُحرّيّة!... لكنّي أعدكَ بأن لا أتركَ هذه المهمّة التاريخيّة الفريدة التي تسمح بعبور الزمن في الاتّجاه المعاكس (التي لم يَحْظَ بها إنسانٌ قبلي، وربّما بعدي) تمرُّ مرور الكِرام، دون أن أُقلِّبَها، أهرُسَها، أفصفِصَها، أقضمَها كما يقضمُ الكلبُ الجائعُ كتفَ غَنَمة!...

اتركْ لي حالي إذن يا صديقي العزيز! سأواصلُ «تقريرَ الهدهد» عندما يأتيني المزاج!))...

حكّ الملاكُ العظيم رأسه، تأوّهَ في علّيّين السابعة والسبعين كعادتهِ شاتمًا أمير الظلمات، سرطان الرجيمِ، عدوّهُ التاريخي اللدود، بِصيغتهِ المفضّلة: «أعوذ بالأعلى جدًّا من سرطان الرجيم!» التي يكرِّرُها في اليوم بضعة مليارات المرّات!...

ندم قليلاً على اختيارِهِ لهذه المهمّة العاجلة أبا العلاء ٠٠٧ (الذي لم يُخلق لِيكونَ «أفاتارًا» لأيِّ كان، أو «بيشمرجًا» لأحد)!...

ثم قبِل الأمرَ الواقع، لأنّه لا يعرفُ إنسانًا آخر أجدر منهُ بهذهِ المهمّة... قبل أن يستغرقَ في التفكير بِعُذرٍ مناسب فيما لو طلب منه الأعظمُ جدًّا أخبارًا عن تقدُّمِ «تقرير الهدهد»، أو لو انتقدَهُ لاختيارِهِ لكتابتِهِ أبا العلاء (الذي يلتزم بما لا يلزم، ولا يلتزم بما يلزم)!...

ثم تفجّرتْ سعادةُ أمينيائيل من جديد وهو يستلمُ «لَحقةً»، سقطَتْ على جمجمتِهِ كجلمود صخرٍ حطّهُ السيل من علياء السماء ٧٧، وصلتْهُ بعد دقائق فقط من إس إم إس أبي النزول الأخير!...

Twitter: @ketab_n

٤٥

ابنةُ النقلةِ الواحدةِ والثلاثين

ردّ أبو العلاء على نور:

ـ لعلّي صرتُ كهلاً عصيَّ الفهمِ والاستيعاب: أيعني ما قُلتِه، يا ابنتي نور، أنّكِ تستطيعين أن تلعبي الشّطرنجَ بالعمياء؟

ـ نعم، سيّدي!....

ثمّة، كما يُقال، لحظةٌ في الحياة، واحدةٌ إحدى، تفاجئُ كلَّ فردٍ وتنْقَضُّ عليهِ مدى العمر. لواحدٍ: لحظةُ لقاءٍ بإنسان، تقلِبُ حياتَهُ رأسًا على عقب. لثانٍ: كسبٌ ماديٌّ مفاجئٌ في لعبةِ حظٍّ ينتقلُ بعده من الفقر المدقع للغناء الفاحش. لثالثٍ: طعنةُ خنجرٍ في الظهر... لأبي العلاء: هذه الصغيرة التي تستطيع أن تلعب ضدّهُ الشّطرنجَ بالعمياء!...

لماذا يُقرِّرُ البصيرُ أن يتعلّمَ اللعبَ بالعمياء؟ سؤالٌ كبيرٌ لا يعرفُ الحكيمُ الإجابةَ عليه!... سيفكّر لاحقًا!... لماذا يُقرِّرُ (من يدري!) أن يقود سيّارتهُ بالعمياءِ؟ أن يقرأ كتابًا بالعمياء؟...

أيّةُ متعةٍ تجدُها ملكةُ الأنوار، النورانيّةُ الصغيرةُ نور، وهي تحاول

Twitter: @ketab_n

الرؤية في سراديب الظلمات؟ ألا تُشبِهُ بذلك من يخلعُ أحذيتَهُ ليمشي فوق الأشواك؟ . . .

يلزمُ أن يتركَ الشاعرُ الآن جانبًا هذه الأسئلة، ويخرجَ سريعًا من مباغتة هذه المفاجأة، لِيواجهَ تَحدِّيَ هذه الصغيرة التي تريدُ، كما يبدو جليًّا، أن تهزمَهُ هزيمةً حقيقيّةً نكراء، في عقرِ دارِهِ: محبِسهِ الأوّل، العمى! . . .

لعلّها أدركَت الآن فقط أنّ كلَّ انتصاراتِها السابقة ظلالُ انتصاراتٍ ليس إلّا، انتصاراتٌ زائفةٌ لا أكثر، لأنّها لم تلعب مثلهُ بالعمياء! . . .

أيمكنُ الحديثُ عن انتصارٍ دون تكافؤٍ مسبق؟ أيمكنُ اعتبارُ الملاكِم منتصرًا وهو يُسقِطُ خصمَهُ بالضربةِ القاضية، إذا كان خصمُهُ على الحلبةِ مقيّدًا بسلاسل؟ . . .

تُداهم أبا العلاء ومضةُ تخييلٍ عجائبي يرى فيها هذه الشابّة تخلع عينيها من محجريهما، وتضعهما بعناية على طاولةٍ مجاورة، لِترقصَ معهُ فوق ساحة رقصٍ شطرنجيّة، ولِتشاهدَ بعينيها القابعتين فوق الطاولة منظرَها وهي تراقصُهُ بالعمياء بين أحصنةٍ وقلعات وملِكاتِ الساحة! . . .

* * *

ها هما، وجهًا لوجه، يلعبان بدون أيقوناتِ شطرنج، بدون وسيط.

روحان طليقتان ترفرفان يدًا بيد في سماواتٍ مفعمةٍ بظلماتِ ليلٍ بهيم.

دماغان في حربٍ روحيّةٍ حميميّةٍ مباشرة، بيادقُها وملوكُها وضبّاطُها كلماتٌ لا غير! . . .

Twitter: @ketab_n

حربٌ إلٰهيّةٌ تخوضها كلماتٌ ضدّ كلمات!...

يحدِّقُ أبو العلاء في الشطرنجِ القابعِ في مركز دماغه، تُحدِّقُ نور في الجبين البهيِّ لأبي العلاء، ويُحملقُ روّادُ المجلس (بين نظراتٍ زائغةٍ مختلِسة، لا ترتوي من التحديق في جَمال نور) في أوراقِ كرّاساتٍ رسموا عليها ساحةَ شطرنج، يعيدون رسمَه كلّما هَوَتِ القطعُ الرابضةُ أو غيّرتْ مواقعَها عليه!...

المنظر فريدٌ للغاية، إلٰهيٌّ جدًّا، لا يتكرّر!...

يبدأ البطلان بافتتاحيّةٍ تقليديّة، تدومُ سبع نقلات تقريبًا... ثم تنفتحُ المحاور، تتعدّدُ فروع شجرةِ النقلات الممكنة. تزدادُ وتتنوّعُ وتتداخلُ الاختياراتُ المفتوحة: بين سيْطَرةٍ على قلبِ ساحة المعركة، تحصينٍ متينٍ للملِك، طباخةِ مناوراتٍ وحِيَل، تقديمِ أضحياتٍ كاذبة، تلافي السقوط في مطبّات العدوّ، خوضِ «تكسيرٍ» انتهازيٍّ مباغتٍ جميل، أو البدءِ بتنظيمِ هجومٍ مُبرمَجٍ كاسح...

تتعرّى الاستراتيجيّات نقلةً نقلة...

لاحظ الشاعر أنّ مباراتهما تأخذُ مسارَ مباراةٍ قديمة، خاضها قبل عقدين مع هند!... استسلمَتْ هِنْدُ فيها في النقلة الواحدة والثلاثين فيما كانت سيّدةَ الموقف!...

لِنور الآن، وهما في النقلة الرابعة عشرة، موقعُ هِنْدَ نفسهُ في تلك المباراة...

كان بإمكان أبي العلاء، ابتداءً من نقلتهِ الخامسةَ عشرةَ، أن ينحرفَ عن مجرى تلك المباراة، ويبحثَ لها عن مصيرٍ آخر!... ثمّةَ ملياراتُ ملياراتِ المبارياتِ الممكنة!...

Twitter: @ketab_n

لكنّه فضّل أن يستمرّ على نهجِ نقلاتِه التي لعبها مع هند، وإن لم تقُدْهُ حينها إلى نهايةٍ طيّبة (لا تُهِمُّه نتيجةُ المباراة هذه المرّة، بقدرِ ما يُهِمُّهُ أن يمتحن نزوات سلسلةِ هذه الصدفِ العجيبة، المثيرة جدًّا!)... يعي في الحقيقة أنّه يستحيلُ أن تتكرّرَ صدفةُ تطابقِ ردودِ هِنْدَ ونور، من نقلةٍ لأخرى، لأنَّ كلَّ نقلةٍ تفتحُ البابَ لعددٍ هائلٍ من النقلاتِ الممكنة...

بلغ الشاعرُ أوجَ استغرابِهِ وعجبِهِ وهو يلاحظ أنّ نور ما زالت تُكرِّر، حتى النقلة الواحدة والعشرين، نقلات هند نفسها، كأنّها شاعرةٌ تنظم قصيدةً جديدةً نظمتْها، حرفًا بحرف، شاعرةٌ أخرى قبلها بِأكثر من عقدين!...

يعرف أنّ للصدفة في الحياة موقعًا أساسيًّا، لكنّ ما يحدث الآن أمام عينيه (البصيرتينِ أكثر من اللازم) تجاوزَ كُلِّيًّا نفوذَ وطاقات إلٰهِ الصدفة، لِيدخلَ في صلبِ مجالِ واختصاصات إلٰهِ المحال!...

تتقدّمُ المباراة على المنوال نفسه!... يجدُ لذّةً ماكرةً مسكرة في استمرارها كما لعب قبل عقدين، ليس فقط لِرغبتِهِ في مواصلة التلصّص على طقوس وشطحات إلٰهِ الصدفة والوصولِ لِسدرةِ منتهاه، لكن لأنّه يسترجع أيضًا أحلى ذكريات حياته القديمة، نقلةً نقلة!...

تطيرُ ذاكرتُه لأيّام هند، لمباراتهما الأخيرة، ولأُمِّهِ التي لن تتأخّر عن الذهاب لِغرفةٍ مجاورة، لتؤدّي بخشوع صلواتها اللانهائيّة المباركة!...

تجتاحه لوعةٌ مُحرِقةٌ وأشواقٌ حرّى لِسعادةٍ قديمةٍ يستجرُّها منذ عقدين، يعيشُ على قوتِها لا غير!... هي معينُ أوكسجينِ وهرموناتِ حياتِه، كلِّ حياتِه!...

Twitter: @ketab_n

يبدو على سيماء أبي العلاء ما يُشبِهُ الدوخةَ والخَدر. . . تُحدِّقُ نور فيه بِنَهم! . . . ينظرُ نحوهُ أهلُ المجلس باستغرابٍ شديد! . . . يبدو كمن تسكنهُ كتيبةٌ سكرى من شياطينِ الشجَن وملائكةِ الوجدِ العارم! . . .

تواصلُ نور نقلات هند نفسها، وكأنّه تمّ إجراءُ عمليّةٍ جراحيّة بُودِلَ فيها دماغُ هذه الشابّةِ الصغيرة بِدماغِ شابّةٍ صغيرةٍ أخرى كانت تلعب هنا قبل أكثر من خُمس قرن! . . . ثمّة إعجازٌ خارق، أو ثمّة في الحقيقة سرٌّ شديدُ الخفاء! . . .

يواصل أبو العلاء أيضًا نقلاته كما لعبها قبل أكثر من عقدين! . . .

كلاهما يبحث عن كشفِ نقاب نصفِ سرٍّ يُكملُ نصفَ سرِّ الآخر! . . .

تبدو على الحكيم ربشةٌ من نوعٍ خاصّ. يوشكُ أن ينفجر، أن يزأر! . . .

يُهامسُ نور، قبيل النقلة السابعة والعشرين، بسؤالِ حوارِهما القديم:

ـ ما اسمُ أمِّك يا ابنتي نور؟

ـ فاطمة!

ـ أأنتِ متأكّدةٌ من ذلك؟ ألم يكن لها اسمٌ آخر قبل ولادتِكِ؟ . . .

ـ . . .

تقترب المباراة من النقلة الواحدة والثلاثين التي استسلمت إثرها هِنْدُ لسببٍ لا علاقة له بموازين القوى الشطرنجيّة، وإنّما الغراميّةِ الخالصةِ العليا! . . .

ثم تصل المباراة للحظة الحاسمة: النقلة الواحدة والثلاثين! . . .

Twitter: @ketab_n

أمام مجلسٍ عامرٍ مشدوهٍ حدّ الانصعاق، يستسلمُ أبو العلاء!...

انتصرتْ هِنْدُ إذن!...

انتصرتْ بمفعولٍ رجعيّ!...

إذا مات الشاعر يومًا فلن يكون قد نهب أحدًا انتصارًا ما، حقًّا ما، شيئًا ما... لن يكون لهُ دَينٌ في «أمّ دفر» لإنسان!... بإمكانهِ العودةُ إذَن للحياةِ من جديد على كوكبِ الأرض معزّزًا مُكرّمًا مرفوعَ الرأس!...

كان جليًّا لأهل المجلس أنّ أبا العلاء ليس في حالته الطبيعيّة!... تتقاذفُهُ مفاجآت تفوق طاقته، تعصفُ به وتفترِسهُ ذكرياتٌ تصعدُ من فوهات قاعٍ محمومٍ حميم!...

أخرج من جيبِ معطفِهِ منديلَهُ الأبيض، الصامدَ منذ عهدِ صاحبةِ صلوات نهايات الشطرنج.

كان يُدرك، وإن لم ير المنديل، أنّ قطرات دم انطبعتْ بحيويّةٍ عليه، تُخلّدُ لقاءهُ الأوّل بنور... يسترجعُ تفاصيل إطلالتِها على مجلسِهِ قبل عدّة أشهر، يومَ انبزغَتْ تلك القطرات من سبّابته اليسرى، بعد أن تسلّلتْ إليها شظيّةُ قنّينةِ عطرِ العنبر التي سقطت على أرض الحُجرة!...

يستعيدُ، ببهجةٍ ما، كلَّ ما يربطُهُ بِدُنيا المبصرين: ذاكرةَ اللون الأحمر!...

يمسح بمنديلهِ الأثير قطرَتي دمعٍ تتسلّلان بصمت من عينيه الصامتتين!... لحظاتٌ جنائزيّةٌ تُخيِّمُ علىٰ مجلس أبي العلاء!...

يعتذر للجميع: «أحتاجُ للخلوةِ في حُجرتي!»...

يتوجّهُ إليها بعصاه، بخطواتٍ بطيئةٍ صامتة!...

Twitter: @ketab_n

تُحدِّقُ فيه نور بشدّة، تتذكَّرُ أجمل لحظات حياتِها عندما احتضنتهُ بدفء وهو يقول «هل لكَ يا أبا الحسن، هل لك!»، تسترجعُ دموعَ عناقِهما البريء الذي كاد ألّا ينتهي... تتذكّرُ جلسات رواية الغفران، أعظم لحظات عُمرِها!...

تحدِّق فيه بضراوة وهو يتوجّهُ إلى حُجرتِه الخاصّة كجنديٍّ مهزوم... دموعٌ ساخنةٌ تسيلُ في جوفِها، لا يراها أحد!...

يذهبُ نفرٌ من المجلس لِتفَقُّدِ حالِهِ بين الحين والحين. يعودون بالخبر نفسه: لا يريد الحكيم أن يزعجهُ أحد!...

تشعرُ نور أنّ رسالة أمِّها التي طلبتْ منها أن تتركَها لأبي العلاء، في مكانٍ أمين، قبل عودتِها للاذقيّة، هي وحدها التي تستطيع تهدئة النمرِ الحزين المجروح وإخراجهِ من نوبةِ شجونهِ الضارية...

آن الأوان لأن تدُسّها في سلّةِ الرسائل التي تصلهُ إلى المجلس، ليقرأَها له كاتبُه، دون أن يلاحظ أحدٌ أنّها هي من تركتْ تلك الرسالة، وإن كان ثمنُ ذلك أن لا تعود سيّدةُ ملكاتِ الشطرنج للمجلسِ مرّةً أخرى!...

ثم خطر بِبالِ نور (مثل شعورٍ ضبابيّ) أنّها بلا شكّ ابنةُ النقلةِ الحادية والثلاثين من مباراة شطرنج دارت قبل ميلادها بتسعة أشهر، بين أمِّها هند، وأبيها شاعرِ وحكيمِ العربِ الأمجد، سيّدِهم الأعظم: أبي العلاء المعرّي!...

بعد بضعِ خطواتٍ من بابِ بيتِ أبي العلاء، استدارتْ نور للخلفِ لِتُحدِّقَ في البابِ بتشبُّثٍ طويل، ولِتسكبَ آخر حسراتِها دموعًا رافقتها حتى اللاذقيّة!...

Twitter: @ketab_n

٤٦

مناقصة كسرَتْ رُكبةَ الفيزياء!

يقول أبو النزول في «لَحْقَتِه»:

((عزيزي أمينيائيل... تعرفُ كم يعجبني عنوانُ «تقرير الهدهد» الذي اقترحْتَهُ من وحي أسطورةِ «تقريرِ النبأِ اليقين» عن مملكةِ سبأ، الذي كتَبَهُ هدهدُ سليمان بعد رحلتِهِ الاستطلاعيّة إليها!...

مثلكَ تمامًا تُمتِعني فكاهةُ مأدبةِ الجرادة التي استضافَ بها الهدهدُ الملِكَ وجيوشَهُ من الجنِّ والإنسِ والحيوانات والطيور!...

مثلكَ أحببتُ الملكَ سليمان عندما انفجر ضحكًا كطفل: لا يضحكُ كطِفلٍ إلّا إنسانٌ حرّ!...

قادني استذكارُ هذه الأسطورةِ اليمنيّة السحيقة لِنصفِها الثاني (الذي لا يقلُّ خرافةً من العيارِ الثقيل عن نصفِها الأوّل) لكنَّ سُليمانَهُ إنسانٌ آخر، جلّادٌ طاغوتٌ مُريع، يختلفُ عن صاحبِ ضحكةِ النصفِ الأوّلِ من الأسطورة، التي ما زالت أصداءُ قهقهتِها ترقصُ في سماءِ الهلالِ الخصيب!...

Twitter: @ketab_n

بعد أن عرف الملكُ من «تقرير الهدهد» أنّ الملكةَ آتيةٌ إليه (على رأسِ وفدٍ مُدجّجٍ بأروعِ عطورِ الدنيا، وبأفخر اللآلئ والأحجار الكريمة، وبِـ «ثلاثة آلاف غلامٍ وجارية، وُلدوا في السنة نفسها وفي الشهر نفسه وفي اليوم نفسه وفي الساعة نفسها وكلّهم بالهيئة والحجم نفسهما، وجميعهم يرتدون ثيابًا قرمزيّة»، كما يقول التلمود. . .) أراد أن يُحمَلَ لهُ قصرُها جوًّا من مملكة سبأ إلى القدس لِتُفاجأ الملكةُ، عند وصولِها مع وفدِها الملكيّ وكتيبتِها الخرساء، بِرؤيةِ عرشِها الشهيرِ أمامها، عند أقدامِ النبيّ سليمان! . . .

سأل الملكُ «عفريتين من الجنّ» سجينين في قُمقمَين بِجواره: «من منكما يستطيع أن يُحضِرَ لي قصرَها أسرع من الآخر؟»! . . .

مناقصةٌ تاريخيّةٌ فريدة كسرَتْ رُكبةَ الفيزياء! . . .

أجاب أحدُ العفريتين من داخل القمقم: أستطيعُ ذلك، مولاي جلالة الملِكِ المعظّمِ، «قبل أن تقوم من مقامك!». . .

لم يناسب ذلك، بالطبع، ملِكَ عصرِ السرعة، الذي لو عاش فعلاً حينذاك، لما كان لهُ إلّا أن يتحرّكَ على دابّةٍ تحتاج عدّة أيّام لعبور مملكةِ قبيلتِهِ الصغيرة:

عفريتُه هذا بطيءٌ جدًّا، يلزمهُ ردحٌ من الزمن مقدارهُ حوالى ثانية كاملة لِيأتيَ بالقصر إلى حضرة جلالة الملِك! . . .

حكَّ سليمانُ العظيمُ رأسَه! . . .

فكّر بضع دقائق: شعر خلالها أنّه لا يريد إضاعة ثانيةٍ كاملة لإنجاز هذه المهمّة الصغيرة! . . .

دخل في مونولوجٍ دائري، حول عبثِ إضاعةِ كلِّ هذه الثانية، دام لِوحدِهِ بضع دقائق:

Twitter: @ketab_n

ـ ثانية فقط؟ أيصعبُ عليك أيّها الملك العظيم انتظار ثانية؟

ـ نعم، بالتأكيد! ألا ترى أنّ هذا العفريت بطيءٌ جدًّا، من فصيلة جِمالٍ أو سلاحف العفاريت!...

ـ لكنّ القصر سيأتي من بعيد: من أطرافِ مملكةِ سبأ، إلى أرض فلسطين!...

ـ أعرف ذلك، لكنّ العفريت بطيءٌ جدًّا، يحتاجُ لثانيةٍ كاملة!...

ـ ثانيةٌ فقط، ثانية لا غير! قليلاً من الصبر يا جلالة الملك المعظّم!...

ـ لا يُمكن، هذا العفريتُ كسولٌ، بطيءٌ جدًّا، يحتاجُ لثانيةٍ كاملةٍ!...

ـ قليلاً من الشفقة والعطف يا جلالة الملك!

ـ كلّا! يلزم الكثير من الجبروت! ستضيع من حياتي عبثًا ثانيةٌ كاملة بانتظار وصول العرش!...

ـ ثانيةٌ فقط، لِوجهِ الله!...

ـ لا يُمكن، لا يُمكن، لا يُمكن! الوقتُ من ذَهب!...

ـ ثانية يا راجل، ثانية وبس، الله يخلّيك!...

ـ للمرّة المليون: لا، ثم لا، ثم لا!...

ـ ضاعت دقائق منذ بدء هذا المونولوج! ألا تستطيع إمهال العفريت مدّة ثانية؟

ـ لا، ثم لا، ثم لا! الملك الجبّار سليمان لا يتراجع عن قراراته!...

Twitter: @ketab_n

ـ. . .

بعد عدّة جولات من هذا المونولوج السليماني الشهير تمتم الملك أخيرًا: «بوووووووف!». . .

خسر العفريتُ المسكينُ المناقصة!. . .

باي باي!. . .

لا مفرّ لهُ من القمقم حتى نهاية الأبديّة!. . .

أجاب العفريتُ الثاني الذي يعرفُ تحريكَ طائرتهِ النفّاثةِ، حاملةِ القصور، بوقودِ «عِلم الكتاب» (الذي لا يُصنَعُ في مختبرٍ كيماويٍّ، لا يُلوِّثُ البِيئة، ولا يُباعُ إلّا في بعض محطّات بنزين الجنِّ والعفاريت وأمِّ الصبيان):

ـ أستطيعُ ذلك، مولاي جلالة الملِك، «قبل أن يرتدَّ إليك طرفُك». . .

قَالَ يَأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ.

قبلَ الملكُ المتبخترُ عرضَ العفريتِ الثاني الذي فاز بالمناقصة!. . .

أو بالأحرى لم يجد الملِكُ الوقتَ الكافي لِقبول العرض أو رفضِه، أو حتى التفكير به:

١) خرجَ العفريتُ، الذي عمل دراساته العليا في فيزياء «علم الكتاب» في إحدى أرقى جامعات العفاريت، من القُمقم،

Twitter: @ketab_n

٢) طار حوالى ٣٠٠٠ كيلومتر نحو مملكة سبأ،

٣) اجتثَّ القصرَ من الأرض،

٤) طار به وبكلِّ من يسكنُهُ ٣٠٠٠ كيلومتر في الاتّجاهِ المعاكس،

٥) تجشَّعَ في طريق العودة جشعةَ نَصْرٍ رعدِيّة، ملأت سماءَ اليمن ونجد والبتراء حَمَامًا أرجوانيًا راقصًا،

٦) تذكَّرَ بِسخريةٍ رفيقَهُ العفريتَ الخاسر الذي يعتقدُ مثل طالبٍ في المدرسة أنّ «مقدار السرعة يساوي طول المسافة مقسومةً على كمّيّة الزمن»، نفثَ باتّجاههِ روائحَ وَرَكيّة ملأت سماءَ اليمن ونجد والبتراء غيومًا متخنَةً بالديزل،

٧) ثم حفر حُفرةً كبيرةً مساحتها أكبر من كيلومترٍ مربّع، بيدِه اليمنى، ثبّتَ فيها القصرَ (الذي كان يحملهُ بِطرف سبّابةِ يدهِ اليُسرى) قُربَ أقدام الملِك، وكأنّهُ شُيّدَ هناك لأوّلِ مرة،

٨) رقصَ بعدَها رقصةً ورَكيّةً صغيرةً ارتعش خلالها شطرًا خاصرتِهِ الرمليّة الثخينة، بِتذبذبٍ سرعةُ تردُّدِهِ مليارُ مليارِ مليارِ رعشةٍ في الثانية،

٩) دوّى: «واااااو!» بِصرختٍ تردّدتْ أصداؤها من جبال الهملايا إلى جبال الألب! . . . مؤشّرًا بسبّابةِ يدهِ اليسرى التي حملت القصر، بِحركةٍ عموديّةٍ غوغائيّةٍ بذيئة، في اتّجاه آينشتاين الذي سيثبتُ بعد ٣٠٠٠ سنةٍ أنّ ذلك مستحيلٌ لأنّ المادّة تتحوّل إلى طاقة عندما تهرعُ بهذه السرعة،

كلُّ ذلك قبل أن يرتدَّ طرفُ الملك سليمان، في أقلّ من رمشة عين!

أي: في أقلّ من عُشرِ عُشرِ عُشرِ الثانية تقريبًا! . . .

Twitter: @ketab_n

رعدٌ من تصفيقِ عفاريتِ وجنٍّ وملائكةِ الأكوان الظاهرة والباطنة خرجَ من أمعاءِ الأبديّة لِيملأ عنان السماوات السبع والسبعين بروقًا وصواعق و«شُهبًا ترجمُ الجنّ بكواكب محرقات» لأنّهم استرقوا السمع لِتصفيقِ الملائكة!...

ذُهل الملك وهو يرى قصرًا جدرانهُ من اللآلئ المطحونة، وكلّ بلاطهِ من الذهب الخالص، تتفجّرُ الروائحُ العطريّةُ المُسكرةُ بالفطرة من كلِّ أرجائهِ على الدوام!...)).

تنهّد أبو النزول طويلاً قبل أن يضيف:

((زمنٌ عجيبٌ، عزيزي أمينيائيل، ذلك الذي كانت الطيور تقرضُ أثناءه الشعر، وتتحدَّثُ ببلاغةٍ رفيعة. تمتلكُ بِسببِ ذلك أدمغةً بِحجمِ دماغ الإنسان، مشحونةً بمناطقِ اللغة. دون الحديث عن النملِ الذي كانَ يتحدّثُ أيضًا مستخدمًا آخر صرخاتِ المجاز وأجمل الاقتباسات الأدبيّة والاستعارات المكنيّة، ويَمتلِكُ هو الآخرُ أدمغةً بِحجم دماغِ الإنسان!... كانت العروشُ تطيرُ أيضًا (وتتحدَّثُ، هي الأخرى، من يدري؟ بِلغةِ مُنكر ونكير) على طائراتٍ نفّاثةٍ أسرع من أيّة طائرة حربيّة بملايين المرّات!... كانت النساء تغتصبُ الرجال أيضًا!...

يا لهُ من زَمَن!... عجبي!...

لا تستغربْ بعد ذلك، حبيبي أمينيائيل، إذا كان كثيرٌ من بشرِ العالَمِ العربيّ يعتقدون أنّه يمكن أن يوجد، إذا أراد الله، مثلّثٌ قائم الزاوية، على سطحٍ أفقيّ، مربّعُ وترهِ لا يساوي مجموعَ مُربَّعي الضلعين الآخرين، مُعاكسًا بذلك نظريّة فيثاغورس في الهندسة الإقليديسيّة!...

لا أعرف كم نسبة هؤلاء البشر من عدد السكّان بالضبط! لكنّي أظنّ أنّها كبيرة جدًّا. أعِدُكَ، عزيزي أمينيائيل، بأنّي سأحسُبها لكَ بِدقّة،

Twitter: @ketab_n

في فصولٍ قادمةٍ من تقريرِ الهدهد، لأنّكَ تعرفُ جيّدًا مدلولَ هذه النسبة! . . .

المجدُ والخلودُ لِفيزياءِ «الكتيبةِ الخرساء»!

المجدُ والخلودُ لِموتِ العقليّة العلميّة!

المجد والخلود للعِلم الذي يشتغلُ «راقصة كاباريه» في ملكوتِ الكهنة! . . .)).

استرسل أبو النزول في لحقتِهِ التاريخيّة:

((ثم أمرَ الملِكُ أن يُمرَّدَ مدخلُ القصرِ (قبل وصولِ الملكة) بكريستالٍ صقيلٍ شفّافٍ جدًّا لا تراهُ جلالتُها، يسيلُ أسفلَهُ جدولُ ماء، لتضطرَّ التي «أوتيتْ من كلِّ شيء، ولها عرشٌ عظيم»، ملكةُ بلادِ العطور، التي لم (ولن) توجد يومًا امرأةٌ بِجمالِها، أن ترفعَ قليلاً من فستانِها خوفًا من أن تتبلّل أطرافه، وتكشفَ هكذا عن بيت القصيد ومربط الفرس: ساقَيْها البديعَتين!

(بلطجيّةُ وتلصُّصيّةُ الملوكِ كريستاليّةٌ جدًّا!). . .

بدأ، حال وصولِها، هذا الحوارُ التاريخيُّ الشهير، البديعُ جدًّا:

سألها الملِكُ (بنوعٍ من الاستهبالِ المتعالي، وكأنّ مجرّدَ تمريدِ مدخلِ القصر بالقوارير يُغَيِّرُ شيئًا من معالِمِه) رافعًا أحدَ حاجبيه بضعة سنتيمترات:

ـ «أهكذا قَصْرُكِ؟». . .

رقصتْ لمعةٌ ضاحكةٌ صغيرةٌ في عينَي مِلكة سبأ المُكحّلتين الزرقاوين الواسعتين ذاتي البريقِ الذي أسالَ شهوةَ الأبديّة! . . .

ابتسمتْ جلالتُها ابتسامةً أنيقةً خفيفةً ذكيّةً حاذقةً جدًّا (بِقناعٍ بريءٍ

Twitter: @ketab_n

ساذج) تماوجتْ معها جدائل شَعرِها الليليّ العَطِر!. . .

سوَّتْ بأطراف أصابعها بعض ضفائرها الهاربة بحركةٍ مثيرةٍ آسرة أجْلَتْ جمالَ ذراعِها الذي خُلِقَ للتمسيد والقُبَل، ورشاقةَ كتفِها العطِرةِ المضيئة العاريةِ الرقيقة الذي خُلِقَت للاستنشاقِ والعناق، وبشرتَها الأسيلة الأكثر بياضًا من إبطِ الجوزاء!. . .

ثم ردّت الشابّةُ الحسناء بِغنجٍ ودلالٍ لا يخلوانِ من استهبالٍ فطين، رفيعِ البلاغة، جميلِ الألمعيّة، أرقى بكثيرٍ من سؤالِ الملكِ الفجّ:

ـ «كأنّهُ هوَ!». . .

آه، كم أذوبُ إعجابًا، عزيزي أمينيائيل، بروعةِ ردِّ سيّدةِ البلاغةِ الخالدة، حبيبتي بلقيس!. . .

قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ. فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. . .

فديْتُكِ أبدًا حبيبتي بلقيس!)). . .

فديتكِ أبدًا ملِكتي بلقيس، أنا أيضًا، إذا سُمِحَ لي أن أدسَّ كلمتين في نصِّ أبي النزول!. . .

يواصلُ أبو النزول:

((وقعَتْ صاحبةُ أفتنِ كوعٍ وأجملِ ساقٍ في تاريخِ البشريّة في الفخِّ:

كشَفتْ عن ساقَيْها العطْريّتين لِتعْبُرَ الجدول: لم تُلاحظْ طبقةَ الكريستالِ العازلِ الصقيلِ الشفّافِ الرقراقِ النقيّ الذي يُغطّي سطحَ الماء!. . .

Twitter: @ketab_n

نجحتْ مؤامرةُ المِلِك المخاتل (الذي كان فحلاً ممحونًا بالنساء: له ٧٠٠ زوجة و٣٠٠ عشيقة، حسب التوراة)! . . .

الملكةُ ليست كاميرياء! . . .

هي إنسانةٌ خالصةٌ، خالصةٌ جدًا، خالصةٌ جدًّا جدًّا جدًّا! . . .

بقيّةُ القصّة، التي خدَّرَتْ مخيّلةَ الفنّ وأسالتْ لعابَ البشر، انتهتْ في سريرِ عرشِ الملكة، كما يستنتجُهُ الجميع! . . .

نعم، عزيزي أمينائيل! لا أحبُّ النصفَ الثاني من هذه الأسطورة لِمليون سبب:

لم يُقدَّمْ هذا النصفُ في الدين كمجاز: هذه الأسطورة التوراتيّة التلموديّة العجائبيّة التي تتحدّثُ عن ملكٍ خرافيٍّ يُكلّمُ الحيوانات والشياطين، جاءت إليهِ مِلكةٌ خرافيّة، مزيجٌ من أساطير مركّبةٍ يعتبرُها الجميعُ تقريبًا، في أرض العرب والإسلام، حدثًا تاريخيًّا! . . .

(فلفلَتِ الميثولوجيا الإسلاميّة، كما قلتُ لك، هذه الأسطورة التوراتيّة بتوابل القصر الذي حمله العفريت، و«بَسْبَسَتْها» الأساطير اليمنيّة بِمأدبة الجرادة العامرة!) . . .

الإيمانُ، عزيزي أمينائيل، بهذه القصّة الغرائبيّة كحقيقةٍ تاريخيَّة استخفافٌ بالتاريخ (مدموزيل بلقيس، ملكة سبأ، شخصيّةٌ أسطوريّةٌ خالصة، لسوءِ الحظّ! مثلها مثل الملك سليمان، كما يجمعُ الأركيولوجيّون دون استثناء!).

استخفافٌ بِعلومِ الأحياء (آه، النمل والطيور التي كانت تُجيد النحو والصرف وتعشقُ المجاز والبلاغة عشقًا!).

استخفافٌ بِعلومِ الفيزياء (آه، هذا القصر الذي انتقلَ بما يقاربُ

Twitter: @ketab_n

سرعة الضوء من مملكة سبأ لفلسطين!... مسكينٌ صديقي العزيز آينشتاين الذي أصبح بسبب ذلك مُهرِّجًا يخترعُ نظريّات خاطئة!... أَمَا كان عليهِ أن يقولَ (لِيكونَ قانونُه العلميُّ صحيحًا!) إنّ «المادّة عندما تتحرّكُ بِسرعة الضوء تتحوّل إلى طاقة، باستثناء قصر الملكة بلقيس الذي حملهُ العفريتُ الثاني للملك سليمان!»).

استخفافٌ بالجغرافيا.

بالمنطق، وبكلِّ شيءٍ يحترمُ العقلَ تقريبًا!...)).

* * *

مثلُ أبي النزول أحبُّ هذه القصّةَ كنصٍّ سردي، أنا أيضًا (إذا سُمِحَ لي أن أدسّ كلمتين إضافيّتين في «لحقتهِ» الطويلة).

أحبُّها كَمجاز،

كمجازٍ فقط،

كمجازٍ أيّها الإخوة المواطنون،

كمجازٍ إخوة العروبة والإسلام،

كمجازٍ أيّتها الرفيقات والرفاق،

كمجازٍ أيّتها الصديقات والأصدقاء،

كمجازٍ سيّداتي، آنساتي، وسادتي،

كمجازٍ إخوة العِلمِ والفكرِ والمعرفة،

كمجازٍ يا شغّيلة العالم وعُمّالَه،

كمجازٍ يا أبناء الكوكبِ الأزرق!...

أعشقُها عشقًا!...

Twitter: @ketab_n

لها جَمالٌ خفيٌّ لا أستطيعُ وصفَه، يخترقُ الدهور!...

الجمالُ يضخُّ من مؤامراتِها، من تلصُّصاتِها، من كَعبِها، من عرشِها، من مبالغاتِها فوق الخياليّة، من حوارِها، تهديداتِها، فكاهتِها... يطفحُ ويتدفّقُ من كلِّ حرفٍ فيها!...

لكن، سامحوني جميعًا: أعشقُها كمجازٍ لا غير!...

* * *

أردفَ أبو النزول:

((الملكُ سليمان، الذي أحببتُهُ عندما انفجر ضحكًا في النصف الأوّل من الأسطورة، سقط من عينيّ تمامًا وهو يتحوّلُ ساديًّا يُهمُّهُ تعذيبُ الهدهد «تعذيبًا شديدًا»، أو ذبحُه!:

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ. فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ.

أرتجفُ عندما أسمعُهُ يقول: «لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ»!...

التأمّلُ في هذه الكلمات الأربع التي تُرتِّلُها الأجيال دون تعليق، دون اشمئزاز، دون إدانة، بكلِّ خشوعٍ وإعجاب (أجْرُ تلاوةِ كلِّ حرفٍ من أحرفِها الـ ٢٦ حَسنَة، والحسنةُ بعشرةِ أمثالِها: ٢٦٠، ٢٦٠٠، ٢٦٠٠٠... وهلمّ ثراءً وحسنات!)، منذ حوالى أربعة عشر قرنًا، يحتاج وحدهُ مؤتمرًا لكتيبةٍ من علماء النفس والاجتماع! لِألفِ دراسة!...

أعتقدُ شخصيًّا أنّه يلزم أن لا تصلَ هذه الكلمات الأربع لِمسمعِ

Twitter: @ketab_n

صبيّ، إذا أردنا أجيالاً لا تُهيَّأُ ثقافيًا، من المهدِ، للانتماء لِلكتيبة الخرساء؛ لا تُصابُ بالشللِ الفكريّ منذ الطفولة؛ لا تُربّى على قِيَمِ الاستبدادِ والتعذيب والذبح وتمجيدِ الطاغية (والعملِ في حاشيته كهداهد مُخبرِين لا أكثر)!...

لا أحبّ النصفَ الثاني من هذه الأسطورة التي يتحوَّلُ الملِكُ فيها تلصُّصيًّا أيضًا، يُهِمُّهُ رؤيةُ ساقِ شابّةٍ جميلة تحلُّ على ديارِهِ حاملةً له أجمل عطورِ الأرضِ وبخورِها، عاتيًا نفْعيًّا لا يُحرِّرُ سجناءَهُ إلّا إذا حقّقوا، بِمقْدِراتٍ فوق خارقة، رغباته السيرياليّة الطائشة التي تتجاوزُ كلّ الحدود!...

لا أحبّ هذا النصف الثاني لأنّه يحوّل إنسانًا من لحمٍ ودم إلى أيقونةٍ بِحجمِ إله!...

ومع ذلك أعشقُ جمالَ هذه الأسطورة كلَّ العشق! يمرُّ فيلمُها أمام عينيّ كلّ يومٍ تقريبًا!...

لا أدري لماذا أتخيّلُ دومًا، بطريقتي الخاصّة، ملِكتي بلقيس وهي:

تقتربُ بخطواتٍ آسرة واثقة من صرحِ الكريستال...

تتقدّمُ نحو القصر بكبرياءِ عظمتِها وجمالِها اللدُنيّ،

بِجسدِها الممشوقِ الطويل الفخور جدًّا بمقاييسهِ الساحرة التي لا تملُّ العين التحديق به،

بِفستانٍ ورديٍّ أبيض لا يُضاهي روعتَهُ وفتنتَهُ وثراءَه فستانٌ، صمّمَهُ فريقٌ من أبدعِ مصمّمي الأزياء في العالَم،

على إيقاعِ السيمفونيّةِ التاسعةِ لِبيتهوفن،

Twitter: @ketab_n

قبيل غروبِ الشمس تحديدًا (غروب الشمس أرقُّ لحظات اليومِ وأكثرُها رومانسيّةً وملاءمةً لِنهايةِ مباراة شطرنج مع معبودةِ العُمر)،

بعد أن يكون الملِكُ قد انحنى قرب بابِ القصر حال رؤيتِها تتّجهُ إليه،

قبَّلَ يدَها ومعصمها وساعدها وذراعها، سَبع قبلات، بكلِّ كياسةٍ وإعجابٍ وعشق،

انحنى أمامها برشاقةٍ مرّةً ثانيةً وثالثة،

فتح لها باب قصرِها بكلِّ لهفةٍ وغرامٍ وشهوةٍ وشبَق،

يتوجّهُ بعد ذلك معها نحو العرش (رائحة الورد والفلِّ تغمرُ أرجاء الغرفة)،

يدعوها بعد ذلك لِرقصةٍ لن تكتمل إلّا في صباح الغد، على إيقاعِ موسيقى رومانسيّةٍ تشعلُ الروحَ والجسد،

على منضدة بلكونتهما المطلّةِ على البحر طبقٌ من محارات «الويتر» وفواكهِ البحر النادرة، وباقةٌ من أندرِ وألذِّ فواكهِ القوقاز والغابات الاستوائيّة الأفريقيّة والأميركيّة والآسيويّة، كلُّ فاكهةٍ منها أكثر احمرارًا من الأخرى،

قرب سريرهما منضدةٌ من اللؤلؤِ عليها كثيرٌ من سيجار كوهيبا، بضعُ قنّينات شمبانيا «الشكلى كليكو»، وتُحفُ قِطعٍ من الشوكولاتةِ لا تُصنَعُ إلّا لِملوك!. . .

رائحةُ اللذّةِ تتدفّقُ من كلِّ مكان!)).

استرسل أبو النزول بعد دقائق فقط:

((تثيرُ فيّ هذه الأسطورة، عزيزي أمينيائيل، تأمّلات إضافيّة: لماذا لم. . .)).

Twitter: @ketab_n

قاطعَهُ أمينائيل بإس إم إسٍ مفاجئ، لا يخلو من قلقٍ مكتوم:

((أضفْ ما تحبّ، كما تحبّ، عزيزي أبا النزول! لا تريد منك دواوين ومكاتب دراسات السماء ٧٧ أكثر من ذلك، لو تكرَّمْت!...

أنت الآن تتقدّمُ في الأعماق!...

رجاءً، حبيبي، لا تتوقّفْ عن بعثِ مثلِ هذه الإس إم إسات التي تحومُ بؤرُها الضوئيّة في جذورِ المأساة، بِجَمالٍ خالص!...

رجاءً!

رجاءً!...)).

استأنفَ أبو النزول:

((تثيرُ فيّ هذه الأسطورة، عزيزي أمينائيل، تأمّلات إضافيّة:

لماذا لم تَرِد قصّةُ الجرادةِ في النصفِ الأوّلِ منها، الإنسانيِّ جدًّا، في كتب السماء (بدلاً من هذا النصفِ الثاني التلصُّصيّ المستبِدّ، أو بجانبِهِ على الأقلّ) لِنسمعَ ضحكةَ الملك سليمان وهي تخترقُ الزمن؟...

لماذا هذا العداءُ الشرس، في الميثولوجيا الدينيّةِ العبوسةِ القمطريرةِ دائمًا، للمرَحِ والفكاهة (أحلى ما أنتجتهُ الطبيعة الإنسانيّة!) ولماذا هذا الاحتفالُ الداكنُ الدائمُ فيها بالتعذيبِ والنيران الموصدة؟

ألا يلزم محاكمةُ هذا الملكِ، صاحبِ «لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ» ولو بمفعولٍ رجعيّ؟...

كيف يمكنُ لثقافةٍ أن تتقدّمَ إلى الأمام دون إعادةِ النّظَرِ بِجلّادٍ كهذا؟

لم أسمع صوتًا واحدًا يُدِينُ ساديّته التي تتأرجحُ بين الذبح

Twitter: @ketab_n

والتعذيب الشديد، منذ أن رَتّلت مئاتُ الملايينِ من البشر هذه القصّةَ بخشوعٍ وتقديس!

لا يوجد طفلٌ صرخ: «هذا الرجلُ معتوهٌ ظالمٌ دمويّ!» حال سماعهِ هذه القصّة! . . .

لماذا تضاعفتْ في ثقافةِ كهنةِ الإسلام ملَكاتُ الملِك سليمان (الذي خلقتهُ الديانةُ اليهوديّة ملِكًا فقط) ولماذا ازدادت سلطتاهُ الأرضيّةُ والميتافيزيقيّة معًا في الإسلام ليتحوّل نبيًّا وملِكًا في الوقت نفسه؟ . . .

أبريءٌ جدًّا هذا «التطوّر والانتقاء» أثناء إعادةِ صياغةِ القصصِ الدينيّة، من دِينٍ لِدِين، الهادفِ لِمزيدٍ من الربط بين الدِّيني (النبي)، والدنيَويّ (الملِك)، لمزيدٍ من مزج سلطةِ المستبدِّ والطاغيةِ بِسلطة الدِين، لِمزيدٍ من تقهقرِ العقلِ وانتصارِ الخرافات؟ . . .

أثمّة مهمّةٌ أقدسُ من الفصلِ الكلّيِّ بين هذا التاريخِ الدينيّ والتاريخ، بين هذه الفيزياءِ الدينيّة والفيزياء، بين هذه البيولوجيا الدينيّة والبيولوجيا، بين «عِلم الكتاب» والعِلم، بين مجتمع «الشرعِ الذي يُعبَدُ» ومجتمعِ «القياسِ الذي يُحرِّر»، بين مجتمعِ الحاكمِ الجلّاد الذي يُشرِّعُ لهُ الفقيه ومجتمعِ القانونِ والمؤسّسات المدنيّة والحرّيّة المفتوحِ على الحضارةِ والمستقبل؟ . . .

سأتوقّفُ الآن موقتًا! . . .

دعني أشكركَ كثيرًا من القلب، حبيبي أمينيائيل، على اختيارك عنوان «تقرير الهدهد» لهذه المهمّة! . . .

لأنّ قصّةَ هذه القصّة، التي يؤمن بأنّها حقيقةٌ تاريخِيّة كثيرون في بلاد العرب، رمزيّةٌ جدًّا، متعدّدةُ الأبعاد والدلالات! . . . لا أعرف مقدار نسبتِهم من عدد السكّان بالضبط، لكنّي أعتقد أنّها كبيرةٌ جدًّا.

Twitter: @ketab_n

أعدك في كلّ الأحوال بإحصائها بِدقّة، في فصولٍ قادمة من هذا التقرير!...

لو تجرّأ أستاذُ فيزياءٍ واحدٌ في مدرسةٍ ابتدائيّة بأن يقول لطلّابه إنّ هذه القصّة أسطورةٌ من العيارِ الثقيل، أو لو قال لهم على الأقلّ إنّ ذلك مستحيلُ الحدوثِ لأنّ النملَ والطيورَ لا تتكلّم، «لَعذّبوهُ عذابًا شديدًا، أو لَذَبَحُوه»، ومع ذلك يؤسفني أن أقول إنّ دراسةَ الفيزياءِ والبيولوجيا في المدرسة غير ممكنة في ظلّ اعتبار مثل هذه القصص حقائق، في الوقت نفسه!...

لأنّ علوم الفيزياء والبيولوجيا تتحوّلُ حينها إلى وصيفةٍ للشعوَذة، وماسحةِ أحذية للظلاميّين، لا أكثر أو أقلّ!...

تاريخُ العِلم سلسلةٌ من اللاءات المقدّسة، وليس «نَعَمًا» عاهرةً في سوقٍ للنخّاسين!...

إلى إس إم إسٍ قادم، لا أعرفُ متى!...

أسمعُ حاليًّا ابنتي نور تزغردُ جوعَها!

أراها بأمِّ عينيّ تبحثُ عن نهدِ هِنْدَ التي تنامُ وهي تصغي لِشهيقِ وزفيرِ نور، تفتحُ نصفَ عينٍ بلا وعي، حالَ سماعِ ارتفاعٍ أو انخفاضٍ صغيرٍ في تموّجات تَنَفُّسِ ابنتِنا الصغيرة!...

كم افتقدتُ هذه اللحظة طوال حياتي الأرضيّة الأولى!...

كم افتقدتُ هِندا!...

كم افتقدتُ نور!...

تعرف جيّدًا، عزيزي أمينيائيل، أنّي وافقتُ على العودة إلى «الفانية» لهذه اللحظة، ولها فقط!

Twitter: @ketab_n

أريدُ الآن أن أتوقّف فيها دهرًا بلا نهاية!...

إذا كان لك أن تتذكّرَ، حبيبي أمين، شيئًا واحدًا من يوميّات رحلة «تقرير الهدهد»، فتذكّرْ أنّ آخر إس إم إسٍ وصلكَ منّي وأنا أحدِّقُ بِنهدِ حبيبتي هند وهي تُرضِعُ أروع جناياتنا، نورا!...

آه، كم افتقدتُ هذه اللحظة طوال حياتي الأرضيّة الأولى!)).

* * *

كم أفتقدُها حاليًّا حبيبي أبا العلاء (إذا حقَّ لي أن أدسَّ كلمتين في نصِّ أبي النزول)، أنا أيضًا، آخر أحفادِك الذي يريدُ طفلاً من لمياء بأيّ ثمن!...

أفتقدها بِجنون لا تتصوّره، مثل معشوقتي التي لا تتمنّى معي الآن إلّا أن «نجنيَ على أحد»، قبل فواتِ الأوان، لئلّا أكونَ آخرَ أغصانِ شجرةِ سلالتك!... أي لئلّا أكون سببًا في موتِ العقلِ العربي إلى الأبد، ومسؤولاً عن نحسِ شعوبِهِ وخروجِهم من التاريخ، كما تفترض أحيانًا من توشكُ أن «تديرَ ظهرَها للكثيب» بين الحين والآخر، أمّي الغالية الحبيبة، نوال التنّوخي!...

أفتقدها بِألَمٍ يُمزِّقني وأنا أرى لمياء، التي تتلوّى حاليًّا بين أحضاني، تغمضُ عينيها، تُرتِّلُ بِيأسٍ دعواتٍ كثيفةً صامتةً لآلهةٍ غير مكترثة، تتوَسّلُها أن تعطي الضوءَ الأخضرَ لِيتعانقَ أوكسجينها بهيدروجيني، لتتشكّلَ في محبلِها بذرتُنا التي نحلم بها منذ زمن!...

لا أستطيعُ أن أتخيّل (في هذا الفجرِ الدائخِ لِعام ٢٠١٠ الذي بدأ عكس توقّعاتي تمامًا) حجمَ دموعِ فرحتَيْ لمياء ونوال، لو تحقّق هذا الحلم الذي يوشك جادًّا، لسوءِ الحظّ، أن لا يتحقّقَ يومًا!...

بدأ عام ٢٠١٠ فعلاً عكس توقّعاتي في كلِّ شيء:

Twitter: @ketab_n

١) صحوتُ متأخّرًا جدًّا . . .

٢) لم أذهب لإحضارِ الفطورِ وتهنئةِ الخبّاز والجدرانِ والجليدِ بالعام الجديد، كما برمجتُ الليلةَ الماضية! . . .

٣) اشترتْ لمياءُ الفطائر والكرواسان و«الأجينييت» وخبز القرية وأشياء كثيرة أخرى، وأعدَّتْ، هي نفسها، القهوةَ كما تحبُّ وأحبّ! . . .

٤) سألتني لمياء (بعد الفطور الذي تناولناه في السرير):

ـ نمتَ مضطربًا جدًّا هذه الليلة، داهمتكَ كوابيس غريبة كما يبدو؟!

ـ بالعكس، نمتُ جيّدًا كما يلزم! كانت ليلةً هادئة، رائعةً بحقّ! . . .

ـ غريبٌ جدًّا، تصبَّبتَ عَرَقًا أكثر من مرّة، كأنّكَ كنتَ في إسراءٍ ومعراج! . . .

(لعلّها تقصدُ حكاية السيّدة عائشة رضي الله عنها التي كانت تقول إنّ الرسول لم يغادر السرير للإسراء والمعراج. «أسْرِيَ بِروحهِ فقط»! . . . كانت رؤيا روحيّة في ليلةٍ تصببَ فيها جسدُه عَرَقًا أثناء حلمٍ لا حلمَ بِمصافِّه!) . . .

أجبتُ:

ـ لم أشعر بسخونةٍ ما، لأتصبّبَ عَرَقًا. نمتُ بارتياحِ كَطِفل، كما قلتُ!

ـ كنتَ مع ذلك في حالةِ هذيان، تردّدُ أسماء سمعتُها لأوّل مرّة: أمينيائيل، تقرير الهدهد، ن. س. ، الأعلى جدًّا، السماء ٧٧، هند،

Twitter: @ketab_n

هند، هند، نور، نور، نور، نور، نور!...

ـ لا تعني لي شيئًا هذه الأسماء حبيبتي!... إذا كان قد صدر منّي صوتٌ هذه الليلة فلا يمكنه أن يكون إلّا مواء قطٍّ سعيد!...

ـ كنتَ أيضًا تصرخُ مرارًا: «أريد أن أغادر الحُلم»!...

ـ أكرّر حبيبتي: كانت ليلةً بدون حلم، نمتُ طوالها حقًّا كقطٍّ سعيد!...

ـ يبدو أيضًا أنّك كنتَ في لحظةٍ ما في حُلمٍ داخل حُلم! خرجتَ من الحلمِ الداخليّ كما يبدو، وأنت في مقهى البيج بونج!...

ـ غريبٌ جدًّا ما تقولين: لا أتذكّر إطلاقًا أنّي حلمتُ ذات يومٍ أنّي كنتُ في «البيج بونج»!...

ـ كنتَ تخاطبُ فيه فتاةً اسمها ل. هـ.، ساعدَتك كما يبدو بالخروجِ من الحلم الداخلي!...

صمتٌ حلزونيّ!...

استأنفتْ:

ـ ما هذه الأسماء السرّيّة؟ من هي ل. هـ.؟ ما هذا الحلم المتعدّدُ الطبقات؟...

ـ لا أعرف أحدًا بِهذين الحرفين!...

ـ أمتأكّدٌ أنّكَ لا تُخفي عليّ شيئًا ما؟...

ـ عفوًا، لا أفهم!... ماذا يمكنني أن أخفي عليكِ، قلبي؟...

ـ حسنًا، أظنّ أنّك تحتاجُ لِكأس قهوةٍ لتصحو كما يلزم، حُبّي!...

Twitter: @ketab_n

ـ أحتاج لِكتيبةٍ من كؤوس القهوة، حياتي!...

ـ آه، أتذكّرُ الآن: كنتَ أيضًا تتحدّثُ في إحدى طبقات أحلامِك عن «الكتيبة الخرساء»! ما هي هذه الكتيبة؟...

ـ لا أتذكّر أنّي عشتُ في هذه الليلة مثقال ذرّةٍ من حلم، كما قلتُ لكِ أكثر من مرّة!...

ـ حسنًا، حسنًا حبيبي!...

ثم أردفتْ:

ـ لا تنس وعدَ الليلة الماضية: وعدْتني بأنّك ستبدأُ كتابةَ روايتك التي ستُعيدُ فيها أبا العلاء إلى الحياة!...

ـ أتذكّرُ الوعد تمامًا، سأبدأُ بالتفكيرِ الجادِّ بها اليوم حتمًا، كما وعدتُكِ حبيبتي، بعد الفطورِ وكتيبة كؤوس القهوة مباشرة!...

لم أقل لها إنّي أنهيتُها الآن!...

فرنسا

٢٧ ديسمبر / كانون الأوّل

١ يناير ٢٠١٠ (كانون الثاني)

Twitter: @ketab_n

ما إن وصل أبو العلاء المعرّي ذات يوم إلى «مقهى الكوكبة»، في السماء السابعة والسبعين، حتى استلم إس إم إسًّا من أمينيائيل، مدير مكتب «الأعلى جدًّا»، يطلب فيه بأدبٍ من أبي العلاء الهبوط إلى الأرض من جديد لكتابة تقريرٍ عن أوضاعها الحاليّة الغامضة، لا سيّما عن أحوال بلاد العرب التي عجز أمينيائيل والأعلى جدًّا عن استيعابها.

رفض أبو العلاء العودة إلى الأرض التي لم يُكنّ لها في حياته الأولى غير السأم والنفور.

لجأ أمينيائيل إلى مناورةٍ عبقريّة قادت أبا العلاء إلى طالبته الساحرة اللذيذة ومعشوقته الخالدة، هند، وإلى فلذة كبدهما ذات الذكاء الخارق والجمال الأوحد: نور.

حبيب عبد الربّ سروري روائيّ يمنيّ يعيش في فرنسا حيث يعمل بروفيسورًا في علوم الكومبيوتر. صدرتْ له عن دار الآداب ثلاثيّة روائيّة: دملان، وعرق الآلهة، وطائر الخراب.

تصميم الغلاف ريم الجندي

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-223-8